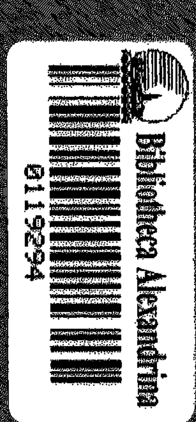




الأعمال المجهولة لمي زيادة

تحقيق: د. جوزيف زيدان
تقديم: غـــادة السـّـمان

CULTURAL FOUNDATION-UAE

●● المحقق

د. جوزيف توفيق زيدان

- باحث فلسطيني .
- دكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة بيركلي - ١٩٨٢ .
- يعمل حاليا أستاذاً للأدب العربي بجامعة ولاية أوهايو في كولومبس .
- صدر له كتاب «مصادر الأدب النسائي في العالم» ١٩٨٦ ، وكتاب عن الرواية النسائية العربية عنوانه (Arab Women Novelists: The Formative Years and Beyond) عام ١٩٩٥ .
- له تحت الإعداد دراسة عن تأصيل الشكل الغربي للمسرح في مصر ما بين عامي ١٨٧٦ - ١٩١٩ .

الأعمال المجهولة لمي زيادة



الأعمال المجهولة لمي زيادة

تحقيق : د . جوزيف زيدان

تقديم : غـــادة الســـمّان

الطبعة الأولى
1996

منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ ـ ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION



● تقديم

مي زيادة في حمى الإمارات

غادة السمان

١

يوم أطلقتُ صرخة مي زيادة عبر حنجرتي بحثاً عن ناشر لأعمالها المجهولة التي جمعها الدكتور جوزيف زيدان، كنت أعتقد أن الصوت لن يحظى بغير صداه بعدما ألفت أن يكون النداء على المؤسسات الأدبية والنسائية واتحادات الكتّاب والتجمعات الرسمية صرخةً في وادٍ.

فنشر «الأعمال المجهولة لمي زيادة» خدمة للحقيقة ولتاريخ الأدب ولتراثنا العربي، لا يقدم عليها من تضطره ظروف الحياة لحساب الربح والخسارة كدور النشر. ولم يداخلني العجب يوم قرعت بعض أبوابها وردّتني خائبة، ويوم تراجع ناشر عن إصدارها بعد اتفاق مبدئي. لقد استشار آلته الحاسبة، وليس من حقنا مطالبته بالتبرع لمي فهو ناشر لا مؤسسة خيرية أو ثقافية.

المفاجأة الحقيقية جاءت حين رد على ندائي صوت غير الصدى، هو صوت الأديبة ميسون القاسمي التي نقلت إليّ مشكورة رغبة «المجمع الثقافي» لدولة الإمارات العربية المتحدة في إنقاذ حرف مي من صناديق النسيان المغبرة، وعنكبوت الإهمال.

٢

منذ ذلك اليوم وأنا أرغب في كتابة كلمة أشكر فيها «المجمع الثقافي» على لفتته، وأحاول وأفشل في غير الصمت، إذ أصابني ما كان سيصيب الخنساء

لو حاولت قصيدة غزل تتغنى فيها بحب الحياة وتحتفي بالفرح!

لقد ألفت الخنساء الرثاء وتزوجت من الحزن، كما ألِفَ قلمي الخيبة والنداء في واد، وتكرار ذلك دونما نهاية كسيزيف يدحرج صخرته إلى الأبد فذلك قَدَره. وحين جاءني جواب للمرة الأولى منذ ألف عام من النداء، ارتبكت ولم أعرف كيف أسطِّر شكري وأهجر صخرة أحزاني بعدما صارت جزءاً مني تلازمني كما تلازم الصدفة السلحفاة. والشكر موقف لم آلفه كثيراً لقلة ما يستدعي ذلك في حياتي اليومية ككاتبة عربية غير داجنة لا تتغزل بالسجان والقضبان والببغاوات والطواويس في أسواق الرياء.

ولكن، ها هي مؤسسة هي «المجمع الثقافي» تتطابق أهدافها المعلنة مع أفعالها دونما ازدواجية، وتفعل ما تقول ولا تبطن أهدافاً أخرى. وذلك نادر إلى درجة تربك الكاتب المشاغب الذي أدمن الهجوم على المؤسسات المتخلفة، ولم يسبق له أن امتدح من قبل تجمعاً ثقافياً ما كي لا يتورط في تسويق البشاعة وصناعة الأقنعة لها وتكرار تعاليم مدارس الببغاوات.

بعيداً عن الكلمات الكبيرة يقدم «المجمع الثقافي» نفسه تاركاً أفعاله تشهد له، ومنها بادرته الأخيرة هذه بنشر «الأعمال المجهولة لمي زيادة».

في تقديمه للكتاب السنوي لمحاضرات الموسم الثقافي العاشر في المجمع، يبين رئيس مجلس أمنائه الأستاذ أحمد خليفة السويدي رسالة المجمع التي «تهدف إلى نشر الوعي الثقافي.. وذلك في إطار النهضة التنموية الشاملة التي تشهدها دولة الإمارات العربية المتحدة». وقلّما قرأنا لمسؤول كبير كلاماً أكثر تقشفاً وعصرية وبساطة وبعداً عن زمن «البلاغة الطبلية» والرطانات العنترية الكاذبة التي يتوهم البعض أنها تنوب عن الفعل فيقولون ما لا يفعلون، ويستعيضون بالجعجعة عن الطحين.

بنبرة هادئة مشابهة لنبرة والده، يتحدث محمد أحمد السويدي الأمين

العام للمجمع الثقافي عن تلك المؤسسة الحضارية فيقول بكثير من العمق:

«لم تعد الثقافة والعمل الثقافي قيمة لإشباع المشاعر الحسية والاحتياج الوجداني والعلمي -فقط- بل ضرورة لبناء الدولة الحديثة وعاملاً مهماً في بناء العلاقات الإنسانية والدولية».

والاعتراف بالبعد الثقافي للتنمية يؤكد الأهمية الفائقة للعملية الثقافية.

٣

جميل أن تجد الشامية المصرية مي زيادة الملاذ في حمى الإمارات، وأن ينشر «المجمع الثقافي» بالذات أعمالها المجهولة التي جمعها الأستاذ الجامعي الدكتور جوزيف زيدان من أرشيفات صحف العشرينات والثلاثينات، فإلى جانب القيمة الأدبية لهذا الكشف وأهميته، يبقى لهذا النشر مدلوله القومي الجميل في زمن التشرذم، ويبدو حتى للمراقب المحايد خطوة مضيئة في صحراء ممتدة من الماء إلى الماء، وبادرة تساهم في خلق وحدة في الثقافة العربية لا تتضارب وخصوصيتها القطرية. وهي ليست خطوة معزولة، بل تأتي جزءاً من سياق عام في سياسة «المجمع الثقافي»، حتى صار «معرض الكتاب» الذي ينظمه منذ مطلع التسعينات حدثاً ثقافياً عربياً ومهرجاناً فكرياً يساهم في وصل ما كاد ينقطع بيننا من صلات. فغربة الحرف العربي ظاهرة غير صحية، والإحساس بأنه ملك لكل عربي -أياً كان منبت ذلك الحرف- يبدو عودة إلى الأصول الحقيقية كما في أزمان لم يكن أحد يصف فيها المتنبي بالأديب السوري أو البحتري بالأديب العراقي أو عمر بن ابي ربيعة بالأديب الخليجي أو ابن زيدون بالأديب الأسباني، بل يرى في أي مبدع عربي ابناً لكل البلاد العربية وملكا لقرائها جميعاً، ويرى في عطائه نبتة شرعية طلعت من تلك التربة الحضارية الشاسعة جمعاء وإليها.

وما دام حرف كاتبة شامية مصرية مثل مي زيادة يجد نفسه بين أهله في الإمارات وليس دخيلاً، بل له بينهم من يقيل عثرته، فتلك علامة عافية، وإذا كان الدكتور جوزيف زيدان قد أنصف مي زيادة، وحزّ في قلبه أنه وجد مقالاتها مهددة بالاضمحلال في صحف ومجلات قديمة تكاد تتآكل في «دار الكتب» في القاهرة كما يذكر في تقديمه للكتاب، فإن المجمع الثقافي في الإمارات أنصفهما معاً. وجميل أن يتصدر معرض الكتاب في أبوظبي هذا الكشف الأدبي المهم، ويأتي ذكره في بيان مؤسسة الثقافة والفنون عن أعمالها وفعاليتها الذي طالعته حين كتبت إلى الأستاذ خلفان علي مصبح مدير مؤسسة الثقافة والفنون راجية منه تعريفي بنشاطات المجمع الثقافي. واكتشفت بكثير من الغبطة أن المجمع يكره «حروف التسويف» كالسين وسوف – خلافاً لمألوفنا العربي الغالب– ويُعرف عن نفسه بأفعاله فقط، مصدراً بيانات دورية عن فعالياته التي جعلته عن حق منارة إشعاع ثقافية من منارات وطننا العربي، فهو يضم فيما يحوي مركزاً للوثائق والدراسات، وداراً للكتب الوطنية –تجدد محتوياتها باستمرار وتقتني كل عام عبر «معرض الكتاب» آلافاً من الكتب العربية ومئات من الأجنبية– ومركزاً للغات وللدورات التعليمية، وقسماً خاصاً بالنشر، ومرسماً حراً، ومركزاً للأطفال، ومهرجانات ثقافية وفكرية. كما تضم نشاطات المجمع أمسيات موسيقية وعروضاً مسرحية وسينمائية وندوات على هامش المعارض الفنية، ومناقشات لكتب ومحاضرات. والملفت نشر المحاضرات في كتب لتعميم الفائدة. وبعض هذه الكتب يكتسب صفة الوثيقة ويمتاز بتغطية رقعة شاسعة من الهواجس والتطلعات العربية. بدءاً بالفقه والفكر والاقتصاد والشعر، ومروراً بالنقد والسياسة، وانتهاء بالموسيقى وكل ما يساهم في تشجيع الحركة الأدبية والفكرية وإثراء المسيرة الثقافية على

المستوى الوطني والعربي.

٤

وقبل أن أنزلق إلى فخ التعريف بالمجمع الثقافي وبالسبق الذي سجله بظهوره على شبكة «الانترنيت» والإشادة بنشاطاته وهو في غنى عن ذلك، أعود إلى زيادة وزيدان!

ثمة شيء مأساوي في حياة تلك المرأة التي كانت تخط سطورها بمحبرة من ضوء أجمع عليه الباحثون وهو: اتهامها في الخمسينات من عمرها بالجنون ظلماً، وما أعقب ذلك من تجريد لها من حريتها ومالها وحقوقها المدنية وسمعتها الإنسانية، والزج بها في مصح عقلي بفضل صديقها وابن عمها و «ياغو» عمرها، ولكل كاتب ياغو حياته.

ولكنني أسمح لنفسي بإبداء وجهة نظر مغايرة بعض الشيء، وأرى في (أيام العز) التي عاشتها في منتداها بداية لمأساتها وآلامها، وجحيماً من نوع خاص لا تقل عزلتها الروحية داخله عما عرفته في المستشفى العقلي الذي تم زجها فيه.

فالزحام المتملق حضورٌ موحشٌ، ومي كامرأة ذكية ومرهفة كانت بالتأكيد تعي وخز الاستهانة بإبداعها ككاتبة، ومعظم الذين حولها يمطرونها بزبد الإعجاب الملتبس بشخصها الناعم قبل إبداعها. وهو إعجاب متنصل منها إبداعياً، ويتجلى ذلك التنصل المتملص في لحظات الصدق النقدية المكتوبة لا المدائح الشفهية المجانية. وأضرب مثلاً عليه في نقد عباس محمود العقاد لأدبها الذي عاملها فيه مثل مضيفة حسناء في طائرة الإبداع، لا واحدة من ربابنة التحليق، إذ يقول إنها: «صيرت الدنيا كلها غرفة استقبال لا يصادف فيها الحسن ما يصدمه ويزعجه، أو هي صورتها متحفاً جميلاً منضوداً لا تخلو زاوية من زواياه من لباقة الفن وجودة الصنعة».

ويمتدح عندها (مهارة التنسيق وبراعة الترتيب» كما لو كانت مهندسة ديكور! أما حين يضطر لقول شيء عن أدبها فيقول: «اقرأ كتابة الآنسة مي لا تجد فيها ما يغضبك». أهذا مديح أم ذم؟ ويضيف: «ليكن لك رأيك في أسلوب الكتابة أو نمط التفكير أو صيغة التعبير، فما من كاتب إلا وللناس في أسلوبه وتفكيره وصيغ تعبيره آراء لاتتفق. أما الإنسان في مي ذلك الكائن الشاعر الكامن وراء الكاتب منها والمفكر والمعبر –فلا يسع الآراء المتفرقة إلا أن تتفق فيه وتصافحه مصافحة السلام والكرامة». ومن الصعب مصافحة العقاد «مصافحة السلام» بعد هذا الكلام. فهو في كل ما يسطره يهرب من إبداء نقد متورط بها ورأي في أدبها إلى امتداح لطفها وشخصها. وهذا التنصل في جوهره ليس من مي زيادة وحدها، بل من جنس النساء ككاتبات قادرات على التحليق الإنساني كما الذكر.

وأزعم أن مي زيادة عانت في (أيام العز) في صالونها من حماقة بعض معجبيها وروادها وضيق أفقهم وسطحية نظرتهم إلى المرأة كإنسانة بقدر ما عانت من شراسة أعدائها العلنيين، وهي (تزين) مجلسها كحلية فكرية في زمن لم يكن بعض مبدعيه يميزون كثيراً بين الكاتبات والجاريات الفصيحات!

٥

لعل مي زيادة المتوّجة على عرش صالونها الأدبي، وعت تدريجياً وبكثير من المرارة أنه لا شيء أسوأ من العداوة إلا الود المزور والمحبة الحمقاء السطحية والعواطف الخرقاء. ويخيل إليّ أنّ مي المرهفة عانت منذ بداياتها من زمن ساد فيه الالتباس بين جمال الكاتبة وجمال أبجديتها، وبين حضورها الأنثوي وقدراتها الإبداعية التي تتجاوز التأنيث والتذكير إلى العطاء الإنساني الشمولي. كما عانت من ذلك حتى بعد وفاتها في العديد من

الكتابات النقدية حولها. وقرأنا مثلاً لمدافعات عنها بينهن الأستاذة ايلين عبود التي كتبت عام ١٩٦٤ في مجلة دنيا المرأة تقول: «لو أن أدباءنا، أعزهم الله، تحولوا عن البحث بما يتعلق بعشاق مي إلى البحث في تراثها الأدبي على ضوء الحقبة التي عاشت فيها لأسدوا إلى روحها جميلاً، وأسدوا فضلها إلى الناشئة من فتيات وفتيان جلهم يجهلها أديبة عربية لها مؤلفاتها القيّمة وخواطرها الرائعة».

ولعل تلك العزلة الداخلية المروعة لمي جعلتها تهرب من المناخ الروحي الخانق للمعجبين (بقشرتها) إلى عالم حقيقي خيالي في آن، أحبت فيه رجلاً من وهم وضباب ومسافات اسمه جبران خليل جبران، وتعلقت به عبر القارات دون أن تراه ولو لمرة واحدة، ربما هرباً من كل من تعرفه إلى من تجهله، ومن زحام يحيط بها، هلامي المواقف الفكرية من إبداعها يقوم بتشييئها ويسكبها في قالب الملهمة والموحية والأنثى اللطيفة، ناسياً أنها ليست دمية وأنها بدورها تبحث عن ملهم ووحي وإنسان صديق لكوابيسها، وفي معظم مدائح بعض (زبائن) صالونها لها يتجلى التخلي عنها «كفنان ندٍ» تحت ستار تمجيد أنوثتها وجمالها وحضورها الآسر..

تلك كلها مشاعر موجعة سرية يتقن النقد الحديث التقاط كهاربها، وهي في زعمي قد حزّت في نفس مي بصورة واعية أو غير واعية وأعدّتها لميتتها الباكرة الفاجعة. إنه موتٌ ما قبل الموت حين يكشف المرء تلك الهوة بينه وبين من يحبه أو يكرهه في آن. وهي هوة لم تنجح في ردمها بالحب ولا بالأمومة ولا بالفن بعدما تحالفت عليها النوائب موتاً للأحباب وغدراً من الأصدقاء.

٦

ولكن مي التي سبقت زمنها، تجد في أحفادها اليوم من النقاد والقراء من

يفهم معاناتها في ذلك الزمان ويهاله أن يقرأ في قصائد أصدقائها عنها نعوتاً لا تمتّ إلى فنها بصلة وتكاد تتجاهل إبداعها الأبجدي إلى حضورها البشري الساحر العابر... بل إن هذه النعوت والأوصاف تسللت إلى بعض ما سطره النقاد عنها بعد موتها، فكتبت الأديبة جهان غزاوي عوني تشجب تلك الظاهرة قائلة في رسالة منها عن مي بعثت بها إلى سميرة عزام ونقلتها املي فارس ابراهيم في كتابها أدبيات لبنانيات:

«قال فريق بشذوذها، واتهمها بأنها لم تحب أحداً حتى ولا جبران، وهناك من اتهمها بجفاف العاطفة وجمودها، والتواء الناحية الجنسية عندها، وهناك من ادعى أنها مائعة متطيرة لدرجة أنها جنّت عندما سرقت منها رسائل جبران. كل هذا ولم يكلف أحدهم نفسه عناء درسها من خلال أدبها». مؤكدةً أنّ كل ما يشاع عن مي «لا يمتّ إلى حقيقتها بصلة»!

بعض الذين تعطفوا عليها ذات يوم بازدرائهم المتنكر في قناع مديح وقاموا بوصفها بأنها ظاهرة اجتماعية أكثر منها أدبية، هل كانوا أنفسهم في موقع يؤهلهم للحكم على فنها ومعظمهم أقل إبداعاً منها وموهبة، لكنهم ذكور و (ديوك) القن الأدبي في عصرهم؟

تلك الكاتبة المتربعة على قمة جرحها ألم تكن أكثر موهبة وثقافة ودراية باللغات الأجنبية وبالتيارات العالمية من معظم الذين (أسْتذوا) على علمها ووجدوا فيها مادة استهلاكية أدبية نسائية استعراضية بلغة عصرنا، لكنها كانت أكثر إبداعاً منهم ومن رجعيتهم السرية المتسترة باللطافات السمجة؟

«الأعمال المجهولة لمي زيادة» ستسهم في إلقاء أضواء على هذه الأصقاع الأدبية، وستجدد حواراً لا يخص مي وحدها بل يطالب النقد الأدبي العربي المعاصر وأسلوبه في التعاطي مع الأدب الذي تخطه أقلام شاءت صُدفة بيولوجية أن تكون حاملته امرأة.

إصدار هذا الكتاب فرصة للنقد لإعادة النظر في عطاء مي وإخراجه من المنطقة الملتبسة بين إبداع الأنوثة وإبداع الحرف، ونقلها من أسطورية الحياة إلى الكتابة الأسطورة. وهي مهمة لعلها بدأت على يد بعض النقاد العصريين الذين لا يصفون الكتاب كما كانت القابلة تفعل بالطفل: ولد أم بنت.

وإنصاف مي في جوهره إنصاف للكاتبات العربيات كلهن ونقطة تحول في النقد العربي (الذكوري). ويا لمهارة الغبار حين يحلو له أن يحالف الزمن ضد إبداع بعض الذين سحقهم عصرهم بريائه ولا مبالاته بجوهرهم. ولكن مهارة الغبار التي لا تضاهى تتوقف دائماً أمام إشعاع الإبداع الحقيقي.. وقد فتن إبداعُ مي الكثير من الباحثين خلال وبعد انطفاء نور سحرها الشخصي المخرب على فنها والمشاغب على النقد المحايد لها. وها هي الباحثة والأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري تنقذ سيرتها الحقيقية من عبث قطط الزمن بخيوطها، وتخرجها إلى النور في عمل كبير استنفد سنوات طويلة من عمرها. ونالت عليه بحق جائزة أدبية رفيعة. وعسى أن يواكب خطوة «المجمع الثقافي» في إعادة الاعتبار إلى مي نقدٌ عصري متنور فنياً يعيد قراءتها بعين جديدة – كما فعل الدكتور جوزيف زيدان في تقديمه مثلاً –وقد بدأت هذا النهج قلة من النقاد أعادت مطالعة أعمالها مؤخراً بعين عصرية بعيدة عن أسلوب العقاد في نقدها، وخلصت إلى أنها كانت أكثر إبداعاً أدبياً وفكرياً من بعض الذين طالما شهدوا بها بنبرة متعالية، وامتدحوا جمالها وكانوا لاهين به عن نور إبداعها الذي تتفوق به على معظمهم. وها هو الدكتور جوزيف زيدان يرضخ لسحر حرفها فينقذه من الغبار وحشرات العث وروائح النفتالين وذلك كي لا تبتلع الأسطورة

الحقيقة. وفي تقديمه لأعمالها المجهولة نبرة نقدية ذات «حساسية جديدة» عصرية.

فـ «مي زيادة» من القلائل الذين كادت أسطورتهم الحياتية تطغي على حقيقتهم الفنية المدهشة، وأمام إبداعها نفهم كيف يمكن لبعض الذين ماتوا قبل أن نولد التأثير فينا هكذا وخلق التعاطف في نفوسنا.

٨

ثمة موتى، يجب قتلهم، ولكن مي زيادة من نمط الموتى الذين تجب إعادة الروح إليهم وإلى حقيقة صورتهم التي تم التعتيم على جانبها الإبداعي إلى حد بعيد.

ومن (اللقطات) التي توجعني في حياة مي زيادة وأراها على شاشة داخل رأسي كفيلم مأساوي، مشهدُ تلك الأديبة في ندوتها الأخيرة في الجامعة الأمريكية وهي تخوض امتحان ما بعد الجنون وتغادر مستشفى المجانين إلى المنبر بشعر كلّه البياض والحزن كأنها تطالب بحقها ككل الرجال في الكهولة والشيخوخة حتى ولو لم تكن متزوجة أو أماً أو جدة. ودون أن يكون ذلك عاراً أو مرضاً أو عاهة كما هي الحال أحياناً في مجتمعاتنا... يومها لم تصبغ مي شعرها الذي زاده ثلج الوحشة بياضاً. ربما كفعل تحدٍّ وكإعلان عن حقيقتها الداخلية وعن حزن يفتك بقلبها ولا ترى مبرراً لإخفائه حتى في مهرجانات الفضول والأقنعة.

٩

«الكتابات المجهولة لمي زيادة» غير المنشورة من قبل في أي كتاب كما أكد لي الدكتور جوزيف زيدان (الذي لا أعرفه شخصياً لكنني أشاركه الرغبة في إنصاف مي). هذه الكتابات (المجهولة) هي كنز أدبي وكشف وثائق وتاريخي استثنائي نادر سيساهم في إلقاء الأضواء على مبدعة ماتت

(مكسورة الخاطر). ولعله سيؤكد أنها لم تكن «عروس الأدب النسائي» كما وصفوها في زمانها، بل مفكرة من طراز قلّ مثيله بين الرجال، ممتلئة بحلم التنوير والتطوير والمعرفة في زمن (الفحولة) الأبجدية والهيمنة الذكورية. فنانة مزودة بذخيرة ثقافية من تراثنا ومن الأدب العالمي في آن.

ولعل لقبها كـ «عروس الأدب النسائي» يلخص معاناتها من بعض نقاد عصرها، فالأديب يوسف ادريس مثلاً على وسامته، لم تلقبه أية ناقدة بـ «عريس الأدب الرجالي»!

لماذا وقفت أنوثة مي بينها وبين نصّها (غالباً) ولماذا حال جمالها وسحر حضورها و (كَبْتُ) بعض زوار ندوتها دونها ودون دراسة محايدة لأدبها إلا بعد موتها بزمن طويل؟

ولماذا يتغزل شاعر حلقتها اسماعيل صبري بحضورها النسوي قائلاً:

«إن لم أمتّع بميّ ناظري غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء».

ولا ينظم أبياته في إبداعها، كما لو، كانت سيدة صالون أبجدي لا سيدة أبجدية؟

جوزيف زيدان لم «يمتع ناظريه» بظاهرة (نسوية) في صالون، بل وعى أنها مبدعة أخرى، متوجعة تستحق جمع أعمالها المجهولة وإعادة دراستها فكرياً على الرغم من مصادفة بيولوجية جعلت منها أنثى.. وبالتالي فهذا الكتاب ليس شهادة لمي فحسب، ولا لزيدان صاحب الكشف الأدبي المهم، ولا للمجمع الثقافي وحده الذي قام ببادرة لا تنسى بنشره لهذا الكتاب، بل هو أيضاً شهادة لزمن أضحى أكثر من قدرة على دراسة (أدب المرأة) بعدالة محايدة، دونما وقوع في فخ الاستخفاف أو المجاملة.

١٠

تقول مي «أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني». هذا القول الذي يحز في

النفس، سيصير يوماً بعد آخر أقل إيلاماً، ونحن نرى أحفادها وحفيداتها من الباحثين والباحثات يمنحون أدبها ما يليق به من إعجاب ويطالعون حتى الجانب الفلسفي منها، وسينصفونها في وجه الطغيان الذكوري الذي أحاط بها خلال حياتها، وينتبهون إلى طليعتها في غير حقل واهتمامها ببرغسون وسبنسر وابيقورس ونيتشه وامرسون وشوبنهاور وداروين وهوبز وغيرهم، كثير، وبمدارس الفلسفة السياسية في زمن لم يقرأ فيه معظم زوار صالونها المتعطفين عليها (برضاهم) نتاجات أولئك.

وتحية إلى «المجمع الثقافي» الحضاري الذي تكرم بتلبية ندائي ونشر هذا الكتاب كجزء من طليعيته الواعية التي لا تميز بين كتاب ذكر وأنثى، ولا تخلط بين (القابلة) والناقد، وبين البيولوجيا والإبداع...

غادة السمان

باريس ١٩٩٦/١/٢٤

مقدمة

قد تكون ميّ زيادة (١٨٨٦–١٩٤١) من أبرز أعلام النهضة العربية الذين غُمطت حقوقهم فلم ينالوا ما يستحقونه من تقدير. ولعل عدم انتمائها الصرف لقُطرٍ عربي واحد كان من تلك الأسباب التي أدت إلى هذا الغبن. فقد ولدت ميّ في مدينة الناصرة بفلسطين لأب ماروني لبناني وأم أرثوذكسية فلسطينية، وتابعت دراستها في معاهد داخلية في لبنان لأربع سنوات، ثم قضت بقية حياتها في مصر (منذ عام ١٩٠٨ حتى وفاتها) حيث أنشأت صالونها الأدبي ونشرت مؤلفاتها ودبّجت مقالاتها وألقت خطبها ومحاضراتها. فكل قطر من هذه الأقطار الثلاثة يدّعيها لنفسه، ولو على شيء من الاستحياء، كلاماً، ويغفل عن إيفائها حقها فعلاً. وإن تغنّت ميّ بكل قطر منها في مراحل مختلفة من حياتها إلاّ أنّ غصّة الغربة وعدم الانتماء كانت تطغي عليها فتتسرب إلى كتاباتها حيناً عن قصد (كما في مقالها «أين وطني»: ولدت في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟»[1] وحيناً تتداعى هذه المشاعر خلسة (كما في مقالها «خطابان خطيران»:... ملاحظات من تشعر هي كذلك بالحاجة الوجيعة إلى أن يكون لها وطن. ولولا الجهود الفردية التي بذلتها كاتبات وكتّاب غيورون، وبعضهم فعل ذلك في محاولة لإراحة ضميره في أعقاب علاقات شخصية ربطته مع ميّ، لكان حظ ميّ من الإهمال أوفر بكثير.

لم يكن ظهور ميّ في الميدان الفكري العربي في العقد الثاني من هذا القرن أمراً عادياً أو ظاهرة تبلورت بشكل طبيعي محتوم. وقد كاد هذا الميدان أن يخلو من العنصر النسائي باستثناء عدد ضئيل يعد على أصابع اليد الواحدة من نساء حاولن الخروج من ظلمات الحريم إلى فضاء يعج بأفكار التنوير والتجدد الحضاري. فعندما نزحت ميّ مع والديها إلى القاهرة كانت خلفيتها الثقافية قد تحدّدت ومنحاها الأدبي قد تقرّر إلى حين؛ فثقافتها كانت فرنسية تماماً، تحصلتها من المعاهد التبشيرية الفرنسية التي تعملت فيها تباعاً (مدرسة الراهبات اليوسفيات في الناصرة، ومدرسة راهبات الزيارة في عينطورة، ومدرسة الراهبات اللعازريات في بيروت) حيث كان التركيز في برنامج الدراسة على اللغة الفرنسية على حساب العربية وتراثها[٢]. أما الثمرة الأولى لهذا المخزون الثقافي فقد كان مجموعتها الشعرية بالفرنسية Fleurs de reve (أزاهير حلم) التي صدرت عام ١٩١١ باسم مستعار هو أيزيس كوبيا[٣] Isis Copia.

وكان من الممكن لميّ أن تستمر في مسيرتها تلك أو، على أقل احتمال، تتأخر في التحول إلى العربية لو لم يَلُح في الأفق أحمد لطفي السيد، «أستاذ الجيل» الذي توسم فيها النباهة فرغب في أن يكسبها للأدب العربي فحثَّها على الاعتناء بلغة الضاد مهدياً إياها مجموعةً من الكتب العربية من ضمنها القرآن ومجموعة أشعار البارودي و«النسائيات» لباحثة البادية (ملك حفني ناصف) و «تحرير المرأة» لقاسم أمين[٤]. فكان لهذا التوجيه إضافة إلى ولوج والدها الياس زيادة الساحة الفكرية في مصر بتسلمه إدارة صحيفة «المحروسة» أكبر الأثر في قرار ميّ وقف جهودها على الثقافة العربية دون منازع[٥]، وإن بقيت مفتوحة على الثقافات الأخرى. ولا شك أن عمل الوالد بالصحافة فتح أمامها آفاقا جديدة وإمكانات عديدة، فتعرفت إلى بعض

زعماء الأدب والفكر آنذاك مما ساعدها على تأسيس صالونها الأدبي الأسبوعي ذائع الصيت عام ١٩١٢.

وعلى مدى عقدين من الزمن واصل هذا الصالون جذب مجموعة متميزة ومتباينة من الأعلام أمثال أحمد لطفي السيد، شلبي الشعيل، يعقوب صروف، اسماعيل صبري، أحمد شوقي، خليل مطران، مصطفى صادق الرافعي، مصطفى عبد الرزاق، عباس محمود العقاد، سلامة موسى، وطه حسين، وإن كان الباحث يستطيع تقويم مساهمة ميّ في إثراء الأدب العربي اعتماداً على آثارها المنشورة حتى الآن، بالرغم من عدم اكتمالها حتى بصدور أعمالها المجهولة هذه، فإنه عاجز عن تثمين دور صالونها في إذكاء جذوة النهضة عن طريق تنشيط التبادل الفكري بين رواده ومواكبة الفكر الغربي من مصادره أو ترجماته. وإضافة إلى ذلك فإن صالونها قد خدم اللغة العربية الفصحى في فترة حرجة من تاريخ العرب المعاصر، جاعلاً إياها أداة طيعة للتخاطب. فقد أشار إلى هذا الأثر أحد رواد من تاريخ العرب المعاصر، جاعلا إياها أداة طيعة للتخاطب. فقد أشار إلى هذا الأثر أحد رواد الصالون وهو الشيخ الأزهري مصطفى عبد الرزاق حين قال: وأظن أن ميّا خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة، لأنها إذا كانت الجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العامية، أو ما يشبه اللغة العامية، فإن ميّا أسدت هذه الخدمة نفسها إلى اللغة العربية من ناحية لا تصل إليها الجرائد، وهي ناحية التخاطب والتحاور، فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة، فإنّ ميّا أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة[6].

وخلافا للشيخ عبد الرازق فإن جلّ الذين كتبوا غن ميّ لم ينسوا أنها

امرأة، فتناولوها من هذا المنطلق دون حرج ناظرين إلى أنوثتها على حساب فكرها، كاتبين عنها كلاماً لم يكن ليدور في خلد أحد أن يكتب مثله لو كان المتناول رجلاً. فعلى الرغم من إطلاق شتى الأوصاف الرفيعة عليها مثل «الأديبة النابغة»، «فريدة العصر»، «ملكة دولة الإلهام»، «حلية الزمان» و «الدرة اليتيمة»، بقيت ميّ في نظر المؤسسة الأدبية الرجالية امرأة حتى أطراف أصابعها يصحّ أن تعامل وتقوّم كأيّة امرأة. فهذه صديقها أسعد حسني يصفها قائلاً: «وكانت ميّ على رغم سعة اطلاعها وعظيم استنارتها أبعد النساء عن «الاسترجال» وأشدهن استمساكا بالخصائص النسوية.. بقامتها الربعة ووجهها المستدير، وهي زجّاء الحاجبين، دعجاء العينين، يتألق الذكاء في بريقهما، وشعرها الطويل يجلل صفحة جبينها»[7]. أما سلامة موسى فيقرر «لم تكن مي جميلة ولكنها كانت «حلوة»»[8]. ويصف فتحي رضوان لقاءه الأول بميّ عندما ذهب إلى دارها: «حينما دققت جرس الباب فتحت لي الآنسة ميّ نفسها، فلاحظت لأول وهلة أنّ لها عينين ضيقتين تبدوان للنُظّار كأن بهما أثراً من رمد قديم، فليس فيهما شيء من الجمال. أما «ميّ» نفسها فممتلئة غير مترهلة، وأظنها أقرب إلى القِصَر من الطول»[9] ولم يتردد حتى أن صوتها لم يسلم من النقد عند فتحي رضوان: «وصوت ميّ تشوبه رنة حزن لا أدري إذا كانت طبيعية أم مصطنعة، وهي تقطع عباراتها، وكأنها تلحّنها وتوقعها كأغنية».[10]

رائد آخر لصالونها هو الدكتور منصور فهمي لم يتورع من اتهامها باللعوبية[11]. وحتى النساء أنفسهن لم يسهون عن الإشارة إلي مظهر ميّ، فها هي هدى الشعراوي –وهنا تكمن السخرية– زعيمة حركة تحرير المرأة في مصر آنذاك تقول: «لم تكن ميّ على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال..»[12]. والسؤال هنا هو: لماذا لا يتوقع أحد أن يجد

مثل هذه الأوصاف الجسدية والصوتية ملصقة بأي أديب رجل عاصر ميّ أو لم يعاصرها؟

وذهب فتحي رضوان إلى أبعد من ذك فأشار إلى أن ميّ كانت «ظاهرة اجتماعية أكثر منها ظاهرة أدبية. فقد كانت ميّ آنسة لبنانية، تكتب العربية والفرنسية، وتقابل الرجال، وتتحدث إلى الأدباء وأهل الفكر، ويتحدثون إليها، وفيهم أكثر من أعزب عاش حياته بلا زوجة، وهم جميعا بين متزوج وأعزب، يضطربون في مجتمع لا تبدو فيه المرأة إلاّ كالطيف. وإذا أسفرت واحدة من النساء كانت كالمحجبة تماماً، لأنها لا تحسن حديثاً يشوق الرجل المثقف أو يمتعه، أو يثير خياله أو يوحي إليه أو يلهمه بفكرة أو عاطفة أو خاطرة».[١٢] ولم يغفل بعض الكتاب عن ارتداء ثوب الأطباء النفسانيين للربط بين محنة ميّ بمرضها وبين ذبول جمالها الجسدي وانفضاض المعجبين من حولها خارجين بشتى النظريات. ثم إنَّ الإسهاب في التلهي بأمور ميّ الشخصية الحميمة كموضوع العلاقات العاطفية، دون التحقق من صحتها، مع الكثير من رواد صالونها، ومراسلتها لحبها الأكبر جبران خليل جبران، وأسباب عدم زواجها، وخلافاتها مع أقاربها وإيداعها في مستشفى للأمراض العقلية في لبنان في أواخر حياتها، كان على حساب الانكباب على استقراء كتاباتها ورسائلها ودراسة عوامل تكوينها الفكري وقدرتها على تمثل الفكر الغربي مع الإبقاء على عناصر الثقافة العربية، ومحاولتها خلق أسلوب ذاتي دون السقوط في الرطانة أو التقعر ومدى مساهمتها في إعداد الطريق لكوكبة من الكاتبات اللواتي استلهمنها نموذجا رائداً يحتذى.[١٤]

ويعجب المرء كيف أن والدي ميّ تركاها، وهي وحيدتهما، تعيش أربعة أعوام في مدارس داخلية في لبنان لا يريانها إلاّ لماماً. ولا شك أن هذه التجربة قد تركت أثرها البالغ في نفسها وهي ترى زميلاتها يغادرن

المدرسة في العطل والأعياد لقضائها بين ذويهن ويتركنها فريسة الوحدة والاكتئاب. ولا ندري قطعا إن كان والدا ميّ يرضيان بهذا الترتيب لو كانت هي ذكراً. ففي خلفية طفولة ميّ حادث مفجع لا ريب أنه زعزع أركان الأسرة الصغيرة ورافقتها ذكراه سنوات طويلة، وهو موت شقيقها الوحيد عام ١٨٩١ في مستهل عامه الثاني، وقد أهدت ميّ كتابها المترجم «ابتسامات ودموع» إلى ذكرى هذا الأخ بكلمات مؤثرة. ثم ذكرته بعد ذلك بكثير من الحرقة بعد أكثر من ربع قرن من وفاته في مقالين لها هما «أنا والطفل» و «بكاء الطفل» منشورين في كتابها «ظلمات وأشعة» (١٩٢٣)[١٥].

ويرى متري متري بولص أن موت شقيقها لم يكن «ذكرى اقترنت» بالماضي فصارت ملك الزمان الواقع خارج النفس بل صار حالة نفسية راهنة[١٦]. وبذا أضحت ميّ وحيدة والديها لا تخرج عن طاعتهما، فقيدت هذه العلاقة ميّ إلى حد بعيد. وقد عمدت إلى تأكيد هذه النقطة عندما قدّمت نفسها في أول رسالة كتبتها لجبران خليل جبران عام ١٩١٤: «أمضي ميّ بالعربية، وهو اختصار اسمي، ويتكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري وأمضي «ايزيس كوبيا» بالفرنجية، غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك، إني وحيدة والديّ وإنْ تعددت ألقابي»[١٧]. ويعتقد جميل جبر أن ميّ رفضت طلب جبران المقيم في نيويورك للزواج منها كاتبة له: «وهل لدي وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكّرك أني وحيدة أبوي؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلاّ ولد واحد فيقذفون به من انكلتره إلى الهند، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء. ولكن أين نحن من هؤلاء، ونحن شرقيون. تعمدت ذلك خصوصاً لأوفرّ على نفسي عذابا هي في غنى عنه ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع»[١٨].

وللمرء أن يتساءل عن حقيقة الحرية التي نعمت بها ميّ في كنف والديها. فمما لا شك فيه أن والدها، بطبيعة عمله وتنوع معارفه من رجال الفكر، قد أتاح لها أن تنمي مواهبها الأدبية وأن تغني حياتها الاجتماعية وخاصة في إطار صالونها الذي لم يكن ينعقد إلاّ تحت سمعه وبصره. ولكن ميّ ظلت تشعر بفقدان الحرية الشخصية فى بيتها، وتذكر سلمى حفار الكزبرى بأن والدة مي كانت تحظر عليها الخروج من البيت لوحدها أو مع أصدقاء مقربين متقدمين بالسن [١٩]. وحتى فى منتصف العقد الثالث من عمرها نجدها تشكو من انعدام الحرية فى رساله خطتها لصديق العائلة الدكتور يعقوب صروف عام ١٩٢١: «...لو كنت رجلاً، أي لو كان لي تمام الحرية بالسفر والانتقال لطلقت القلم والقرطاس شهورا أقضيها فى خلوة سعيدة على قمم لبنان... ولكني فتاة فقط ومهما تحررت الفتاة بفطرتها وميولها فهي أبداً عبدة والديها لا تفعل غير ما هما فاعلان»[٢٠].

وليس من قبيل الصدف أن ينفض صالون مي بعد وفاة والديها، فقد كانا الواجهة التي تحتمي بها وتختفي وراءها. فمي لم تكن لتستطيع أن تتمتع بحريتها حتى ولو قُدمت لها على طبق من فضة لأنها كانت بنت ظروفها وبيئتها في نهاية المطاف. ولم يكن عجيبا قط أن تبحث ميّ لها عن سند (والسند دائما رجل) بعد تيتمها، ليحميها من نفسها ومن الآخرين، فتكتب لابن عمها الدكتور جوزيف زيادة في بيروت عام ١٩٣٥ راجية منه أن يفد إلي القاهرة لإنقاذها. وانتهت عملية «الإنقاذ »هذه بإيداع ميّ مستشفى للأمراض العقلية(العصفورية)في بيروت في العام التالي على طلبها النجدة، بعد أن وقّعت على وكالة لم تتنازل فيها عن حريتها فحسب بل حتى عن حرية التصرف بأموالها لحساب ابن العم« المنقذ ». وقضت مي في العصفورية قرابة عشرة أشهر محشورة بين المجانين إلى أن جاءها«

منقذون » آخرون(رجال طبعا) لإخراجها من هذا المكان إلى مستشفى أوفر راحة. وقاد حملة الإنقاذ أصدقاء مي ومريدوها على رأسهم أمين الريحاني ومارون غانم وخليل الخوري وفارس الخوري ومختار الجزائري.

● ملاحظات حول مؤلفات ميّ

نشرت ميّ في حياتها ثلاثة عشر كتابا[21] أولها ديوانها بالفرنسية« أزاهير حلم » الصادر عام ١٩١١[21]. وهناك دراسة مستفيضة عن عائشة التيمورية نشرتها ميّ مسلسلة في مجلة« المقتطف » عامي ١٩٢٣- ١٩٢٤، نشرتها «دار الهلال »في القاهرة كتاباً عام ١٩٥٢. ولم نقف على سبب لعدم نشر ميّ لهذا الكتاب بنفسها في حياتها، عكس ما فعلته بدراستها عن وردة اليازجي التي نشرتها كذلك على حلقات في «المقتطف» عام ١٩٢٤ ثم نشرتها في كتاب عام ١٩٢٦. وقامت سلمى الحفار الكزبري بجمع وتحقيق «المؤلفات الكاملة» لميّ زيادة في مجلدين صدرا عن «مؤسسة نوفل» (بيروت، ١٩٨٧) مضيفة إليها مجموعة من مقالات ميّ نشرت في الدوريات ولم تجمع في كتاب اسمتها «كلمات وإشارات، ج٢[23]. وكانت الكزبري قد عثرت على بعض أعمال ميّ المخطوطة نشرتها مع صور لها في نهاية المجلد الثاني من كتابها «ميّ زيادة أو مأساة النبوغ، ج٢».

أما رسائل ميّ ففُقد كثير منها، وخاصة رسائلها إلى جبران [24]، والقسم الآخر منها ما زال مبعثراً هنا وهناك. لعل أقدم مراسلات منشورة لمي كانت مراسلاتها مع جوليا طعمة دمشقية في مجلة «المرأة الجديدة» في بيروت. أما أول من أفرد كتاباً لرسائل ميّ فكان جميل جبر في «رسائل ميّ: صفحات وعبرات من أدب ميّ الخالد» (بيروت، ١٩٥١) ولكنه أباح فيه لنفسه أن يقتطع منها ما يشاء. ونشر ألبرت الريحاني رسائل بعثت بها ميّ لصديقها أمين الريحاني في كتابيه «رسائل أمين الريحاني» (بيروت

١٩٥٩) و «الريحاني ومعاصروه: رسائل الأدباء إليه» (بيروت ١٩٦٦). أما مراسلات ميّ وعباس محمود العقاد فقد نشرها عامر العقاد في كتابه «غراميات العقاد» (القاهرة ١٩٧١)، كما نشر فاروق سعد ست رسائل لمي في كتابه «باقات من حدائق مي» (بيروت، ١٩٧٣) ونشر طاهر الطناحي في كتابه «أطياف من حياة ميّ» (القاهرة، ١٩٧٤) بعض رسائل ميّ لأحمد لطفي السيّد. ونشرت سلمى الحفار الكزبري رسائل لميّ في كتابها «ميّ زيادة وأعلام عصرها: رسائل مخطوطة لم تنشر» (بيروت، ١٩٨٢) مع طائفة من رسائل أعلام الفكر العربي والمستشرقين الذين كانوا على صلة بها.

● **هذه الأعمال المجهولة:**

كان ذلك في ربيع عام ١٩٩٠، وكنت أتردد على دار الكتب بالقاهرة لإعداد بحث عن المسرح الشامي في مصر، عندما تيقنت أنني وقعت على كنوز مطمورة تحت الغبار آخذة بالتلف بسبب ظروف الصيانة المؤسفة للدوريات، وراعني أن من بين هذه الكنوز مقالات لميّ ذات أهمية أدبية وتاريخية كبرى إذ أنها تلقي أضواء جديدة على تطور حياة ميّ الفكرية، وهي مقالات حول مواضيع شتى لم تجمع في كتاب كانت قد نشرتها في صحف يومية مثل «المحروسة» و«الأهرام» وفي مجلات مثل «الزهور» و «المقتطف» و «مجلة النهضة النسائية» و «مجلة المرأة العصرية» و«الهلال» و «الرسالة». وأكثر ما حزّ في قلبي أني وجدت أوراق بعض هذه الدوريات، وخاصة «المحروسة» و «الأهرام»، قد أخذت تتآكل وتتفتت مهددة مقالات ميّ بالاضمحلال حرفيا. ومما زاد الطين بلة أن تجليد أعداد هاتين الجريدتين لم يتم أصلاً على الوجه الصحيح، ففي كثير من الأحيان نجد أن المجلّد قد تعدى النهر الأول من الصفحة الأولى للجريدة فأخفاه أو أخفى

جزءاً منه. إنّ مشاعر الألم والحزن التي كانت تتملكني وقتها كلما اكتشفت أن النهر الأول من كثير من مقالات ميّ قد التهمته خيوط التجليد تحولت إلى تصميم عنيد على إنقاذ هذه الآثار. فعكفت على العمل في هذا المشروع حتى نهاية الصيف، مصوراً ما أمكن تصويره، وناسخاً باليد ما لا تصله عدسة آلة التصوير أو ما لا يمكن نقله إلى قسم التصوير لأنه في حالة من التضعضع يرثى لها. وزاد شعوري بأني في سباق مع الوقت بعد أن اتضح لي أن قسماً كبيراً من هذه الدوريات غير متوفر في أية مكتبة في العالم ما عدا دار الكتب بالقاهرة.

عندما اقترح ولي الدين يكن على ميّ أن تجمع مقالاتها المبثوثة في الدوريات لنشرها في كتاب بعنوان «سوانح فتاة» استجابت للفكرة، ولكنها أسقطت بعض مقالاتها المبكرة. فها هي تكتب في رسالة إلى أميل زيدان الذي كان يشرف على إعداد كتابها للنشر عام ١٩٢٢: «... بعض تلك المقالات ستوضع في مجموعات أخرى، وبعضها الآخر لن أضعه في مكان،و ولا في زمان، ويخجلني أني وضعت اسمي تحته يوماً، ولو مبتدئة»[٢٥]. ولا شك أن من المقالات المستثناة كانت تلك المقالات الستة التي نشرتها ميّ في مطلع حياتها الأدبية في مجلة «الزهور» ولم تنشر منها إلا مقالاً واحداً في «سوانح فتاة» هو «ذكرى بعلبك». كما إنها استثنت مقالاتها الأولى التي نشرتها في المحروسة ضمن زاوية «يوميات فتاة» فيما عدا مقطوعة واحدة هي «سلام الله يا مطر عليك» أعادت صياغتها قبل نشرها في الكتاب. أما أول حلقات عثرت عليها فهي «كيف نضنع خيراً» ويعود تاريخ نشرها إلى ٢٠ أكتوبر ١٩١٤ وآخرها «مشاهدات في الشارع» نشرت بتاريخ ٦ أبريل ١٩١٧. كانت ميّ توقّع هذه الخواطر بإمضاء «أنا» ولم تمهرها باسمها الأدبي «ميّ» إلا ابتداءً من «رسائل العيد وتبريكاته»

بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩١٥. ولهذه اليوميات أهمية لغوية وأسلوبية كبيرة لدراسة عملية تحوّل ميّ من الكتابة بالفرنسية إلى العربية. ويبدو أنها كانت آنذاك ما زالت تحاول الإمساك بناصية اللغة العربية مستعينة بأصدقائها المشجعين. فقد كان أحمد لطفي السيّد يقرأ هذه اليوميات بعد نشرها فيصحح أخطاءها ويمهر التصحيح بإمضاء «لطفي» ويرسله إليها[٢٦]. ومما يلفت النظر في هذه اليوميات تلك الحميمية التي كتبت بها ميّ وهي تكشف عن أفكارها وأحاسيسها في شيء من الصراحة ساعدها على ذلك تنكرها وراء اسم مستعار. أما لغتها فسهلة لا تتحرّج فيها من استعمال كلمات وعبارات عامية واضعةً إياها بين أقواس أحيانا وهادمةً الأسوار بينها وبين سائر النص أحيانا أخرى. ففي «كيف نصنع خيراً»، مثلاً تستعمل تعبير «صديقات على الموضة» واضعة إياه بين قوسين كبيرين، كما إنها تستعمل كلمات عامية عند نقلها لمضمون محادثاتها الهاتفية مع صديقاتها. وفي «جيراننا والموسيقى» ترد عبارة «يكسرون دماغي» دون أقواس أما «ست طيبة» فمحاطة بأقواس.

يذهب جلّ الذين كتبوا عن ميّ إلى أنها لم تكن تعنى بالسياسة. ولعلها نفسها قد أسهمت، إلى حد ما، في خلق هذا الانطباع الخاطيء عندما كتبت إلى أمين الريحاني عام ١٩١٦ قائلة: «إن معارفي السياسية قليلة جداً وأعترف بأنني متطفلة إذا ما تهجمت على تواريخ الشعوب ومصيرها»[٢٧]، ونظرة إلى هذه المقالات، وحتى المبكرة منها، تظهر وعيا سياسياً. ففي ميدان السياسة العالمية نجد ميّ تتخذ موقفا واضحا من ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى كما يتضح مثلا من يومياتها («الكولتور» الألماني): «إني منذ إشهار الحرب أتحاشى كل ما هو ألماني من مؤلفات وموسيقى وفنون. إن ألمانيا التي تدوس حقوق الضعفاء، وتتبختر على الأقوياء،

وتفتك بالأطهار والأبرياء، ألمانيا الضخمة التي تحاول هدم مدنية شيدتها مدنيات، لا تستحق أن تكرم الآن بأفرادها، مهما كان أولئك الأفراد عظماء وأبرارا». وقد وصل اهتمامها بالسياسة إلى درجة أكبر في مقالاتها على صفحات «الأهرام» -وهي مقالات كانت منسية تماما حتى الآن- في عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١. ففي مقال «حول خطبة المستر بولدين» تهاجم ميّ أوربا الاستعمارية: «لأنه رغماً عن مشاكل أوربا العديدة القائمة في داخل قارتها وفيما بين أقوامها، فالجميع يعلمون أن من أعظم تلك المشاكل التنافس على الاستعمار... إنّ الحرب الأخيرة لم تكن إلاّ مجزرة شنيعة رمي في صميمها إلى التوسع الاستعماري». وفي مقال «جائزة أتبرع بها لمجلة ساترداي ريفيو» موقف جريء من الاستعمار البريطاني الذي كان وراء إصدار قانون لتحديد حرية الصحافة في مصر: «الساترداي ريفيو الانجليزية شاءت أن تبدي رأيها في قانون الصحافة وأن تعرب عن اقتناعها بوجوب «كم الصحافة». أأنجليز حقا أولئك الذين يكتبون هذه الكلمات في صحفهم؟ أأنجليز هم ومن أبناء أول شعب عرف النظم الدستورية في الغرب وما زال في طليعة الأمم التي تقدر الثقافة وتحث عليها وتكبر معنى الحرية»[٢٨].

أما المقالات الأخرى -إلى جانب «يوميات فتاة»- التي نشرتها ميّ في «المحروسة»[٢٩] فيغلب على بعضها الطابع الصحافي وخاصة تلك التي نشرتها ميّ بإمضاء «خالد رأفت»[٣٠]. ولكن بعض هذه المقالات، وخاصة تلك التي نشرتها باسم «ميّ»، تدور حول مواضيع خطيرة مثل آراء ميّ بالتجديد في الشعر العربي (على ذكر القصيدة العمرية) وموقفها من الحركة النسائية (الحركة النسائية – اربع حلقات). ومما يلفت النظر هو قلة كتابات ميّ نسبياً حول تحرير المرأة إذا قارناها مثلاً بباحثة البادية التي رغم قصر عمرها (١٨٨٦-١٩١٨)، كتبت مجموعة كبيرة من المقالات عن

قضية المرأة في صحيفة «الجريدة» جمعتها فيما بعد في كتاب «النسائيات» (القاهرة، ١٩١٠). وحتى تلك الكتابات التي كتبتها ميّ حول المرأة تتسم بالاعتدال والتعميم وتجنب الخوض في أمور حساسة مثيرة للجدل كموقف الإسلام من المرأة. ويرى سلامة موسى أن كون ميّ لبنانية مسيحية نزيلة مصر أثر على مواقفها الحذرة من حركة تحرير المرأة في مصر[٣١]. ولا بد أن ميّ تعلمت درسا في الحذر بعد أن انتقدها الأديب المصري محمد لطفي جمعة بشدة عام ١٩٢٢ بسبب بعض آرائها. فقد هاجمها لأنها ربطت بين سهولة الطلاق وانتشاره في مصر وبين انحطاط منزلة المرأة في الأسرة زاعما أن هذه الفكرة «قد سرت إلى ذهن ميّ النقي من كتّاب الافرنج الذين يكتبون عن «الحريم» ما تمليه عليه مخيلاتهم الفنية»[٣٢]. وعندما أشارت ميّ إلى اختلاط العاطفة الدينية عند باحثة البادية بالمعاني القومية والاجتماعية رد عليها كاتباً «وهذه أيضاً فكرة أجنبية سرت إلى نفس ميّ الشرقية الهادئة في وقت من أوقات النزعات التفرنجية..»[٣٣].

أما مقالات ميّ في «المقتطف» فيغلب عليها الطابع الفكري والفلسفي وهذا يتماشى مع خط المجلة. وقد قام فاروق سعد في كتابه «باقات من حدائق ميّ: سيرة ميّ مع مقتطفات من تراثها» (بيروت، ١٩٧٣) بنشر مقتطفات من بعض هذه المقالات دون أن يبرر أسلوبه العشوائي في معاملة النصوص[٣٤]. ومقالات ميّ في «مجلة المرأة المصرية» تكشف جوانب متعددة من اهتماماتها.

ففي «المعرض المصري لجماعة الخيال» تتبدّى ناقدة فنية تتعامل مع الألوان والخطوط والأبعاد بحاسة مرهفة، وتناقش ميزانية العائلة بأسلوب الاقتصادي الضليع في «ميزانية العائلة وأهميتها». ولعل القارىء سيقف متأثراً أمام «ميّ في طريقها إلى مصر» (١٩٣٩) وهي كلمة أذاعتها ميّ من

محطة راديو الشرق في لبنان وهي في طريقها إلى مصر، بعد محنتها في لبنان وخاصة في «العصفورية»: «وأنت يا مصر التي تحنو تربتها على دفينيَّ الغاليين «والدي ميّ» سلاما! إنَّ لي في ربوعك ملكاً مساحته ثلاثة أمتار طولاً في مترين عرضاً! على تلك البقعة ترفرف أفكاري وعواطفي تطوف هناك بضريح لم تضع عليه يدٌ زهرةً منذ ثلاثة أعوام! يا واحة الأغاريد والأزهار أعدّي لي طاقة أضعها على ذلك الضريح».

لعلّ عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١ كانا من أخصب أعوام ميّ كتابة، ولعل كتاباتها في هذين العامين أقل شهرة من سائر الكتابات لأنها لم تجمع في كتاب قبل الآن. فما بين ٢٥ مارس، ١٩٣٠ و ٣ أغسطس، ١٩٣١ نشرت ميّ في صحيفة «الأهرم» وحدها اثنين وثلاثين مقالاً[٣٥]. وقد يكون لمقال ميّ «جبران خليل جبران يصف نفسه في رسائله» (١٩٣١) بعد أحد عشر يوماً من وفاته مكانة حاصة بين هذه المقالات. فللمرة الأولى تشير ميّ علانية لرسائل متبادلة بينها وبين جبران وتقتبس مقاطع من رسائله، ولكنها تظهر قدراً كبيراً من كبح جماح عواطفها لئلا ينكشف السر الأعظم. فعندما تتحدث عن نفسها في سياق الحديث عن جبران تستخدم ميّ ضمير الجمع لإيهام القارىء بأن العلاقات بين الاثنين رسمية: «وكان آخر كتبه الانجليزية «آلهة الأرض» الذي نعكف اليوم على قراءته». ثم تخلق انطباعاً بأن علاقاتها مع جبران كانت أخوية بعيدة عن العشق، فتخاطبه في نهاية المقال بأخي: «فهنيئاً لك برحيلك، يا أخي... حسناً فعلت بأن رحلت، يا أخي!».

● أعمال مي المخطوطة

حتى بصدور أعمال ميّ المجهولة هذه لا يمكن القول بأن كتابات ميّ المنشورة والمتداولة بين الناس قد اكتملت، فما زالت هناك أعمال نشرت

في دوريات لم أوفق في الحصول عليها [٣٦].

كانت الحقبة الأخيرة من حياة ميّ عصيبة وقاسية لم تنعم فيها بالاستقرار أو الهدوء النفسي. فعندما غادرت منزلها في القاهرة عام ١٩٣٦ تركت وراءها أوراقها ومكتبةً خاصة تضم سبعة آلاف مجلد. وبقيت ميّ في بيروت متنقلة من مستشفى إلى مصح إلى منزل مؤقت دون أن تملك من أمرها شيئاً حتى عودتها إلى القاهرة عام ١٩٣٩ لتكتشف أن مكتبتها قد سرقت ولم يبق منها إلاّ ألف وخمس مئة مجلد فقط [٣٧]. أضف إلى ذلك بحثها المضني عن منزل جديد بعد ضياع منزلها الأول ومعركتها المريرة أمام القضاء المصري لرفع الحجر عليها. فإذا علمنا أن ميّ توفيت بعد سنتين فقط من عودتها إلى مصر أدركنا أنه لم يكن لديها الوقت الكافي لإنجاز مشاريع كتابية جديدة أو إكمال الناقصة منها وإعدادها للنشر. فقد تركت ميّ أعمالاً مخطوطة ذكرها بعض أصدقائها ومعارفها أهمها «ليالي العصفورية» وفيها تسجل ميّ تجربتها في مستشفى الأمراض العقلية بلبنان. وبينما يذكر جميل جبر بأن هذه المخطوطة بقيت حتى اليوم مجهولة المصير [٣٨]، تقرِّر سلمى الحفار الكزبري أنها ما زالت محفوظة عند أنسبائها في لبنان وأنهم يرفضون السماح بجمعها ونشرها [٣٩]. وتشير الكزبري إلى مخطوطة أخرى بعنوان «المنقذون» كانت ميّ قد حدثت عنها الكثيرين وربما كانت قد أنجزتها أو في سبيل إنجازها، وفيها إيفاء حق للأصدقاء الذين هبوا لنجدتها في محنتها بلبنان [٤٠]. ويقال إنَّ ميّ كانت تعد دراسة عن الفينيقيين في أشعار هوميروس، وإنها عازمة على ترجمة كتاب المستشرقة الانجليزية مارغريت سميث عن رابعة العدوية إلى العربية [٤١].

وبعد،

تضم أعمال ميّ المجهولة هذه ١١٨ عملاً بين مقال ومحاضرة وخاطره

وكلمة وقصيدة نشرت في سبع دوريات بين عامي ١٩١١ و ١٩٣٩. وهي أعمال لم تتضمنها المؤلفات الكاملة لميّ زيادة التي نشرت في (بيروت، ١٩٨٢) ولم تجمع في كتاب. وقد ألحقتُ في نهاية هذه الأعمال قائمة بكتب ميّ المنشورة وقائمة ببليوغرافية تضم ١٣٣ مرجعا بين كتاب ومقال بالعربية واللغات الأجنبية.

سلمى الحفار الكزبري (توقيع)

جامعة ولاية أوهايو في كولومبس

١٩٩٥

الهوامش

١- مي زيادة : المؤلفات الكاملة ، ج٢ ، جمع وتحقيق سلمى الحفار الكزبري ، بيروت : مؤسسة نوفل ١٩٨٢ . ص ٢٦٥ .

٢- تكتب ميّ في رسالة إلى جبر ضومط عام ١٩٣١ : «أنا . . . لم أتعلم قواعد اللغة العربية ، أعني أني لم أتعلم منها إلا الأوليات التي يلوكها التلاميذ ولا يهتمون لها في المدارس الشرقية ذات الصبغة الأجنبية . نعم ، أستطيع أنْ أقول إني لم أتعلم العربية في غير حبي لها .» أنظر سلمى الحفار الكزبري : جمع ، تقديم وتحقيق) : ميّ زيادة وأعلام عصرها : رسائل مخطوطة لم تنشر ١٩١٢- ١٩٤٠ . بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٨٢ . ص ١٦٩

٣- هذه محاولة من ميّ للإتيان باسم جديد وإن كان يمت بصلة لاسمها الحقيقي ، فايزيس وهي أخت وزوجة أوزيريس ، إله الإخصاب المصري المفتوك به ، وباعثته إلى الحياة . ولعل هذا التداعي المسيحي لاسم «ماري» هو الذي دفعها لاختيار ايزيس و «كوبيا» ترجمة لاتينية لكلمة زيادة الإثراء .

٤- تذكر ميّ أن أحمد لطفي السيد أشار إليها عام ١٩١٤ بتلاوة القرآن «لكي تقتبسي من فصاحة أسلوبه وبلاغته» . أنظر : أهم حادث أثّر في مجرى حياتي . الهلال . س ٣٨ ، ع ٤ . فبراير ١٩٣٠ . ص ٤٠١ . وفي عام ١٩١١ ، أثناء اصطيافها في لبنان ، عكفت على ترجمة كتاب ماكس مولر «ابتسامات ودموع» . وتذكر سلمى الحفار الكزبري أن أول مقال كتبته بالعربية كان عام ١٩١٣ عندما اتخذت اسمها الأدبي «ميّ» بدلاً من اسمها بالولادة «ماري» .

٥- نشرت ميّ بعض المقالات في دوريات كانت تصدر في مصر مثل Le Progres; Le Journal; D'egypte . يذكر محمد عبد الغني حسن أن ميّ عاودت الكتابة بالفرنسية بعد وفاة والديها (أنظر كتابه : ميّ أديبة الشرق والعروبة . ص١٩٧) . وتكشف صديقة ميّ الشاعرة المصرية ايمي خير أنه كان لدى ميّ مخطوطات لقصائد بالفرنسية كانت تنوي طبعها قبل وفاتها ، «وأنا واثقة أن هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوةً وشاعرية . (المصدر نفسه ص ١٩٨) . ويقال إنَّ ميّ نشرت قصة (رواية؟) بالانجليزية بعنوان The Shadow on the Rock في مجلة Sphinx لم أوفق في الاطلاع عليها . ولها ، على الأقل ، مقال واحد بالايطالية نشرته في مجلة Oriente Moder-no ، م ٩ عام ١٩٢٩ ، ص ٦٠٤-٦١٣ .

٦- محمد عبد الغني حسن : ميّ أديبة الشرق والعروبة . القاهرة : عالم الكتب ، د .ت ص ١٥٩

٧- أسعد حسني : الآنسة «ميّ» زيادة وأثرها في النهضة الفكرية الحديثة . الثقافة (القاهرة) . س١ ع٢٦ ,٢٧ يونية ١٩٣٩ . ٢٠ .

٨- سلامة موسى : تربية سلامة موسى . القاهرة دار الكاتب المصري ، ١٩٤٧ ، ص ٣١٧

٩- فتحي رضوان : عصر ورجال . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧ ص ٣٣٥

١٠- المصدر نفسه . ص ٣٣٥

١١- منصور فهمي : محاضرات عن ميّ زيادة مع رائدات النهضة النسائية الحديثة ، القاهرة : مطبعة دار الهنا ، ١٩٥٥ . ص ١٧٠

١٢- حسن : ميّ أديبة الشرق والعروبة . ص ١٦٨

١٣- رضوان : عصر ورجال ، ص ٣٢٩-٣٣٠

١٤- يقول سلامة موسى : «استطاعت مي أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالاً كريهاً» . سلامة موسى : تربية سلامة موسى . القاهرة : دار الكاتب المصري ، ١٩٤٧ . ص٢١٧ .

١٥- لميّ قصيدة رثاء لأخيها نشرتها في ديوانها «أزاهير حلم» بعنوان «نجيب Lacrymosa» انظر ترجمتها العربية في سلمى الحفار الكزبري : ميّ زيادة أو مأساة النبوغ ، ج١ .. بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٨٧ ، ص ٧٩-٨٢

١٦- انظر مقالة : الغربة والإحباط وجبران آفاق عربية . س ١١ ، ع ٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٨٥

١٧- جميل جبر : رسائل ميّ : صفحات وعبرات من أدب ميّ الخالد ، ط٢ . بيروت : دار بيروت ١٩٥١ . ص

٨-٧

١٨- المصدر نفسه . ص ٥٧

١٩- الكزبري : مي زيادة أو مأساة النبوغ ، ج١ ، ص٣٢٦

٢٠- سلمى الحفار الكزبري (جمع ، تقديم وتحقيق) : ميّ زيادة وأعلام عصرها : رسائل مخطوطة لم تنشر ١٩١٢-١٩٤٠ . بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٨٢ ص ١٤٠ .

٢١- راجع قائمة كتب ميّ وترجماتها في ملحق هذا الكتاب .

٢٢- ترجم جميل جبر هذا الديوان تحت عنوان «أزاهير حلم» (بيروت ، ١٩٥٢) وظنه بعض الكتّاب ، خطأ ، الترجمة الكاملة لكتاب ميّ الفرنسي . بعض هذه المقطوعات كانت قد ترجمته ميّ نفسها ونشرته في المجلات المصرية فسطا عليه جميل جبر ونقله حرفياً دون الإشارة إلى ذلك ، وهي كما وردت في كتاب جميل جبر : «كآبة» (ص ١٢-١٤) كانت ميّ قد ترجمتها ونشرتها في «الهلال» ، س٣٣ ، ع٢ . نوفمبر ١٩٢٤ . ص١٣٠-١٣١ ؛ «خرافة مستحبة» (١٥-١٧) ترجمتها ونشرتها ميّ في «الهلال» ، س٤٤ . ع٣ . ديسمبر ١٩٢٤ . ٢٣٨-٢٣٩ ؛ «هذه الحياة الإنسانية» (ص١٨-٢١) . ترجمتها ونشرتها ميّ في «الهلال» ، س٣٣ ، ع٤ . يناير ١٩٢٥ . ص٢٥٤-٣٥٦ ؛ «وداع لبنان» (ص٢٢-٢٥) ترجمتها ونشرتها ميّ في «المقتطف» ، س٦٥ ، ع٤ . نوفمبر ١٩٢٤ ص٣٧٧-٣٧٩ ؛ «ألحان الخريف» (ص٢٧- ٣١) ترجمتها ونشرتها ميّ في «المقتطف» ، س٦٥ع٥ . ديسمبر ١٩٢٤ . ص ٤٩٠-٤٩٣ ؛ «من يوميات عائدة» (ص ٣٢-٤٤) ترجمتها ونشرتها ميّ في «الهلال» ، س ٣٣ ,١٩٢٤ . ص ٨١٧- ٨٢١ . ولم يضمّن جميل جبر كتابه قصيدة «ارتياب» التي كانت ميّ قد ترجمتها ونشرتها جنبا إلى جنب مع الأصل الفرنسي في مجلة «الرسالة» ، س٣ ، ع٨٠ ، ١٤ يناير ١٩٣٥ . ص١٢ . وقد قدمتها إلى الشعراء لينقلوها نظما إلى العربية متبرعة للفائز بجائزة مالية قدرها جنيهان مصريان . انظر تعريفا بمحتويات الديوان في فاروق سعد : باقات من حدائق ميّ : سيرة ميّ زيادة مع مقتصفات من تراثها ، ط٣ . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٣ . ص ٣٧٥-٣٧٧ ، هامش رقم ٦٦ . تذكر سلمى الحفار الكزبري (ميّ زيادة أو مأساة النوغ ، ج١ . ص١٤٩) أن ديوان ميّ الفرنسي يحتوي على ثلاثة وأربعين قصيدة وثلاث مقطوعات نثرية ومذكرات وخواطر باللغتين الفرنسية والانجليزية . بينما لا يتضمن«أزاهير حلم» كما أصدره جميل جبر سوى ثماني عشرة قطعة .

٢٣- عثرت سلمى الحفار الكزبري بين أوراق ميّ على ملاحظة مؤرخة في ٣ أكتوبر ١٩٣٥ مفادها أن ميّ كانت تعد لإصدار الجزء الثاني من كتابها«كلمات وإشارات» ، لكن مرضها حال دون ذلك . (الكزبري : ميّ زيادة ، ج٢ . ص٢١٧) . وتنفيذاً لرغبة ميّ التي لم تتحقق في حياتها جمعت الكزبري بعض مقالاتها وخطبها التي نشرت في الدوريات العربية بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٤٠ في كتاب صدر عن مؤسسة نوفل في بيروت عام ١٩٨٤ ، وأضافته دار النشر هذه إلى المؤلفات الكاملة لميّ الصادرة عام ١٩٨٧ .

٢٤- نشرت سلمى الحفار الكزبري وسهيل بشروئي ما حصلا عليه من رسائل جبران إلي ميّ بين عامي ١٩١٤-١٩٣١ في كتاب «الشعلة الزرقاء : رسائل جبران خليل جبران إلى مي زيادة» (دمشق : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٩) .

٢٥- الكزبري : ميّ زيادة مأساة النبوغ ، ج١ . ص١٩٥-١٩٦ .

٢٦- الطناحي : أطياف من حياة مي . ص ١٥٣ .

٢٧- البرت الريحاني : أمين الريحاني ومعاصروه : رسائل الأدباء إليه . بيروت : دار الريحاني للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ . ص١٦٥ .

٢٨- استخدمت ميّ في مقالاتها الأولى أسلوب الدعابة للتعامل مع الرقيب . ففي «رسائل العيد وتبريكاته» (١٩١٥) تكتب : «أقول هذا تطمينا لجانب قلم المطبوعات أفندم حضرتلري كي يرأف بأسطري البعيدة عن كل ما يستحق صواعقه ، «جميع المصائب تهون إذا كان قلم المطبوعات راضياً» .

٢٩- هناك مقال بعنوان «ذكرى خميس الجسد» نشر في «المحروسة» دون إمضاء ، ولكن القرائن تدلك على أن ميّ هي كاتبته .

٣٠- اعترفت ميّ في ذيل مقالها «المجمع اللغوي» المنشور في كتابها «المد والجزر» (القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص٣٨) بأنها كتبت هذا المقال ومقالات أخرى حول موضوع اللغة العربية بتوقيع «خالد رأفت» . ومن الظريف أن ميّ في مقال «المرأة الاجتماعية» (١٩١٩) لم تنجح في الاختفاء وراء قناع هذا الاسم الرجالي فزلّ قلمها ووشى بحقيقة جنسها : «ونحن اللاتي نقلد الأوربيات في كل شيء لا بد أن نقلدهنّ في ذلك الارتقاء المتعالي فوق ارتقاء الآلات

والأزياء . هن تألمن في هذه السنوات الأربع فاتخذن المهن سلماً للارتقاء . فلنذكرن أننا نتألم من زمن طويل» .

Musa, Salamah. The Education of Salama Musa. Translated by L.O. Schuman. Leiden: E.J.Brill, PP. 247-248.

٣٢- انظر مقاله : باحثة البادية والآنسة ميّ . مجلة المرأة المصرية . س٢ ،ع٧ . فبراير ١٩٢٣ . ص ١٧٩ .

٣٣- محمد لطفي جمعة : باحثة البادية والآنسة ميّ . مجلة المرأة المصرية . ص٢ ،ع٨ . مارس ١٩٢٣ ص ٢٠٣ .

٣٤- تضمنت الصيغة المبكرة من هذا الكتاب النصوص الكاملة لتسعة مقالات إضافية نشرتها ميّ في مجلة «المقتطف» بين أغسطس ١٩١٨ ومارس ١٩٣٥ هي «هنري برغسن» (حلقتان) ، «العقل والقلب» ، «الدويج فان بتهوفن» (حلقتان) ، «جبران خليل جبران» ، «تطور اللغة العربية» ، «حكاية مسافر وما يتفرّع منها» ، «پيراندللو ومسرحياته الوجيعة» ، «ميجيل دي أونامونو» ، و «ليون دوديه» . وقد كان فاروق سعد قد نشر ستة منها مبتورة في كتابه باقات من حدائق ميّ» . وقد حذفت هذه المقالات التسعة بعد أن قام أنطوان القوّال بنشرها كاملة في كتابة «ميّ زيادة : نصوص خارج المجموعة . بيروت : دار أمواج للطباعة والنشر ،١٩٩٣» .

٣٥- يدعي محمد عبد الغني حسن أن ميّ توقفت عن الكتابة من سنة ١٩٣٠ حتى سبتمبر ١٩٣٥ عندما خطت رسالة لابن عمها جوزيف زيادة (أنظر كتابه : مي أديبة الشرق والعروبة ، ص٤٥) وهو زعم تدحضه مقالات ميّ في «الأهرام» التي تنشر هنا لأول مرة في كتاب ، وعدد المكتوب منها عام ٣١ هو ثمانية عشر مقالا . ويرتفع عدد كتابات ميّ المنشورة في فترة الانقطاع المزعومة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما نشرته في «المقتطف» (خمسة مقالات بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥) و «مجلة المرأة المصرية» (سبعة مقالات ورسالة واحدة بين عامي ١٩٣١و١٩٣٩) .

٣٦- هناك إشارات لمقالات نشرتها ميّ آخر حياتها ولم تجمع في كتاب . ومن المرجح أن آخر مقال نشرته ميّ كان «تحية الاعياد» ، مجلة الطالبة ، س٣ ،ع٩ . يناير ١٩٤١ . (ذكرته الكزبري في : مي زيادة أو مأساة النبوغ ، ج١ . ص١٩٧) . ونشرت ميّ ثلاثة مقالات في صحيفة «المحروسة» هي : «الموت والانتحار» ، ٢٠ نوفمبر ؛ «فلسفة التشاؤم» ، ١٠ ديسمبر ؛ (ذكرتها الكزبري في : ميّ زيادة أو مأساة النبوغ . ج٢ . ص١٦٥ . أما آخر محاضرة ألقتها ميّ في الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعنوان «عش في خطر» في أوائل عام ١٩٤١ فنصها مفقود . (أنظر : ميّ زيادة أو مأساة النبوغ ، ج١ . ص ٢٨٣-٢٨٤) . وكانت الكزبري قد أشارت إلى أن هناك ثلاث محاضرات ألقتها ميّ في الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٢٨ نصوصها مفقودة . (المصدر نفسه ، ص٢٧٩-٢٨٠) .

٣٧- هذه المعلومات مستقاة من إحدى رسائل ميّ . (انظر الكزبريك ميّ زيادة وأعلام عصرها . ص٥٠٣) .

٣٨- أنظر مقالة : ميّ زيادة في العصفورية . الحسناء ،ع ٦٧٠ ، ٦ يوليو ١٩٧٤ ، ص١٧ .

٣٩- الكزبري : مي زيادة أو مأساة النبوغ ، ج١ . ص٢١٥-٢١٦

٤٠- المصدر نفسه . ص٢١٧ .

٤١- المصدر نفسه . ص٢١٧ .



مجلة "الزهور":

١- الفريد ده موسيه
٢- القدر والمقدّر
٣- شيء عن الفن (١)
٤- شيء عن الفن (٢)
٥- كيف نقيس الزمان



ألفرد ده موسّه

ALFRED de MUSSET

اذكريني كلما الفجرُ بدا ... فاتحاً للشمس قصرَ الذهبِ
واذكريني كلما الليلُ مضى ... راكضاً بين جنود الشهبِ
وإذا ما صدرك ارتجَّ على ... نغم اللذات وقتَ الطربِ
أو دعاكِ الظلُّ يا ميّ إلى لذة ... الأحلام عند المغربِ
فاسمعي من داخل الغابِ صدى ... صارخ فيهِ يناديك اذكري

اذكريني إن غدا صرف القدَرْ ... فاصلاً ما بيننا للأبدِ
يومَ لا تبقي الليالي والعبرْ ... من رجاء لفؤادي الكمدَ
واذكري حباً به قلبي انفطر ... ووداعاً ذاب منهُ كبدي
وإذا الحبُّ على القلب انتصر ... غلب البعد وطول الأمد
وأنا ما عشتُ يكفيني خبر ... منكِ والقلبُ يناديك اذكري

اذكريني عندما ألقى المنونا ... ويضمُّ التربُ ذا القلب الكسيرْ
عندما تفتحُ للفجر الجفونا ... زهرةُ القفر على قبري الحقيرْ
لن تري من بعدها ذاك الحزينا ... إنما نحوكِ روحي ستطير
وبها أبقى على العهد أمينا ... جاعلاً حبك لي خير سمير
واسمعي من جانب القبر أنينا ... هاتفاً في ظلمة الليل اذكري

هذه أبيات عرَّبها عن الفرنسية حضرة الدكتور نقولا افندي فياض[1] ، ولا شك في أن هذه القصيدة عصرية الفكر واللهجة لأنها نُظمت سنة ١٨٤٢ ، وقد وضع لها ألحاناً تناسب معانيها الشجية بعض الموسيقيين وأجمل هذه الألحان وأحبها إلى عشاق البيانو والكمنجة -لأنها أكثر وقعاً في النفس- نغمة ابتكرها الموسيقي الفرنسي جورج روبيس .

وناظم هذه الأبيات بالفرنسوية هو الذي يسميه الفرنساويون «شاعر الشبيبة» . هو ذاك الذي لا ينساه أبداً من قرأه مرةً ، بل كلما قلّب صفحات بعض الكتب الغزلية تعود إليه تلك المعاني البديعة ، والتعبيرات المحزنة التي تصدع القلوب ، فيكاد يرى ما بيَن يديه من القصائد ، إذا ما قابل بين هذه وتلك ، سبك أسجاعٍ فارغة ، وتلاحم اصطلاحات لغوية وكتابية ثقيلة ، وثرثرة جالبة الصداع لفقدانها معانيَ العواطف ، وعجزها عَن إظهار آثار الآلام الروحانية .

يقلّب القارىء صفحات الكتاب فتحول بين نظره والمجلد صورة الاشعر الفتى : رقة في الجسم ورقة في الشعور ، خيالات أحلام متتابعة تجول في مياه العينين الصافيتين ، علامات الذكاء الوقاد مرسومة على الجبهة الجميلة تحت طيات الطرّة الذهبية ، وعلى الشفة تحوم شبه ابتسامة ، مزيج هيام ومرارة . . .

هو فتى العذابات والدموع الذي عندما تذكره يتبادر إلى ذهنك اسما «بايرن»[٢] الانجليزي «وادجر ألن پوو»[٣] الامريكاني . لأن في كتابات هؤلاء الثلاثة شيئاً من المشابهة والمقارنة ، وكثير من شعب تخيلاتهم تتلامس في سماء الغزل ، كما إنك تجد في حياة كل منهم ظروفاً ومميزات تجعله أشبه بالآخر برغم سكناهم بلاداً تختلف باللغة والتقاليد .

قيثارة ساحرة أوتارها العواطف ، وأغنيتها النوح ، وقرار هذا النوح قروح القلب ! شاعر الشبيبة في كل آن ومكان «ألفرد ده موسه» من لا يعرفهُ ولو بالإسم على الأقل؟

ولد ألفرد ده موسه في باريس سنة ١٨١٠ وتلقن دروسه في مدرسة هنري الرابع حيث امتاز على أترابه بحدة ذكائه وقوة شاعريته . وبعد خروجه من المدرسة أخذ يدرس الشريعة ثم الطب . لكن مشاكلات المهنة الأولى والمنافرات التي لا بدَّ منها فيها ، وشناعة التشريح وكراهته في المهنة الثانية أحدثت نفوراً في روحه الشديدة التأثر فعدل عنهما ، وصار يمضي أكثر أوقاته في جنائن باريس وضواحيها حيث يختلي بذاته ويطلق العنان لتأملاته ويهيم ساعات طويلة في عالم الخيالات والأحلام .

وكان إذ ذاك فريقٌ من الأدباء والشعراء الفرنسيين قد ألّفوا جمعية دعوها «سناكل» (Cenacle) الغرض منها العمل على ترقية الشعر وتسهيل بعض الصعوبات التي تقيد فكر الناظم وتحدد حرية قلمه . وكان شاعر فرنسا الكبير «فكتور هوجو»(٤) رئيس تلك الجمعية . فدخلها موسه ولاقى فيها ما تتوق إليه نفسه من التحكك بمثل هذه النفوس السامية ، والعقول الراقية ، والقلوب الرقيقة . لاقى شعراء مثله ، وذكاء مثل ذكائه ، ومحاورات أدبية فنية مفيدة ، وأصدقاء يفهمون طبيعته وأخلاقه ويقدرونها حق قدرها ، بالنسبة لاشتباك مجانسات تخيلاتهم ومطالبهم . ولا شيء في الدنيا يشبه الروح الذكية أكثر من روح أخرى ذكية ، والعكس بالعكسَ .

دخل موسه في جمعية كان هو أصغر أعضائها سناً ، إذ لم يكن له من العمر سوى ثماني عشرة سنة ، فسعد حيناً . وكان الجميع يدعونه تحبباً بنيامين أو «الفتى الهائل» (l'Enfant Terrible) فكتب قصائده الأولى متقلداً فيها تارة الشاعر الفرنسي «اندره شنيه»(٥) ، وطوراً فكتورهوجو ذاتهُ ، وعرب في الوقت نفسه عن الانجليزية كتاب «تومس دوكانسي»(٦) المعنون «اعترافات أفيوني» (Confessions of an opium-eater) .

ولما لم يكن والد الفتى الشاعر راضياً عن حياة ولده على هذه الكيفية التي لا فائدة منها -على زعمه- أراد أن يضعهُ في وظيفة تضمن له سعادة مستقبله المادية ، لكن ألفرد لم يرد تضحية حريته العزيزة ، وإضعاف ذكائه الفريد ، واستعداداته الأدبية في مثل هذه الأشغال الاعتيادية . فأبرز إلى عالم القراءة مجموعة أشَعاره الأولى ، وكان عمره نحو عشرين عاماً . فكان لظهور هذا الكتاب دوي عظيم بين ذوي الأقلام ، وانتقدتهُ الجرائد ، وذمهُ الناقدون وسخط على مؤلفه أعضاءُ الجمعية لأنهم رأوا أن «بنيامينهم» شط عن الخطة المحدودة ، غير مبال بَقوانين النظم عندهم ، وهم لم يكونوا نفوا تماماً قواعد الشعر المدعو بالكلاسيك (Classiqe) وكانت منظومات ده موسه تضرب كلها على نغمة جديدة

(romantique) لم يسبقها تمهيد في تاريخ الآداب الفرنساوية . وقد اتبع هذه الخطة شعراء فرنسا مدةً حتى أتى «ادمون روستان»[٧] فكان آخر هذه الفئة ، وزارع بذور الشعر الحالي الذي ينعتونه «بالمائل إلى الزوال» (decadent) وذلك لأن شعراء العصر يتصرفون بالأفكار والتخيلات والأوزان والأسجاع بحريّة لم يُسمع بمثلها من ذي قبل . وترى كثيرين يتعجبون كيف ضمت الأكاديميا الفرنسوية إلى أعضائها منذ شهرين تقريباً أحد هؤلاء الشعراء ، وهو «هنري ده رينيه»[٨] .

لم يبال ده موسه بالنقد والناقدين بل اكتفى برضى السيدات عن أشعاره ، وإعجاب الشبيبة الفرنساوية بمنظوماته . فانفصل عن أعضاء جمعيته انفصالاً تاماً ، ولم تمض سنة حتى نشر قصيدة أخرى أتبعها بمنظومات متعددة ، لم يفهم قيمتها ابناء تلك الأيام إلاّ القليلون منهم . ولما كان في الثالثة والعشرين من عمره اجتمع بالكاتبة الشهيرة جورج ساند[٩] ، وكانت هذه تكبره بخمس سنوات تقريباً ، وقد مثّلت هذه المرأة النابغة دوراً مهماً مؤلماً في حياة الفرد ده موسه ، وكان تأثير ذكرها في كتاباته عظيماً جداً حتى إنك تكاد لا تقرأ شيئاً مما كتبهُ بعد التقائه بها ، إلاّ وترى فيه رمزاً يدل عليها . تحكك ذكاؤه بذكائها ، وناهضت قواه الأدبية قواها ، فأحدث هذا التحكك وهذه المناهضة ، بين هذين النابغتين ، شعلةً محرقة ، كما يحدث في تلامس الأسلاك الكهربائية . وكادت هذه الشعلة تذهب بحياة الشاعر فأدرك الخطر وابتعد عنها ابتعاداً كليّاً (١٨٣٥) لكن ذكرها تبعه كيفما توجه . فنظم كِتابهُ إلي لامارتين[١٠] (Lettre a Lamartine) ، ولياليه (Les Nuits) وهو يعنيها دائماً وهذه القصائد تعدُّ من أبدع وأرقّ ماكُتب بالفرنساوية في هذا الباب .

وكانت أيام الفرد ده موسه الأخيرة معذبة تعسة ، حتى سئم الحياة وأضحى ينتظر الموت بفروغ صبر ، وتراكمت الأمراض على جسمه فأعيته وسحقت ، أو وزادت في سحق فؤاده ، وظل على هذه الحل حتى وافاه القدر في سنة ١٨٥٩ ، فتوفي على أثر مرض في القلب ، ولا عجب أن يموت شاعر القلوب من علة من قلبه . وآخر كلمات لفظها تدل على كثرة أحزانه وكرهه الحياة إذ قال : «سأنام

سأنام عن قريب والحمد لله !» .

وكانت الاكاديميا الفرنساوية انتخبته عضواً في سنة ١٨٤٢ كما أنه ظل سنين طويلة أمين خزانة الكتب في نظارة المعارف ، ولا يخفى ما في هذين المنصبين من الشرف الذي يتمناه كثيرون لأنفسهم ، لكن ألفرد ده موسه لم تكن تغره الظواهر الفارغة .

وقد كتب ما عدا منظوماته البديعة -وكان معاصروه يتهمونه بنقلها من منظومات لورد بايرن الشاعر الانجليزي- مجلدات نثرية متعددة ، وروايات تشخيصية أجاد فيها . فادعوا أيضاً أنها مسروقة من كتابات أدجر ألن پو الشاعر والكاتب الامركاني . وهذا شأن الحساد دائماً ، فهم يتهمون الممتاز عنهم بما يتصورونه ضده .

لا ، ألفرد ده موسه لم ينقل عن أحد ، وأعظم فضيلة فيه كانت فضيلة الإخلاص . لكن حياة كل من هؤلاء الثلاثة كانت تعسة جداً ، كأنه سبحانه تعالي يبخل بالماديات على الذين أغناهم بالأدبيات ، فإن معظم الرجال الكبار كانت حياتهم مفعمة بالأوجاع المتنوعة ، مما لا تذوقه الأرواح الاعتيادية ، والعقول الساذجة ، ولا عجب في ذلك .

هذه نظرة عامة في حياة ناظم «اذكريني» . فافتكر به أيها القاريء ولو برهة ، وارث لحاله ، وقل معي : سلام عليك أيها الراقد تحت الصفصافة ! سلام ورحمة !»

---

* الزهور .س٢ ،ع٥ .يوليو ١٩١١ .ص٢٥٧-٢٦٢٠

١- نقولا فياض (١٨٧٤-١٩٥٨) . طبيب وشاعر لبناني . درس الطب في باريس . أقام حوالي عشرين عاما في الاسكندرية بمصر عمل فيها طبيبا . عاد إلى بيروت عام ١٩٣٠ حيث عين مديرا للبرق والبريد . له بعض المؤلفات ومنها ديوانان .

٢- Lord Byron (١٧٨٨-١٨٢٤) .شاعر وكاتب انكليزي . ولد في لندن وتعلم في معاهدها ومن ضمنها جامعة كيمبرج . تجول في بعض الدول الأوربية . قدم إلى اليونان عام١٨٢٣ متطوعاً في ثورتها للاستقلال ، وفيها مات .

٣- EdgarAllanPoc(١٨٠٩-١٨٤٩) . شاعر وناقد وكاتب قصة قصيرة أمريكي . ولد في مدينة بوسطن بأمريكا . لم يفلح في تحصيله الجامعي كما أن تجاربه العاطفية كانت خائبة .عمل ناقدا وكاتب قصة قصيرة في بعض الدوريات في فلادلفيا ونيويورك .

٤ - Victor Hugo(١٨٠٢-١٨٨٥) . شاعر وروائي ومسرحي فرنسي ، وهو من أهم أعلام المدرسة الرومانتيكية . أخذ يعنى بالأمور السياسية فترك وطنه منفياً حين اعتلى نابليون الثالث العرش . عاد إلى فرنسا حيث توفي .

٥ - Andre Chenier (١٧٦٢ - ١٧٩٤) . يعتبر من أعظم شعراء فرنسا في القرن الثامن عشر . ولد في القسطنطينية حيث كان والده قنصلاً . اشترك في النشاطات الثورية في البداية . إلا أنه تحفظ من ممارساتها المتطرفة بعد حين ، فسجن وأعدم .

٦ - Thomas De Quincey (١٧٨٥-١٨٥٩) . كاتب انجليزي ، ولد في مدينة مانشتر بانجلترا ودرس في جامعة اوكسفورد ، بدأ بتعاطي الأفيون عام ١٨٠٤ فأدمن عليه . كانت له علاقات صداقة مع أعلام المدرسة الرومانتيكية الانجليزية . بدأ بنشر «اعترافات أفيوني» على حلقات في إحدى الصحف عام ١٨٣١ وأصدره كتاباً عام ١٨٢٢ وأعاد نشره معدلا عام ١٨٥٦ .

٧ - Edmond Rostand (١٨٦٨-١٩١٨) ، كاتب مسرحي فرنسي ، نال شهرة فجائية عند صدور مسرحيته الكوميدية Cyranode Bergerac (١٨٩٧) .

٨ - Henri de Regnier(١٨٦٤-١٩٢٦) . شاعر وروائي فرنسي ، درس ليعمل في السلك الدبلوماسي ولكنه آثر الانصراف إلى الكتابة شعراً ونثراً . عرف شعره بالنزعة الرمزية . في النصف الثاني من حياته نشر بعض الروايات والحكايات الناجحة .

٩ - George Sand(١٨٠٤-١٨٧٦) . اسم مستعار لروائية رومانتيكية فرنسية . نشأت في الريف وقد انعكس ذلك في رواياتها . قضت فترة من حياتها في أحد الأديرة . تزوجت إلا أنها عرفت بتعدد علاقاتها العاطفية خارج نطاق الزوجية .

١٠ - Alphonxe de Lamartine (١٧٩٠-١٨٦٩) ، شاعر وسياسي وخطيب فرنسي ، يعتبر من كبار الشعراء الرومانتيكيين ، تجلت قريحته الشعرية في العشرينات من عمره بعد موت المرأة التي أحبها . بدأ حياته الدبلوماسية عام ١٨٢٥ عندما عين سكرتيراً للسفارة في ايطاليا ، ولكنه انسحب من السلك الدبلوماسي عام ١٨٣٠ . دخل البرلمان عام ١٨٣٢ .

القدَر والمقدّر

الاعتقاد بالمقدّر من أهمّ الاعتقادات التي أثرت في حياة البشر في الأعصر الغابرة . وهو لا يزال متملكاً على أفكار ابناء اليوم وإن اختلفت كيفية اعتقادهم باختلاف مذاهبهم وآرائهم في عواقب الإنسان ، وتقسم هذه المذاهب إلى ثلاثة أقسام : الماديّون والقائلون بمذهب جمع الكائنات (ألوهية العالم) (Pantheistes) والروحيون .

فالماديون يعتقدون أن الإنسان ليس إلاّ مجموع أجزاء كيماوية تنحلُّ بالموت ثم تتفرق دقائقها ، وتنضم إلى أجرام أخرى فتصير لها ومنها . وعندهم أن لكل واحد من البشر أن ينتقي لحياته غاية ترمي إليها أغراضه ، وتطمح للوصول إليها أفكارهُ ، وتوقف عليها أتعابه وآماله ، أما قيمة الحياة فمتعلّقة بفضل صاحبها ، وهي تقاس بما تجلبه على العالم من الخير -أو الشر ؛ ولا يعبّر عنها عند الماديين إلاّ باللذة والألم . العلم الوضعي يحسب كل ما يراه ظواهر طبيعية ونتائج حركات آلية تتشابه كلها في نظره ، فلا تفرق ماهيتها إلاّ بواسطة الحسّ ، فيسمى الماديون ما يسرُّهم خيراً ، ويدعون ما يؤلمهم شراً ؛ وهم مع ذلك يؤثرون -نظرياً- خير المجموع على خير الفرد .

أما القائلون بألوهية العالم فيعتقدون أن كل جرم من أجرام الخليقة هو شكل بارز عن الجوهر الإلهي المنتشر في طبقات الكون ، وأن الروح بعد انفصالها عن الجسد تعود إلى ذلك الجوهر العظيم كما يعود الجسد إلى المادة الكلية التي تكوّن منها . وكان فيثاغورس(١) وافلاطون(٢) وغيرهما من فلاسفة الماضي يعتقدون بالتقمص (Metempsycose) ولا يزال الهنود والدروز إلى أيامنا الحاضرة يعتقدون هذا الاعتقاد . سواء غرقت الروح في بحر الحياة الكلية أم سكنت جسداً آخر ، فإن الشخصية الحقيقية تنتهي عند عتبة القبر . فلهم ، والحالة هذه ،

أن يعملوا في حياتهم كل ما يؤول إلى سرورهم وارتياحهم دون إفادة الغير . بيد أنَّ ذوي الأخلاق الكريمة منهم يسعون في نفع الجمهور ما استطاعوا .

والروحيون يؤمنون بأن الروح ابدية لا تفنى ، وأنها تحفظ بعد الموت ذاكرتها وسائر مميزات شخصيتها الجوهرية . هي لا تموت لأنها شعلة من روح مبدعها العظيمة ، فهي تعمل الحسنات وتسير في طريق الصلاح ، وتفيد وتستفيد ، وتُضحّي من لذاتها وراحتها شيئاً كثيراً بقصد الوصول إلى المصدر الإلهي السامي والتمتع بغبطة لا نهاية لها .

مهما تعدّدت المذاهب والمشارب فقد أجمع البشر على أن هناك قوة تدير حركة العالم ، ولكنهم اختلفوا في تسميتها . يسميها بعضهم «عناية» أو «إرادة إلهية» ، وينعتها آخرون بالـ (Determinisme Universel) وقد اصطلح الجميع على التعبير عنها بكلمة «قضاء» أو «قدر» .

***

وضع الأقدمون «القدَر» فوق جميع الآلهة . وهو في علم أديانهم (Mythologic) ابن «العدم» و «الظلمة» وهما الإلهان الوحيدان اللذان لم يكن لهما ابتداء ، ولكنهما انتهيا ، إذ أن «العدم» اضمحلّ في الخليقة كما أن «الظلمة» تلاشت في النور . «المقدّر» يقبض بيده على حظوظ البشر ، ويحكم فيهم كيفما شاء . وفي الخرافات القديمة أن أوامره منقوشة على صفحات من نحاس ، ولا قوة أرضية تستطيع أن تمحوها أو تغيّر منها شيئاً . كانوا يصوّرونه شيخاً طاعناً في السن كفيف البصر ، وتحت قدميه الكرة الأرضية وعلى رأسه إكليل من نجوم ، دلالة على خضوع السماء له ، يسراه تمسك القارورة المحتوية على حظوظ البشر ، ويمناه تقبض على عصا من حديد إشارة إلى سطوته وقدرته المطلقة ، وقساوته وصلابته في أحكامه .

وقد جاء في إلياذة هوميروس(٣) أن جوبيتير كان قد أراد إنقاذ هكتور من شر آخيل ، على أنهُ لما وزن حظّيهما ورأى أن هكتور سيموت لا محالة تركه وشأنه ، وكذا فعل «ابولّون» الذي كان يرافقه في غدواته وروحاته ويمده بالمساعدة ، فإنهُ ابتعد عنه لعلمه أن القدر لا يُعاند .

توالت القرون وسبحت الأفكار في فضاء واسع من الحرية العلمية فتناول الفلاسفة هذا الموضوع ودرسوه درساً مدققاً فنفوا وجود آلهة عمياء تلقي على البشر صواعق غضبها ونقمتها بحسب أهوائها ، ونسبوا «القدَر» إلى نواميس ثابتة وعلاّت رياضية تأتي بالنتائج التي ندعوها «قضاءً وقدراً» . وقال «ارسطو»(٤) إن الأقدار ناجمة عن قوتين : قوة خارجية ، وقوة داخلية أي آتية من نفس الإنسان . وكان جميع المفكرين الذين سبقوا ديكارت(٥) يقولون بوجود سلسلة علات آلية هي أساس النظام الكلي . ثم جاء ذلك الفيلسوف الفرنساوي وثبّت هذه القاعدة ، وأخرجها من دائرة المعقولات وأدخلها في دائرة الفلسفة الرياضية إذ شرحها شرحاً رياضياً ، وأسندها إلى قواعد علمية رأسها القاعدة التي تستند إليها جميع العلوم الطبيعية ، وهي أن لا شيء يموت بكل معنى الكلمة ، ولا شيء يحيا ، بل إن الموت كالحياة ليس إلاّ تقلّب المادة من حال إلى حال بحكم النواميس الأبدية التي تديرها ، وأنهُ لا بداية للكون ولا نهاية له ، بل إن كل حركة نراها إنْ هي إلاّ نتيجة حركة أخرى سبقت وهي تابعة لحركة أو لحركات تقدمتها . وفي العلوم الوضعية أنَّ كل ما في الكون حركات متتابعةمتوالية ، وأن كل حركة «فسيولوجية» تعقبها فينا نتيجة «بسيكولوجية» أو «فسيولوجية» . فالهضم مثلا نتيجة الأكل ، والغذاء نتيجة الهضم ، والدورة الدموية نتيجة الغذاء ، وانتظام الدماغ نتيجة الدورة الدموية ، والفكر نتيجة انتظام الدماغ . فلو لم تنتظم الدورة الدموية في أجسام «روجر بايكن» و «البرت كريسي» و«شورتز» ما عرفت اوروبا البارود ولا قُتل به ألوف الجنود وملايين المحاربين . ولو لم تنتظم حركة القلب عند مخترع التلغراف اللاسلكي لما خلصت الباخرة «كرباثيا» النفوس التي انتشلتها من الباخرة «تيتانيك» كما أنه لو أصاب مخترعي السفن مرضٌ ما ، لما سارت السفن في البحار ولا غرقت الملايين فيها . وقس على ذلك . لا شيء يستطيع الخروج من دائرة النظام العلمي وهذا النظام هو قدر الأقدمين الفلسفي بعينه .

***

أجل إن النواميس تظلّ ثابتة لا تتغير . الأجرام الكبيرة تسقط إلى الأرض بقوة

الجاذبية ، ولا تقدر أن تسبح في الجو ما لم يكن هناك من المواد الكيماوية ما يساعدها على معادلة ميزانيتها الطبيعية . شجرة التفّاح لا تستطيع أن تحمل عناقيد العنب ، كما أن الدوالي لا تثمر موزاً ، وكل ما في الكون مرتب محدود . يقول فولتر(٦) «قُدّر على الإنسان أن يكون له عددٌ محدود من الأسنان والشَعر والأفكار ؛ وقُدّر عليه أن يأتي يوم بهِ تسقط أسنانه ، ويقع شَعره ، وتتلاشى أفكاره» .

ثم يتابع كلامه قائلاً : بعض البلهاء يقول : «إن طبيبي البارع قد شفى عمتي من مرضها الخطر ، وزاد في حياتها عشر سنوات» .

«تقول ، أيها الأبله ، إن طبيبك شفى عمتك من مرضها ، ولكنه بفعله هذا ، لم يغلب إرادة الطبيعة ولم يعاكسها بل اتبعها . قُدّر على عمتك أن تولد في هذه البلدة ، وأن تمرض في يوم كذا بمرض كذا ، وقُدّر على الطبيب أن يسكن في هذه البلدة ، وأن تدعوه عمتك إليها ، وأن يلبي طلبها ، وأن يعطيها العلاج الذي شفاها . هكذا شاءت الظروف الجارية بأحكام الناموس الأبدي» .

«الفلاّح الجاهل يظن أن الجوَّ أمطر حقله اتفاقاً ولكن الفيلسوف يعلم أن الصدفة اسم بلا مسمّى . وأنَّ التراكيب الجوّية أوجبت وقوع المطر على تلك البقعة في ذلك اليوم» .

«من الناس من تخيفهم هذه الحقائق فيقولون إن بعض ما في الكون ضروري ، والبعض الآخر ليس إلاّ حوادث وعوارض . وأنا أجيبهم أنه لمن المضحك أن يكون نصف الكون مرتباً وتابعاً لنواميس ونظامات ، وأن يكون النصف الآخر مهملاً . عندما يتأمل المفكر ويبحث في دقائق هذا الموضوع يرى أن كل مبدإ يخالف الإقرار بالمقدّر لهو مبدأ مستهجن .

«لكن حكم على بعض الناس أن يفهموا قليلاً ، وعلى آخرين أن لا يفهموا مطلقاً وعلى غيرهم أن ينتقدوا الذين يفهمون وأن يضطهدوهم» .

ميّ

الزهور . س٣ ، ع٤ . يونيو ١٩١٢ ، ص ١٨١-١٨٦

١- Puthagoras (٥٨٠؟ - ٥٠٠ق م؟) . فيلسوف ورياضي يوناني . لم يتبق من آثاره شيء ، ولكن بعضها تداخل في مؤلفات تلاميذه . عني بالحكمة الصوفية وعاش زاهداً . يقال إنه كان واضع تقويم الحساب المشهور بجدول فيثاغوراس في الضرب . تركت فلسفته أثراً كبيراً على الفلسفة اليونانية الكلاسيكية والفكر الأوروبي في القرون الوسطى .

٢- Plato (٤٢٨؟-٤٣٧؟ ق م) . فيلسوف يوناني ، تتلمذ على سقراط وعلّم ارسطو . وضع أسس الفلسفة الغربية . بالرغم من ميله للعمل السياسي عكف على الكتابة الفلسفية . بعد إعدام سقراط عام ٣٩٩ ق م . ساح مع بعض الأصدقاء في منطقة البحر المتوسط . في عام ٣٨٧ أسس كلية أثينا للفلسفة والبحث العلمي .

٣- Homer شاعر ملحمي يوناني . هناك معلومات ضئيلة عن حياته وآثاره ويعتقد بأنه عاش إما في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . ولد في آسيا الصغرى ، وقيل إنه كان كفيف البصر . تنسب إليها ملحمتان هامتان هما «الالياذة» و«الاوذيسة» .

٤- Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق م) . فيلسوف يوناني . مؤسس مذهب «فلسفة المشائين» . ترك عدداً من المؤلفات التي عالجت مواضيع تتعلق بالمنطق والأخلاقيات والطبيعيات .

٥ Rene Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠) . فيلسوف ورياضي فرنسي ، درس عند اليسوعيين ، ولكن رجال الدين اضطهدوه نتيجة لأفكاره . كتب بالفرنسية واللاتينية . من أهم مؤلفاته التي أثرت في الفكر الغربي كتابه «مقالة الطريقة» Discourse dela Methode (١٦٣٧) . وفيه يشرح مبدأه «أنا أفكر إذاً أنا موجود» . توفي في السويد .

٦- Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨) . مؤلف فرنسي . ولد في باريس حيث درس القانون ، إلاّ أنه انصرف إلى الكتابة ولا سيما المسرحية . أفكاره الدينية المتحررة أوصلته إلى المنفى في انجلترا . أقام شطراً من حياته في روسيا وتوفي في سويسرا .

شيء عن الفن - ١

لقد عرف الإنسان الفنون قبل أن يعرف العلوم ، لأن مخيّلته اشتغلت قبل تنبّه أفكاره . المخيلة ضيف تائه على الأرض وهي أقوى القوى الأدبية . حركتها لا تبطل أبداً في الحياة ، بل هي كالقلب تشتغل دائماً وعملها مستمر متواصل في النوم وفي اليقظة . فيها تحفظ تذكارات الماضي وآثار ما تنقله إليها الحواس من مناظر وأصوات وأنغام وروائح وتأثيرات ، ومن مزيج هذه التذكارات والآثار تتكون أصول الفنون ، فيأتي التصور والابتكار عاملاً في توسيعها ، وزيادة فروعها وإتقان كمالاتها .

إذا أنت عدت بأفكارك إلى تاريخ الأعصر الغابرة تجد للفن المكان الأول في عظمتها ، ولا ترى للعلوم إلاّ زاويةً حقيرة في أسفار المنشئين وتواريخ المفكرين . أما الكليات الغربية التي تأسست في القرن الحادي عشر فلم تكن تشغل الطلاب إلاّ بالشعر القديم والأحاديث الحربية وتواريخ الآداب المختصة بأشهر شعوب العالم . فقد كان التلاميذ يدرسون اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرانية ، وربما العربية والآشورية أيضاً ، أو غيرها من لغات الشرق القديم ، بدلاً من الطبيعيات والكيميا والهندسة . ولم يدرسوا من تأليف الأقدمين إلاّ أشعارهم وتواريخهم وفلسفتهم ضاربين صفحاً عما كتبه بعضهم في الرياضيات .

على أن العلوم أخذت في الانتشار رويداً منذ القرن الخامس عشر . فتعددت الاكتشافات ، وزادت الأرباح ، وتكاثرت المداخيل الآلية فانصرف الفكر البشري إلى العلم التجاري ، وأمسى الفن شهيداً تقام له هياكل العبادة في أرواح الأفراد المفكرين من البشر . فالقرن العشرون الذي ندعوه عصر المدنية والنور ليس إلاّ عصراً ميكانيكيّاً تجارياً ! . .

قال رُسكن[١] الناقد الفني الكبير : «كل شعب يرتقي عنده الفن إلى ما يقارب درجة الكمال تسقط مملكته وتتلاشى عظمته» .

لست أدري إذا رأيت في حياتك صورة رُسكن ، أيها القاريء اللبيب . أما أنا فقد رأيتها ! وكثيراً ما أنظر إليها فأحاول نتف شعر لحيته عندما أذكر جملته هذه . إني أجهل أي عاطفة دفعته إلى كتابة هذه الخاطرة القاسية ، ولست أدري كيف يفسرها لو كان حيّاً . ترى كيف يمكننا أنْ نقدر قدر المصريين لو لم تكن لدينا بقايا هياكلهم وتماثيلهم ونقوشهم ، ونبوغ اليونان إن لم يكن بآدابهم وفنونهم ، وعظمة الرومان إن لم يكن بفلسفتهم وشعرهم؟؟

وإذا قابلت الشعوب الآتية بين هذه البدائع الفنية القديمة وبين آثار أجيالنا الحاضرة ، كبرج ايفل مثلاً . . . ألا تظن أنهم سيحكمون بأننا ، نحن ابناء الحاضر ، سليلة ابن نوح الملعون من أبيه خلقنا كي نكون عبيد ابناء عمينا المباركين ، ابناء القرون المنصرمة؟ . . .

يقول پول بورجه[٢] أحد أعضاء الاكادميا الفرنساوية «اثنان يفهمان الجمال الفني : العالم الراقي والفلاّح الساذج . وبين هاتين الطبقتين ، طبقة البشر العادية وهي كثيرة العدد ، ضيقة الفكر ، قاصرة المدارك ، باردة الروح» . ثم يأتي رُسكن ذو اللحية المنتفة قائلاً : «إن الفضيلتين اللازمتين لمحب الفن هما الحنان والصدق» . وكلاهما محق ، بل إنَّ كلام الواحد منهما يفسر فكر الآخر .

يعني رُسكن أنَّ كل مصوِّر ، أو شاعر ، أو موسيقي ، أو نقاش يجب أنْ يكون سريع التأثر ، رقيق العواطف ، دقيق الملاحظة ، صادق القلب ، أهلاً لأن يكون ترجمان الروح ، وناقل بدائع الأحلام من عالم الأوهام إلى عالم الوجود والإفادة . وهو يشترط في الشاعر والمصوِّر الحنانَ قبل الصدق لأن الحنان عاطفة طبيعية ثمينة ، وأما الصدق فهو عادة جميلة يكتسبها الإنسان بالتربية الحسنة ، والدرس ، ومعاشرة الصالحين ، ومناجاة الطبيعة . فلا تجد هاتين الفضيلتين بقوتهما العظيمة إلاَّ في فؤاد العالم المفكر وفي فؤاد الفلاح الساذج ، والاثنان أخوان !

أجل! لقد احتضنت روحُ الإنسان الفنونَ الجميلةَ منذ فجر المدينة، لكن ذاك الارتعاش الطاهر لم يعد مالكاً علي قلوبنا. لقد تلاشت أفكار آبائنا العظيمة وتحولت قوتهم في الأبناء إلى اقتدار على اختراع الآلات المتنوعة، والجهازات الغربية. وفي هذه وفي تلك من الاختلال بقدر ما في أجسام البشر من الاختلاط والتناقض. وأما الغرض من كل هذه الاختراعات المذهلة فهو ينقسم إلى قسمين: الأول خدمة احتياجات الإنسان الجسدية، والثاني، قتله بسرعة وسهولة..!

ولكن العلوم الراقية المجردة عن أطماع التجارة والأرباح، كالتي انعكف على اتقانها غليلوس[٣] ونيوتن[٤] وبسكال[٥] فنحن نضعها في صف المعارف الثانوية... لأن حب المضاربة والمكسب يصرعنا كما تصرعنا بهرجة الاكتشافات والاختراع.

ألا تظن أنَّ ذلك المفكر العظيم نيوتن الذي استنتج من كيفية سقوط التفاحة قاعدة الناموس الأبدي الذي يدير حركة العوالم الهائلة - ألا تظنه ناشئاً من نبت أفضل وأجمل من نبت تكوّن فيه فكر مخترعي الأجراس، الكهربائية، والعجلات والفونوغرافات؟ ألا تظنَ أنَّ هذه الاختراعات الدقيقة، الجميلة في ذاتها، تبرهن على دناءة الفكر العصري، وسقوط النفس البشرية من أوج الجمال إلى هوة التجارة، حيث تتطلب معاملة الأسواق غشاً وخداعاً وسرقة وخبثاً وكذباً؟..

لست أدري أمخطئة أنا أم محقة؟ لكن هذه الاكتشافات التي تهم الجمهور معرفتها، لا أظنها تؤثر في أرواح الأفراد كما تعمل فيها صور الفكر القديم وظواهر الفنية. إن هؤلاء الأفراد يؤثرون على بلادة الترفه المكانيكي شرف العمل الروحي. فهم يظلون مدى حياتهم عبيداً لأحلام الجمال اللطيفة، وذوي الأمزجة السريعة التأثر حيث تختلط الحدة بالدعة، والضحك بالغضب، والسكوت بالسرور، والتأملات بالخيالات الجميلة.

ميّ

الزهور . س٢ ، ع١٠ ، فبراير ١٩١٢ . ٥١٨-٥٢٢

١- John Ruskin (١٨١٩-١٩٠٠) . كاتب وناقد فني انجليزي . أكد على مساويء المجتمع الصناعي الجديد .

٢- Paul Bourget (١٨٥٢-١٩٣٥) . روائي وناقد فرنسي . قطع دراسته للطب والفلسفة ليتفرغ للأدب . بدأ حياته الأدبية شاعراً . صور في روايته أسلوب حياة الطبقة الفرنسية الثرية . كتاباته تتعرى عن نزعة ملكية وإيمان بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

٣- Gallleio (١٥٦٤-١٦٤٢) . عالم رياضيات وفلك وفيزياء إيطالي إليه يعزى وضع الطريقة التجريبية . من خدماته الكثيرة للعلم تحسن التلسكوب لمراقبة الأفلاك والكواكب . اختلف مع الكنيسة لأنه قال بدورة الكواكب حول الشمس .

٤- Isaac Newton (١٦٤٣-١٦٤٢) . فيزيائي ورياضي انجليزي أرسى أصول حساب التفاضل والتكامل ، درس نظام حركة الكواكب وأتى بنظريات أدت إلى اكتشاف نظرية الجاذبية .

٥- Blaise Pascal (١٦٢٢-١٦٦٢) . فيلسوف وفيزيائي وكاتب فرنسي ، أظهر في صغره ولعاً شديداً بالرياضيات . هاجم اليسوعيين بأسلوب سهل ساخر . من منجزاته العلمية وضعه لقانون السوائل المعروف بـ «مبدأ بسكال» .

شيء عن الفن - ٢

كتبتُ في مجلة «الزهور» مقالا تحت هذا العنوان ، فتفضلت السيدة لبيبة هاشم[1] بالردّ عليَّ مبديةً رأياً غير رأيي . فلم يذهلني ذلك لعلمي أن قيمة الفنون الجميلة في نظر السيدة لبيبة توازي قيمة خرافات العجائز «وقصص الغول وعنقاء بنت الريم» في نظر الفيلسوف الباحث ، فضلاً عن أنَّ حضرتها تسيء الظن في جماعة الفنّيين وربما تحسبهم أعضاء عليلة في جسم المجموع الإنساني . فلذا أظنها مستحسنة في سرّها أنْ يمرَّ الطبيب آلته الكهربائية على جسم كل واحد من أفراد هذه الزمرة الخبيثة : زمرة الموسيقيين والمصورين والنقاشين والشعراء ، لعلهم يعودون من مسارح أحلامهم البليدة إلى عالم المحسوس !!!

لكنَّ شيئاً آخر أذهلني في مقالها ، وهو اتهامي باحتقار العلوم . سامحها الله ؛ نعم قد اتهمتني ! لقد نسبت إليَّ أقوالاً لم أرد قولها ، وصوّرتني صورةً جميلة قبيحة (لكنها قبيحة أكثر منها جميلة) في وقت واحد ، إذ جعلتني فتاة «تنظر من سماء أحلامها الذهبية إلى عالم الاختراعات العصرية والاكتشافات العلمية نظرة الاحتقار والازدراء» . فتاة غريبة الأطوار ، مستقلة في دوائر أحلامها ، متكبرة متوحشة مع كثير من البلاهة -كدت لا أعرف نفسي في هذه الصورة ، ولكني لم ألبث أنْ فكّرتُ في أنَّ الصديقة الفاضلة تقصد مداعبتي . ولعمري أني أحبُّ مداعبة يدها اللطيفة وإن ظلمت وجارت .

***

يتنازع السيادة في عالم الأفكار عنصران : العنصر الروحي والعنصر الماديّ . فالماديّون يقولون إن الغنى هو السعادة وإن أهم واجبات الإنسان هو السعي وراء الثروة للتوصل إلى السعادة عن طريق التجارة . والروحيون يعتقدون أنَّ الإنسان

خُلق لغاية أسمى من الغنى ، وأن سعادته الحقيقية لا توجد في التجارة ولا تتأتّى من الأرباح الناتجة عنها ، فيذهبون إلى لقياها الأرواح ، باحثين عن الجمال المطلق المقرون بالكمال المطلق ، وهذا هو المحور الذي تتيهُ حولهُ الأنفس الملتهبة بنيران حبّ الجمال وحبّ الحقيقة . فهذه الفئة (وهي من أعلى طبقات البشر أدبياً) لا تجد حظوى في عيني صاحبة «فتاة الشرق» الفاضلة . وهي تقول في كل فرد من أفرادها إنه «يظلُّ مقصراً في معارفه وشرائعه وآدابه وسائر نظاماته» (وا أسفاه عليه ! ! !) ، وإنه «يظلُّ بليداً وحيداً بأفكاره يعملُ لخدمة نفسه وسرورها فينصرف إلى بهرجة الفنون الجميلة ويلجأ لنظم القوافي في ظلال البنايات الضخمة صارفاً في سبيلها الوقت والتعب جزافاً» (ياللخسارة ! !)

يعلم اللّه أني لا أريد الدفاع عن الفنّ ومحبيه لأنه من المستحيل أنْ يقنع أحد الطرفين خصمه ، ولو كان محقاً ، ولعلمي أن الحرّية الأدبية مزيّةٌ غالية ، وأنَّ لكل إنسان حريته في اعتقاداته وآرائه . لكني أودُّ أن أستفهم حضرة الكاتبة لماذا يا ترى يظلُّ محبُّ الفن مقصراً في معارفه وشرائعه وآدابه ، كما تزعم حضرتها؟ ألأنهُ لا يدرس «المكانيك» ، وهل كل الناس يدرسون هذا الفرع من العلوم؟ إنَّ لكل مخلوق خطة يسير فيها فهو لا يتقن من العلوم إلاّ الفرع الذي يستخدمه لقضاء حاجته والسير في خطته .

ومع ذلك فإننا نرى معارف محبي الفن تزيد على معارف غيرهم لأنهم يميلون طبعاً إلى البحث في كلّ مهمّ مفيد ، وإلى استكشاف كل جديد .

ولماذا يظلُّ الغنيُّ مقصراً في آدابه؟ إنَّ من أحبَّ شيئاً برهن على أن في روحه جوهراً يشابه جوهر الشيء المحبوب ، ومن أحب الفنّ فقد أحب الجمال والكمال ، لأن الفنّ صورتهما . ففي روح الشاعر إذاً شغف بالجمال وميل إلى الكمال ، فهو والحالة هذه أقرب الناس إلى ما هو حسن ، والأدب أحسن الاجتماع . يقول صديقنا روسكن : «إن روح الشرير لا تقدر أن تفهم الجمال والكمال ، بل إن الأرواح الجميلة الطاهرة الشريفة تقدرهما حق القدر لأنها من أمثالهما»وأود أن أضيف إلى هذا خلاصة ما قرّره علماءُ الفلسفة الاجتماعية وهو

أنَّ العلم شيء والأخلاق شيءٌ آخر . فإنْ لم تصدقني السيدة لبيبة فعليها بكتب «هربرت سبنسر»(٢) وكتب غيره من المفكرّين أمثاله الذين يقولون إنَّ مفعول العلم والدرس يتجسم في القوى العقلية ، وقد يؤثر أحياناً في الأخلاق لكنه لا يؤثر دائماً .

أما قول صاحبة «فتاة الشرق» إن الشاعر يظلُّ بليداً ، فهذه مسألة فيها نظر بل نظران وأكثر . فعليها ببدائع «شوقي»(٣) وبتأملات «الخليل»(٤) فإن هذه وتلك تظهر شيئاً من العظمة والجمال وغيرها من الصفات الباهرة التي تميز روح الشاعر . أما وحدة الفنيّ وميله إلى العزلة ، فإن الفيلسوف العصري «ماترلنك»(٥) ينبئها عنى أن «الأرواح الاعتيادية لا تفهم أسرار العزلة وفوائد مناجاة النفس ، مع إن الانفراد أحياناً رياضة ضرورية للقلب والعقل . وإن الروح التي لا تشعر بالاحتياج إلى الانفراد هي روح فاسدة» ، ثم يهتف هذا الفيلسوف نفسه قائلاً مع كارلايل(٦) الكاتب الانجليزي : «يامحبي العزلة والصمت ، أنتم ملحُ العالم ، فإن لم تكونوا فيه ، فسد !» ثم فلتذكر حضرتها أنَّ حبَّ الذات هو محرّكُ أعمال كل واحد من البشر ، سواء كان شاعراً يقرض الشعر أو فلاّحاً يحرث الأرض ، لكن هذه العاطفة الغريزية تظهر في كل إنسان مظهراً مختلفاً متغيراً بتفاوت الأطباع والأميال والمدارك . وقصارى الكلام أني أؤكد للسيدة لبيبة أنَّ حبَّ الفن منحة إلهية تخلق مع الإنسان وتنمو فيه على التمادي كلما تقدم في السن ، هي صفة جميلة غريزية لا اكتسابية كالعلوم واللغات والصنائع . هي نفحة من روح اللّه الأبدية السرمدية . وليس القصد من الفنون البهرجة ، كما تظنُّ حضرتها ، وإنما القصد منها تلطيف الشعائر ، وإعلاء الفكر وتجريده عن الدنايا ، ولمس الروح بيد الجمال ودفعها إلى ما هو عظيم شريف . القصد منها تهذيب الأميال وإفهام الإنسان أنَّ القوى الإلهية الراقدة في طيات نفسه تفرض عليه واجبات ، حبها شرف ، والعمل بها مجدٌ لا يضاهى . القصد منها تنوير الأفهام وتنبيه العواطف الكريمة في قلبه ، كالشجاعة والمروءة والصدق والحزم والرحمة . ولئن عجبت من قول رسكن «كل شعب يرتقي عنده الفنُّ إلى الكمال تسقط مملكته» فلأنَّ

هذا الرجل لم يكتب إلاّ لإعلاء شأن الفن وتمجيده وعظيمه ، وإظهار الخطة التي يجب على كل فنّي اتّباعها . ليس لرُسكن فلسفة ، إنْ لم تكن فلسفة الانتقاد الفني ، وأراهُ أعظم ناقد فني في انجلترا بل في أوروبا بأسرها إذا وضعنا معهُ «فاين» الفرنساوي الكبيرَ . وقد ظهر رُسكن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وتوفي منذ سنوات قليلة .

تقول حضرة الكاتبة أيضاً إنَّ لا فرق عندها بين حذاء حسن الصنعة وقصيدة بديعة النظم ما دام يجب لإتقان كل عمل قوةُ عقل . وأَ لوعتاه على درر الأفكار تنزّل فتلامس الأحذية ! فحضرتها والحالة هذه لا ترى فرقاً بينها وبين الخيَّاطة التي تزين الثوب بالزركشة «والدنتلا»؟ معاذ اللّه أن أقول أنا بهذا القول ! الجسد عزيز بلا شك والاهتمام به واجبٌ على كلّ عاقل ؛ على أنَّ أهمية الروح تفوق أهميته بمراحل ، فضلاً عَن أنَّ الدماغ ينفق من قواه في عمل عقلي في ساعة واحدة أكثر مما ينفق للعمل الجسدي في ساعات طويلة .

نعم إنَّ العمل جميل ، وهو شرف في ذاته مهما كان حقيراً في أعين الناس ، غير أنَّ هذا لا ينفي أنَّ لكل شيء درجات : يوجد الحسن والأحسن منهُ ، والعظيم والأعظم منهُ ، والغني والأكثر غنى ، والفاضل والأفضل منهُ ، وهلمَّ جراً .

***

لقد انتقدت حضرة الكاتبة الفاضلة تفضيلي آثار الفن القديمة ، وتساءلت كيف أؤثرُ بناءَ الأهرام ونحت المسلاّت على أشعة رنتجن والتلغراف اللاسلكي في حين أنَّ تلك الآثار تنطق بما كانت عليه الشعوب الغابرة من الذلّ واستعباد القوي للضعيف . هذا موضوع يطلب البحث لنعلم هل كان الذل أشد وطأة في الماضي على العباد منهُ اليوم . أما أنا فلا أرى الإنسانية قد تمتعت بالحرية التامة بل أراها قد استبدلت قيودها القديمة بقيود جديدة . على أنَّ هذا بحث طويل يضيق عنه نطاق هذه العجالة . وأجيب السيدة على سؤالها ، بأني لا أرى نسبة بين المقابلتين لأني لم أتناول المقابلة إلاَّ من الجهة الفنية ، فلا تجوز النسبة إلاَّ

بين كل شبيه ومشابه له ، فإن وجدت نسبة بين هياكل أثينا وبرج ايفل ، فإن هذه النسبة تتلاشى عندما نقابل الهياكل بالتلغراف اللاسلكي . ولو انتبهت حضرتها إلى هذه النقطة لأنصفتني في هذا المعنى . أما الاكتشافات العلمية فمن منا لايقدّرها حق قدرها؟ إنَّ علماء الاكتشاف هم أبطال عصورنا الذين يجب أن تكتب أسماؤهم بدماء القلوب وأن تجثو الأفكار لدى ذكرهم المجيد . إني أعبد هؤلاء الأبطال وأميل بكلّيتي إلى العلوم التي تسير بالإنسانية إلى التقدم والارتقاء ، ولم أعنِ في مقالتي السابقة إلاّ العلوم التجارية المحضة التي يتمسك بها البشر طعماً بالأرباح الناتجة عنها . حسن أن يجتهد الإنسان في جمع الثروة لأن أهمية الدرهم تزداد يوماً فيوماً ، ولكنني لا أظنُّ أنَّ الارتقاء الصحيح قائم بالثروة وحدها ، وأعتقد مع رُسكن أنَّ هناك تربية هي ارتقاء في نفسها وإنْ لم يكن صاحبها مثرياً .

هذا اعتقادي يا سيدتي . فاعذري تطوحي واصفحي عن هفوات قامي . إن لكل امرىء أخلاقاً وأميالاً ، فأنصح لكل واحد أن يعمل بها ، بعد استشارة ضميره . أقول للرياضي : «اشتغل بأرقامك» ، وللطبيب «اشف مرضاك» ، وللتاجر «اضحكْ من زبائنك لئلا يضحكوا منك» ، وللشاعر «احلَمْ أحلامك وأنشدْ أناشيدك» .

فليعمل كل إنسان على اكتساب سعادته كما يفهمها هو ، لا كما يفهمها الآخرون ، ما دامت السعادة غاية الخلائق القصوى وكعبة آمال الكون .

مي

الزهور . س٣ ، ع٢ . ابريل ١٩١٢ . ص٨٢-٨٨

١- لبيبة هاشم (١٨٨٠-١٩٤٧) . أديبة لبنانية . ولدت وتعلمت في بيروت . هاجرت إلى مصر عام ١٩٠٠ وأصدرت فيها مجلة «الشرق» (١٩٠٦) . وفي عامي ١٩١١ و ١٩١٢ عينت أستاذة في القسم النسائي بالجامعة المصرية وعهد إليها إلقاء محاضرات في التربية .

٢ - Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) . فيلسوف انجليزي . ينتمي إلى المدرسة الاختبارية ، قال بمبدأ تطور الأنواع قبل داروين .

٣- أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) . شاعر مصري . ولد بالقاهرة لعائلة مترفة مختلطة الأعراق . لما أتم تعليمه الثانوي عام ١٨٨٥ التحق بمدرسة القانون ثم انضم إلى قسم الترجمة فيها . بعد تخرجه عينه الخديوي توفيق في القصر ، ثم أرسله في بعثة إلى فرنسا لدراسة الحقوق فدرس في مونبليه فباريس . عاد إلى مصر عام ١٨٩١ شاعراً للبلاط . نفاه الانجليز إلى أسبانيا عام ١٩١٥ . أطلق عليه لقب «أمير الشعراء» ، له ديوان « «الشرقيات وعدة مسرحيات شعرية» .

٤- خليل مطران (١٨٧١- ١٩٤٩) . شاعر وأديب لبناني . ولد في بعلبك ودرس في «الكلية الشرقية» في زحلة ، ثم في «المدرسة البطريكية» في بيروت ، هاجر إلى مصر عام ١٨٩٢ حيث عمل بالصحافة إلى جانب إشغاله عدة وظائف حكومية . ترجم بعض مسرحيات شكسبير إلى العربية عن الترجمات الفرنسية له ديوان «ديوان الخليل» .

٥- Count Maurice Maeterlinck (١٨٦٢-١٩٤٩) . شاعر ومسرحي وكاتب مقالة بلجيكي . درس القانون في بلجيكا . زار باريس عام ١٨٩٠ حيث تعرف على أعلام المذهب الرمزي ، وهناك هجر القانون مكرساً جهده الفكري للأدب . نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩١١ .

٦- Thomas Carlyle (١٧٩٥- ١٨٨١) . كاتب وفيلسوف ومؤرخ بريطاني . ولد في اسكتلندا . التحق لدراسة اللاهوت ولكنه آثر دراسة الرياضيات واللغة الألمانية والتاريخ والفلسفة .

كيف نقيس الزمان

الزمان ! ما هو الزمان؟

يمرُّ بنا ونمرُّ به ، يُحيينا ونحييه ، يلاشينا ونلاشيه ، ولا نعرف ما هية كيانه . ويعبر جسر الحياة تاركاً بين جوانب الأحياء جروحاً ، ناثراً على سواد الشَعر بياض القدَم ، طابعاً على الجباه الوضّاحة تجعدات المجاهدة والملل ، دون أن نحاول إرَهابه أو الاقتصاص منه : الشيخوخة قبلةُ الزمان للبشر . لكن ما هي الشيخوخة ، وما هو الإرهاب ، وماذا يعني العقاب؟

والزمان . . . ما هو الزمان؟

أراد لبنتز تحديده فقال فيه إنه «تتابع الأشياء المتواردة» . وسواءٌ كان هذا التحديد كافياً أو غير كاف على الإطلاق ، فهو دائماً يعبر نوعاً عن أهم أحوالنا البسيكولوجية والفيسيولوّجية البسيكولوجية المنقسمة إلى ثلاثة ظروف هي سلسلة حياة الإنسان : الماضي والحاضر والمستقبل . ولكل من هذه الظروف علاقة كلية بالآخر يستحيل فيها الحذف والإلغاء ، لأنها إنْ لم تكن تلاشى الظرفان وتلاشى الزمان ، وهذا من ضروب المحال .

فالحاضر بمفهوميتنا هو ما يقع تحت إدراك الحواس اللمسيّ أو المعنويّ ، في آن كائن بين خطين وهميين كل منهما أكثر أو أقل وضوحاً : خط الذكرى وخط الأمل ، أي خط الماضي وخط المستقبل ؛ والحاضر مزيج من الاثنين ، وفي الوقت نفسه لا هو هذا ولا هو ذاك . بيد أن العلم المجرَّد يكاد يلغي هذه الأزمنة الثلاثة ، وليس الزمان في نظره إلاّ تتابع أشياء وأوقات لا بداية فيها ولا نهاية ، كما أنّ الفضاء مسافة لا تحدّ ، ولا أعالي فيها ولا أداني . «وجميع أجزاء الوقت التي لا نعيها كساعات النوم وساعات الغيبوبة تمتزج بعضاً ببعض وتتيه في هاوية الزمان» (كانتْ)(١) .

فالزمان -كالمسافة- كائن وأن لم تتوارد فيه أشياء متتابعة ، لأن ما لا نراه نحن يراه غيرنا ، وما لا يراه غيرنا يستمد من الطبيعة قوةً ، ويتبادل مع أنواع متشابهة متضادة حركته الحيوية الدائمة . وفروغ الزمان -كفروغ المسافة- كلمة لا تعني شيئاً ، ويتعذّر على الإنسان تصوُّر مسافة أو زمن خاو خال من كل ما يقع في دائرة الحواس : فهناك دائماً هواءٌ أو ظلام ؛ وذرات صغيرة هيّ عالم بذاتها ، ودقائق أثيرية إن هي إلاّ جراثيم الحياة .

أما قياس الزمان مجرداً كما هو فأمرٌ مستحيل لأن إدراكنا متناه والزمان غير متناه ، فضلاً عن أنّ القياس يستوجب مشابهة حجم إلى حجمٍ من نوع ثان . فكيفَ نقيس الماضي وهو قد انقضى ولم يبقَ منهُ إلا الذكر - أي أمانة فيّ الحواس- بالمستقبل الذي لا نتلمس خياله إلاّ في دوائر الرموز والتقادير؟

على أنّا وإنْ لم نقوَ على قياس الزمان طولاً وعرضاً فتأثيراتنا النفسانية ميزان بخله وكرمه ، ولا قيمة إلاّ بما يورثه إلينا من السعد والشقاء . أرواحنا ملك مشيئته ولا ينفك جائلاً فيها -حتى يرضى . وهل يعرف الزمان معنى الرضى؟

وهناك أقيسة علمية رياضية آلية تترتب عليها حركات الاجتماع وقد اصطلح البشر على استعمالها والسير بموجب قواعدها .

***

منذ فجر الوجود كانت الحوادث الفلكية الطبيعية أساس تقسيم الزمان ، وأهم هذه الحوادث لدينا هي دورة الشمس ودورة النجوم . والأوقات في علم الهيئة السماوية ثلاثة : يوم شمسي ، ويوم متوسط ، ويوم نجميّ . وكلٌّ من هذه الأيام ينقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، وكل ساعة تتركب من ستين دقيقة كما أن كل دقيقة تتألف من ستين ثانية . فالوقت الشمسي يقاس بمرور الشمس تتابعاً في مكان غير ثبات وهو أطول من اليوم النجميّ . وأطول يوم شمسيّ هو ٢٣ ديسمبر ، وأقصر يوم يومُ ١٦ من الشهر نفسه .

والوقت المتوسطُ أوجده الفلكيون لإصلاح الوقت الشمسي ، وذلك باختراع شمسين آليتين تدوران على محورهما . أولهما تجتاز القوس السمتية بحركة

متعادلة متوازنة ، بنوع أنها تصلح حركة الشمس الحقيقية المتباطئة بسيرها من البعد الأدنى إلى البعد الأقصى ، المتسرعة بسيرها من البعد الأقصى إلى البعد الأدنى . والشمس الثانية أو المتوسطة ، تجتاز خط الاستواء السرعة التي تجتاز بها الشمس الأولى القوس السمتية ، فتمران في آن واحد في خط معادلة الليل والنهار . وحركة هذه الشمس المتوسطة اليومية هي اليوم المتوسط وهو أصلح جميع الأيام الشمسية على تعددها واختلافها .

والوقت النجمي يقاس بمرور نجمة تتابعاً في مكان واحد في ساعة معينة ، والمسافة بين المرور والمرور هي اليوم النجميّ وهو أقصر قليلاً من اليوم الشمسي ، ذلك لأن بينا الأرض تدور دورة تامة على محورها تتبع الشمس في القوس السمتية انحناء ملائماً لحركتها الخصوصية غير أنه نقيض حركة النجوم اليومية . وأعظم فرق بين اليوم الشمسي واليوم النجمي هو في ٢٣ ديسمبر وقدره ثلاثون ثانية . وأقصر فرق بينهما في ١٦ من الشهر نفسه وقدره ٢١ ثانية واليوم النجميّ هو في ٢٣ ديسمبر وقدره ٢١ ثانية . واليوم النجميّ أقصر قليلاً من اليوم المتوسط .

إن كانت حركة الفلك أساس قياس الزمان فالساعات والمقاييس (Chronometres) تدوّن تلك الحركة ، وأول آلة كان يستخدمها الأقدمون هي بناية حجرية أو خشبية (Gnomon) تحدد الساعات وتقيس ارتفاع الشمس بموجب اتجاه الظل نحو الشرق والغرب ، نحو الشمال والجنوب . ويقال إنّ الأهرام شُيدت لهذه الغاية أيضاً . ففي أهرام مصر إذاً درسٌ مهم من هذا القبيل .

وأعقبت الساعة الشمسية هذا النوع من قياس الوقت . وأقدم ساعة شمسية يذكرها التاريخ هي ساعة اشاز ملك اورشليم سنة ٧٤٠ قبل المسيح . وردّد ذكر هذه الساعة صدى الأجيال ناقلاً خبر أعجوبة النبيّ اشعيا الذي أخرّ الظلّ في الساعة عشر درجات . أما الآن فلا نرى أعجوبة في مثل هذا الفعل لأنه يتجدد يومياً في ساعة تنعت بالرجعية من اختراع فلاماريون[٢] في مدينة جوفي .

ووجدت أول ساعة ثمينة في أثينا في سنة ٤٣٣ قبل المسيح ، وأول ساعة في

رومية في سنة ٣٠٦ ق .م .

هذه كانت أقيسة النهار . وكانوا في الليل يستعملون ساعة الماء (Clepsydre) أو الساعة الرملية (Sablier) وهذه الساعة عبارة عن حوض صغير وفي قعره ثقبٌ يسيل منه الماء -أو الرمل- نقطة فنقطة في أنبوب ذي درجات محصاة تَدلُّ الملآنة والفارغة منها على عدد الساعات . وكانت هذه المقاييس مصطلحاً عليها بين جميع فلكيّي الشرق من كلدان وصينيين ويونان . وقد أهدى هارون الرشيد إلى شارلمان[٣] ساعة ماء قيل إنها أجمل ساعات ذلك العصر . وكان ذلك بمناسبة اتفاقهما ضد يونان الاستانة ومسلمي اسبانيا .

وأول من أوجد حركة ساعاتنا الحالية راهبٌ عاش في القرن العاشر يدعى الأب جربر وقد صار بعد ذلك بابا رومية وسمي سلفسترس الثاني[٤] .

واشتغلت الشعوب على اختلافها في تحسين آلات الساعة وضبط حركتها الدقيقة ، وبرع في ذلك ألمانيا وفرنسا فأوصلتا قياس الزمان إلى حدّ قصيّ من الدقة الصناعية والإتقان الذي لا إتقان بعده . أما أشهر ساعة أوروبية فهي ساعة ستراسبورج وقد استمرّ أساتذة الصناعة على الاشتغال بها مدة جيلين ونيف ولا تزال باقية إلى أيامنا هذه . غير أنَّ حكومة ستراسبورج اضطرت إلى تغيير بعض عقاربها وتبديل بعض آلاتها في القرن الماضي .

***

لم يكتف زعماء التقدم الآلي بقياس الزمان بل أرادوا قياس الارتقاء في الكون بواسطة الآلات . فما أكثر دعوى الإنسان ! فقد اخترع هاينرتش شميد تلميذ هيكل ساعة لا تعُدّ الساعات بل الأجيال ، وتدل عقاربها إلي الدرجة التي وصلتها الإنسانية في سلم الارتقاء . كل ساعة في هذه الآلة التاريخية عبارة عن عشرين ألف عام ، وكل دقيقة تمثل ثلاثة أجيال ، وكل ثانية تعني خمس سنوات . فليس ما يذكر في النهار الإنساني قبل الساعة العاشرة صباحاً -أي العصور الميثولوجية . وقبل الظهر بعشرين دقيقة تدل العقارب على ظهور آثار الارتقاء الأولى في مصر وبابل . ومنذ سبع دقائق -بالنسبة إلينا- تجلت شمس

الفلسفة اليونانية وانتشرت مبادىء العلوم . ولم يمض بعد أكثر من نصف دقيقة على ظهور الآلات البخارية ، كذا ولم نتنبه غيبوبة الجهل إلى عالم المعرفة إلاّ منذ دقيقة وبعض الثواني .

هذه فكاهة علمية فلسفية . لكنها كجميع الفكاهات تضمر تهكماً ودعوى ، وتمكن في أعماق معانيها مرارة في رغبة المعرفة ، وألماً في استكشاف ما أغمض عن العقول في ضمير الوجود .

فيا ليت شعري لماذا كانت الأيام ولماذا كنا؟ ألندوّن حركات النجوم بعقارب معدنية ، أم لنقابل نبضات القلب في الصدر بحفيف الأفلاك في الأثير؟ ألنرى الزمان تائهاً في دوائره الأبدية التي لا مجال للمدارك فيها ، أم لنشعر بأقدام خياله دائسة على الأرواح فتطبع عليها ما شاءت من آثار حاسة مجهولة بذاتها ، نسميها ألماً أو سروراً بحسب ما تُسر به إلى أعصابنا من الاهتزازات المريحة أو المضنية . . .؟

أم كانت الأيام وكنا لنرتقي بها وتتعظم بنا؟

ميّ

الزهور . س٣ ، ع١٠ . فبراير ١٩١٣ . ص ٥٤٣-٥٤٩

١- Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤) . فيلسوف ألماني . ينتمي إلى المدرسة المثالية . ترك مؤلفات فلسفية هامة منها «نقد الحكم العقلي» و «نقد العقل النظري» و نقد العقل العقلي»

٢- Camille Flammarion (١٨٤٢-١٩٢٥) . فلكي فرنسي . قضي جل عمره فلكيا غير محترف . عمل على تبسيط مبادىء علم الفلك . نجح في إطلاق عدة بالونات لدراسة الأجواء العليا .

٣- Charlemagne(٧٤٢-٨١٤) . ملك الإفرنج ، توج امبراطورا على أوروبا الغربية عام ٨٠٠ . تحالف مع البابا لصد الخطر البيزنطي . حاول فتح اسبانيا ولكنه أخفق . جعل من بلاطه مركزاً سياسياً وثقافياً .

٤- Pope Sylvester II (نحو ٩٤٥ - ١٠٠٣) . اعتلى كرسي البابوية عام ٩٩٩ . تلقى علومه في فرنسا وألمانيا عرف بسعة ثقافته وعمقها في الرياضيات والموسيقى والفلسفة . نقل بعض الكتب العربية إلى اللاتينية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صحيفة "المحروسة":

يوميات فتاة:

١- كيف نصنع خيراً
٢- جيراننا والموسيقى
٣- ماذا جرى؟
٤- أين المذنب؟
٥- كارمن سيلفا
٦- العود أحمد
٧- من الدلف إلى المزراب
٨- بين العدم والعمران
٩- إنذار ومحضر
١٠- مع الشكر
١١- "الكولتور" الألماني
١٢- أفاتحة رجاء؟
١٣- رسائل العيد وتبريكاته
١٤- الساعات الأخيرات من ١٩١٥
١٥- سلام الله يا مطر عليك
١٦- الاضطهادات الدينية عند الرومان (١)
١٧- الاضطهادات الدينية عند الرومان (٢)
١٨- الاضطهادات الدينية عند الرومان (٣)
١٩- الاضطهادات الدينية عند الرومان (٤)
٢٠- رحمة الله عليك يا برسوم
٢١- أنا وجارتي الشقراء
٢٢- كتاب "الفتاة والبيت"
٢٣- مشاهدات في الشارع



كيف نصنع خيراً؟

نـزعـت ورقة الأمـس عـن تقويـمـي فـوجدت عـلـى صـفـحة الـيوم هـذه العبـارة الجـمـيـلة لـشكـسبير[١] : «إننـا خُلقنـا لنـصنـع خيراً» . أجـل ، إنهـا لعبارة جـمـيـلة تستحـوذ على الـقلـب دفعة واحـدة لأنهـا بسيطة ، وتُدبُّ فيـه حبَّ الخير ورغبة العـمـل . أميـل بنظـري إلى ما هـو حـولي ، فـأرى هذا الـمعنى منطبقاً عـلى جميع الأشياء والكائنات ، فالـكتب الصامتة التي تملأ غرفتي تنتظر إشارة من يدي لتبرز لي كنوزها . الأدوات المبعثرة أمامي ، والأشياء الجامدة مما أرى وما لا أرى ، لها عمل خاص بها لا يتوقع أن يقوم به نوع من غيـر نوعها . الغيوم التي تطل عليَّ من أعالي الجو ، والأشجار الـتي تتمايل أمام نافذتي ، والأطيار التي تسبح في الفضاء مغردة ، جـمـيعها تـخدم أرضنا خدمـات جميلات . والأشباح السائرة في الشارع نسـاء ورجالاً ، يخدمون الجـمـعية كل بحسـب قـواه ، وطبيـعته ، ومـركزه فلـماذا أكون أنـا في هذه الأيام الصـعبة ، رقـماً مهـمـلاً يـجمع ويُطرح ويضـرب في قـوائم الإحصاء وكشوف المحافظة فقط؟ لماذا لا أجتهد أن أكون رقماً نافعاً؟

أدرت طرفي حيناً في الجو ذي الزرقة العذبة الـمزركشة هنا وهناك بغيوم بيضاء صـغـيرة يلـمـح فيـهـا انـعكـاس الأشـعة الشـمـسـية وأنا أفكـر في عـبارة شكـسبير ، ثـم انتقلت منـهـا إلى عـبارة أخرى تـقربها ، وقـد قرأتهـا في «كـلـمـات» قاسم أمين[٢] ، وهذه هي : «لا يطلب الكـمال من الـمرء وإنما يطلب منه أنْ يـكون كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى» .

أجل . إذا عرف الـمرء أنه لـم يخلق إلاَّ ليعمـل خيراً وأنْ عليه أن يرقي نفسه كل يوم ، فقد عـرف أجمل قواعد الحـياة . وهذا آنٌ قد اتسع فيه ميدان العمـل . الخير ينمو بنمو الشر ، فكلـما زاد الشقاء زاد الاحتيـاج إلى العطف وزادت إمكانية فعل

الخير . . . وما أقرب فعل الخير من قلب انفتحت فيه زهرة الحنان !

هناك حرب دموية هائلة ، وبيننا حرب اقتصادية مؤلمة ، إننا نفكر بالجنود الجرحى الباسلة ، وحسناً نفعل ! ولكنَّا نهمل جرحانا الأشقياء ، جرحى الجوع والذل والفاقة . نكتتب للمظلومين الشجعان الذي يستحقون إعجابنا ومساعدتنا ، وننسى الآخرين الذين هم أشد احتياجاً إلى مساعدتنا وعطفنا . نحنُ على إخواننا بالإنسانية ، ونترك إخواننا باللغة والجنسية والوطنية ! مع إنَّ ذوي القربى أولى بالإحسان .

العمال العاطلون ، الأطفال الجياع ، النساء البائسات ، لماذا لا يعمل في انتشالهم من هوة الفاقة ، كلٌّ منا على قدر استطاعته؟ لا يكفي أن يعمل الأفراد ، الواجب يطلب عمل الجمهور بكليته . فإلى العمل ! إلى العمل !

بعد أنْ القيت على مسامع نفسي هذا الإرشاد الصغير وأنا أحسبني واقفة على منبر عال ، صممت النية على مخاطبة بعض صديقاتي (صديقات على المودة !) في أمر تشكيل لجنة نسائية تكون فرعاً من جمعية الرجال لمساعدة العاطلين ، أو تكون لجنة منفردة حرة ، فناديت صديقة بالتلفون ، وأطلعتها على فكري ، فبعد أنْ كان صوتها مرحاً ، ضاحكاً ، راقصاً ، وبعد أنْ أكدت لي أنَّ حالها «على ما يرام» ، وأنَّ العائلة وأذيالها «بخير والحمد لله» عادت فقالت لي بصوت جبان حُكم عليه بالإعدام ، إنها منشغلة البال بسبب مرض اثنين من أولادها الثلاثة ، وأنها حزينة ومريضة ، وتنهدت . . .

قلت : يعني أنك لا تريدين .

قالت : ما قلتش كدا ، يا حبيبتي . . .

حبيبتها أنا؟ أعوذ بالله؟

ناديت أخرى : نهارك سعيد ، يا مدام ! -بونجور يا حبيبتي ! أنا حبيبة هذه أيضاً ! ! !

قلت جئت أطلب منك خدمة صغيرة .

قالت : من عيني !

استحضرت إلى ذاكرتي عيني السيدة المتكلمة فوجدتهما كبيرتين جميلتين فاستبشرت بهما خيراً وقلت في نفسي : لنر ماذا توازي الخدمة الخارجة من هاتين العينيين . وأخبرتها برغبتي ، فأجابت فوراً بلهجة أمٍّ مُحبّة : يا ابنتي مالك ولهذا التعب؟ إنّ في مصر كثيراً من الرجال الذين يستطيعون تأليف اللجان ومساعدة المحتاجين ، لنكتفِ بزياراتنا واستقبالاتنا ولا نهتم بالأشياء العمومية !

وهذا كل ما أخرجته عيناها ، يا إخواتي ! ! إنّ دواتي الجافة منذ سنوات ثلاث تقوى على أكثر من هذا . . .

كم وكم فكرت بهذه اللجنة وتلك المساعدة لكن عزيمتي قد انحطت وإن كانت رغبتي حية . أعرف أن كثيرات من السيدات المصريات ذكيات ، طيبات ، كريمات ، ولكني لا أعرف أين أجدهن ! وها أنا أتنهد ناظرة إلى تقويمي أقرأ عليه كلمة شكسبير وأردد : كيف نصنع خيراً؟ كيف نصنع خيراً؟

أنا

المحروسة . س٣٩ ،ع١٧٤٦ ، ٢٠أكتوبر ١٩١٤ . ص٢

١- William Shakespeare (ت ١٦١٦) . كاتب مسرحي وشاعر انجليزي كبير . من المعلومات الضئيلة المتوفرة عن نشأته ونشاطه المسرحي يمكن القول إنّ شكسبير ، بعد تلقي علومه في بلدته ستراتفرد ، قدم إلى لندن حيث بزغ نجمه ككاتب مسرحي . في عام ١٦١٠ رجع إلى بلدته حيث توفي ودفن . من أشهر مسرحياته : هاملت ، أوثللو ، الملك لير ، تاجر البندقية ، وروميو وجولييت .

٢- قاسم أمين (١٨٦٢-١٩٠٨) . مفكر مصري من أصل كردي . ولد في بلدة «طرة» بمصر . انتقل مع والده ، الذي كان ضابطا ، إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة . أكمل دراسة الحقوق في فرنسا . بعد عودته إلى مصر عام ١٨٨٥ عمل وكيلاً للنائب العام بالمحكمة المختلطة فمستشاراً بمحكمة الاستئناف . طالب بإعطاء المرأة المسلمة حقوقها كما هو مبيّن في كتابه «تحرير المرأة» (١٨٩٩) و«المرأة الجديدة» (١٩٠٠) .

جيراننا والموسيقى

سَلْ كل من له جيران يكثرون من العزف على البيانو رأيه فيهم ، تسمع منه الجواب المألوف : «لا أراك الله أمثالهم» ، إنهم يكسرون دماغي ! ونحن لنا مثل هؤلاء الجيران على أنَّ ما أقوله عنهم يختلف عن هذا القول بعض الاختلاف .

الجماعة التي أعني تسكن في المنزل المقابل لنافذتي الشرقية ، وتدل هيئتها ولغتها وارتفاع أصوات أفرادها ، على أنها يونانية . تتألف من رجل وزوجته . أما الرجل فهو قصير القامة ، نحيف الجسم ، يناهز الخمسين ، ونظارته تلمع على عينيه في كل حين . ثم إنَّ نظارته هذه وارتفاع صوته ارتفاعاً فنيًّا خاصاً ، وعباراته المزركشات وإشارات يده المستديرات تنبئني بأنه محامٍ . وأما زوجته فلا جمال ولا قباحة ، ولا ثقل ولا خفة ، ذات عينين تنظران بلا اهتمام ولا رغبة . لها وجه يحزن المفكر لأنه يشعر بأن وراء تلك الملامح تختفي نفسٌ ملساء كجدران منازل الإيجار . ليس في تلك الملامح ما يدل على معنى أدبي أو نفسي خاص . كأن هذه المرأة لم تذق في عمرها ثورة العواطف التي تكسب الابتسامة ، مهما كانت عادية ، شيئاً من جمال الحزن ولذة المرارة . وكأنها لم تعان قط مشقة التأمل ولم تشعر بثقل الفكر الذي تنحني تحته الجباه وتبيض لمروره المفارق ! كلّ غد يجدها كما كانت بالأمس . هي من النوع النسائي الكثير في العالم -النوع الّذي يدعون كل واحدة من أفراده بهذا الاسم المبهم «ست طيبة» .

أرى أحياناً باب الشرفة مفتوحاً عند جيراني فألقي بنظري إلى داخل منزلهم ولا أرى أولاداً ولا أسمع صوت أطفال . ولا أدري لماذا أذكر حينئذ هذه الكلمة لكارمن سلفا ملكة رومانيا المترملة منذ أيام قلائل ، وهي : البيت بلا ولد كناقوس بلا ضارب . فما أجمل الأنغام النائمة لو وجد من ينبهها من سباتها !

من مميزات جيراننا أنَّ كيفهم الموسيقي لا يبدأ إلاَّ حوالي نصف الليل ، مع أنه مصطلح بين الناس على إقفال البيانو في تلك الساعة التي يطلب فيها الكثيرون راحة وسكينة ، ما لم يكونوا من الراقصين أو اللاعبين أو المتنزهين .

وضع البيانو في الغرفة المقابلة لنافذتي والرجل يضرب عليه طويلاً بقوة متناهية الإتقان . إنه ليعزف ألحاناً من أجمل الألحان وأشدها صعوبة وأبعدها إتقاناً ، ألحاناً مأخوذة من موسيقى عظماء الملحنين من الألمان ! بيتهوفن (١) وفاكنر (٢) ومندلسهن (٤) وغيرهم ممن يضحى لسماعهم كل رقاد . غير أني لاحظت يومًا أن يدي الرجل تظلان جامدتين ، فرقبت حركاته فإذا به لايعزف بل يحرك برجليه آلة ألحقت بالبيانو ، وهي معروفة لدى العموم باسم «بيانولا» وهذه تردد أنغاماً وقَّعها لأول مرة بعض كبار الموسيقيين فخلد نصابو التجارة ذلك الإتقان فيها طمعاً بالربح . فما كان أحقر ذلك الإتقان الأمي التجاري عندي ، لما علمت أنه إتقان كاذب ! وما كان ألذه في نفسي يوم كنت أعتقد بأنه إتقان جادت به روح متعطشة إلى الانفراد والجمال فجاءت تحيا ساعة بعيدة عن صغائر الحياة اليومية ، سابحة على أمواج الفنون !

ومنذ ذلك الحين شعرت بأن جيراني يكسرون دماغي إذ يملأون سكوت الظلام المهيب بصرير آلاتهم الحديدية التي تحدث ضجيجاً يشبه ضجيج الهالكين في النار الأبدية ! وأما الأمر الذي لا أسامحهم عليه أنَّ موسيقاهم ألمانية . فإني منذ إشهار الحرب أتحاشى كل ما هو ألماني من مؤلفات وموسيقى وفنون . إنَّ ألمانيا التي تدوس حقوق الضعفاء ، وتتبختر غروراً على الأقوياء ، وتفتك بالأطهار والأبرياء ، ألمانيا الضخمة التي تحاول هدم مدنية شيدتها مدنيات ، لا تستحق أن تكرم الآن بأفرادها ، مهما كان أولئك الأفراد عظماء وأبراراً !

. . . . ولما يشمل الكون ظلام وسكون ، وتنفتح زهرات الليل في أعالي الأفق ، يخيل لي أن النجوم التي نراها تلمع بشدة ثم تمر سراعاً ، ليست إلاَّ دموع المفكرين والمصلحين الذي أوقفوا حياتهم وقواهم على بناء ما تحطمه اليوم

بروسيا المتعجرفة !

فابكي ، يا عيون الموتى ! إنّ أصواتك الزمنية قد تلاشت في أرضنا ، فلا تتعالى إلاّ في فضاء الأبدية التي نجهلها . ابكي ! إنّ البكاء لا يموت ! ابكي ليلاً في وحدة الآفاق لعل عبراتك النيرات التي لا يستجوبها هادمو[5] الآثار ومخربو[6] الأمصار وناهبو[7] الأعمار- لعل عبراتك لا تفوت نظرات نفس تحبك وتفهمك و- تستغفرك !

(أنا)

المحروسة . س٣٩ ، ع١٧٤٦ ، ٢٠ أكتوبر ١٩١٤ . ص٢

١- Luwig Van Beethoven (١٧٧٠-١٨٢٧) . من أنبغ موسيقيي العالم . ولد ببون في ألمانيا لعائلة تعنى بالموسيقى وأضحى موسيقياً محترفاً وهو في الحادية عشرة . انتقل إلى فيينا حيث اعتاش من موسيقاه . أصيب بالصمم في أخريات حياته . ألّف عدداً من السيمفونات .

٢- Richard Wagner (١٨١٢-١٨٨٢) . مؤلف مسرحي موسيقي كبير . ولد لعائلة ألمانية لها ولع بالفن والمسرح . تعلم العزف على البيانو والتأليف الموسيقي على نفسه . أقام في باريس ثلاث سنوات وبعدها فتح أمامه باب الشهرة . له مؤلفات موسيقية ونثرية عديدة .

٣- Felix Mendelsshn (١٨٠٩-١٨٤٧) . موسيقي ألماني رومانتيكي . ولد في مدينة هامبورغ . بدأ دراسة الموسيقى على والدته وتابعها على أيدي أساتذة خصوصيين في برلين وباريس .
أصاب حظاً وفيراً من الشهرة حتى أصبح المؤلف الموسيقي الأثير عند الملكة اليزابيث .

٤- Robert Schumann (١٨٠-١٨٥٦) . مؤلف موسيقي ألماني اشتهر بموسيقاه وأغانيه ذات الطابع الرومانتيكي . شرع بدراسة الموسيقى وهو في السادسة من عمره ثم التحق بجامعة لايبزغ لدراسة القانون ، إلاّ أنه قضى جل وقته عاكفاً على دراسة الموسيقى . أدخل في عام ١٨٥٤ مستشفى للأمراض النفسية .

٥- في الأصل : هادموا

٦- في الأصل : مخربوا

٧- في الأصل ناهبوا

ماذا جرى؟

من أخبار فرنسا أنَّ الحكومة عطلت جريدة «الرجل الحر» التي يكتب فيها يومياً مسيو كليمانسو[1] ، أحد زعماء الحزب الراديكالي ورئيس وزارة فرنسا سابقاً . ولقد أصدر السياسي المذكور بدلاً عن الجريدة المعطلة جريدة «الرجل المقيد» . ولا ريب في أنَّ هذا الاسم الجديد للجريدة القديمة هو الوتر الذي سيمرن عليه مسيو كليمانسو مَلكة التهكم الخفي والتوريات الدقيقة التي لا تخلو منها حدة لهجته وقوة حجته . وليس بمستهجن أنْ نرى رجلاً كمسيو كليمانسو تقلّب في أعلى المناصب وعالج السياسة أعواماً في زعامة حزبه ، ينظر إلى القلم كالسلاح الأعظم الذي تُغزى به قوات الرأي العام .

يقولون إنَّ الحق بجانب المدفع في هذه الأيام ، وهذا صحيح عن ساحات القتال ، على أنَّ في غيرها من الأماكن ما زال القلم ذا النفوذ الأكبر . إنهم يتقاتلون في فرنسا وبلجيكا وروسيا والنمسا ، أما في باقي الممالك والجمهوريات ، فإنهم يكتبون . يكتبون في البلاد الملازمة خطة الحياد ، ويكتبون في البلاد المتحاربة أكثر من ذلك . إنهم يكتبون ، ثم يكتبون ، ثم يكتبون . الوزراء والنواب والأمراء والسياسيون والمؤرخون والشعراء والجنود ، كلهم يكتب بلغته ، ويعبر عن فكره بأسلوبه ، ويبدي ما يعن له من طرق الإصلاح وأساليب المنفعة . كل منهم يقدم فكره قربانا على هيكل المصلحة الوطنية ، والكلمات التي تخطها أقلامهم تهز وتلذع كأنها شرارات متطايرات من بركان نفوس كثيرة الغليان . نعم ، يكتبون في كل مكان ، إلاّ في مصر . لا أعني أنه ليس عندنا حبر كثير على ورق كثير ، فنحن بذلك أغنياء والحمد لله ! ولكن الكتابة التي هي نتيجة تفكير واقتناع وإخلاص ومعرفة ، فهي قليلة جداً . فإن أكثر

الجرائد عندنا تكتفي بنشر الأخبار والأفكار وإبداء الآراء بأسلوب الإنشاء المعروف «بالتقريري» وهو يصلح لكتابة المواد القانونية وتقارير مجلس النظار والبلاغات الرسمية ولكنه لا يتفق مع حالة الأفكار في هذه الأيام ، أو ينقلون المقالات الطويلة عن الجرائد الأجنبية ، وهذه يمكن الاطلاع عليها في الأصل إذ لا يفيدنا من الأقوال إلاّ ما ينطبق على حالتنا أو ما تهمنا معرفته بسرعة . فإذا ما قرأ الواحد منّا يوماً كلمة بغير هذه النغمة (التي لا شيء فيها من الأنغام) واطّلع على رأي شخصي وفكر مناسب في أحوالنا الاقتصادية أو السياسية أو الوطنية تناوله بلهفة كأنما هو أرسل إليه من أعالي السماء .

وأما حضرات النواب فلا يكتبون ، ولا يخطبون ! لا بل أنا مخطئة ! مخطئة جداً ! ! إنّ عبد العزيز بك فهمي [٢] كتب مخاطباً الحكومة بشأن القطن الذي تتوقف عليه في مصر ثروة الأفراد والمجموع ، غير أنه ، بعد مقالين ، استدعى طبيبه واستقال من مخاطبة الحكومة ومن مناقشات الجمعية دفعة واحدة ، واستراح من جميع أعماله ! وتتبع آثاره أحد زملائه باستدعاء الطبيب والاستقالة . أما زعيمهم سعد باشا زغلول[٣] فإنه ساكت سكوت الرياضيين أمام مسائل الجبر التي لا تحل ولا تربط . وإذا قابله أحد محرري الجرائد وسأله أسئلة تتعلق بالشؤون العمومية ، يجيب عليها بابتسامة سرية كابتسامة موناليزا جوكوندا ، قد تعنى كثيراً وربما ما أرادت أنْ تعنى شيئاً . وأما لطفي بك السيد[٤] الذي اعتاد الجمهور تتبع أفكاره والتطلع إلى آرائه في الظروف الصعبة والمواضيع الهامة إذ يرى فيه حكيماً على المقاصد ، عالي الهمة ، فإنه ما اشتهرت الحرب إلا انسحب خفية (على المودة الانجليزية) بلا سلام ولا كلام . وأما الدكتور شميل[٥] شيخ الدكاترة طبياً وعلمياً وفلسفياً فقد سبق ، كعادته ، وكتب في أول الحرب عن امبراطور الألمان مقالة جميلة يحق أنْ يلبسها كبير عائلة هوهنزلرن بدلةً بعد سقوطه ، ودار بها على الجرائد فخافت هذه أنْ تنشرها . ثم مضت أيام فصارت تلك الجرائد تضرب على النغمة التي لم تحل لها في بادىء الأمر .

والدكتور شميل لا يكتب على ما أظن ، لأنه يريد أن يستطعم بلذة الثأر وهو ساكت ، ماذا جرى؟

أين كتابنا وساستنا؟ وأنتم أيها الشعراء ، أي القصائد تنظمون؟

أنا

المحروسة . س٣٩ ، ع١٧٤٩ ، ٢٣ أكتوبر ١٩١٤ ، ص٢

١- Georges Clemenceau (١٨٤١- ١٩٢٩) . سياسي وصحفي فرنسي بزغ نجمه في عهد الجمهورية الثالثة . شغل منصب رئاسة الوزراء بين ١٩١٧-١٩٢٠ وساهم في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى . قضى فترة (١٨٦٥-١٨٦٩) في الولايات المتحدة الأمريكية . كان صريحاً في إبداء تأييده للنظام الجمهوري واشترك في إقامة الجمهورية الجديدة (١٨٧٠- ١٨٧١) .

٢- عبد العزيز فهمي (١٨٧٠-١٩٥١) . من رجال القضاء في مصر . ولد في إحدى قرى المنوفية وتعلم بالأزهر فالجامعة المصرية بالقاهرة . عين وزيراً للقضاء عام ١٩٢٥ . كان أحد مؤسسي حزب الوفد ، ولكنه انسحب منه . انتخب رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين عام ١٩٢٤ ثم اعتزل السياسة .

٣- سعد زغلول (١٨٥٧- ١٩٢٧) . سياسي مصري ، ولد في إحدى قرى الغربية بمصر . تعلم با الأزهر لاربعة أعوام حيث اتصل بجمال الدين الأفغاني . اشترك مع محمد عبده في تحرير جريدة «الوقائع المصرية» . حصل على إجازة المحاماة فاشتغل محامياً ثم عين قاضياً فمستشاراً . تولى وزارة المعارف ووزارة القضاء . انتخب عام ١٩١٩ رئيساً للوفد المصري للمطالبة بالاستقلال فنفاه الانجليز . تولى رئاسة مجلس الوزراء عام ١٩٢٤ ورئاسة مجلس النواب عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . توفي بالقاهرة .

٤- أحمد لطفي السيد (١٨٧٠-١٩٦٢) . سياسي وكاتب مصري . ولد في قرية «برقين» بمصر . تخرج بدراسة الحقوق في القاهرة عام ١٨٨٩ وعمل في المحاماة . شارك في تأليف حزب الأمة عام ١٩٠٨ فانتخب أميناً له وحرر صحيفته «الجريدة» . عين وزيراً للمعارف والداخلية فعضواً في مجلس الشيوخ عام ١٩٤٩ . اختير رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٥ .

٥- شبلي شميل (١٨٥٣-١٩١٧) طبيب وأديب ولد في قرية كفرشيما بلبنان . تعلّم بالجامعة الأمريكية ببيروت . نزح إلى مصر وأقام في الاسكندرية وطنطا ثم استقر في القاهرة وفيها توفي . أصدر مجلة «الشفاء» (١٨٨٦-١٨١٩١) . تحمّس كثيراً لنظرية النشوء والارتقاء التي جاء بها داروين وله فيها كتاب «فلسفة النشوء والارتقاء» . كان من أصدقاء ميّ المقربين .

أين المذنّب؟

هل ضاع المذنّب بين جيوش الآفاق ، أم انقضت أيام مروره في دوائرنا ، أم . . . بعث إليه جلالة الامبراطور غليوم[1] بإنذار يهدده بهجوم طيارات «زبلن» على أطراف ذيله ، إن لم يغادر الأفق في أربع وعشرين ساعة؟ . .

راقبته بالأمس نحو ساعتين وبحثت عنه بين الصور السماوية اللامعة في الشمال فلم أقف له على أثر . أين هو؟ ثم حاولت أنْ أستعيض عنه بمرأى الكواكب العظيمة الساطعة في سهول الأثير التي تفوق سهول وادي النيل جمالاً وجلالاً . . . ناجيت الكواكب طويلاً وقد طربت نفسي لعاطفة المجهول الهائلة التي تقبض على القوى الإنسانية أمام وجه السماء . . .

على أني حزنت لأني لم أر المذنّب . إني أحب مشهد السماء فوق كل مشهد ، ومناجاة النجوم تكسبني غبطة وسلاماً متناهيين ، غير أني أحب المذنّبات بوجه خاص . أحبها لأنها عوالم لم تتكون بعد ، أحبها لأنها تائهة في أبراج مخيفة ليست لها ، بين ملايين من النجوم والكواكب الغريبة . أحبها لأنها إذا لمحت عن بعد إخواتها المذنبات تائهات في ظلمات الآفاق ، فليس لها إمكانية الجمود والانتظار ، وتبادل الأخبار عن أسرار الأبدية . . . عوالم ضالة مهتدية إلى الأبد لا تعرف راحة ولا قراراً ، تدفعها قوة الجاذبية إلى حيث لا تعلم فتتناولها الهيئات الشمسية وتجذبها حرارة الشموس وتشعر أنَّ الحرارة قد دبت في موادها الغازية ، تنقلب عائدة إلى الأبراج غير المحدودة ، وتسعى هائمة في وحشة اللانهاية ، بين حفيف الأفلاك ودوي الأبدية . . .

أحبها خصوصاً لأنها كانت دائماً مكروهة مظلومة ، فكم اتهمها البشر زوراً أن ظهورها علامة الشقاء وأنها تجلب على العالم ويلات الحروب والأمراض

والجوع ! ظلمتها القرون الأولى وظلمتها القرون الوسطى وما زلنا لها ظالمين .
فقد اتهم الرومان مذنّب ٤٣ قبل الميلاد بالفتك بقيصر العظيم [٢] وكان قيصر العظيم قد قتل قبل أن يفتك المذنّب به بثلاثة شهور ! ! فقال آخرون : لا بل هذه نفس قيصر ظهرت لنا بشكل المذنّب لتنبئنا أنها مالكة في السماء بعد أن ملكت على الأرض . وكم أقلق مذنّب هالي الجالسين على العروش والذين يدبون تحتها ! فقد ظهر في سنة ٨٣٧ أيام ملك «لويس الحليم»[٣] ملك فرنسا فملأ القلوب فزعاً ورعباً . فشيد الملك الكنائس وصام وصلّى مع أهل بلاطه وامتد أهل بلاطه وامتد تقواه المؤقت إلى جميع شعبه . وعلى ذلك فقد توفي بعد سنوات ثلاث ! وقالوا إنّ ظهور المذنّب عام ١٥٠٠ أثار الزوبعة التي هلك فيها برتوليموس دياز[٤] العالم البرتغالي الشهير مكتشف رأس الرجاء الصالح .

ولا يخلو عصرنا من القائلين بنحس المذنبات من مؤيدي الخرافات ، كأن للعالم يومين يوم نعيم ويوم شقاء ! وكأن الحرب والموت والفقر والألم على اختلاف صنوفه ليس الغذاء اليومي لجميع البشر ! كان كبلر الرياضي الفلكي يقول : إنّ عدد المذنّبات في الفلك يعادل عدد الأسماك في الماء . فَسَل البشر عن أحوالهم يجيبوك محرفين قول كبلر[٥] : «إنّ أنواع الشقاء في الحياة تفوق رمال البحار عدداً !» اجل أيها المتألمون ، ولكن عدد الأفراح كذلك ، لا يحصى ، وهنيئاً لمن عرف الطريق الخفية المؤدية إليها ! طريق صغيرة لا تطلب خيولاً مطهمة ولا فخفخة الجاه والثروة ، ولكن يجب على السالك فيها أنْ يريد الحياة والسعادة . . .

ولو أراد أشقياء الحياة لسعدوا . لو تعودوا رفع أنظارهم وأنفسهم إلى الفلك الساطع وقطعوا بالخيال المسافات الشاسعة ليناجوا الجمال والعظمة اللامعة في أنوار الكواكب لوجدوا تعزية وسلوانا وارتفعوا فوق كثير من حركات البشر التافهات ، فوق الأصوات الضئيلة والأطماع الصبيانية ، فوق كل دنيء وشائن حتى إذا ما عادوا من نجواهم إلى الحياة العملية شعروا بنفوس جديدة طاهرة حرة فرحة لا تعرف من الأحزان إلاّ الأحزان الكبيرة التي تهذب وتقوي وتكون

الشخصيات الكبيرة والملكات العالية .

***

جاء نيوتن وغاليلوس وكبلر ولابلاس[٦] فحرروا الفكر البشري من أوهامه وقيوده وخرافاته . دانت لهم حقائق الأفلاك وسبحت نفوسهم بين السيارات السابحات فتحطمت قيود الجهل التي طالما أنّت تحتها الإنسانية . والآن لما تمر المذنّبات التائهات في أفقنا ويحصي الفلكيون أبعادها والسنين التي تعود فيها ، لما نرى من المذنّبات أو نحاول أنْ نراها واثقين بأنها طيبة مظلومة فلا شك أنَّ أنوارها البعيدة تنحني على قبور منصفيها لاثمةً ترابهم الغالي . آه لو كان الموتى يشعرون لشعر محررو الفكر البشري بتلك القبلة وبشكر العصور التي أناروها وعظموها !

(أنا)

المحروسة . س٣٩ ، ع ١٧٥٠ ، ٢٤ أكتوبر ١٩١٤ ، ص٢

١- Emperor William11 (١٨٥٩-١٩٤١) . امبراطور ألمانيا (١٨٨٨-١٩١٨) . يعتبره الحلفاء المسبب الأول لاندلاع الحرب العالمية الأولى ، إذ أنه أيد الموقف النمساوي- الهنغاري ضد صيربيا مما أدى إلى الحرب التي استمرت أربع سنوات . بعد هزيمة ألمانيا أجبر على التخلي عن العرش ولجأ إلى هولندا حيث توفي .

٢- Julius Caesar (١٠٠ق م-٤٤ق م) . عسكري وسياسي روماني أضحى دكتاتورا (٤٦ ق م-٤٤ق م) بعد انتصاره في الحرب الأهلية . قتله بعض النبلاء أمام البرلمان .

٣- Louis (٧٧٨-٨٤٠) . امبراطور فرنسي تولى الحكم عام ٧٨ عرف بورعه ، لذلك أطلق عليه لقب (الورع) (Pious) . كثرت القلاقل والتقلبات السياسية خلال فترة حكمه .

٤- Bartholomeu Dias (ت ١٥٠٠) . ملاح برتغالي اكتشف رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ . كما أنه اكتشف جانباً كبيراً من الساحل الأفريقي .

٥- Johannes Kepler (١٥٧١- ١٦٣٠) . رياضي وعالم فلكي ألماني وضع أسس علم الفلك الحديث . أكمل دراسة اللاهوت ، إلاّ أنه عمل مدرساً للرياضيات .

٦- Marquis de Laplace (١٧٤٩-١٨٢٧) . عالم رياضيات وفلك فرنسي ، أطلق عليه لقب «نيوتن الفرنسي» لتضلعه بالرياضيات . له نظرية بشأن أصل النظام الشمسي أعلنها عام ١٧٦٩ تذهب إلى أن العالم كان كرة من الضباب انفجرت وصدرت منها الأجرام السماوية وبضمنها الكرة الأرضية .

كارمن سيلفا

«سيدتي (أنا)»

سلاماً واحتراماً . في يومياتك تقولين إنك تتحاشين كل ما هو ألماني من مؤلفات وآداب وفنون ورأيتك في الغد مستشهدة بكارمن سيلفا ملكة رومانيا . أليست كارمن سيلفا ألمانية؟ فكيف تستشهدين بأقوال ألمانية في حين أنك تقاطعين الفكر الألماني ومظاهره؟ «سائل»

أشكرك يا حضرة السائل ، لأنك نسيت أيَّ يوم ذكرت كارمن سيلفا ، تقول إني ذكرتها في الغد مع أني ذكرتها في نفس العدد الذي قرأت فيه أني أتحاشى كل ما هو ألماني . نسيت ذلك عمداً لتعطيني فرصة الانتقاد على انتقادك ولكي لا أغضب كثيراً من نفسي التي أوحت إليّ فكرين يربطهما تناقض مبين . وأشكرك لاهتمامك بما أكتب .

ولكن ليس هناك تناقض . نعم إنَّ كارمن سيلفا ألمانية المولد ، بيد أني لا أهتم بمولدها ولا بأصلها ولا بنسبها لأنها من الشخصيات النادرة في العالم التي ترتفع بقيمتها المعنوية فوق كل علاقة زمنية . الوطن بحدوده ضيق على هذه الشخصيات فوطنها الحقيقي هو العالم والإنسانية هي الشعب الذي تنتمي إليه .

ثم إن كارمن سيلفا كانت من ضحايا الخشونة الألمانية الأولى . فلو صرفنا النظر عن ٢٦ عاماً من سنيها الأول قضتها في قصر ويد المملوء بأحزان القلب وأثواب الحداد ، تحت سماء دائم[1] الغيوم دائم[2] الظلام ، حيث كادت نفسها الكبيرة تجمد تحت ثلوج الوحدة الروحية لو لم تكن شمس الذكاء والأمل تحييها -لو صرفنا النظر عن شقاء شبابها ، فكيف ننسى جودها وتوقدها وهمومها بعد أنْ توجت ملكة لرومانيا؟ لم يكن لها بنون أحياء لتصرف عليهم

ذكاءها وحنانها ، ومع ذلك لم تيأس من الحياة ، بل أوقفت قواها على مساعدة أبناء شعبها وكل من يقصدها من الغرباء والمجهولين . ولما شعرت أن ولي عهد رومانيا الأسبق يميل إلى إحدى وصيفاتها ، ورأت في تلك الوصيفة الفتاة ذكاء وجمالاً يؤهلانها للجلوس على العرش ، بذلت كل ما بوسعها لتوفّق بين الصديقين ، وحاولت أنْ تبيد الصعوبات الكبيرة الحائلة دون ائتلاف الروحين ، ولكنها لم تنجح لأن أمثالها في الفكر والعقل قليلون ولم تستفد من ذلك إلاَّ عداوة الفتاة وعداوة الشعب وغضب ذويها .

كانت هذه فاتحة الأوجاع ، وتلتها أوجاع كثيرة ورماها الناس بالتهم الفظيعة ثم بقصر العقل والجنون ، وذلك لأنَّ نفسها الكبيرة بريئة صادقة تحوم فوق كثير من الإصلاحات البلهاء والأكذوبات الاتفاقية الخبيثة . ولما كانت الجمعية تكشر عن أنيابها محاولة نهش تلك النفس النقية ، كانت كارمن سيلفا تقصد صديقتها الجميلة وتجلس الساعات الطوال بقرب ضريح ابنتها الوحيدة المائتة وتتكيء على مرمره باكية كمن يلتجيء إلى صدر حنون . . .

طالما كرهتها ألمانيا لأنها تكتب منتقدة سياستها الداخلية والخارجية ، حتى توصلت إلى إرشاد الخدم والوصيفات للحصول على كتابات الملكة غير المطبوعة . وكذا أحرقت تلك الكتابات الجميلة فكانت طعاماً للنار بدلاً من أنْ تكون غذاء للعقول ! وتوصلوا أخيراً إلى استحضارها إلى ألمانيا وسجنها في إحدى[2] القصور الحزينة المتروكة ، على ضفاف نهر الرين . . .

هذه هي الأميرة الألمانية التي ظلمها قومها . ابنة الغرب وملكة في الشرق . أمٌّ لفتاة مائتة وأمٌّ لكل من أحسنت إليهم فأساءوا إليها . هي الملكة التي سجنت ثم أطلقّ سراحها . وهي تبكي اليوم تحت نقاب الأرامل بعد أنْ قضت عمرها باكية دموع الثكلى ! هذه هي المرأة الساذجة العظيمة التي لم تسعد بالقبض على الصولجان والتمتع بلبس التيجان فوجدت سعادتها بهذا القلم ووضعت فوق رأسها تاج الفكر الخالد . اسمها الذي تحسدها عليه ملايين من النساء هجرته غير مكترثة به لتأخذ لها اسماً مجرداً من الألقاب : كارمن سيلفا ، وهذا الاسم

هو فخرها وتاجها وصولجانها . فإذا استشهدت بأقوال كارمن سيلفا فما أنا مستشهدة بأقوال مفكرة ألمانية ، بل أنا مترنمة بذكر إحدى النساء الثلاث اللواتي أكبر اسماءهن وأضع عند أقدامهن إعجابي وإعظامي وهن : هيباتيا[٤] ومدام كوري[٥] وكارمن سيلفا لأنهن حققن وجود المثل الأعلى في النساء ، المثل الأعلى الذي رسمه قاسم أمين عندما قال : «كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل» .

(أنا)

المحروسة . س٣٩ ، ع١٧٥١ ، ٢٥ أكتوبر ١٩١٤ . ص٢

١- المقصود دائمة

٢- المقصود دائمة

٣- المقصود أحد

٤- Hypatia (؟٣٧٠-٤١٥) . فيسلوفة تنتمي إلى المدرسة الافلاطونية الجديدة . ولدت في الاسكندرية بمصر ، وهي أول امرأة ذاع صيتها في مجال الرياضيات . قتلها الرهبان والجمهور المسيحي وبعثرت أشلاؤها في أنحاء المدينة .

٥- Madam Curie, Marie Sklodowska (١٨٦٧-١٩٣٤) . عالمة بولندية ، تأثرت كثيراً بوالدها الذي كان مدرساً للرياضيات والفيزياء . رحلت إلى روسيا ثم إلى فرنسا حيث تزوجت من «بيير كوري» أستاذ الفيزياء في جامعة السوربون حيث كانت تدرس . حصل الزوجان مناصفة مع عالم آخر على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٠٣ . حصلت على جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩١١ .

العود أحمد...

لا أظنني أوحشتك ، أيها القارىء ، ولكن يومياتي أوحشتني كثيراً إذ كانت لي حديثاً طيباً أعبر فيه عن أهم ما يجول في نفسي بسذاجة وسرور ، كأني أحادث نفساً ليست بالغريبة عني . ولئن كنتُ بالجملة شديدة الاستعداد للتأثر بالحركات الخارجية ، فإني مازلت محافظة على استقلالي النفسي ، وكثيراً ما أشعر بانقطاعي عن حركات العالم إلى ما هو أقرب منها إلى الحياة المعنوية . ولقد قال بسكال فيلسوف الفرنسيس قولاً جميلاً في هذا المعنى ، وهو : «إنَّ لنفسي جوها ، وفصولها المنفصلة تمام الانفصال عن جو العالم وفصول السنة ، فقد تكون الأمطار متدفقةً سيولاً على الأرض وفي نفسي شموس لامعة . وقد يكون الربيع باسماً للبشر وفي نفسي حزن ودموع وخريف دائم . .» أقول هذا تطمينا لجانب قلم المطبوعات أفندم حضر تلري كي يرأف بأسطري البعيدة عن كل ما يستحق صواعقه . . . ويلاه ! ماذا أقول؟ إني لم أتجاوز بعد السطور الأولى ومع ذلك فقد جازت عليّ العقوبة إذ لقبت القلم (قلم المطبوعات) بافندم حضر تلري . وذكرت بعد ذلك الصواعق . رحماك ، يا قلم المطبوعات ! لا أفندم أنت ولا حضر تلري ! ولست أعني من الصواعق القلمية الشبيهة بالتي ألقاها الدكتور شميل على رأسي بالعربي والافرنجي ، يوم نشرت يومياتي للمرة الأخيرة منذ أسابيع . وإذا ساءتك الصواعق القلمية أيضاً فها أنا أسحبها بانتظام لأبرهن لك بالقول والعمل أني في غاية الاحتياج إلى رضاك .

***

ساعتان لذيذتان:

قضيتهما بالأمس في الجامعة المصرية . فقد بدأ الاستاذ كليمان دروسه

الجميلة عن الحركة الفكرية في فرنسا في القرن الثامن عشر . القرن الثامن عشر ! القرن العظيم مهيىء الثورة الفرنساوية ، قرن فولتر ومونتسكيو[١] وفونتنل[٢] وديدرو[٣] وروسو[٤] وشينيه . القرن الغني الجامع في ثروته شعراً وفلسفة وأدباً وعلماً ، الفاصل بين قرون الماضي طويلة العبارة ، مبهمة الفكر والقصد ، وبين القرن التاسع عشر الذي لمعت فيه شموس العلوم فانطلق البشر إلي الاستنارة بها . فما كانت نتيجة ذلك؟؟؟ لا أدعي الاستطاعة على الجواب ولا أظن البشرقادرين على إبداء مثل هذا الحكم الكبير في الوقت الحاضر . التاريخ لا يستطيع أنْ يقول كلمته في زمن إلاَّ بعد مرور ذلك الزمن حتى تحل نتائج حوادثه في الأزمنة التي تتلوه . لنا القرون الماضية ندرسها ونحللها ونعللها وليس لنا من القرن الحاضر إلاّ الحياة وكفى بها درساً وتحليلاً وتعليلاً ! وللقرون المقبلة ذكرى مصائبنا وشقائنا وأفراحنا ! وعلى كل ، إذا ما صرفنا النظر عن القرن العشرين ، فلا أظن أنْ مر على الإنسانية منذ عصر نبي الإسلام قرن أكثر أهمية من القرن الثامن العشر[٥] . فشكراً للجامعة المصرية التي تجذب أفكارنا إلى ما يرفعها ، وتبعدها من وقت إلى وقت عن أخبار الحرب الموجعة المجففة لقوى النفس ! وليت هذه الغيبوبة الأدبية تدوم أكثر من ساعة ! ثم علمت بعد المحاضرة الفرنساوية أنَّ هناك درساً في تاريخ الشرق القديم باللغة العربية ،فأسرعت إلى استماعه . وكان الموضوع بطليموس الثاني فيلاذلفيوس[٦] . فاستهل حضرة الأستاذ كلامه في وصف المهرجان العظيم الذي أقامه بطليموس تذكاراً لأبيه وإظهاراً لعظمته وجلاله . وبعد أن وصف المهرجان وصفاً دقيقاً ، قال : إنَّ في هذا الوصف الذي تركه المؤرخون من الغلو شيئاً كثيراً ، وتطرق إلى حياة بطليموس وإلى زواجه بأخته ارسينويه وما قاله المعلقون[٧] في ذلك ليكسبوا رضى الملك . وذكر إطراء الشعراء لحب الأخوين ومقارنتهما بالآلهة وختم هذا المعنى بقوله : «لقد مدحوه (أي بطليموس) وبروا زواجه شأن الشعراء والمنافقين» . وأعترف بأني ضحكت من كل قلبي عند سماع هذه الكلمات .

مساكين الشعراء . مساكين حقيقة ! فهم والمنافقون في صف واحد !

(أنا)

---

[1] المحروسة . س٣٩ ، ع١٨٠١ ، ٢٩ ديسمبر ١٩١٤ . ص٢

١- Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥) . فيلسوف فرنسي في السياسة ترك كتابه «روح الشرائع» L'Esprit des lois ، ١٧٤٨م) أثراً خطيراً في تطور الدستور الفرنسي وفي تطور الفكر السياسي الغربي .

٢- Sieur de Fontenelle (١٦٥٧-١٧٥٧) . عالم وأديب فرنسي ، انصرف إلى الكتابة بعد تلقيه الدراسة في «الكلية اليسوعية» بادئاً بالمسرح والفلسفة . ربطته علاقات صداقة مع مونتسكيو .

٣- Denis D (١٧١٣-١٧٨٤) . فيلسوف وروائي ومسرحي وناقد فني وموسوعي فرنسي . درس عند اليسوعيين ثم تفرغ للأدب . عرف بموقفه المتشكك من الدين . كان من أوائل الذين أرسوا دعائم النقد الفني الحديث في فرنسا . أسس الانسيكلوبيديا وأشرف على إصدارها .

٤- Jean Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) . كاتب فرنسي ولد في جنيف . كان لمبادئه الفكرية تأثير في قيام الثورة الفرنسية وظهور الحركة الرومانتيكية . آمن بطيبة الإنسان ودعا إلى العودة إلى الطبيعة .

٥- المقصود الثامن عشر .

٦- Philadelphus (٣٠٨-٢٤٦ ق م) . هو بطليموس الثاني ، ثاني ملوك اليونان الذين حكموا مصر (٢٨٥-٢٤٦ ق م) . وسّع رقعة مملكته بأساليب دبلوماسية . طوّر الزراعة والتجارة . رعى أهل الفكر وجعل الاسكندرية مركزاً مشهوراً للفنون والعلوم .

٧- المقصود المتملقون .

من الدلف إلى تحت المزراب

أو كما يقول الشاعر العربي : «كلما داويت جرحاً سال جرح» والحقيقة هي أنّا كلما اعتدنا الهم الجديد الذي انضم إلى همومنا القديمة تراءى لنا خيالُ همٍّ غيره لم يكن في الحسبان ، ومن هذا النوع الهم غير المنتظر الذي حل بي منذ أسبوع وهو هَمُّ الطرابيش !

قالت الجرائد : إنَّ زكي باشا يتطربش في مكتبه بطربوش مغربي ، واقترحت المحروسة على سعادته أنْ يحذف من الطربوش المغربي زره الضخم الثقيل . هذا اقتراح صحي فني اقتصادي في آن واحد . ولكني لا أظن أحداً ينظر إلى طربوش مغربي ترمل من زره إلاَّ يأخذه الضحك ، حتى وإنْ كان ذلك الطربوش طربوش عالم وطربوش باشا . حتى وإنْ كان ذلك العالم وذلك الباشا زكي باشا .

فما رأي سعادة الباشا في هذا الأمر؟ وهل يجاوبنا الجواب الذي يطمن الخواطر وينفي الهموم؟

***

النساء والنياشين:

أهدى رئيس جمهورية فرنسا مؤخراً نيشان «ليجيون دونور» إلى الأخت جوليا شُكراً لها على خدماتها الطبية الكثيرة ، وليست هذه الراهبة الأولى التي حازت لهذا الوسام العظيم . إنَّ نابليون الأول[1] موجد هذا الوسام لم يفكر قط في إعطائه لامراة ، غير أن لويس نابليون الثالث[2] أهداه في عام ١٨٥١ إلى مدام برولون الممرضة في دار (الانفاليد) التي لم تكن حياتها إلاَّ سلسلة خدمات وأعمال تشفّ عن همة عالية وشهامة تضاهي شهامة أبطال الرجال ومن ذلك

الحين أخذ عدد الحائزات لهذا الوسام بالازدياد عاماً فعاماً . واللواتي أهدى لهنّ في السنوات الأخيرات هن مدام ديولافوا العالمة التي تساعد زوجها الشهير في بحثه وتنقيبه وعمله ، ومدام دانيال لوسيور الكاتبة الشهيرة التي تعد من أحسن كتّاب فرنسا في هذا العصر . ومنذ شهور أعطي لسارة برنار[٣] التي لا يجهلها أحد .

وفي عام ١٨٥٢ أهدي «اللجيون دونور» إلى الأخت روزالي التي اشتهرت بما اشتهرت به الأخت جوليا في هذه الأيام ، أي بأعمالها الخيرية وتفانيها في إسعاف المحتاجين من فقراء وجرحى ومرضى . ومن مميزات الأخت روزالي أنّ فكتور هوجو وصفها في كتاب «البؤساء» تحت اسم «الأخت سامبليسيا» وفي العام نفسه (١٨٥٢) أهدي الوسام إلى راهبات ثلاث غير الأخت روزالي . اسم إحداهن الأخت تريزا ولهذه نكتة جميلة .

يقال إنّ لويس نابليون كان قد سمع في أعمال هذه الراهبة مدحاً كثيراً فأراد أنْ يحمل إليها الوسام بنفسه إلى (كوبياني) ويعلقه بيده على صدرها . وكانت تناهز الثمانين من حياة صرفتها في معالجة الجرحى وتعزية الحزانى . فلما جاء نابليون وأنبأها بسبب مجيئه من باريز ، أجابته بغضب وتعجب :

- أنا لا أطلب جزاء ولا إشارة رسمية تميزني عن سواي . إنني لم أقض إلاّ الواجب . وبعد أنْ هدأ روعها ، تنفست الصعداء وأدارت نظرها في ما حولَها ، وأشارت بغتة إلى أحد مرضاها وهو شاب جريح ، فقالت :

- إنّ هذا الوسام أليق بصدر الجنود . فاعطه لهذا الفتى الذي خدم ست سنوات وشهد اثنتي عشر[٤] معركة فقد في إحداها رجله وكسب في كل منها جروحاً موجعة ، . رغماً عن شبابه الغض . اعطه الوسام فهو أهل له !

فأخذت الأمبراطورَ الحيرةُ ، ونظر إلى الشاب المذكور قائلاً بخجل وتلعثم : إني لا أستطيع تقرير هذا الأمر بنفسي . . يلزمني إرادة وزارة الحربية . فغضبت المرأة الصالحة وسألت : أين هو وزير حربيتك ، يامولاي؟

فأشار الامبراطور بيده إلي الوزير ، فأسرعت إليه الراهبة وانتصبت أمامه قائلة

بشجاعة : إذاً أنت هو وزير الحربية؟ فاسمع يا وزيري العزيز . أنا أرى أنَّ الوسام يليق بصدر هذا الفتى ، والامبراطور لا يعارضني في ذلك . فضحك الحضور لهذه الشجاعة والسذاجة وتوسل إليها الامبراطور أنْ تتنازل وتقبل الوسام ، فأجابت :

- أقبله ولكن بعد هذا الفتى . فليعلّق على صدره أولاً ثم أعلقه على صدري . ولم تمض ساعتان حتى جيء بوسام آخر . فعلقته الراهبة على صدر جريحها الذي كان يبكي تأثراً وفرحاً . ونسي جراحه لما ضمدتها علامة البسالة والشرف .

المحروسة . س٣٩ ، ع١٨٠٣ ، ٢٠ ديسمبر ١٩١٤ . ص٣

١- Napoleon Bonaparte (١٧٦٩-١٨٢١) . إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥) . اشتبك بمعارك طاحنة مع دول اوروبية عديدة . قاد حملة عسكرية على مصر عام ١٧٩٨ . هُزم هزيمة نكراء في معركة «واترلو» عام ١٨١٥ ، فنفي إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفي .

٢- Louis Napolen (١٨٠٨-١٨٧٣) . ولد في باريس . والده كان ملكا على هولندا . تعلم على أيدي مدرسين خصوصيين في إيطاليا وسويسرا وألمانيا . انتخب رئيساً لفرنسا عام ١٨٤٨ فامبراطوراً عليها عام ١٨٥٢ . أطيح به في هبة شعبية بعد هزيمته في الحرب مع روسيا عام ١٨٧٠ . توفي في منفاه في انجلترا .

٣- Sarah Bernhardt (١٨٤٤-١٩٢٣) . ممثلة فرنسية ولدت في باريس حيث درست التمثيل . اشتهرت في تمثيل أدوارها ، خاصة في مسرحيات راسين وهيجو . إلى جانب التمثيل مارست الكتابة والنحت .

٤- المقصود اثنتي عشرة .

بين العدم والعمران

لعل القارىء يظنني عازمة ، بعد هذا العنوان ، أنْ أسرد له باختصار تاريخ العالم؟ كلا ثم كلا . أنا في قاعة الدروس الفرنساوية في الجامعة المصرية ، وتبرهن لي المقاعد الخالية والمنبر النظيف من كافة الأشباح ، أنْ ليس في القاعة أحد غيري وأنَّ الدرس لم يبتدىء . نعم . أراني مرغمة على الاعتقاد بذلك ، مع أنَّ ساعتي أشارت بعرقبيها الصغير والكبير أنَّ الساعة ٥ بالضبط . وعلى كل حال ، فإنَّ الساعة المذكورة آتية لا محالة فلأنتظرنها بلا ضجر ولا ملل . وليس بوسعي إلاَّ أنْ أحسب القاعة في خلوها عدماً سيصبح عما قليل عمراناً . وبين العدم والعمران نقيم أنا وقلمي (قلم رصاص أعوج يكاد ينكسر – لا سمح الله بذلك قبل الدرس !) وورقة بيضاء نظيفة تسود قليلاً كلما جرى فيها قلمي المكسور . ولسنا (أنا وقلمي وورقتي) من الضخامة في شيء كي يحسبنا العدم والعمران صلة متينة بينهما ، ولكنا صلة لازمة على رغم كليهما . وإنْ كنا لا نملأ بكرامة الفراغ الدائم بين الطرفين فسنملأ بسرور عامودين في «محروسة» الغد . اللهم جزاك الحمد والشكر .

أهلاً ! هذا عنوان الحضور . جاءت سيدات ثلاث في غاية الأناقة وفي غاية الطول خصوصا ، ومرآهن يذكرني بأغنية صبيانية كنا ننشدها في المدرسة ، تبتدىء هكذا «كنا ثلاثة سوا ، مثل عامود الهوا» وأعترف بأني لا أفهم كثيراً معنى «عامود الهوا» ولكن صه ! لا يجب أنْ أذكر الهواء لئلا تنطفىء الشعلة الذي[1] يستعملها الخادم لإنارة المصابيح . إنه ينير ويبتسم ، وأقسم بأعمدة الهواء الموجودة وغير الموجودة جميعاً ، أنَّ هذه البسمة موجهة إليّ ، ولديّ براهين حسية على ذلك ، وهي أنَّ البسمة اتبعت بانحناء وتحية . فليناقشني الآن

المناقشون ! إنَّ خدم الجامعة يعرفونني لكثرة ما رأوني مارةً أمامهم أقصد قاعات الدرس ، فصار سلامهم عليّ سلام معارف تقابلوا في مجلس ذي أهمية وشأن . ويسرني ذلك منهم ، لأنهم يختلفون عن خدم المنازل ، وعن جميع الخدم . فإذا حققت النظر فيهم رأيت على جبهتهم علامة تود أنْ تكون مهيبة ، وفي أعماق عيونهم نوراً بارقاً كنور العلم الذي يمر أمامهم من غير أنْ يدركوه أو كنور الكلمات اللاذعة للفكر والذكاء ، كلمات ما زال صداها متموجاً على جدران يصرفون أوقاتهم بينها أو في ظلها . وإن ضحك الضاحكون من كلامي هذا فليذكروا المثل العامي القائل : «كلب الشيخ شيخ» وعلى هذا القياس أقرر بأن بربري العلم بربري عالم والعصمة لله وحده .

ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد كثر الجمع وأنا غارقة في الدفاع عن البرابرة . فلا أنا قادرة على إحصاء إخواتي في التلمذة للجامعة ولا البرابرة للجميل حافظون . وفوق ذلك فقد انكسر رصاص قلمي وطفحت صفحات ورقتي . والطاولة ترقص لأنَّ الجالس أمامي مسند ظهره لها . الحمد لله على كل حال ، وجميع المصائب تهون إذا كان قلم المطبوعات راضياً . .

انفتح الباب . ومر منه طربوش على وجه أبيض وتحت الطربوش والوجه بمسافة يد تحمل أوراقاً . ثم مرت نسمة سرية على الحضور وخشب المنبر يقرقع بلطف وأدب كمن يقول : بونجور بنسوار . فهذا الأستاذ كليمان بلا شك . وحانت ساعة الدرس ، فانتقلنا من العدم إلي العمران فأهلاً وسهلاً . والسلام عليكم .

(أنا)

المحروسة ، س٣٩ ،ع ١٨٠٣(؟) ، ٣١ ديسمبر ١٩١٤ ، ص٢

١- المقصود التي .

مع الشكر

لشارع عماد الدين صفة جديدة كنا نجهلها قبل مقالة الدكتور شميل المختفي وراء الضمير «هو»[1] . كنا نعرف قبل الآن أنَّ هذا الشارع ، من شارع بولاق فأسفل ، مركز سينماتوغراف وتلغراف وباريبه ودلمار وسنجر وبراين الخ . ومن شاع بولاق فأعلى ، تلغراف أيضاً وسينماتوغراف ، وتياترات وكورسال ، ومساكن شاهقة البناء عصرية الهندسة والزخرفة ، وفلوران ، ومصورين وبارات (شيك) وقهاوي (فينو) إلى غير ذلك من محطة قطار مصر الجديدة إلى مسرح بائعي الجرائد والأزهار والحلوى والدبابيس . أما الآن فنعرف أنه مهبط الوحي وموحي الهدى . فعلى من أراد درس فن أو علم كالموسيقى والتصوير أو الطب والحقوق والهندسة أو غيرها ، أنْ يستأجر بيتاً في شارع عماد الدين فيضرب طائرين بحجر واحد ، أي أنه يسكن البيت وينزل عليه الوحي دفعة واحدة . خذ على ذلك مثلاً من أعظم الأمثال ، إنَّ الدكتور شميل قضى عمره الكتابي متهكما على علم الحقوق الذي يسميه اللاهوت الاجتماعي وهو يعترف الآن بأنه برع بهذا العلم الفني . إنه يقول ذلك بتهكم أيضاً ، ولكنه يقول ويعطي نفسه شهادة تغني عن كل شهادة .

فعام جديد ، وبيت جديد ، وعلم جديد ، ليكن كل منها بركة عليك يا سيدي الدكتور ! بيد أني على رغم رغبتي الشديدة في إرضائك ، لا أعدك بالإقلاع عن تهديدك بإنذار ومحضر كلما رأيتك معرضا عن جيرانك ، لأن مقالتك أمس برهنت أنَّ للإنذارات حسنات أحياناً . وإذا كتبت في السرير وعلى ورق قديم فهذا لا يزيد كتابتك إلاَّ طلاوة لأنها تكون خليطاً من الحكمة والدعابة ، على أني أتمنى أنْ تكتبها بعد اليوم من كرسي الراحة لا من سرير التعب !

اتريد دموعاً بدلاً من الانذار؟ لئن كتبت فتاة مهددة ضاحكة ، فكم من فتاة تبكي يائسة ! ولئن هرق الرجال دماءهم وضحّوا حياتهم في هذه الحرب الطاحنة ، فإن النساء تضحّي وتهرق أكثر من ذلك ، إنَّ نفوسهن تذوب لوعة ودموعاً ويأساً !!

البرابرة يحتجون*

ما خرجت يوم السبت الماضي من قاعة الدرس في الجامعة المصرية حتى وجدت خدم الجامعة في انتظاري في البهو الخارجي . فتقدم أحدهم وفي يده «المحروسة » وقال مشيراً إلى عنوان «يوميات فتاة» وتحتها كلمة «بين العدم والعمران» : حضرتك كتبت ضدنا واحنا ما عملناش حاجة قلت : أكتب ضدكم ، ولماذا؟

أجاب : مش عارف .

قلت : ومن أنبأكم أن هذا قدح لا مدح؟

أجاب واحد شيخ . واحنا قلنا له لا مش كده ، هو قال لا كده .

وقال آخر : ما عملناش حاجة . احنا مؤدبين يا ست .

وقال الأول : احنا نفهم يا ست .

قلت : بلا شبه شك ! ولكنى أردد قولي إنَّ هذا مدح . والشيخ الذي أفهمكم غير ذلك أراد مداعبةً ليس إلاَّ .

قال : احنا قلنا له كده هو قال لا .

قلت : فإذا قرأتم وفهمتم فلماذا تهتمون بما يفهم الآخرون؟ أنا كتبت مدحاً ، وأنتم فهمتموه كذلك ، فانتهى الأمر .

وما عدت إلى البيت إلاَّ وجدت أمامي العدد نفسه ، وعلى هامش «المحروسة» احتجاج خطي وتاريخي . فعملاً بحرية الصحافة أنشره بحروفه :

« لا ينبغي لك أيتها الكاتبة أنْ تذكري اسم البرابرة بل النوبيين « لأنَّ اسم البرابرة كانوا فراعنة-ب»

. . . .

. . . .

وهو كذلك !

درس باللغة النوبية

كيف أنت؟ مسقاجناه

انشاء[2] الله بخير مسقاويه فيناه

«أنا»

المحروسة . س٤٠ ، ع١٨٠٧ ، ٦ يناير ١٩١٥ . ص٢

* الإشارة هنا إلى حلقة «يوميات فتاة» المنشورة في «المحروسة» . ع١٨٠٣ ، ٣١ ديسمبر ١٩١٤ . ص٢

١- كان الدكتور شبلي شميل يوقّع بعض مقالاته المنشورة في صحيفة «المحروسة» باسم «هو» .

٢- المقصود إن شاء الله .

«الكولتور» الجرماني أيضاً!

لقد كثر نشوب الحرب في هذا العام حتى جاز القول في الحرب أنها «على المودة» . ولقد كانت تنهد منّا القوى كلما علمنا أنّ دولة أشهرت الحرب على دولة أخرى ، أما الآن فإننا ننظر شزراً إلى الدول الواقفة على الحياد ، كأنها واقفة لنا بالمرصاد ، وكأن الأذى ، كلّ الأذى ، يأتينا من المسالمين لا من المهاجمين ! وهكذا يتدهور العالم بقواه إلى الهلاك ، منشداً نشيد الموت والنصر !

ولكنا مازلنا نعجب كيف أقدمت ألمانيا على هذه الحرب الهائلة ، وكيف لم تجتهد في أنْ توفر على البشر هذا الشقاء العميم ، مع أنها على رغم جنونها العسكري ، أمة راقية ناهضة . في عالم الشعر والعلم والفلسفة والموسيقى . تركت ألمانيا اسماء عظيمة وآثاراً خالدة فكيف نسيت كل ذلك لتتبع جنونها الدموي ليس إلاّ؟

نشر كاتب أمريكي في إحدى مجلات وطنه مقالا يقول فيه : إنّ العلم لم يزد الألمان إلا وقاحة وخشونة وهمجية لأنهم قوم فاقدون «للغريزة الاجتماعية» فلذلك لم يهتموا في ارتقائهم إلاّ بالاستعداد لقهر الشعوب ، وما كانت أعمالهم منذ نصف جيل إلاّ أعمال الطمّاع الخبيث الذي توحي إليه أغراضه ذكاء . ثم قال إن ليس للألمان آداب تذكر ، وإذا قطعنا النظر عن شاعرها الفيلسوف هاينرتش هايني[1] . فإنّا لا نعرف اسماً جرمانياً اشتهر كاسم دكنز[2] الانجليزي . قد يكون الأستاذ الأمريكي مصيباً ، غير أنه لمن الغرابة أنْ لا يذكر أنّ العامل الأكبر في شهرة دكنز هذا هو كتاب «مارتن تشازلوت» الذي ألفه بعد عودته من أميريكا وقد أشبع الأمريكيين نقداً وتهكماً في خلال فصوله .

نعم إنّ الآداب الألمانية دون الآداب الفرنسوية بدرجات ، وغنى اللغة

الفرنساوية النثري يفوق جميع اللغات المعروفة لدينا ، غير أنَّ في ألمانيا أدباء انتقاديين خصوصاً ، أدباء مدّعين متعجرفين متهكمين تهكماً في منتهى الخشونة . فهم هم دائماً سواء كانوا في ساحة الطعن والقتل أو في ساحة الفكر والكتابة !

فإذا ذكرنا جوتي الكبير[٣] نذكر معه جملته الشهيرة : «إلى الأمام ، إلى الأمام ، ولو على الجثث !» وإذا ذكرنا نيتشي[٤] ذكرنا أنه كتب ضد بني وطنه فصولاً ملؤها التهكم والمرارة . وأما هايني فإنه قضى عمره مرذولاً من إخوانه وله فيهم انتقادات تليق بفكره العميق وبخشونتهم المتزايدة ، فضلاً عن أنه ترك الجنسية الألمانية وتجنس بالجنسية الفرنساوية في أيام نابليون الثالث كما أنه قضى أهم أيام حياته في فرنسا ومات ودفن هناك . وإذا ذكرنا بيتهوفن ذكرنا أنه دفن فقيراً مجهولاً مكروهاً . وظهر أخيراً أنه لم يكن ألمانياً بل كان من والديْن بلجيكيين .

وإذا ذكرنا جرهارت هوبتمن[٥] -وهو أعظم كتَّاب ألمانيا العصريين الذي تفوق منذ عامين على الكاتب الفرنساوي الشهير اناتول فرنس[٦] وحصل على جائزة نوبل- فقد كان من موقّعي الكتاب الذي بعث به علماء الألمان ، منذ أكثر من شهرين ، إلى علماء العالم فيه يؤيدون عمل ألمانيا وخطتها العمرانية وينكرون أنها أتت شيئاً قبيحاً كتخريب كنيسة ريمس وغيرها .

ولو أحصينا جميع الاسماء الألمانية الخالدة لقسمناها إلى قسمين : القسم المتطرف للجرمانية ، أو للبانجرمانسم مثل غوتي ، والقسم المتطرف ضد الجرمانسم مثل هايني . يعزينا اسم ألماني واحد وهو اسم كارل ماركس[٧] مؤسس الاشتراكية ، ولكن لا يغيبن عن أذهاننا أنَّ ألمانيا أرغمت زعيم الاشتراكيين الحالي على الخدعة في ساحة القتال عقاباً لتمرده واحتجاجه على همجيتها !!!

(أنا)

المحروسة . س٤٠ ، ع١٨٠٩ ، ٨ يناير ١٩١٥ . ص٢

١- Heinrich Heine(١٧٩٧-١٨٥٦) . شاعر غنائي ألماني . درس في عدة جامعات ألمانية . عاش فترة في باريس نشط فيها في مجالي الصحافة والفلسفة ، ولكنه عاد إلى اهتمامه الأول وهو الشعر . اصطدم مرات كثيرة مع الرقابة في ألمانيا نتيجة لأسلوبه النقدي الساخر .

٢- Charles Dickens(١٨١٢- ١٨٧٠) . أحد كبار الروائيين الإنجليز . عمل في صباه في مصنع وقد تركت التجربة المريرة تأثيرا كبيرا على كتاباته فيما بعد . كتب القصص القصيرة إلى جانب رواياته .

٣- Johann Wolfgang von Goethe(١٧٤٩- ١٨٣٢) . من كبار الشعراء الألمان . ولد في فرانكفورت . له «فوست» و«فرتر» .

٤- Friedrich Nietzsche(١٨٤٤ - ١٩٠٠) فيلسوف وبحاثة ألماني . بعد دراسته للفلسفة في جامعتي بون ولايبسيك أصبح أستاذا للدراسات الكلاسيكية في جامعة بيزل عام ١٨٦٩ . آمن بسنة التطور نحو الأقوى والأحسن ، وبأن الإنسان يجب أن يصبو للوصول إلى مرحلة« الإنسان الأعلى » . أصيب بانهيار عصبي عام ١٨٨٩ ، فأودع مستشفى للأمراض العقلية حيث بقي حتى مماته . من أهم مؤلفاته« كذا تكلم زرادشت» .

٥- Gerhart Hauptmann (١٨٦٢ - ١٩٤٦) . روائي ومسرحي ألماني حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٢ . درس الفن والتاريخ في الجامعة . تأثر بنظرية النشوء والارتقاء لداروين . امتاز أدبه بالواقعية .

٦- Anatole France (١٨٤٤ - ١٩٢٤) كاتب وروائي فرنسي منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢١ . كتاباته الأخيرة تعكس اهتماما بالاشتراكية ، إلا أنه لم يلتزم بمنهج خاص .

٧- Karl (Heinrich) marx (١٨١٨- ١٨٨٢) . ثوروي وعالم اجتماعي واقتصادي ألماني . من اسمه اشتق اسم الفلسفة المعروفة بالماركسية . حرر«البيان الشيوعي » بالتعاون مع انجلز عام ١٨٤٨ ، وفيه أعلن الاثنان أن التاريخ البشري ما هو إلا تاريخ الصراع بين الطبقات وأن النصر النهائي سيكون من نصيب الطبقة العاملة . أهم آثاره كتاب «رأس المال» Das Kapital .

أفاتحة رجاء؟

بين الأخبار الكثيرة المحزنة في هذه الأيام خبر سرني جداً ، وهو أنَّ عظمة السلطان عيّن للجمعية الخيرية الإسلامية ، في ميزانية الأوقاف الخصوصية السلطانية ، مبلغاً لإنشاء مدرسة لتعليم البنات والإنفاق عليها .

يالله ، كم تلهج الجرائد بالشكر وكم تفيض بالدعاء(. . .)* وتفتح باب المرادفات المتتابعة التي لا تستطيع أنْ تعبر عن فكر خاص إذ أنها كلمات محفوظات منذ أعوام ! وليتها (. . .)* تسأل عظمة السلطان بما يعود على الشعب بالخير ، وتستلفت نظره العالي إلى كل نقص موجع في الأمة ، وإلى الاحتياجات الكثيرة والجراح العميقة التي يستطيع تضميدها ! إن الملك(. . .)* هو الفرد الذي يكاد يكون كلاً ، لأنه يمثل الكل ، ففي رفعة الشعب عزّه (. . .)* ، فلا عجب أنْ نراه أكبر مساعد له ، مهتما بمصالحه وشؤونه ومحاولا إنهاضه من وهدة الجهل والحاجة بجميع الوسائل الممكنة مادية كانت أو أدبية .

فتفكير عظمة السلطان في انشاء مدرسة للبنات فاتحة رجاء كبير ، لأنَّ مسئلة[1] تعليمهن توجب الالتفات والاهتمام الحقيقيين . إنَّ موقف مصر الطبيعي لا يجيز لها أنْ تكون جاهلة . ورغماً عن النهضة الأدبية الحديثة في مصر ، والتعليم الذي لا يتناول أكثر من مليونين بين اثنى عشر مليونا ، فلا نستطيع أن نسمي مصر إلاّ جاهلة . وركيك أنْ أردد هنا ما يعرفه الجميع وهو أن ارتقاء المرأة أساس ارتقاء الشعوب ، وحيث تكون المرأة في انحطاط فلا ارتقاء في الرجال . فإذا شكرتك الجمعيات بحق ، يامولاي ، على إنعاماتك الطيبات ، فأنا أشكرك بأكثر من ذلك ، أشكرك بآمال كثيرة للمستقبل ، آمال ارتقاء لجنسنا المستعبد ، آمال تحرير لجنسنا الذي طال جهله وطال شقاؤه . وإذا تنازلت

وصرفت شيئاً من اهتمامك الأبوي علي هذا الموضوع فإني لا أشك في النتيجة وأراها باهرة في المستقبل القريب .

ومما يسرنا أيضاً أنّ البرنس قدرية هانم كريمة عظمة السلطان كاتبة أديبة ومحبة للفنون . فقد عربت رواية فرنساوية إلى التركية ولها ولع كبير بالبيانو . ونؤمل أنْ تكون ميولها هذه الجميلة عاملاً كبيراً في إنهاض المرأة المصرية من جهلها وتدريبها في سبيل المعرفة والنور . بل نؤمل غير ذلك : نؤمل أنْ تتألف جمعية أدبية نسائية تحت رعايتها ورئاستها ليكون مثلها العالي قريباً من الجميع ، وعلمها الأدبي محسوساً ملموساً ، فيكون لها في تاريخ نهضة النساء في مصر أثر كبير خالد .

(أنا)

المحروسة . س٤٠ ، ع١٨١٠ ، ٩ يناير ١٩١٥ . ص٢ .

* في الأصل مساحات فارغة . أغلب الظن أن الرقابة التي فرضت على الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى هي المسؤولة عن الكلمات المحذوفة .

١- المقصود مسألة .

رسائل العيد وتبريكاته

أهلاً برسائل العيد الجميلة ومرحباً ببركاته الحلوات ! نكاد نحسب الظروف المختومة أجنحةً تستريح بعد طول المسير ، ونكاد نسمع بين السطور زقزقة وتخيل حفيف الأوراق تغريداً . إنها تختلف عن رسائل العام جميعا . وسواء كانت التهانى آتية من أعماق القلب ، أو من أطراف الشفاه ، أو من حركات الأقلام فقط ، فإن لها على كل حال ، معنى حسناً يمازجه شيء من العظمة وأنس كثير عيد سعيد ! هذه الكلمة وإخواتها أصبحت تافهات كجميع العبارات التي كثر استعمالها بين البشر فكان معناها الجوهري مفقوداً . ولكن متى كان الناس مصدقين كل ما يقال لهم؟ ومتى كانوا معرضين عما كان لطيفا مرضيا ، غير قانعين بالعواطف المندفعة بقوة؟

لا . لا . كفى الاجتماع صفاته ! كفانا أنْ يتظاهر محدثنا بالإخلاص وكفاه منا ذلك مقروناً ببسمة لا تعنى شيئاً من هيبة وكثيراً من لوامعه ، وهذا كل ما يطلب منا .

فدع « روسو » يبكي حيناً ، ويرمي الجمعية التى أوجعته ، بسهام انتقاده حيناً . دع أمثاله يوالون أبحاثهم ، وأتباعه يرددون شكواهم . أما نحن فدعنا نضحك - نضحك في أيام العيد ، على الأقل ! دعنا نبتهج برسائلنا كما يفرح يتامى القتلى بلعباتهم .

الرسائل ! إن كلاًمنها تحمل عالم أسرار ومسرات ، مهما كان مسطورها تافها . فنوع الورق ، وأشكال الرسوم ، وأسلوب الكتابة ، وتنسيق العبارة ، واختيار الألفاظ ، وكيفية التوقيع ، حتى المسافات المتروكات بين كلمة وكلمة وسطر وسطر ، تنم عن ذوق مراسلك وميوله وعن بعض صفاته وعيوبه . ألا يلذ

لك درس امرىء في رسالة أو في كلمة؟ ولئن اقتصر في معظم رسائل المعايدات على عبارات منسوجات قديماً لم يقو الزمان عليها ولم يأكل البلى منها شيئاً – كأنها موميات حنطها نفر من الجن – فهي على ذلك تحمل من دلائل الشخصية أكثر ما تحمله الرسائل العادية وتلك الرسائل تأتي إليك بعد مسير ساعات أو أيام أو أسابيع ، فتمثل أمام عينيك صورة كاتبها ، ونغمة صوته ، وأدق مميزاته ، وذلك الشيء العجيب الذى لا اسم له وهو الذي يجعل لكلٍّ شخصيته الخاصة ، فتذكره وتتلمس أثر ذكره في نفسك .

أرسائل العيد ما أحلاك ! وكم يسر المرء وأنامله تداعبك بينا تحوم حول فكره كسرب نحل ، أو كنغمات أغنية قديمة ! يقلبك ويطيل النظر في صفحاتك ويبسم لك كطفل صغير ، ثم يضعك بقرب ما سبقك من السابقات ، فتنتظرين معهن رسالة أخرى تضاف إليك ونظرة جديدة تلقى عليك ، وكم تسمعين مثل هذه العبارة :« ما أكثر الذين فكروا بى في هذا العيد ! » أجل . ليست المواسم إلا ظروف تذكير وليست معاني الأعياد في ذاتها إلا شدة التفكير في حادث أو شخص تعود النفس إليه في ماضيه وتحيا معه قليلاً . إذا كانت الأعياد أعياداً لكثيري الأحباب والأصدقاء فيا ترى كيف يسميها المنفردون؟ وهلا تكون إلا أعياد دموع لذوي القلوب الحزينة؟

ربي ! كيف يكون ذلك؟ أيام نفوس تقترب من نفوس ، وغرباء تراسل غرباء ، أيام كلٍ يجد له صديقاً أو شبه صديق ، أيكون هناك أناس من خلائقك – من عبيدكَ – من ابنائك – أناس لا يشعرون بأحاديث القلوب ولا يذقوون نجوى التذكارات؟

ولعل هناك من يشعر بمثل تلك الوحدة القاتلة حتى بين الأصدقاء وإزاء عشرات الرسائل ومئات التهانىء . .؟ لعل الوحشة في الاجتماع أمرّ وحشة والانفراد في وسط الجمهور أوجع انفراد . . . ولعل للنفوس المنفردة حالات يأس تشبه يأس الجثث المطروحة ممدودة الذراعين مغمضة العينين ، في ساحات الوغى . . .؟

ربي ! هذه رسائل العيد . ولكن ! مُر الأرضَ أنْ تضم إلى صدرها صغارها لئلا يوجعها البرد ! ومُر شمسَ حبّك أنْ تبعث بأشعتها إلى النفوس الحزينة في وحدتها ، فتذيب ثلوجها . إنَّ النفوس كالجثث الخالد يأسها ، يوجعها البرد كثيراً .

ربي ! يبكون في الدنيا دموعاً ويبكون دماءً . فمن يحفظ الدموع في مآقيها ومن يحبس الدماء في أجسامها؟ من؟

ميّ

المحروسة . س ٤٠ ، ع ٢١٠٦ ، ٢٩ سبتمبر ١٩١٥ . ص٢

الساعات الأخيرات من ١٩١٥

كثرت الحركة في هذه الليلة ولست أدري من أين أتت المدينة بالجماهير المالئة شوارعها . يتهافتون زرافات ووحدانا إلى حيث لا يعلم الناظرون . وتحت بهاء الأنوار الإضافية التي وضعتها المحال الكبرى فوق أبوابها أخذت الأشياء هيئة عيد لائقة بها وبالمارين جميعاً . . . والناس كالأمواج المتدافعة ، يجيئون وينثون ثم يختفون قاصدين شوارع أخرى . يسيرون بين مجاميع سكرى بمعنى العيد وبكثرة الازدحام . والموسيقى تملأ الهواء بنغمات مختلفة الوقع في النفوس . والحانات ضائقة بنزلائها من شارب ومستزيد ، والمركبات تجري نحو الفنادق الكبرى حيث يقدم عباد الخمر القرابين لإله العناقيد الناضجة[1] ويصرفون شيئاً من القوة في سبيل رضى إلاهة الرقص[2]، رجال ونساء يلهون ويضحكون لينسوا حياتهم العادية وما ملأها من هموم ومخاوف . وأنا ، وإنْ كنت محبذة أساليب اللهو في هذه الليلة ، أريد أنْ أقضي هذه الساعة وحيدة في مكتبي الصغير . ليس لدي من صنوف الخمر إلاّ خمر الفكر ، ومن أنواع الرقص إلاّ رقص المخيلة ، وكل ما يصلني من النغمات صوت الساعة الكبيرة ، تدق الساعات وأرباع الساعات وأنصافها ، ولا أرى من المناظر حولي إلاّ نافذتي المفتوحة على الظلمات . أرى من هذه النافذة شجرة كبيرة متملمة تململ الحائر ، وكأن أغصانها أذرع الشقاء تمتد في الليل يائسة ، وتستغيث صامتة . . . وفي السماء عبوسة الدجى العميقة يتخللها كواكب كثر عددها واشتد لمعانها ، كأنها تطل من أعاليها متفقدة أحوال البشر . وما أحوالنا ، يا كواكب الدجى ! اهبطي إلينا قطرات ضياء شفيقة ، أو امطري الأرض نثرات نار محرقة . وأخبرينا بما لديك من الأسرار . أما نحن فلا سر عندنا ولا عمل إلا تخريب ما صرفنا في تشييده أعواماً ودهوراً !

توالي الساعة الكبيرة دقاتها الإحدى عشر[٣] . ما بال أنوارك قد تضاءلت ، أيتها الكواكب ، لدى هذا الصوت؟ أظننته دويّ طبول في ساحات القتال؟ لا ، لا ، ما هذا إلا صوت الزمان الرهيب داوياً في فضاء الأبدية . ساعة أخرى فينتهي عامنا وتفنى أيامه . لكن آثاره باقية . والأعوام التابعة مكملة ما زرعته الأعوام السابقة من الويلات والنعم .

الويلات والنعم ! دموع وابتسامات ! هذا إرث الإنسانية العجيب ! وأغرب من ذلك أمل هذه الإنسانية الطفلة مهما شاخت في تخليد الابتسام ومحو البكاء . في الاستزادة من النعم حتى تصبح النعم كُلاً . وفي الإنقاص من الويلات حتى تمسي الويلات عدما ! كم جاهدت هذه الإنسانية . وما هي حتى اليوم إلا مغلوبة على أمرها . لقد زادت كمية ويلاتها ولكن كمية رجائها زادت كذلك .

. . صوت الزمان يمحو ربعاً من الساعة الوحيدة الحائرة بين شطي الأبدية . وهذا الصوت يهزني حتى يمسك يدي عن الكتابة ونفسي عن التفكير . أرفع بنظري إلى الأفق فأرى بين شموع الظلام المجرة -نهر الحب في خرافات اليابان- تحضن العالمين بذراع مؤلفة من ملايين النجوم ، وأفكر في الزمان فأجده نهراً جارياً يحضن الحياة من أقصاها إلى أقصاها-ها الساعة تدق نصف الحادية عشر[٤] !

ها أنت تخطو نحونا ، أيها العام الجديد ، فماذا نسألك؟ وهل أنت مصغٍ لمطالبنا أم أنت كالسنوات الماضيات تبزغ باسماً ، ولا تودعنا إلا بعد استنزاف أطيب ما لدينا من الدموع وأغلى ما في قلوبنا من الآمال؟ كثر الحزانى في هذه الليلة ، وكثر الفرحون . فهل تشفق ، أنت المقبل ، على الحزانى فلا تزيد في أحزانهم ، وعلى غير الحزانى فتبعد عنهم الشقاء؟

جاءت الدقائق الأخيرة من ١٩١٥ ، دقائق الوداع . إلى جانبي ساعة لا أرها بل أسمعها تدق بصوت شجي ، وأمامي ساعة صغيرة تنقضي عليها الأوقات فتدق بعقاربها على الرحيل صامتة ، وفي الظلام البعيد ، تلك الساعة الكبيرة تدوي معلمة مرعبة . .

إنَّ لهذه الدقائق الليلة عظمة القوافل الراحلة . . . ولمرورها تأخذ الأشياء معنى عظمة حزينة وجمال قاتم مهيب . بقي دقيقتان فقط ، ويخيل إلي أنَّ العقارب تسرع بالدوران فيخفق قلبي لهذا الوداع الذي لا وجع منه . . . وداع جزء من الزمان العام ينتظر العام الجديد ليفرح .

هذا نصف الليل ينوح بدقاته الاثنى عشر(٥) والأجراس المسيحية تحيي العام المولود . الآن تتلامس الكؤوس العسجدية وتمتزج الخمرة بالأرواح ، وتبتسم الشفاه للشفاه ، وتتناجي العيون ، وتكثر الأدعية بالبركات والهناء . . . دخلت السنة الجديدة في دورها المحتم وقضت من حياتها دقائق ثلاث . . . ما أبسط الانتقال من الوداع إلى التحية !

غير أني لما رأيت العقرب لامساً الدقيقة الأخيرة من ١٩١٥ وسمعت الساعة الكبيرة تعد أصواتها الاثنى عشر(٥) ، خيل إليَّ أن غصون الشجرة الكبيرة تلتوى في الظلام ، وأنَّ صراخاً هائلاً يملأ الآفاق بينا شيء عظيم جداً شهق طويلا ثم جمد جموداً أبدياً .

ما هذا؟

. . . .

دقّي أيتها النواقيس ألحان أفراحك ونغّمي على موجات الظلام(. . .)* يا ليت قلوبنا آلية مثلك ومثلك سريعة الانفعال ! دقى ساعة الرجاء . ، فما(. .)* في ساعة اليأس الذى لا رجاء بعده ! دقى ، أيتها النواقيس . فإنَّ فرحك يمتد إلى ذرات النفوس . ها(. . .)* مترنمة مثلك . ولا يهمنا ما سيحمله إلينا هذا العام من مسرات وأتراح . (. . .) .* الوقتي الآن . وكفانا نشيدك في موجات الظلام !

المحروسة . س ٤٠ ، ع ٢١١٠ ، ٤ يناير ١٩١٥ . ص٢

١- باخوس (هامش الكاتبة)

٢- تربسيكور (هامش الكاتبة) .

٣- المقصود الاحدى عشرة .

٤- المقصود الحادية عشرة .

٥- المقصود الاثنتي عشرة .

* الكلمات غير واضحة في الأصل .

سلام الله يا مطر عليك

كسرت البيت ، وهدمت معانيه لأنصفك يا مطر الجو ، فإنَّ الشاعر العربى كان لك ظالماً ، وسواء كان يعنيك أنت في شعره ، أم كان يقصد رسولاً اسمه «مطر» أم كانت مراجعة الكلمة فى الشطرين تورية للاسمين جميعاً ، فأنت يا مطر الغيوم مظلوم . فما أظلم الشعراء يوم لا يكونون راحمين !

وما ذنبك أنت – ودورك منفعل وإنْ كنت فاعلاً– إذا امتصتك الشمس من البحار بخاراً ، وبخرتك غيوماً ، فعادت الغيوم تتفجر وتدفقت سيولاً لتروي السنابل في مروجها وتقوي الأشجار في أرضها ، وتذل النبات والأزهار حيناً كي يأتيها الربيع المقبل بنضرة الشباب وسحر الجمال . . .؟

ما ذنبك إذا ابطأ الرسول مطر في إرساليته –فلعل في طريقه ليلى تحدثه– أو لم يأت بجواب مُرْض للشاعر من ليلاه؟ وما ذنبك إذا هطلت عند دنو اجتماعهما ، وكان متّفقاً عليه منذ أيام أو أسابيع ، فتدفقت ثقيلاً كالماء وكنت بينهما حائلاً . . .؟

غضب الشاعر وسبَّك بأسجاعه لأنه شعر بأنه معاكس في عاطفة عزيزة . ولكنه إذا كان شاعراً حقاً فإني لا أشك في أنه استسلم بعدئذ إلى التأمل في جمال حلولك على أرضنا . وأنه فكر في الشعوب الجائعة العطشة التي تنتظر منك إرواء غليلها وحياة قوتها .

ولكن لعل الشاعر كان مصرياً؟؟ فما استطاع أنْ يرى فيك الفائدة الحيوية التي تنتظرها منك شعوب وأمم لا نيل عندها ولا إلاهة تبكي عروسها؟

فعند قدماء المصريين احتال تيفون على أخيه أوزيريس وأوقعه في صندوق من الحديد وألقاه في النيل ليهلكه ويسود مكانه كإله وملك معاً . ومنذ تلك الأيام

وإيزيس ، تبحث عن أخيها وزوجها . فتسير في كل عام على ضفة النهر ذهاباً وإياباً منادية أوزيريس باكية بكاء غزيراً . وتختلط عبراتها بمياه النهر فيفيض فيضانه العظيم ويتدفق على مروجه خيراً وبركات . فهو مغذي الوادي وينبوع حياته وثروته .

على النهر الفائض بدموع إلاهة حزينة !

فسلام

***

لو تجاسرت لزدت على هذا كلمة أخرى وقلت إنه حق لبعض المصريين أن يقولوا مع الشاعر القديم «وليس عليك يا مطر السلام» ولكن الكلمة التي أعني تتعلق بالشوارع غير الأوروبية في العاصمة ، والشوارع الأوروبية وغير الأوروبية من الأشياء التي تسوسها مصلحة التنظيم ، ومصلحة التنظيم - كما لا تعلم أيها المطر - فرع من فروع الحكومة ، إذا ذكرناها بغير التعظيم والإجلال كان نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلى !

آه ! من ينبّه مصلحة التنظيم من رقادها فترفق بالشوارع وسكانها وتبعد عنهم الغبار في الصحو ، والأوحال في المطر وتصون صحتهم من الأمراض في جميع الأحوال !

ميّ

المحروسة . س٤١ ، ع ٢١١١ ، ٥ يناير ١٩١٦ . ص ٢ . أعيد نشر هذه المقالة ، بعد اجراء بعض التصحيحات والتعديلات ، في كتاب «سوانح فتاة» «المؤلفات الكاملة . ج٢ . ص٥٣٩-٥٤٠»

الاضطهادات الدينية عند الرومان -١-

في يوم ٢٧ من الشهر المنصرم احتفلت طوائف الكاثوليك بعيد قتل الأطفال ، وهو تذكار للحادث التاريخي المعروف الذي جرى بعد ميلاد المسيح بأسابيع أو بأشهر قليلة تنفيذاً لأمر الحاكم الروماني في اورشليم ، فقُتل جميع الأطفال من ذوي عامين فأقل ، أملاً أنْ يهلك معهم ذاك الذي يقصدون ، على أنّ والديْه كانا قد هربا إلى مصر (يظهر أنَّ مصر دار هجرة السوريين وملجأ المظلومين منهم منذ عهد بعيد) .

وعلى ذكر هذا العيد الذي كان فاتحة اضطهاد الرومان للنصرانية لا يقوى المفكر على دفع هذا السؤال الحائم في نفسه : «ما هو سبب اضطهاد الرومان للمسيحيين دون غيرهم؟ ولماذا جاهدت امبراطورتهم في خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد في سبيل قتل هذه الروح الدينية الجديدة ، في حين أنَّ الرومان كانوا أكثر الشعوب تساهلاً لتعدد العقائد وأشدهم تسامحاً لحرية الأديان؟»

لقد عالج فولتر هذا الموضوع ببراعته الفائقة . وهذه خلاصة أقواله : ما دام الجميع عالمين بما كان عليه الشعب الروماني من حسن الضيافة لكل فكرة دينية حلت في بلاده وما دام الجميع مصدقين في الوقت نفسه أنه اضطهد اتباع فكرة واحدة دون غيرها ، فهذا لا يعني سوى أنه لم يضطهدها قط ، وأنَّ تلك الاضطهادات المزعومة لم تكن إلا تلفيقات كتبة تلك الشيعة ، وهم من الكاذبين . ولئن كان مقرراً أنَّ بعض المسيحيين عوقبوا في حكومة الامبراطورية ، فهم لم يعاقبوا كمسيحيين بل كمجرمين سياسيين .

أنت ترى ، أيها القارىء ؛ أنَّ براعة فولتر لا تقوم مقام جواب مقنع . وإذا صمم المرء علي البحث في موضوع ذي أهمية والوقوف على حقائق الحوادث منه .

فإن هذه اللهجة المملوءة بالنعرات -على خفتها وظرفها ، ولم يكن أسلوب فولتر إلا خفيفاً ظريفاً بوجه خاص- لا تروي غليلاً بل تهيج رغبة الباحث .

لقد لمس هذا الموضوع في بعض مقالاته مسيو اميل فاجي[1] الناقد الفرنساوي المعروف . ولكن اميل فاجي فولتر مصغّر إلا ما كان عند هذا (فولتر) من الظرف الطبيعي والخفة التي لا يعادلها إلا ذكاء فولتر الوهاج وسعة معارفه العجيبة . أما فاجي ففيه شيء من التكلف . وإذا كانت كتاباته لذيذة ومفيدة فإنك كثيراً ما تشعر بأنه محاول أنْ يكون أكثر مما هو في الواقع . وزد على ذلك أنه شديد التعصب ضد كل ما كان كاثوليكيا .

وأهم ما قرأت في هذا المعنى وجدته عند مسيو بوشي لكرك[2] مؤلف القاموس التاريخي -وهذا القاموس من نوع قاموس فولتر الفلسفي- والرجل متحزب ضد الكثلكة أكثر منه متحزباً لها ، غير أنه يظهر من خلال سطوره أنه لم يستسلم إلى الفرضية . بل بحث في الموضوع كعالم غيور وكتب نتيجة بحثه كمؤرخ مخلص غايته الإفادة والحقيقة (البقية غداً)

ميّ

المحروسة . س٤١ ، ع٢١١٢ ، (٦) يناير ١٩١٦ . ص٢

١- Emile Faquet(١٨٤٧-١٩١٦) . مؤرخ أدبي فرنسي . عين أستاذاً في جامعة «السوربون» عام ١٨٩٠ وعضواً في «الأكاديمية الفرنسية» عام ١٩٠٠ . نشر بحوثه في عدة دوريات فرنسية هامة .

٢- Jean Leclerc(١٦٥٧-١٧٣٦) . موسوعي وبحاثة فرنسي اهتم بالتاريخ وشروح الكتاب المقدس . درس في وطنه وفي سويسرا . حرر ثلاث موسوعات ، كما أنه ترجم الجديد .

الاضطهادات الدينية عند الرومان - ٢

معلوم أنَّ اضطهاد الرومان للمسيحين دام نحو ثلاثة قرون ، وما خفت وطأته إلا في عام ٣١١ إذ تولى الحكم غاليريوس[١] ، بعد تنازل حميّه ديوكليسيان[٢] عن العرش . فكان زمانه عصر تساهل . ولما جاء قسطنطين الأول[٣] لم يقتصر على هذا التسامح العملي ، بل بعد استشارة قريبه لوسينيوس[٤] اتحدت كلمتهما ، وأصدر الامبراطور أمره بأن لا يتعرض أحد لإقلاق راحة المسيحيين أو لمناقشتهم في أسرار عقدتهم ، معلناً بأنهم لن يعاقبوا من أجلها فيما بعد . ولكنه نهى عبّاد الأوثان عن اعتناق الدين المسيحي ، أو أي دين آخر سواه (٣١٢) وفي السنة التالية (٣١٣) جعل منشوره أتم شكلاً ومعنى إذ أباح لكلٍ من رعاياه أنْ يختار من الأديان ما تميل إليه نفسه ولذا سمي «حامي المسيحيين» .

بيد أن الاضطهادات ، وإنْ كانت حقيقة وكلها تنم عن قسوة وحشية ، فهي لم تكن مستمرة ، بل كانت تتابع متقطعة من أعوام إلى أعوام بمناسبة ظروف تمر بالامبراطورية ومشاكل تطرأ على الشعب . ويحصي المؤرخون اضطهادات عشر[٥] على المسيحية منذ الثورة الأولى على اتباعها نحو عام ٦٤ إلى ٣١١ وهو عام الخلاص . ولكن المسيحيين في حياتهم اليومية لم يكونوا أشقياء بل كانت حياتهم هادئة إن لم تكن خالية من الهواجس خلواً تاماً . كانوا يتعاطون الأعمال على اختلافها دون أنْ يتعرض لهم أحد ، ويختلطون بسائر الرعايا الرومانية تحت ظل القوانين التي لم تكن تستثني من الطوائف طائفةً بل كانت تحمي الجميع على السواء .

الآن وصلنا إلى النقطة الجوهرية : لماذا اضطهد المسيحيون؟

مسيو بوشي لكلرك يجيب بلا تردد ، أولاً (وهو في هذا متفق تماماً مع فولتر)

اضطهدوا كأعداء سياسيين للامبراطورية «وللنوع الإنساني» - كذا في سجلات روما- وثانياً (وهو في هذا متفق إلى حين مع تاريخ الكنيسة) كمسيحيين ومن أجل ديانتهم .

نحو عام ٦٤ قام الرومان على المسيحيين إذ عزا إليهم أكثر المعاصرين -وبعض المؤرخين فيما بعد- حرق روما في ذلك الزمن . وكان نيرون[٦] محبوباً من الشعب حباً جماً فلما بلغه شيوع اتهامه بحرق العاصمة وأنَّ ذلك لم يكن إلا نتيجة إيعاز قوي منه ، اضطر إلى اضطهاد المسيحيين وتعذيبهم ليظهر براءته ويدل على شدة اعتقاده بأنهم مرتكبون ذلك الإثم العظيم . وكان زارعو هذه الفكرة في روما الاسرائيليين لأنه لم يسلم من أحياء المدينة إلا حيّهم ، فدسوا الشكاوى ضد المسيحيين ليبعدوا الظن عنهم وينجوا بأنفسهم ويصونوا ما كان معطى لهم من الحرية في عدم السجود للآلهة واستعمال حريتهم الدينية على ما يريدون .

بعد هذا الحادث صار المسيحيون مكروهين فضلاً عن أنهم كانوا تحت وطأة ذنوب أخرى كثيرة . منها الامتناع عن عبادة الامبراطور . لم تكن هذه العبادة إلا شبه دينية على أنها كانت توجب قَسَما دينيّا . نعم إنَّ هذا القَسَم لم يكن يطلب إلا من الموظفين ومن الجنود . ولم يكن هذا ليروق في عيون المسيحيين ولما كان أحد الرعايا متهماً بالمسيحية كان يعرض عليه : أولاً إنكار المسيح .

ثانياً : تقديم القربان للآلهة . ثالثاً : السجود لقيصر . وكان يجيب المسيحيون «السجود للّه وحده» فأصبحوا ، والحالة هذه ، تحت وطأة جرم سياسي مستديم .

يرى اميل فاجي أنَّ هذا كان ذنبهم السياسي الجوهري . أما مسيو بوشي لكلرك فيرى فيه ذنباً أولياً فقط ويقول «إنَّ هذا الدين السياسي (عبادة الامبراطور) كان الدين الوحيد الذي تهتم له الحكومة وتغضب على كل من لم يذعن له غضباً لا رضى بعده» .

وكانت الحكومة الرومانية . كالحكومات الديمقراطية الحالية ، لا تحتمل

الجمعيات والاجتماعات . ولما كان المسيحيون عالمين بذلك كانوا يعقدون اجتماعاتهم سراً في كنائسهم . وهذا الأمر وحده كان يجعلهم مستحقين العقوبة . ثم إنهم كانوا ضد الخدمة في الجيوش الامبراطورية مجاهرين بأنهم لا يستطيعون أنْ يكونوا جنوداً ما داموا مسيحيين ، ومن كتابهم «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» والأمر بطاعة الله قبل طاعة البشر . والبشرى بأن ملكوت الله ليس في هذه الدنيا . إلى غير ذلك من الأقوال التي كانت تقلل من سلطة الحكومة وتجعل فوق إرادتها إرادةً أكثر قوة ، وأمراً لا تحسب أمامه الأوامر الدنيوية .

لم يكن المسيحيون في نظر حكومة الرومان إلا ثوريين وهم اضطهدوا كذلك .

(البقية غداً)

ميّ

المحروسة . س٤١ ، ع٢١١٣ ، ٧ يناير ١٩١٦ . ص٢

١- Galerius(٢٤٢؟-٣١١) . امبراطور روماني . اصطدم مع المسيحيين لأول مرة في عامي ٣٠٣-٣٠٤ عندما أصدر مراسيم تضيّق النطاق على نشاطهم . عاد وألغى هذه المراسيم قبل مدة قصيرة من وفاته .

٢- Diocletian(٢٤٥؟-٣١٢) . امبراطور روماني ومصلح . ولد لعائلة متواضعة فاعتمد على الجيش في صعوده إلى العرش . شهد في أخريات حياته تنازعاً على السلطة بين ورثته .

٣- Constantine(٢٧٤-٣٣٧) . امبراطور روماني (٣٠٦) . شرع في تحويل الامبراطورية الرومانية إلى دولة مسيحية . هزم خصمه ماكسانس في روما وأطلق الحرية للدين المسيحي عام ٣١٣ ، أسس عاصمة جديدة سماها القسطنطينية .

٤- Licinius(٢٧٠؟-٣٢٥) . امبراطور روماني . أصدر سوية مع الامبراطور غاليريوس «مرسوم ميلان» الذي نص على التسامح مع المسيحيين . وعندما نكث لوسينيوس الميثاق عام ٣٢٠ حاربه الامبراطور قسطنطين فهزمه عام ٣٢٤ وأمر بقتله في العام التالي .

٥- المقصود عشرة .

٦- Nero (٣٧-٦٨) . الامبراطور الروماني الخامس . اشتهر بشخصيته المهزوزة وقسوته ، فقد قتل أمه وزوجته . حكم عليه البرلمان بالإعدام ، إلا أنه هرب ويعتقد أنه انتحر .

الاضطهادات الدينية عند الرومان -٣-

ديانة الرومان ، كمعظم الديانات القديمة التي نقل إلينا التاريخ آثارها ، كانت ديانة إشراك تعددت فيها الآلهة ونسخ الجديد منها عن القديم صنوفَ ألوهية شتى انتشرت صحيحة أو محرفة من قارة إلى قارة ومن بلاد إلى بلاد . هناك إلهٌ للخير وإله للشر . هناك آلهة للمياه وآلهة للجبال والوديان والنبات . هناك آلهة للحرب والسلم والجمال والحب . ليس عندهم كائن من الكائنات أو معنى من المعاني خالياً[1] من سلطة إله أو إلاهة خاصة . ولئن كان مسكن آلهتهم عادة ضمن حدود مملكتهم ، وموضوع اجتماعهم العام الاولمبوس ، فإنهم كثيرا ما كانوا ينزلون إلى الأرض ويعيشون أياما أو ساعات من عيشة أهلها ويساعدونهم في حاجاتهم أو ينتقمون منهم لذنب جنوه ، وكثيراً ما كانوا يرتبطون بهم بصلة النسب !

فكان تساهل الرومان طبيعياً لا غرابة فيه ، إذ لم يكن دينٌ من تلك الأديان ليهزأ بغيره ، أو ينكره ، بل لم يكن يندر أنَّ النازلين في أرض غريبة كانوا يضيفون إلى عبادة آلهة بلادهم ، عبادة آلهة تلك البلاد فيحتفلون بأعيادها كباقي الشعب ويقدمون على مذابحها الضحايا والقرابين . يفعلون ذلك لا عن مكر أو خديعة بل عن إخلاص جميل واعتقاد في أنهم يجلبون عليهم رضى تلك الآلهة وبركاتها .

بيد أنَّ ذلك التساهل من شعب يعبد آلهة بعضها أوثان وبعضها رموز وبعضها خيالات ، لم ير لذاته مكاناً إزاء دين جديد ينكر جميع الأديان مُعْرضاً عما تفرضه من الواجبات ، هازئاً بما يدّعيه فيها من الخرفات ضاحكا من معتقدات تابعيها محتقراً آلهتها ! -تلك الآلهة التي ترتجف لذكرها الشعوب من سيد فيها وعبد

وملك ومملوك ! آلهة سريعة الغضب ، هائلة الانتقام ! فكان الرومان يحسبون كل ما ينزل بهم من الكوارث أو يبطىء في وصوله إليهم من الخيرات إشارات انتقام آلهة مهانة من شعب أثيم لا يقضي على الكافرين .

فكانوا إذاً يجاهدون جهاداً دينياً غير الجهاد السياسي . ويستشهد مسيو بوشي لكلرك ، تأييداً لهذه الفكرة ، بعبارة للمتشرع بولس متكلماً بإيعاز من ماركوس اوريليوس[٢] ومبدياً رأيه :

«يُحكم على مدخلي ديانات جديدة مجهولة من حيث التعاليم والأعمال بالنفي إذا كانوا من الدرجة المتوسطة ، وإذا كانوا من عامة الشعب فعقابهم الموت»

«ديانة جديدة» هذه الكلمة التي أخذت دورا مهماً في محاكمة سقراط[٣] عند الاثينيين . وهذه التهمة التي حسبت عليه إثماً فظيعاً كان عقابه الموت !

فعلى رغم إنكار فولتر وتهكمه قد اضطهد الرومان المسيحيين اضطهاداً دينياً غير الاضطهاد السياسي .

***

بقي أمر لا يسهل النظر فيه . معقول أنَّ المشركين لم يكونوا يميلون إلى الموحدين ولا يحتملون اعتقادهم . فحاولوا فناءهم . غير أنَّ اليهود كانوا كذلك موحدين ولا نعلم أنَّ نصيبهم من حكومة روما كان أشبه بنصيب المسيحيين .

مسيو بوشي لكلرك يقول : إنَّ الرومان اضطهدوا اتباع موسى بعض الاضطهاد . ولم يعن بذلك الهياجات اليهودية التي أغرقتها روما في نهر من الدماء لأنه يحسب ذلك إثماً سياسياً أتبع حتماً بعقوبة سياسية محضة . إلاّ أنه يؤكد حصول اضطهادات دينية ، ويستشهد بأقوال استخلصها من التاريخ الروماني ، تدل على أنَّ بعض الرومان قُتل ، وبعضهم حبست عنه ثروته لإنكاره دين روما تائهاً «في الاعتقادات اليهودية» .

على رغم هذه التصريحات ، ما زلنا نرى اليهود أقلّ شقاءً من المسيحيين -في روما فلماذا؟ مسيو بوشي لكلرك يعتقد أنَّ الرومان كانوا يرون في اليهودية ديناً

قومياً . دين الآباء والجدود . وأمر طبيعي أنْ يتبع المرء ديناً ولد فيه ليحافظ على عادات بلاده وقومه . لكن المسيحية دين جديد يحمل للناس أقوالاً جديدة وينشر على العالم مبادىء لم يألفها العالم . فلذا كان في نظر الرومان أشد خطراً وأحرى بالاضطهاد والعقوبة .

لا بأس بهذه الأسباب التي يلقيها أمام بحثنا مسيو بوشي لكلرك . إنها قريبة معقولة . ولكن هل هي كافية؟

لا أدري ما هو حكمك أيها القارىء ، ولكني أشعر شعوراً شديداً بأنها ناقصة وضعيفة وليس لدينا غيرها ، مع الأسف .

(لها بقية)

ميّ

المحروسة . س٤١ ، ع٢١١٤ ، ٨ يناير١٩١٦ . ص٢

١- المقصود خال .

٢- Marcus Aurelius (١٢١-١٨٠) . امبراطور روماني . استلم السلطة مناصفة مع أبية ، ثم أضحى الامبراطور الأوحد عام ١٦١ .

٣- Socrates(٤٧٠ ق م-٣٩٩ ق م) . فيلسوف يوناني . ولد في أثينا ، أسس علم الأخلاق . حارب السفسطة وانتقد الحكم فاتهم بالزندقة وحكموا عليه بالإعدام ، إلاّ أنه فضل الانتحار عن طريق شرب السم .

الاضطهادات الدينية عند الرومان -٤-

يرى مسيو بوشي لكلرك عمل الرومان حسناً لأنه معتقد أن القياصرة ومن التف حولهم أو عمل بأمرهم لم يكونوا يسعون إلاّ إلى مكافحة التعصب والدفاع عن حرية الضمائر الغالية . ما هي أقوال المسيحيين يومئذ؟ هذه هي :

«جميع الأديان باطلة وديننا وحده قويم . ومتى صرنا الأكثرية سنحذف تلك الأديان» . أما الوثنيون فهم جماعة القائلين : «جميع الديانات حسنة ونقبلها كلها . . . كلها إلاّ التي لاتسلم بقبولها وتدعي أنها وحدها قويمة وأنّ الحقيقة بين يديها ، فإذا استعملنا تساهلنا العادي نحو هذه الديانة كنا عاملين على تقويتها وهادمين أسس الحرية الفكرية –الحرية التي نحن أبطالها ومؤيدوها ومعززوها» .

هذه الفكرة التي ينسبها مسيو بوشي لكلرك إلى الرومان هي التي بح صوت روسو وهو ينادي بها ويدعو إليها في جميع كتاباته وخصوصاً في كتابه «العقد الاجتماعي» وهي جعل الحرية الدينية مطلقة للجميع إلاّ للقائلين بوجوب محو الحرية الدينية . الاحترام والتساهل لجميع المعابد والكنائس إلا للقائل منها إنّ «لا خلاص للخارج عنه» .

ونتيجة بحث مسيو بوشي لكلرك الطويل الدقيق هي هذه ، أولاً تقبيح كلمة بوسويه[1] : «على الملك أنْ يستعمل سلطته لهدم الأديان الباطلة في بلاده» . ثانياً يضحك المؤلف قليلاً من الفيلسوف العصري مسيو اميل بوتروكس الذي يحاول توفيق النظريات العلمية بين الماديين والروحيين وبين المتعصبين للديانات والمتعصبين ضدها والمهملين . ويقول فيه إنه يشبه أذكياء الوثنيين القائلين : «نحن نعبد الألوهية على ثلثمائة نوع ، والألوهية تسر خصوصاً بهذا

التنوع في عبادتها» . ثالثاً وأخيراً لئن كان مسيو بوشي لكلرك مستحسناً طريقة الاضطهاد لمقاومي الحرية الدينية في أيام القياصرة ، ومعتقداً أنَّ الغرض من ذلك الاضطهاد لم يكن إلا المحافظة على حرية الضمائر المهددة فإنه يشير بالعودة إلى مثل ذلك لأنه لا يرى حاجة إليه وقد تغيرت الأحوال وتعددت الظروف ، فلا تنافس بين الحكومة والدين اليوم إذ ليس في هذا الزمان ما كانوا يسمونه «عبادة القيصر» ثم إنَّ الكنيسة لا تنهى ابناءها عن الخدمة العسكرية حتى ولا عن الحرب عند احتياج الوطن إليها . وهو يرى أنَّ حل العقدة الدينية لا يتم إلا إذا انفصلت الحكومات عن الأديان . فلا تأييد لواحدة ولا اضطهاد لغيرها . ولا مقاومة ولا تداخل في شؤون الناس الدينية بل لكل أنْ يعتنق ما تميل إليه نفسه من العقائد ويعيش حراً على الكيفية التي يطلبها وترتاح إليها ميوله ، أما اميل فاجى فإنه يسمع هذا القول غاضباً ، ولا ينتهي إلى آخره حتى يسمعنا زئيراً . . . «أكاديمياً» . ولا يعجبه هذا ولا يرضيه . بل هو يقول بوجوب مداومة الاضطهاد حتى يمحى التعصب عن وجه الأرض ادع الفلاسفة يتخبطون في ما يحلون ويربطون ، ويستحسنون ما شاءوا من حوادث التاريخ ويقبحون . دع الناقدين ينتقدون وبناة النظريات يشيدون ، وقل لي ما رأيك في التعصب وهل هو خصيص بدين دون غيره وبفكرة دون فكرة ، وبفئة دون فئة؟

إذا قال المسيحيون ذلك في معتقدهم؟ وإذا تركنا الأديان جانباً ونظرنا إلى المناوشات العلمية والمغالطات الفنية فهل ترى في كل جدال إلا التعصب لما يعتقد واحد دون الآخر؟

ثم التعصب الجنسي ، إذ كل شعب من الشعوب يظن ذاته أكثر ارتقاء من الشعوب الأخرى . فلا يفتأ يضحك منها وينتقدها محالفاً على سحق عدوه شعوباً كانت بالأمس له قاهرة ظالمة . وفي الحرب الحاضرة مثال جلي لذلك .

ثم التعصب العائلي . ثم التعصب الفردي ثم تعصب المرء لأشياء في نفسه دون غيرها . حتى تعصب ما يسمونه القدر لبعض الظروف وتصميمه على إهمال ظروف أخرى ما أشد رغبتنا في الوصول إليها . كلنا تعصب في تعصب ،

وليست أفكارنا إلا نسيج تحزب وغرضية ، ولا نستطيع أن نكون إلاّ كذلك .

فدعهم يتخاصمون إلى يوم القيامة . كفانا أن يساعدونا على نبش خفايا التاريخ ويعلمونا كيف ندرس نفوسنا ونرقي ما فيها من الاستعدادات الطيبة . ولسنا في حاجة إلى الاعتقاد بكل ما يقولون . فنحن نستفيد ثم نضحك ، ثم نحزن ، ثم نستفيد ، وهم عند أبواب النظريات يتخاصمون .

مي

المحروسة . س ٤١ ، ع(٢١١٨) ، ١٣ يناير ١٩١٦ . ص٢

١- Jacques Bossuet (١٦٢٧-١٧٠٤) . أسقف ومؤلف فرنسي . ولد في «ديجون» بفرنسا . ترك مجموعة من المؤلفات في اللاهوت والفلسفة والتاريخ .

رحمة الله عليك يا برسوم

منذ عامين ونصف تقريباً حان المسطور - كما يقول القدريون - فوقعتُ بينما كنت أتزحلق على ما يقوم مقام الجليد في مصر ، وأصاب شمالي صدع في الساعد وكسر . فالتف حولي السيدات والفتيات شفيقات متأسفات ، وقال بعضهن بصوت واحد : «اسرعي إلي برسوم !» قلت : «من هذا برسوم؟» .

أجبن : «اسألي في أي أجزخانة تجدينها في طريقك عن برسوم المجبّر ، فكل الناس يعرفونه» عدت إلى البيت وانتظرنا المعلم برسوم ساعات لم يستطع في خلالها إهمال الزائرين عنده من كسيري العظام مثلي ، وكان بعضهم آتياً إليه من الأرياف . ها أنا أرى خياله الآن كما رأيته يومئذ وعلامات الغضب بادية على وجهه ، ينظر إليّ شزرا كأني ألحقت به أذى وكأنه آت ليناقشني الحساب . حييته بكلمة طيبة ولا أذكر أنه ردّ علي السلام . بل أسرع إلى لمس يدي ، ويا لها من لمسة دونها لمسة الموت هولاً !

إذا كان جَبْر العظام موجعاً إلى هذا الحد ، فكم من قلوب كسيرة لا يهتم في جبرها أحد ! وكم من نفس ممزقة وليس من يد راحمة تضمد جراحها ولو بمثل تلك اللمسة القاسية ! لم أخش أحداً في حياتي كما كنت أخشاه . حتى كنت أسائل نفسي عما أستطيع أنْ أفعله لاستجلاب رضاه وإقلاعه عن إيلامي بتلك الضغطة الغضنفرية . ولما يأتي اليوم الرهيب يوم مجيئه كنت أبكي سلفاً وأتمنى أنْ يغمى علي سلفاً كي تفوتني مرارة تلك اللحظة - لحظة إرجاع العظم إلى موضعه حتى إذا ما اصطلحت يدي وكادت تعود إلي ما كانت عليه ، أخذ وجه المعلم برسوم بإبداء البشاشة رويداً رويداً ، وانتشرت رغبة الابتسام على ملامحه ، وجاء يومٌ ابتسم فيه بسمة مستكملة الأوصاف ، تبعتها بسمات

وأحاديث شتى . فطفق يخبرني عن مهنته ، وعن خصائص العظم وكيفية إصلاحه إلى غير ذلك من الحوادث العديدة التي مرت عليه . وسألته كيف عرف وجعي دون أنْ يفحص يدي ، فأجاب أنه لطول الاختبار أصبح يكتفي بلمحة صغيرة للعضو المكسور ليعرف موضع الخلل فيه .

كنت أصغي إليه ولا أصدق أنَّ (الدكتور) برسوم الذي يغضب ويوجع ولا يرد التحية هو هو الذي يحدثني بهذا اللطف وبتلك البسمة .

رحمة الله عليك ، يا مجبر يدي ! كثرت الوجوه التي رأيتها في حياتك ، وكثرت العظام التي كنت لها مقوّماً ، لكن الوجيع الذي رآك مرة لا ينساك ، ولعل ذاكرتنا لا تحفظ صورة من الصور بمثل الأمانة التي تحفظ بها صورة مَنْ أوجعنا -ليفدينا ولذا أود أنْ أقول عن موتك وفقدك شيئاً فيعصاني القول لأنَّ صورتك حية أمامي . رحمك الله رحمة واسعة

ضحية بريئة جديدة

هي مس هيوز إحدى وصيفات والدة سمو الخديو السابق . كانت آتية لقضاء فصل الشتاء بمصر بقرب أخيها المستر جورج هيوز مفتش النيابة في محكمة الاستئناف بالعاصمة فاعترضتها في طريقها نيران الجبار العنيد ، وكانت الأمواج أكفانها وكهوف نبتون السائلة ضريحها ! تذكرها بلا ريب السيدات اللواتي حضرن افتتاح جمعية «اتحاد النساء التهذيبي» في الجامعة المصرية منذ عامين . يذكرن سيدة في ريعان الشباب تجللها هيئة امتياز بريطاني محض . وكانت قد جاءت مرسلة من صاحبة العصمة والدة سمو الخديو تحمل من لدنها كتاب تشجيع للقائمات بشأن تلك الجمعية ، وتعطف بجعل تلك الجمعية تحت رعايتها .

واللواتي حضرن جلسة أخرى من هذا النوع تقريباً بعد افتتاح اتحاد النساء التهذيبي ، في سراي البرنسس أمينة حليم يذكرن كذلك أنَّ الجمعية النسائية التي قامت تدعو إليها حرم سعادة شعراوي باشا ، انتخب أعضاؤها وسنت قوانينها وأسندت رئاستها إلى المرحومة البرنس أمينة طوسون . الجمعيتان النسائيتان

خفضتا الصوت وتفرقت منهما الأعضاء وكفت العاملات عن العمل . ولكن لا نذكرهما الآن بلا أسف على الوجهين اللذين رأيناهما فيهما باسمتين ، وقد غابتا الآن من عالم الابتسام غيابا أبدياً !

خيالات تجيء وخيالات تروح ! أطيار تسبح في الفضاء ملامسة أطياراً أخرى منطلقة على هواها . لا تذكر الأطيار من لا يذكرها ولا من يذكرها . ولكن خيالات البشر تستخرج من حافظتها صوراً توحي إليها موضوعات تأمل وكآبة !

رحمة الله على الأميرة التي قضت في جنيفا ! ورحمة الله على الضحية البريئة الجديدة التي قضت على شبابها همجية عمياء فجعلت البحر العميق مستقرها الأبدي !

ميّ

المحروسة س٤١ ، ع(٢١١٥) ، ٩يناير ١٩١٦ ، ص٢٢

أنا وجارتي الشقراء

الفتاة الانجليزية الساكنة في الغرفة ذات النافذة المقابلة لنافذتي تعرفني وأعرفها معرفة غير قليلة . تعرف لون الزجاج من مصباحي ولا أجهل في أي ساعة من السهرة تشعل شمعتها . أراجع في حافظتي أنواع القبعات التي تلبسها ولا أنسى واحداً من الأثواب المالئة خزانتها . وهي تعرف مني لون جلاثلي والساعات التي أسقي فيها زهراتي والأوقات التي تعيدني إلى مكتبي مكرمة عليَّ بكآبة وحدتي العذبة .

على أنَّ مجموع أفكارها يظل عندي لغزاً ، لا أدري ما هي العاطفة الكبرى المتسلطة على حياتها ، ولا الفكرة القادرة التي تشرف على ميولها وحركاتها ، إذ لا بد في كل حياة من عاطفة سائدة على سائر العواطف الأخرى وفكرة مدبرة لمعظم الرغبات . أجهل ذلك وهذا الجهل يغيظني وليس إلى إزالته من سبيل .

لما نلتقي في الشارع بعيداً عن مسكنينا نسارع إلى تبادل النظرات ثم نبادر إلى التظاهر بأن كل واحدة منا لا اكتراث لها بالأخرى : أيها الكذب الاتفاقي ، كم أنت أبله ! نتظاهر بذلك مع أننا نكاد نحترق لتسمع كل منا صوت جارتها وتقف على شيء من معاني حياتها . وهذه الرغبة الشديدة تنجلي مهما بالغنا في تكتمها . ويحدث أحياناً أن كُلاً منا تقرأها في نفس الأخرى فنبسم على غير إرادة منا ويبين شفاهنا ضحكات طويلات تود لقاء ظرف مناسب لتتدحرج حرة ، من تلك الضحكات التي لا يعرفها إلا الفتيات المحبات للضحك ولكن تربيتنا الاجتماعية تكرهنا على حفظ تلك الضحكات إلى . . . يعلم الله متى ، ربما دائماً .

إنها شقراء نحيفة ولها ولع باللون الأبيض تلبسه في الصيف والأزرق البحري

(الكحلي) تلبسه في هذه الأيام . وتزين شعرها الذهبي بشريط من اللون الأزرق الذابل . تهتم في لبسها كثيراً وعلى وجه خاص ساعة تتهيأ للذهاب إلى لعب الكرة (التنيس) وتقضي ساعات فراغها في الخياطة والتطريز ويندر أن أرى في يدها كتاباً .

في الغرفة المحاذية لغرفتها يسكن ضابط انجليزي وزوجته ، ويتناول الثلاثة طعامهم على شرفة واسعة تطل على الحديقة الصغيرة حيث ترتجف الأعشاب وتتململ الغصون . وإلى الآن لا أعرف هل الضابط أخو الفتاة أم زوج أختها ، أو غير ذلك من ذوي القربى ولكن طالما رأيتها بقربهما وهما لاهيان عن جمودها بالحديث المتتالي . تنظر إلى شيء غير منظور . إلى أي شيء تنظر الفتاة الشقراء الغريبة وبماذا تفكر يا ترى ! إنَّ نظراتها ، وإنْ كنت بعيدة عن تعبيرها الحقيقي بالنظر إلى المسافة ، تخيلُ كئيبةً . هل في نفسها داء دفين تثير آلامه زقزقة الأطيار وأناشيد الألوان في الأفق أم هي ترى هناك بين اشتباك الغصون صورةَ وجه عزيز غائب؟ . . .

وقفت هذا الصباح أمام نافذتي ونظرت إليها نظرة طويلة صريحة ، وهي تذهب وتجيء في حجرتها وتسارق مرآتها النظر حينا وتنظر إليَّ خفية في الحين الآخر . ثم خرجت إلى الشرفة تنشر صحفا كثيرة على درابزين الحديد وتضغط عليها شديدا كمن يأمرها بالبقاء في مكانها ، وعادت إلى حجرتها إنها تريد نشر شيء من الأشياء التافهة الجميلة التي تحبها النساء ، ثوباً حريرياً أو وشاحا لامعاً . أو غير ذلك . فانتظرت أتلذذ سلفاً بحركاتها العتيدة وبما ستكشفه لي من طبيعتها الحارة أو المعتدلة . وهذا ما ستنبئني عنه حركاتها وكيفية نشر ثوبها .

ولكن ! هناك «لكن» معاكس لجميع ظروف الحياة حتى التافه منها ! ولكن جاء النسيم مداعباً ونفخ على الجرائد المنشورة فطارت ! طارت قليلاً في الهواء متهكمة ثم سقطت على الأرض . ولم يبق على الدرابزين إلا واحدة منها !

أخذني الضحك الشديد أنا التي شهدت اهتمام الفتاة في أمرها وتصورت هيئة وجهها وما سيرتسم عليه من علامات التعجب والانذهال -وهل من هيئة

تضحك أكثر من هيئة الانذهال؟؟- عندما ترى أنَّ مفروشاتها قد طارت بلا استئذان !

جاءت جارتي وجمدت إزاء ما وجدته من الخلو . جمدت جمودها أمام المائدة وهي بين الضابط وزوجه . ونظرت نظراتها العادية الموجعة إلى ما بين غصون الشجرة الوحيدة . فتحول ضحكي إلى كآبة وانقلب انشراحي تفكيراً . وما لبثت الفتاة حتى عادت إلى الصحيفة الوحيدة الباقية وأصلحتها ببطء ونشرت عليها حاجتها وعادت بعد أنْ مكنت الحاجة والصحيفة بدبوس محكم الوضع .

. . . . . .

أحلام وآمال ترينا كلّ شيء جميلاً ، أليس كذلك أيتها الفتاة؟ نثق بالحياة لأننا نعتقد فيها صدقاً كصدقنا . وإخلاصاً كإخلاصنا فتأتي ريح سموم مبددة تلك التصورات وذاك الرجاء بلا إشفاق . ولما نقف أمام أحلامنا متفقدين ثباتها وأمانتها نرى خلواً موجعاً لا يملأه في نظرنا شيء . وبعد الكآبة والأسف نعود فنكتفي بالقليل الباقي ونجمع كل ما لدينا عليه .

. . .أما الدبوس فماذا يعني؟ أليس هو نتيجة الاختبار؟ تظنين أنه سيحفظ الثوب والصحيفة ولكن إذا جاءت ريح شديدة فمزقت الحاجتين ولم تترك إلاّ الدبوس يعض على قطعة منها صغيرة فما يكون رأيك في الدبوس ، أي فيما يسمونه الاختيار؟

ميّ

المحروسة . س٤١ ،ع(٢١١٩) ،١٨يناير١٩١٦ .ص٢

كتاب «الفتاة و البيت»

كجميع الكتب الصادرة من مطبعة نجيب أفندي مترى ، هذا الكتاب من حيث فن الطباعة ، آية حسن ذوق وإتقان . وإذا ما قلبت صفحته الأولى استوقفتك رسالة من أستاذنا الكبير ، اسماعيل صبري باشا[1] الذي يفتخر الأدباء جميعاً بكونه «رئيسهم» -رسالة هي خلاصة رأي سعادته في هذا السفر الطيب وفي مؤلفته ومعرّبه الفاضلين .

ثم يتقدم فكرك «خطوة» بين صفحاته ، ويتناول اهتمامك فصوله واحداً بعد واحد مع ما يسبكها من أسلوب رشيق وعبارة أنيقة ، وتشكيل موضح ، وفن في الطباعة متقن ، حتى إذا ما أتيت إلى آخره قلت : «لقد استشعر (الرئيس) بفكر كل قارىء لـلكتاب ، يوم خط رسالته فيه» وإذا كنت محباً لترقية المرأة ، وترقية النوع الإنساني بالتبع ، سارعت بإهدائه إلي كل فتاة لديك عزيزة ، إلى ابنتك وأختك وقريبتك .

إني لا أعرف حضرة مؤلفته شخصياً لأشكرها . على أني أعرفها معنوياً ، وكأنني سمعت من خلال سطورها نغمة نفسها العذبة في إرشادات ونصائح لا تأتي إلا من أم ذكية مدبرة لطيفة ، ذات نظرة نفاذة وكلمة فعالة .

أما حضرة معرّبه ، انطون افندي جميل[2] ، فهو مفكر دقيق الملاحظة ، ولا يذهلنا اهتمامه اليوم بأمر تربية الفتاة وقد كان لهذا الموضوع الخطير صفحات واسعات في مجلته «الزهور» هو يرى النقص الهائل في تربية فتاة اليوم فيؤلمه أمرها ويحاول مساعدتها ما استطاع . ولعل ما من أحد يرى زلات الفتيات ويود إصلاحها أكثر من الشبان إذا كانوا على جانب من العلم والتفكير . نعم يا صديقتي ، الشاب الذي لا يعرفك ولا أمل له في الاجتماع بك يوماً إذا كنت

محجوبة يحاول استجماع كل ما يقال عنك وكل ما ينم عن طويتك ليبني عليك حكمه . والشاب الذي تقابلينه في الاجتماعات ، إذا كنت من السافرات ، ذاك الذي ينحني أمامك باحترامه الاتفاقي وأدبه الاجتماعي ، ذاك الذي يسكب أمامك أعذب ابتسامة تعلمها في الصالونات سارداً أرقى ما لديه من العبارات المحنطات ، هذا لك أعظم ناقد . أنت تنسين ذلك لكثرة الوجوه المارة أمامك ، ولكن هو لا ينسى أنْ يلاحظ حركات كل فتاة يراها ، ويدرس كل خصائصها ليطلق عليها حكمه النهائي . لعل الضجر الآفة الكبرى في حياة الفتاة . هي مكفولة باهتمام والديها بها ، فلا واجبات تستغرق فكرها ووقتها ولا مسؤولية تجعلها شاعرة بقوة شخصيتها وأهميتها . أما تبادل الزيارات والاجتماعات الكثيرة أو القليلة ، فإذا كانت كافية لإرضاء بعض الفتيات -وفي هذا إشارة غير حسنة لأنه ينم عن فكر سطحي ونفس قانعة من الحياة بقشورها اللامعة -فإن البعض الآخر يكاد يختنق مللاً . وأثر الملاهي الاجتماعية لا يأخذ في نفسه إلا المكان الذي يستحقه- قالوا إنَّ السآمة علامة النفس الشريفة . هذا صحيح بشرط أنْ تكون السآمة حادثاً ماراً أو حالة نفسية مؤقتة ، إذ تنم عن رغبة في تلك النفس إلى حياة أرقى وأهم وأجمل وهذا ميل إلى الكمال دائماً . أما السآمة المستديمة فهي قتّالة للقوة والنشاط النفسيين ومرضعة الكسل ووهن العزيمة ، ومؤدية حتماً إلى التلاشي الشخصي .

لا تقيم السآمة عند الطبائع القوية بذكائها الغنية بوفرة ما لديها من تعدد الميول والرغبات ، وأما الفتاة ملول أحياناً إلا أنَّ أوقاتها غير منتظمة وللفراغ الفكري والعلمي فيها متسع شديد . في «كتاب الفتاة والبيت» جدول حسن لتنظيم أوقات الفتاة وإرشادات طيبة لها بالاهتمام بأبسط أمور البيت وأحقرها دون إهمال درجات الفكر والتوصل إذا شاءت إلى أرقاها . فإن الأمر الواحد لا ينفي الآخر كما يظن الكثيرون ، بل بالعكس وما من امرأة «تحب بيتها ومملكتها الصغيرة» كالمرأة الراقية .

ولكن ليعلم جميل افندي أننا لا نكتفي منه بهذا الكتاب في موضوع المرأة .

لقد ذهبت أيام (نيتشي) ومازال مواطنوه يحاولون أن يجعلوا مذهبه في (السوبرمان) حياً . لكن نحن لا نريد (السوبرمن) بل غاية ما نتمنى للفتاة في الشرق علماً ومعرفة يضعانها في أفق الحياة الحرة . الحياة الشريفة الحرة . ولا شرف مع الاستعباد . نريد هدم جدران الكذب التي أقامتها عصور الجهل بين الرجل والمرأة والظنون السيئة التي ما زالت تصوب نحو ابنة حواء المسكينة .

كتاب كبير يحوم على كل أثر من آثار حياة المرأة . يطبعه نجيب افندي مترى ونجد في أول صفحاته لا رسالة من «الرئيس» «نثرية ، بل قصيدة ، قصيدة في تحرير المرأة» .

ميّ

المحروسة . س ٤١ ، ع (٢١٣٤) ، ١فبراير ١٩١٦ . ص٢

١- اسماعيل صبري (١٨٥٤-١٩٢٣) . اعر مصري . تعلم بالقاهرة ، وأكمل دراسة القانون في فرنسا . ارتقى في مناصب القضاء في مصر فعين نائباً عمومياً فوكيلاً لوزارة القضاء . عين محافظاً للاسكندرية . بعد وفاته جمع شعره في ديوان . كان يدير صالون ميّ في البداية .

٢- أنطون الجميل (١٨٨٧-١٩٤٨) . ولد في بيروت حيث تلقى علومه في مدارس اليسوعيين وحرر جريدتهم «البشير» (١٩٠٨) . نزح إلى مصر حيث أصدر مجلة «الزهور» بالتعاون مع أمين تقي الدين . حرر جريدة «الأهرام» حتى وفاته . من آثاره المطبوعة مسرحيتان .

مشاهدات في الشارع

ماذا؟ شعوب هائجة في روسيا البعيدة ، وانقلاب منتظر في أسبانيا القريبة؟ من سهول سيبيريا الثلجية إلي غياض الأندلس ، من مجرى نهر الفولكا إلى مصب «الوادي الكبير» تنطلق شعلة الثورة نافضة شرارتها الضخمة -تلك الشرارات التي تلتهم عروشاً وتترك عامر البلدان خرابا؟

ماذا تعني الثورة؟ قيود تحطم على الأشلاء ، وإذا ما لامست حلقاتها الجماجم والدماء كان لذلك عويل وأنين . وبعد سكر التغلب وجنون الفوضى ، قيود جديدة يحملها الشعب راضياً ، مسلماً أزمتها إلى أيد يظن أنه منتخبها ، لتلك القيود الجديدة طلاء خلاّب يبسم لها الشعب ويهلل للمعانها تهليلاً ، ظاناً أنه قد أصبح ملك الخليقة .

حرية ، مساواة ، إخاء !

كلمات عظيمة تهز النفس الإنسانية حتى أعماقها ، ولكن هل تتم في أرضنا معانيها؟ هل تعطينا الطبيعة (ويعتبرها البعض صورة لغاية الكون) مثلاً للحرية ، والمساواة ، والإخاء؟ أليس كل شيء في الطبيعة مقيداً ، حتى العناصر التي ننعتها بالعشواء ، الماء والهواء؟

هل تتشابه السنديانة الفخمة ذات الأغصان الباسقة ، بالعشب المنسي المرتجف في ظلها ، هل يستوي الجبل الأشم والوادي الأجوف؟ أليس هذا التنوع في الطبيعة وفي الحياة الذي يجعل للطبيعة وللحياة رونقهما العجيب؟

والإخاء ، أين تبحث عنه؟

لئن وجد لهذا الإخاء صورة حقيقية بين الأشياء من حيث أنها مربوطة بنظام واحد دائم مهما تعددت الموضوعات وتنوعت الدوائر ، فإن هناك تنافراً

شديداً ، تنافراً أكيداً في أساس كل شيء ، وذاك التنافر شرط جوهري للتناسب النهائي ، بل هو نصفه وهو منه . ولئن كان الحب أصل كل شيء فلقد صدق ذلك الفرنساوي القائل إن نصف الحب بغض . دعهم يتطاحنون !

جسم الإنسان يرويه الماء ، ووحشية الإنسان لا ترويها إلاّ الدماء ، ولكن الجزء الإلهي فيه يطلب الحرية التي ما عرف منها إلا الاسم ، فيستعمل كل ما لديه من قوى الشر والخير للبلوغ إليها ، وينطلق للبحث عنها هادماً بلاداً ومشيداً أخرى . ظالما منصفا ، قاتلاً محييا ، فيفعل ما يفعل واثقاً بأنه يفني حاجزاً هائلاً قام بينه وبين رياض الحرية الغالية وما كان إلا لنفسه مفنيا !

دعهم يتطاحنون ! وانظر إلى أطراف الشارع ! هناك تعدوْ سيارة لمع فيها كل شيء ، ولمع كل شيء فوقها وتحتها وحولها . يجلس فيها رجل يبرق حذاؤه برق أسرته إذ ينظر إلى ذلك الحذاء . هو سعيد ذاق طعم السعادة العادية التي لا تطلب غيرها نفسه . يطلب استزادة ولكن من تلك السعادة بنوعها ولا يستطيع أنْ يفهم غيرها ، وكل الذين لا يعتقدون اعتقاده لا يفهمون -في نظره عند الزاوية ، في ظل غصن قصف جزءه[1] الأعلى ، جلس فقير يستعطي ، يستعطي ليأكل ، يستعطي كيلا يموت . يده الممدودة ترتجف وفي ارتجافها توسل متواصل . ووجهه . . من يستطيع أنْ يصف وجه المستعطي؟ من يستطيع أنْ يعبر عما فيه من المرارة والحقد ، من الذل والتمرد ، من الوجع ومن البغض؟ نحن لا ننظر إلى تلك الوجوه لئلا ينزعج فينا حبنا للفن وحبنا للجمال ، ولأننا نخاف من عاطفة الإشفاق مجردة من الزخرفة واللآلىء !

تمر السيارة اللامعة فيندلع من عين المستعطي لهيب فيه احمرار وفيه اخضرار . . ماذا يعني ذلك اللهيب؟ وبعد هنيهة يمر موكب مؤلف من أشخاص أربعة بليت أثوابهم وأثقلت الهموم جبهتهم : الأول منهم يحمل نعشاً صغيراً أسدل عليه وشاحاً بالياً وشاح الفقراء ! والثاني يرتل بصوت خافت : لا إله إلاّ اللّه ! والثالث رجل ألبس وجهه هيئة الشراسة خشية من أنْ يبدو عليه أثر للحزن . عيناه تتبعان النعش الصغير وتنظران ، وفيهما تهديد يخالطه خيال الرحمة ، إلى

المرأة الماشية وراءه . وتلك المرأة الوجيعة ، الأم ! تسير عارية القدمين وراء نعش صغيرها ، تسير نائحة باكية لترى كيف يضعونه في التراب ، وكيف ينام هناك نومته الأخيرة !

لدى هذا المشهد يسحب المستعطي يده متناولاً بها كمه البالي . وتلك العين -غير النظيفة- التي جعلها لهيب البغض هائلة ، تجعلها الآن عذبة دمعة الإشفاق المتدحرجة على ذلك الوجه . . . وذلك الوجه أخذ حيناً جمالاً مهيباً ، جمال الشقاء الذي يرحم . .

وفوق رأس المستعطي ، على الفرع المكسور المنورة على أطرافه زهيرة زرقاء ، زهرة الحب ، في فيء الوريقة الخضراء -ورقة الرجاء . . وقف طائر الربيع يغرد . .

ميّ

المحروسة . ص ٤٢ ، ع ٢٤٨٢ ، ٦ أبريل ١٩١٧ . ص ٣

١- المقصود جزؤه .

صحيفة "المحروسة" (مقالات أخرى):

١- جمعية نسائية جديدة
٢- الدكاترة في التلفون
٣- على ذكر كتاب الواجب
٤- ما اسمه؟ مَنْ شكره؟
٥- صدى إحسان: بهية هانم
٦- ارسطو الغلبان
٧- بين أديبتين
٨- لا غرفة ولا باب!!
٩- ذكرى ودمعة
١٠- رأس قاسم أمين
١١- اقتراح لاسم شارع
١٢- مؤلف "معارك الحياة"
١٣- أحمد زكي باشا في طنطا
١٤- على ذكر القصيدة العمرية
١٥- عربات المطافيء
١٦- الحميات
١٧- ثقلاء الشارع
١٨- مقابر العظماء في مصر
١٩- امراضنا الاجتماعية
٢٠- ذكرى خميس الجسد
٢١- الدكتور علوي باشا
٢٢- بريء يشنق وسجين ينتحر
٢٣- المرأة الاجتماعية
٢٤- الحركة النسائية عندنا (١)
٢٥- الحركة النسائية عندنا (٢)
٢٦- تأبين باحثة البادية
٢٧- الحركة النسائية عندنا (٣)
٢٨- الحركة النسائية عندنا (٤)
٢٩- من الآنسة مي إلى الدكتور نظمي بك
٣٠- إلى حفيد عبد القادر
٣١- جامعة سيدات الشهباء
٣٢- خطاب الآنسة مي في الاحتفال بشرقي عظيم



جمعية نسائية جديدة

في مصر حركة نسائية تحيي كل رجاء وتبشر بكل خير . فبعد أنْ تألفت جمعية الاتحاد النسائي التهذيبي وأخذت في العمل ، نرى الآن فكرة جديدة في تأليف جمعية جديدة لترقية المرأة . فقد اجتمع جمهور كبير من سيدات وطنيات وأجنبيات في سراي الجامعة المصرية حيث ألقت الآنسة مرغريت كليمان[1] محاضرات أربع في موضوعات تتعلق بالحركة النسائية ، وكان صباح الأمس (الاثنين) فاتحة تلك المحاضرات الطيبات ، فافتتحت الاجتماع حرم سعادة شعراوي باشا[2] بكلمة فرنساوية لطيفة شكرت فيها الآنسة كليمان بالنيابة عن جميع السيدات اللواتي سمعن المحاضرات ، وأثنت عليها ثناء جميلاً ثم تلى برغرام الجمعية العتيدة التي ترأسها صاحبة الدولة والعصمة البرنسيس أمينة هانم طوسون ، وكان في نية حضرة حرم سعادة شعراوي باشا إلقاء كلمة في غرض الجمعية غير أنَّ ضيق الوقت لم يمكنها من ذلك فنحن ننشر خلاصتها هنا :

«ذكرت حضرتها الغرض من تأسيس الجمعية وهو ترقية مدارك السيات المصريات وأعربت عن أملها في تعضيد السيدات المصريات ليس تعضيدا ماديا فقط بل أدبيا أيضاً . وأشارت حضرتها إلى ما ذكرته حضرة الخطيبة الفاضلة المدموازل كليمان في محاضرتها من منفعة الجمعيات الخيرية في امريكا وحدائق اللهو للأطفال الفقراء فحثت حضرتها على انشاء حدائق للعمل مع ترييض أجسام البنات والأولاد الصغار تحت ملاحظة أمهاتهم وسيكون للجمعية مجموعة محاضرات في مواضيع متنوعة من علمية وفنية وأدبية مع إقامة حفلات موسيقية بواسطة أساتذة من أرباب الفن ، وأما الآنسات فتُلقى عليهن دروسٌ متممة لمعارفهن . ويجعل للأولاد من بنات وبنين حديقة تقام فيها وسائل

الرياضة البدنية ويؤتى إليها بالأولاد مرتين في الأسبوع للرياضة واللعب في الحديقة مما يعود على الأولاد بالتعارف وآداب الحياة الاجتماعية» .

إنها لحركة جميلة سوف تأتي بنتائج جميلة . وليس بوسعنا إلاّ أنْ نشكر السيدات الغيورات اللواتي يأخذن علي عاتقهن ترقية مدارك المرأة الشرقية والأخذ بيدها للسير في طريق الرقى المطلوب . فللسيدة الكريمة حرم سعادة شعراوي باشا أطيب الشكر والثناء فإنها هي روح هذا العمل ، وهي أهم العاملات في تأليف هذه الجمعية المباركة .

ميّ

المحروسة . س٣٩ ، ع١٥٨٧ ، ٤ أبريل ١٩١٤ . ص٤

١ - مرجريت كليمان : كاتبة فرنسية . قدمت إلي مصر عام ١٩١٢ ملبية دعوة من «جمعية الرقي الأدبي للسيدات» التي أسستها هدى شعراوي (وكانت ميّ عضواً فيها) حيث ألقت عدداً من المحاضرات حول المرأة في منزل هدى شعراوي وفي الجامعة المصرية .

٢- هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧) . كاتبة وعاملة نشطة في حركة تحرير المرأة المصرية . ولدت في «المنيا» بمصر . تلقت تعليمها الأولي ومبادىء التركية والفرنسية عن بعض المعلمات الخاصات . تزوجت من ابن عمها وولي أمرها علي شعراوي (أحد مؤسسي حزب الوفد) وهي في الثالثة عشرة . أنشأت عام ١٩٢٢ «الاتحاد النسائي المصري» واختيرت رئيسة له .

الدكاترة في التليفون

قد يظن القارىء لمجرد مشاهدة هذا العنوان ، أنَّ حضرات الدكاترة قد غادروا عياداتهم العامرة وأقبلوا آحاداً وجماعات على مصلحة التليفونات يحلون فيها محل المدموازلات حاشا وكلا ! إنَّ العيادات في حاجة قصوى إلى الأطباء وإلا فلمن يمرض المرضى؟ ناهيك عن أنَّ التليفون في حاجة إلى «المدموازلات» تفوق احتياج المريض للطبيب ، و شركة التليفون لا تستطيع تسليم هذه المهمة الدقيقة إلاَّ «للمدموازلات» . ناجيتك الله ، قل لي ! كيف ترى يقابل الرجال الذين اشتهروا بقلة الصبر ، نقر الأجراس التي تدق في آذانهم من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح ، وماذا يحل بأعصابهم القوية الجافة إزاء الطلبات الكثيرة التي تطن عليهم من كل صوب وناحية؟ كأن كل لحظة في دار التليفون ساعة الحَشر ، وكأن كل جرس ضارب بوق بوم القيامة؟ لا ! لا يعني عنواني شيئاً من هذا . إنَّ إدارات التليفون في جميع أقطار العالم عرفت هذه الحقيقة وقررت ألا يقوم أحد بإعطاء المخابرة التليفونية للمشتركين إلاَّ الأوانس . وقد جاء في آخر عدد من مجلة «الالوسترسيون» الفرنساوية رسم سبع فتيات مسلمات يشتغلن في مصلحة التليفون في الآستانة وهن جميلات ذكيات يتقن من اللغات التركية والفرنساوية والانلجيزية واليونانية . أما الآن وقد دافعت عن معنى عنواني وعن حق نسائي مقدس ، فإني أرجع إلى موضوعي الأصلي . لما كتبت الدكاترة في التليفون «أردت أن أقول» الدكاترة في جدول «التليفون» . كل مشترك يعلم أنَّ في أول الجدول اسماء الأطباء تسهيلاً للباحث عن طبيب وخدمة للمرضى في وقت الضرورة . كنت أبحث عن نمرة أحد الأطباء فأمّر بنظري من اسم إلى اسم حتى عثرت باسم الدكتور نمر[1] ، ثم الدكتور صروف

فضحكت وقلت : إنَّ جميع الدكاترة في نظر مصلحة التليفون سواء ! فمن كان دكتورا في الفلسفة يحق له في عرفها أنْ يجري في عنق المريض عملية باستور[3] ، ولا مانع لمن كان دكتورا في اللاهوت أنْ يكون دكتورا في حشو الأسنان وخلعها ! سامحك الله يا مصلحة التليفون !

اذكري مع الأطباء ما شئت الدكتور شميل والدكتور سعادة[4] والدكتور فياض وغيرهم ممن يحملون بطيختين في يد ولكن دعي الدكتور نمر والدكتور صروف وشأنهما ! أقسم لك بجميع أسلاكك وخيوطك وأجراسك أنه إذا طلب مريضٌ أحد هذين الدكتورين في الليل وأخبره بما يقاسيه من ألم المعدة أو وجع الرأس فلا شك بأنه يجاوبه رغماً على كل ما عنده من الفلسفة - : وأنا مالي ! كل شيء في نظر مصلحة التليفون أرقام لعلها محقة في ذلك ونحن الذين نريد أنْ نرى في الحياة شيئاً غير الأرقام والأشباح لعلنا نحن المخطئون !!!

المحروسة . س٣٩ ، ع١٦١١ ، ١٣ مايو ١٩١٤ . ص ٤-٥

١- فارس نمر(١٨٥٦ - ١٩٥١) . أديب لبناني . ولد في« حاصبيا » بلبنان تخرج بالكلية الأمريكية ببيروت عام ١٨٧٤ . شارك الدكتور يعقوب صروف في انشاء مجلة« المقتطف » ببيروت عام ١٨٧٦ . هاجر إلى مصر عام ١٨٤٤ فصدرت في القاهرة في العام التالي . اشترك مع يعقوب صروف وشاهين مكاريوس في إصدار جريدة« المقطم » عام ١٨٨٩ .

٢- يعقوب صروف(١٨٥٢ - ١٩٢٧) . أديب وصحفي لبناني . ولد في« الحدث » بلبنان . تعلم في الكلية الأمريكية ببيروت متخصصا بالعلوم . شارك الدكتور فارس نمر في انشاء مجلة« المقتطف » ببيروت عام ١٨٧٦ . وعندما نزح إلى مصر واظب على المساهمة في تحريرها هناك . شارك فارس نمر وشاهين مكاريوس في إصدار جريدة« المقطم » في القاهرة عام ١٨٨٩ . كتب القصص وترجم بعض المؤلفات عن الانجليزية .

٣- Louis Pasteur(١٨٢٢ - ١٨٩٥) . عالم فرنسي في الكيمياء والبيولوجيا . من منجزاته كشف دور الجراثيم في الإصابة بالأمراض واكتشاف التلقيح لمعالجة داء الكلب .

٤- خليل سعادة(١٨٥٧ - ١٩٣٤) . طبيب وكاتب لبناني . ولد في« الشوير » بلبنان . تعلم في الكلية الأمريكية ببيروت . شارك ابراهيم اليازجي في تحرير مجلة« الطبيب » . هاجر إلى مصر ثم إلى البرازيل وأقام في سان باولو حتي وفاته . من آثاره المطبوعة قاموس انجيليزي - عربي وبعض الروايات .

على ذكر كتاب الواجب

كلمة بحث في
شخصية الدكتور طه حسين

بين صرعات الأهواء وظنون الأقدار ، بين الرغبة والحاجة والممكن والمستحيل تسير النفوس على غير هدى ، قلقة مضطربة . تختار سبيلاً تظنه موافقاً لها ، ولا تسير فيه خطوات قليلات حتى يخالط قلبها الريب ثم اليأس ، فتنصرف إلى طريق أخرى قد تلقى فيها حزنا وقد تلقى رضى . غير أنَّ حالة السرور لا تدوم إلاَّ قليلاً ، فلا تلبث أنْ تتمنى طريقاً جديداً حين يمسي الجديد قديماً ! إنَّ في أعماق النفس البشرية لكدراً كثيراً ، ومهما كانت المياه السطحية هادئة صافية فتكفي أقل هزة خلقية لتدفع ذرات الطين في دقائق الماء فتتكدر أجزاء النفس وتتضعضع متوجعة من ذكرى السعادة والأمل !

لقد جعل لنا المصلحون قواعد عديدة ، وحددوا معاني الكلمات الكبيرة التي لا جمع لها ولا تستطيع أنْ تكون إلا مفردة ، كالواجب وهو يعنى مجموع الواجبات ، والشرف وهو يعنى مجموع الاصطلاحات التي يسير بموجبها شعب من الشعوب . والدين . . . الدين؟ كلا ! ! إنَّ الدين الذي يحدد عند طوائف كثيرة معنى الشرف والواجب ليس مفرداً ، بل له جمعان وهما : أديان وديانات (جمع ديانة) إرضاء لخاطر المذكر والمؤنث بلا ريب ، وسبب ذلك الجمع المزدوج هو أنَّ الدين لا يستطيع أنْ يكون في أصله ومعناه إلاَّ واحداً فقط ! اختلف فيه البشر لأن الاختلاف فيما يحتم الاتفاق خاصَّة بشرية صرفة ! ومع ذلك ، لا تنس أنَّ ربَّك لو شاء لجمع كلمة الناس وجعلهم أمة واحدة ولكن ما دام الله عزَّ شأنه معطياً الحرية فعلى أي قاعدة نمشي ووراء مَنْ نسير آمنين شر الخطأ؟ ترى في أي سبيل يدفعنا الواجب ، وما هو واجبنا بالمفرد لنعرف واجباتنا

بالجمع؟ سهل على الذي يعرف سبيلاً واحداً أنْ يسير في ذلك السبيل كما أنه طبيعي أنَّ الذي لم ير قط في حياته إلاَّ قريته يظنها أجمل بلاد العالم ويعتقد أنَّ الله صرف في إتقانها إرادة خاصة واقتدارا ، ولكن كيف يرضى بذلك من هو أجهل من الأهل؟ وهو المرء الذي يعلم قليلاً وكلنا عالم قليلاً؟ ! أترى الابيكوريون محقون أم الرواقيون؟ ولمن نضم يدنا وصوتنا ، ألللاشتراكيين ، أم الثورويين ، أم المحافظين؟ جماعة الماديين لا يرون في الأرض إلاَّ تراباً ومعادن ، وفي جسد الإنسان إلاَّ أجزاء كيماوية مترابطة ، وجماعة الروحيين لا يعترفون بوجود الأعصاب إلاَّ كأوتار توقِّع عليها أنامل المجهول الخالد ، وجماعات البين بين يضحكون منهما سالكين سبلاً متعددة ، وما أكثر جماعات البين بين ! غوغاء وضوضاء ، وكل يريد ترويج فكرته ، كل يصرخ طريقي ، طريقك ، طريقه ، طريقنا ، طريقكم ، طريقهم ! أين مصباحك يا ديوجين[1]؟ قد ينسى التاريخ برميلك الفصيح ، ولكن يؤيد كل يوم نكتة مصباحك البليغة ، أنت تبحث عن رجل ، ولكنك لا تجده . متى يجد البشر طريقا يسيرون فيه آمنين ! كلهم في حاجة إلى مصباحك ، فإن نور الشمس ليس بكاف ليهديهم سواء السبيل .

***

لقد أحسن الدكتور طه حسين[2] والأستاذ محمد رمضان في اختيار كتاب الواجب للتعريب . إنَّ جول سيمون باحث دقيق يكاد يكون ذا صوت منخفض ، فلذا يستطيع المرء أنْ ينفرد به في زاوية ويقرأه مفكرا . ليس كتاب الواجب ، والحمد لله من الكتب التي تحدد سبيلاً مدعية أنه وحده المستقيم ، إلاَّ أنه يعلم استجماع الانتباه وينتج تحت فكرته الفكرة الشخصية كما تنفتح زهرات الصباح تحت نور الشمس . ليس أفضل الكتب الكتاب الذي ينقل حتما اعتمادات الكاتب إلى القارىء فيفرق شخصيته ويقوم مقام فكرته ، بل أوفرهم نفعاً الكتاب الذي يوحي للقارىء مثل هذه الهواجس : الحق بيده ! إني أجد في نفسي ما يشبه هذه الأفكار مع كذا زيادة وكذا نقصان ، ولي عليه اعتراض كذا مع تعليق حاشية كذا . هكذا كان كتاب الواجب على رغم لهجته التي تود أنْ تكون نهائية مطلقة . إنه باعث قوي على تحريك التفكير واختيار السبيل وتنفيذ قوة الاختيار .

إنّ الدكتور طه حسين شخصية غنية ذات معنى خاص ، بل ذات معان كثيرة تكوّن معنى خاصا في أيامنا . يقولون إنه مشهور كثيراً بالانتقاد ، ولا أدري لماذا أنا لا أرى ذلك الرأي . قد أكون مخطئة وقد أكون محقة .

نعم إنّ الانتقاد غريزة في كل إنسان وهي تزداد قوة ودقة في نفس المفكر الذي لا يستطيع أنْ يكون مفكراً إلاّ إذا كان حائزاً لقوتي الملاحظة والتمييز . ثم ماذا يعني شذوذه عن اصطلاحات طائفة أو طوائف من الناس ، وماذا يدفعه إلى نبذ اعتقاد وتتبع اعتقاد آخر ، والإعراض عن رأي متلمسا رأياً غيره ، إلاّ الذوق الذي ليس إلاّ مزيجا من الانتقاد والاستحسان ، أي من النفور والميل . على أنّ الذي يتخذ الانتقاد مهنة يفقد اللذة الحسية فتفوته المعاني بل يفوته جمالها وسذاجتها ، لأنه يتقصدها ويريد اضطهادها وإيلامها . قال فولتر كلمة قالها من قبله روماني شهير لا أذكر الآن من هو : إنْ لم يكن للإنسان إله فلا بد له من ابتداعه ، وكذا يفعل الناقدون الذين يريدون أنْ يكونوا ناقدين إنْ لم يكن هناك موضوع انتقاد فإنهم يبتدعونه ليتكلموا . لا أرى الشيخ طه حسين في هذا الموقف . إنّ في صدره قلباً شرقياً ينبض بقوة ، ونفساً عميقة تفيض نورا وظلاما ، وفي فكره ذكاء يتناول بقوة النار ويولد بقوة الحياة ، فهو مفكر أكثر منه ناقد[٣] ، نعم إنّ له مواقف انتقادات حادة ، ولكنه مفكراً[٤] أعظم منه ناقداً وأتمنى أنْ يكون دائماً كذلك .

مي

المحروسة . س٣٩ ، ع١٦١٧ ، ٢٠مايو ١٩١٤ . ص١

١- Diogenes (٤١٢؟-٣٢٣ ق م) . فيلسوف يوناني ساخر . عاش عيشة تقشف فاعتزل الناس والمجتمع فقضى جل حياته في برميل . يقال إنه خرج في وضح النهار يحمل مصباحا وهو يقول : «إنني أبحث عن رجل» .

٢- طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) . أديب وبحاثة مصري . ولد في قرية «مغاغة» بصعيد مصر . كفّ بصره وهو في الثالثة من عمره بعد إصابته بالجدري . بدأ دراسته في كُتّاب القرية وتابعها في القاهرة ، أولاً في الأزهر (١٩٠٢-١٩٠٨) ثم في الجامعة المصرية حيث كان أول من نال شهادة الدكتوراه . سافر في بعثة إلى باريس فتخرج من السوربون عام١٩١٨ . عمل محاضرا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فعميدا لها ثم وزيرا للمعارف .

٣- المقصود ناقدا .

٤- المقصود مفكر .

ما اسمه؟
ومن شكره؟

وجدتني هذين اليومين في ظرف ذكرني بالشاعر الفرنساوي سومي برودوم[1] ، ووجدته مصيباً في مقته المحليات كما تكتبها الصحف . إنَّ صفحة المحليات عبارة عن آلة صماء تقرر ما يرد إليها تقريرا ميكانيكيا جافا ، وتنقل إلى القراء أخبار الخير والسوء والشجاعة والجبن ، والموت والحياة ، بلهجة فاترة واحدة واصطلاحات محدودة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل !

قرأت أنَّ مركبة سائرة من شارع بولاق نحو ميدان الاوبرا ، جمح بها فرساها فانطلقت تقطع خطوط الترام وتعدو في الميدان بسرعة في منتهى الخطر . فأغمي على السيدتين الراكبتين فيها ولم يقو الحوذى على إيقافها على رغم ما بذله من المعالجة والقوة . فرأى شاويش هذا المشهد ومضى بسرعة البرق يقبض على عنان الفرسين فلم يفلح في إيقافهما وظلا منطلقين على وجههما يجران المركبة ومن فيها بالسرعة نفسها والشاويش يكافحهما مسافة عشرين متراً حتى وفق أخيراً إلى كبح جماحهما وإيقاف المركبة ، وانتهى الأمر بسلامة .

أورد بعض الجرائد هذا الخبر بين محلياته فلم يعلق عليه شيئا ، كما يورد خبر هجم اللصوص على البيوت ، والفرق بينهما أنَّ أمثال هذا الخبر الثاني يذكر اسم السارق واسم المسروق واسم الشارع ونمرة البيت . أما الجندي الذي خاطر بحياته مسافة عشرين مترا ليخلص غيره فقد فعل ذلك لوجه الله الكريم ، وهو لا يستحق ، على ما يظهر ، أنْ يذكر اسمه حتي ولا نمرته ولا أنْ يحبذ عمله بكلمة استحسان تأتيه من الجمهور الذي خدمه !

سيقولون إنَّ الشاويش لم يعمل إلاَّ واجبه . ما شاء الله ! وهل من أمر يوجب

الإعجاب ويستحق الاستحسان أكثر من الواجب الذي يؤديه ذووه رغماً عن الخطر المحدق بهم؟ ولو صرفنا النظر عما كان هناك من الخطر فهل صوت الواجب وتلبيته يمنعان ذلك الشاويش أنْ يكون في موقف المحسن الكريم؟ كلا ثم كلا! إنه محسن وجزاء المحسن الشكر، فمن شكره؟ شكره الحوذى والسيدتان، -لى أمل وطيد بأن يكونوا قد فعلوا، ولكن من يعلم؟- شكروه أصالة عن أنفسهم ولكن ماذا ناله من الجمهور الذي أحسن إليه بحياة ثلاثة من أعضائه، وتعرض لأجله إلى الصورة الجسدية المؤلمة وربما إلى الموت!

يوم يبطىء البوليس عن أداء واجبه فإنه يجد من يؤنبه ويعاقبه، ويوم يكون شجاعا ويأتي بحركة كبيرة جميلة يحق للأمة من أجلها أنْ تشير إليه بفخر قائلة: هذا بعض أبنائي وعندي مثله كثيرون! فإنها تعرض عنه غير مكترثة بعمله.

أيها الواجب! جنودك أفراد مجهولون هم أبطال لحظات قصيرات، تتجمع لمحة في صدورهم شجاعة أمة بأسرها وتعمل بأيديهم قوة شعب بكليته!

وأنت أيها الشاويش المجهول، لا تنتظر ثناء ولا مكافأة، لأننا مازلنا في طور الارتقاء الابتدائى نكثر من الثناء والمكافأة للأغنياء والكبراء فقط مهما كانت أعمالهم عادية، يوم نعرف ما يأتيه صغار الأمة من كبار الأعمال نكافىء أمثالك العتيدين، انشاء الله![2]

أما أنت فلك أن نكتفي بما أتيته من الشجاعة، وفخرك الأعظم أنك كنت في لحظة بطلاً مصرياً وعدت الآن مجهولاً!

ميّ

المحروسة. س٣٩، ع١٦٣٨، ١٣يونيو ١٩١٤. ص٤

١- Sully-Prudhomme (١٨٣٩-١٩٠٧). شاعر فرنسي. ولد بباريس. دراسته الأولى كانت علمية وقانونية، إلاّ أنه تفرغ للأدب فيما بعد. كتب قصائد غنائية وملاحم شعرية. فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٠١.

٢- المقصود إن شاء الله.

صدى إحسان
بهية هانم

قالت الجريدة الغرّاء في عدد أول أمس كتبت الآنسة (مي) في جريدة الايجبت مقالة عن إحسان بهية هانم برهان تحت عنوان «نفحة جميلة» آثرنا تعريبها لما فيها من الأفكار العذبة ومن اعتداد السيدات بكرم إحداهن وتحديهن بذلك دليلا جديدا على الرقى النسائي في مصر ، قالت :

«نعم ، إنَّ ما أسدته السيدة بهية هانم برهان» إلى أولئك الصغار المحرومين من تراث الحياة لهو نفحة جميلة . وإنَّ الجمعية الخيرية الإسلامية ليحق لها أنْ تنظر بعين الفاخر الشاكر إلى اليد السخية اللطيفة التي امتدت إليها من الجنس اللطيف فأسبغت عليها كرماً حاتمياً لتعضدها في مهمتها الشريفة الصعبة . وليس في وسع إنسان يلقى نظرة على جيش الأطفال البائسين يسحبون أرجلهم على أديم الشوارع في عاصمة مصر ، وشعورهم متعقدة متداخلة ، ودلائل المرض بادية على وجوههم الكئيبة ، وملابسهم أطمار بالية ، وأيديهم الضئيلة ممتدة ، تقرأ آي المذلة والألم ، في حين أنَّ الألسنة تلفظ متلجلجة كلمات ألفوها وتعودوا ترديدها بلا تفكير ، والشفاه تتكلف ابتسامة هي أشد إيلاماً للنفس من تصعيد الزفرات –ليس في وسع إنسان أنْ يشهد ذلك المشهد الأليم ولا يفزع من مستقبل أولئك الأطفال الذين قذفت بهم يد الدهر بين مخالب الذل . فياللّه ما ذاك الفراغ بل ما ذاك العدم ! . .

«مسكينة هي تلك الإنسانية الضئيلة . فإنها معدَّة للمصائب من قبل أنْ تولد . إنها وجدت لتقاسي القر والحر والجوع والعطش وتبقى وحيدة شريدة مصدوعة الجنان مكلمة الجسمان في هذا العالم الجميل الواسع . . . إنَّ لها كل تلك الآلام ولغيرها المظاهر الشريفة اللذيذة والمبادىء والعقائد والحنو والإخلاص

مما يعد أثمن كنز للحياة العيلية -لغيرها المنازع العالية التي تتحرك لها النفوس المستقلة ، ولغيرها الذكرى المستعذبة ، والأمل المنعش بمستقبل أفضل من الحاضر . أما هي -تلك الإنسانية الصغيرة- فهي الكبيرة في ذلها وتجنب الناس لها وحالتها السلبية تحت الشمس ، لا تأتي أمرا إلاّ وجده الناس حقيرا ومثيرا للريبة ، لا تعرف لذة الاحترام المتبادل والثقة المطمئنة للقلوب ، ولا تذوق يوماً لذة الفخر بالعلم أو لذة الفخر بالوجود . بل تجدها هناك باسطة يدها منذ عهد الطفولة إلى عهد الشيخوخة ، تستجدي وتتألم لتعيش . وإذا انقبضت يوماً تلك اليد الممتدة عن طلب الإحسان فإنما الموت هو الذي قبضها وأيبسها .

«لذاك نرى أنه ما من عمل إنساني أفضل من أعمال الجمعيات الخيرية ، ولا شيء أنفع وأجدر بالمدح من كرم المحسنين . ونحن النساء اللواتي نرغب في اتساع الحركة النسائية اتساعاً لا نهاية له ، نشعر بارتياح خاص إلى مكرمة السيدة بهية هانم ، إذ لا ضامن لنجاحنا مثل الأمر الذي أخذنا نشهده أي تصدى الطبقة الشريفة من السيدات للحركة العامة والاهتمام بشؤونها والمساعدة على تحسين حالة الشبيبة المصرية بما تبذل لها من المال وتظهر من العطف ، فإن وهبات دولة الأميرة فاطمة هانم للجامعة ، تلك الهبات التي أنعشت فينا الآمال وأوجبت الشكران لم يمض عليها زمن طويل ، وها نحن نرى اليوم مكرمة السيدة بهية هانم وهي أيضاً هبة ملكية تحرك فينا عواطف جديدة من الإعجاب الجميل .

وإنه ليعزينا في هذا العصر المادي الذي نرى فيه الأب يسم أولاده ، والإخوة يتلاحمون ويقاتلون من أجل دريهمات -يعزينا أنْ نرى السيدات الشريفات الذكيات يعطين الحسنات بملء أيديهن ويقدمن من حليهن وقصورهن الجميلة في سبيل الخير .

«نعم نعم أيتها السيدة إنَّ نفحتك لجميلة ، إنها لنفحة عظيمة تشبه عمل من يزرع في السهول ليجني ريعا وفيرا . فإنك خلفت إرثا لأولئك المحرومين من تراث الحياة . فلن يشعر الأيتام أنهم بعد منفردون بعد أن صاروا في جوارك . فألف بركة من الله تحل عليك»

ميّ

المحروسة .س٣٩ ،ع١٦٦١ ، ١٠يوليو ١٩١٤ .ص٤

أرسطو الغلبان

سأخاصم الدكتور الشميل وأعرض ذاتي لصواعق غضبه ولو مرة في حياتي . فقد رأينا في هذا العام حركة فلسفية ، حركة في الأقلام فقط ، فحمدنا وشكرنا وقلنا بدأنا بالنظريات فيوم العمليات قريب . ولكن جاء الدكتور علاّمتنا يسكب على سرورنا ماء باردا ، وما أوجع الماء البارد في هذه الأيام المثلجة بلا ثلوج .

زار علاّمتُنا الجامعةَ المصرية وحضر درس جناب الكونت دي جلارزا[1] فبينما هو معجب بمعرفة حضرة الأستاذ للغة العربية ومادح أسلوبه الجميل السهل في محاضرته الراقية ، ما زال يأسف لأن ليس هناك درس خصيص بموضوع النشوء والارتقاء . ثم سمع أو قرأ أن المفكر الكبير لطفي بك السيد آخذ في تعريب بعض كتب أرسطو إلى العربية ، فتحركت في نفسه عواطف غرامه بمذهبه الأوحد فاحتج على صفحات «الأخبار» ولا احتجاج امريكا على تغريق ابنائها ومراكبها ، وقال يجب الاهتمام بمذهب النشوء والارتقاء لا بمذهب أرسطو المهدم .

يا سيدي العلامة إنَّ فلسفة أرسطو لا تتهدم . إنها من أسس المذاهب الفكرية الكبرى المرقية المفيدة . ولعلها لو لم تكن هي وأمثالها لما اتصلنا بمذهب النشوء والارتقاء ولا كان ما تقدمها وما تبعها من المذاهب الأخرى . لعلنا لو لم تكن تلك المذاهب القديمة الخالدة ، ما حصلنا في الشرق على فخر وجودك بيننا نحن الذين نعجب بك كثيراً في حالي رضاك وغضبك ، ونصمت على وجعنا يوم تنصب على رؤوسنا صواعق استيائك ، ولا صواعق إله الاولمبوس في أشد حالات حنقه . ننحني أمامك في كل حال وهذا ما يدفعنا إليه إجلالنا لعلمك الوافر وفكرك القدير ، ولكن ليس بوسعنا إلاَّ الإشفاق على أرسطو[2]

المسكين وقد أمسكته (بشوشته) وأصبحت تشدّه منها بلا إشفاق ولكن (شوش) الفلاسفة متينة لا يقلعها حتى ولا فيلسوف قوي . أليس كذلك؟

خالد رأفت

المحروسة . س ٤١ ، ع(٢١٣٤) ، ١ فبراير ١٩١٦ . ص٢

١ - Conde de Galarza مستشرق اسباني وفد إلى القاهرة عام ١٩١٣ ليدرّس في جامعتها الفلسفة اليونانية والرومانية . تتلمذت عليه ميّ خلال دراستها الجامعية . درس أيضاً في معهد المعلمين العالي بالقاهرة .

٢ - Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق م) . فيلسوف يوناني . مؤسس مذهب «فلسفة المشائين» . ترك عدداً من المؤلفات التي عالجت مواضيع تتعلق بالمنطق والأخلاقيات والطبيعيات .

بين أديبتين

كلمة الآنسة مي

في تعزية السيدة لبيبة هاشم

إلى السيدة لبيبة هاشم

رأيت اليوم صورة جمعت بين دقة الفن وعمق الفكرة ، في ذيلها اسم من الاسماء التي لم تنقش في ما يسميه محبو الشهر «سجل الخلود» ، لكن صاحبه من الذي درسوا في عزلتهم ألغاز النفس الإنسانية وحركاتها فحاولوا التعبير عنها ببعض مظاهر الطبيعة .

تمثل جبلاً قامت عليه شجرة صنوبر ، واحدة تحت جو عبس في الأفق برمادي غيمه وأسوده . وكأن زوبعة أثارتها آلهة الهواء قد دفعت الأرياح متواثبة هوجاء حول تلك الشجرة ، فقصفت غصونها الكبرى وقد تركتها جامدة منفردة في ذلك المكان الذي لا مؤنس فيه ولا حبيب . يتردد الناظر إلى هذه الصورة بين عاطفتين لا يلبث حتى يطمئن إلى ثانيتهما : إشفاق على تلك الشجرة وقد هانت آلامها على خاطر الزمان ، وإعجاب بذلك الجمود المتغلب بإرادة كأنها بشرية على غضب الأشياء ، المقاوم هيجان العناصر بعظمته الصامتة . الباسم على رغم منه لفروع صغيرة ذات خضرة عذبة ، بارزة في جوانب الشجرة كمن يقول : «ها أنا ذا وأنا الرجاء !»

مثل هذه الصورة ، في غير هذه الظروف ، يذكرني بلبنان الذي تكلل جبهته الشامخة غابات الصنوبر ويلثم البحر أبداً قدمه بدلال موجاته -لبنان الذي رأت أطرافه عزَّ صور وصيدا ومجد بعلبك وتدمر ، وما زال موضوع آمال كبيرة لمدينة عتيدة . على أني اليوم لا أذكر إزاء شجرة الصنوبر إلا امرأة قوية لها في نفسي أسمى مقام .

كم فكرت بك في هذه الأيام ، يا سيدتي ! بعين الخيال رأيتك ساعة الحزن المفاجيء . الحزن ثقيل الوطأة إلى حد تظن النفس أنها متلاشية تحته . رأيتك ؛ ساعات الجمود الطويل الذي يعقب الصدمة الأولى وفيه تتسرب معاني اللوعة إلى القلب قليلاً قليلاً . ورثيتك ساعة الوداع الأبدي ، ورأيتك شقية تحت عجاجة الأسى والنعش أمامك بعيداً ثم بعيداً ثم بعيداً نحو المستقر الذي لا مسافة وراءه . وقد انقلبت هنيهة المرأة التي ما ذكرت إلاّ أنها امرأة ، قلبها العتي يرتجف في عبرات متسابقات نحو حافة الجفن . متمنيا أنْ يسيل دفعة واحدة مع العبرات ومثلها ليستريح .

***

لا تبكي ، يا سيدتي ، إنَّ ساعات البكاء قد انقضت . ولئن شعرت بأنك وحيدة فلا تنسى أنَّ في جوانب الشجرة المنفردة فروعاً صغيرة ذات خضرة عذبة تقول : «ها أنا ذا ! وأنا الرجاء !» ولئن أوجعك بكاء ولديك فأنت الأم الراقية تكونين لهما خير أب . لأننا نعرف أنَّ في فكرك حزم الرجل كما أنَّ في قلبك حنان المرأة . ولئن كان في قلبك جرح ، فاذكري أنَّ القلوب الجريحة ترفع الجباه عاليا . وما النفس العزيزة إلاّ نفس تغلبت على ألمها وارتفعت فوق حاجتها . ثم إنَّ جراح القلوب السامية تنفث بلسماً ذكياً وتكوّن في النفس شجاعة وقوة جديدتين .

واجبان كبيران يرافقان حياتك ، تربية ولديك ، والعمل على إنهاض المرأة الشرقية من هوة الجهل والاستعباد والذل المعنوي اللاحق بها . واجبان شريفان أحدهما قلبي والآخر فكري ، وإذا اشترك القلب والعقل في إشغال حياة كانت تلك الحياة مقدسة لدى عارفيها والنائلين منها خيرا . ها إنَّ نفسي تسير إليك الآن باحترامها وإعجابها ، وتدنو منك وأنت منشغلة عنها تنظر إليك وتراك . لا ، إنك لا تبكين ، بل في عينيك الجميلتين زرقة البحيرات البعيدات وهدؤها ، تمر فيها الوقت بعد الوقت بروق الذكاء وبروق الرجاء .

ميّ

المحروسة . س٤١ ، ع٢١٧١ ، ١٧مارس ١٩١٦ . ص٢

لا غرفة ولا باب!

كان بعض الجرائد قد أذاع أن مدير دار الكتب السلطانية [1] قد جعل غرفة خاصة بالسيدات. تناقشت الصحف في هذا الموضوع فاستحسنته أكثرها وانتقده، أو كاد ينتقده، بعضها. حتى أفضى الاستحسان والانتقاد إلى الاختلاف على الباب الذي تدخل منه السيدات إلى غرفتهن الخصوصية. فقال البعض: لا بأس من استعمال الباب الذي يعبره الجميع. وأجاب آخرون: بل لا بد من تخصيص السيدات بباب من أبواب دار الكتب كما خصصن بغرفة من غرفها.

راحت أيام وجاءت أيام، والناس تتحدث بالخبر إلى أن جاءت ساعة أسفرت عن وجود عدم مبين في قلب هذا الخبر الأمين!

أكذلك تضحكون من الجنس اللطيف، أيها الصحافيون، وهو يحسب أنَّ أقوالكم منزلة؟ لا سلم يا سيداتي، ولا باب! حتى ولا حجرة موهومة!...

يظهر أنَّ سيدة وطنية كانت قد رفعت إلى المجلس الأعلى طلباً بأن يخصص غرفة للسيدات اللواتي يقصدن دار الكتب، للمطالعة وكان طلب هذه السيدة في محله لأنه من الواجب أنْ يكرس محلاً للسيدات المحجوبات في مكان علمي يأتيه الرجال أفواجا، ولئن كانت السيدات محجوبات عن الرجال فهن لسن بالمحجوبات عن نور العلم، والذكيات منهن يسفرن بلا خجل أمام صفحات الكتب العابسة، ناهبات من أسرارها ما استطعن.

قدم هذا الاقتراح منذ ثلاث سنوات، ومنذ سنوات ثلاث رفض المجلس الأعلى لدار الكتب هذا الاقتراح لأسباب... مجلسية عالية! الأمر لمن له الأمر، أليس كذلك؟ ولكن إذا كان المجلس الأعلى مقيدا بقوانينه وعاداته فهو

مقيد من جهة أخرى بأدبه الكثير ولطفه وحلمه . وعلى ذلك أذاع أنه كان مقهرا على رفض الاقتراح ، فهو مع ذلك يؤكد لجميع السيدات الراغبات في المطالعة ، أنهن لا يلاقين في دار الكتب إلاّ ما يرضيهن من كتب نفيسة واهتمام كبير واحترام فائق .

وعليه يقول لطفي بك[٢] أنْ ليس في وسعه تكريس غرفة للسيدات ما دام المجلس الأعلى غير مقرر بذلك . قلنا : إذاً ما الخبر؟

قال : هو أنَّ بعض الموضوعات يستوجب تنقيب كتب شتى ولا يستحسن هذا في غرفة عمومية لأن تراكم الكتب حول المطالع يزعجه جيرانه جميعا . جعلنا لمثل هؤلاء غرفة خصوصية فظن بعضهن أنها للسيدات . انتهى

مسكينات أنتن ، يا سيداتي ! كنتن متناقشات في أمر الباب قبل أنْ تكنَّ من ثقة من أمر غرفتكن ! صدقن فتى يحترمكن ويرثى لحالكن ، إذا جاز لكنّ بعد اليوم أنْ تنظرن إلى جميع المجالس العليا في العالم بطرف يجول في حب الانتقام ، فما أحراكن بالاعتقاد أنَّ الصحف ثرثارة أحياناً ، ثرثارة كالنساء . . .

خالد رأفت

المحروسة . س٤١ ، ع٢١٨٠ ، ٣٠ مارس ١٩١٦ . ص٢

١- وهي المعروفة اليوم باسم «دار الكتب المصرية» .

٢- المقصود أحمد لطفي السيد الذي كان مدير دار الكتب آنذاك .

ذكرى ودمعة

اعتاد جمهور من المصريين والسوريين مغادرة وادي النيل في مثل هذه الأيام لقضاء فصل الصيف في سوريا . ولما كان الأوان أوانها ، فقد غادرت بالأمس وادي النيل العزيز لأتمتع بسياحة صغيرة في أرضنا السورية القديمة (طب نفساً ، يا سيدي الرقيب ، إنَّ رحلتي الصغيرة خيالية فقط . . .)

ما أعذب ساعات السفر على رغم ما فيها من المرارة بنت الفراق دائماً . وما أعذب تلك الوقفة التي طالما وقفناها على سطح السفينة المودعة قبيل الغروب – وما أعظم مشهد الغروب في مصر ! –ناظرين أمامنا إلى الثغور العامرة ، وإلى ما بعدها من أراض رحيبة ومروج خصيبة ، وقرى آمنة ، وبلاد آهلة وآثار خالدة المجد ، لا تزيدها مواكب الأزمان إلاّ هيبة وجلالا ! ولما كانت ترفع السفينة سلالمها ، وتشد حبالها وتضم إليها مرساها ، وتصرخ وتلهث آخذة في المسير على صفحة المروج المائية ، كانت تنطلق من أعماق القلب صلاة حارة لمصر وطن الروح الغالي : «يا مصر حني علينا بالرجوع إليك !» ثم تمر بنا الساعات الطوال حابكة أواخر الليل بأوائل النهار فما نفتح عيننا في الصباح إلاّ على مرفأ فنحيي الوطن القديم قائلين : سلام يا سوريا الصغيرة الجميلة !»

كالملكة على عرشها تجلس يافا على شطها . وفي البعيد تدور حولها الحدائق والأشجار كهالة سندسية وتنطلق منها أرواح البرتقال والليمون مختلطة برائحة المرارة البحرية القوية .

من يافا تتفرع الطرق الكثيرة إلى الداخلية : هذه طريق تنتهي إلى بيت المقدس المكفنة بجلال تاريخها وبالكآبة الدهرية الحائمة على آكامها وسهولها ، وتلك طريق تسير نحو الخليل وغزة . وطريق غيرها إلى السامرة الجثوم إلى صدر

جناتها الشائقات ، وفي أهوائها ترفرف أرواح الفل (واليوسف افندي) كأجنحة عطرية وكأن السامرة بجمودها مصغية إلى نشيد مياهها المتدفقة من كل جانب -ذاك النشيد المتواصل وفي حلاوته عظمة تهليل وتكبير .

وراء السامرة جبال كثيرة الأخربة وسهول عديدة الآثار ، وقرى كأنها مقاييس خطوات الزمان . ثم جانين القائمة في مدخل مرج ابن عامر وهو ساحة قتال الفلسطينيين الكبرى حتى أيام نابليون . من ميناء يافا تسير الباخرة ساعات أربع في آخرها سلسلة جبال الكرمل الآتية من جبال الزيتون . فجبل غاريزيم فجبال افرانيم واليهودية ، حتى تنتهي برأس الكرمل وراء حيفا . وتمد آكاما صغيرة إلى مدخل مرج ابن عامر .

كذلك في حيفا سبل متفرعة إلى أنحاء شتى : منها طريق تسير على شفة البحر إلى عكاء المعروفة بتاريخها وإلى حديقة «البهجة» وهي أجمل حديقة في تلك البقعة ، تزيد في أهميتها جيرتها لبستان العجم وطن الورود ومسكن عباس أفندي كبير البهائيين . وهو معروف هناك باسم «إله العجم» ثم تمتد الطريق إلى صور ابنة صيدا وأم قرطاجنة . صور التي قد شيدت على ما يقول المحدثون بأمر من تيروس سابع أولاد يافث بن نوح . ويقال إنَّ اجنيور الطروادي قد سكنها مع ابنائه الثلاثة قدموس رافع جدران ثيبا وناقل الأبجدية إلى بلاد الاغريق ، وفينيكوس الذي أعطى اسمه إلى فينيقيا الواسعة ، واوروب الذي أعطى اسمه إلى أوروبا . من صور انطلقت القوافل النشيطة فانشأت المستعمرات في أماكن لم تكن تعرف معنى العمران . شاهدت قرطاجنة منافسة روما ، واوتيكا التي كانت من المدن الأفريقية الزاهرة بتجارتها ، وقاديثا الاندلسية التي انطلق منها الاسبان للبحث عن عوالم جديدة . .

صور المحطة الكبرى للمواصلات مع جميع أقطار العالم المعروف يومئذ : سفنها تجتاز البحار طولاً وعرضاً إلى ما وراء انجلترا من جهة وحتى جزائر كاناري من جهة أخرى . ولتجارتها مستودعات في خليج العجم وعلى ضفاف البحر الأحمر . ولم تكن تجهل قوافلها بلاد العرب وطريق الهند .

ومن صور تجرى الطريق إلى صيدا التي تسميها التوارة «صيدا العظيمة» وقد أغرى جمال موقعها ووفرة ثروتها عشرات المحاربين ذوي الاسماء التي تترك في التاريخ دوياً . حول صيدا مازالت الطبيعة شابة باسمة . حولها الآكام المكللة بالأشجار وفي بساتينها تكثر الأثمار ، وتملأ الفضاء روائح التمر الهندي والورد والموز وزهر الليمون وأمامها يتابع البحر أنشودته التي لا تنتهي .

من حيفا طريق أخرى تؤدي إلى الناصرة ، فقانا الجليل ، فقرون حطين -القائمة بين جبلي الطور وحرمو ، والمشرفة على بحيرة طبريا الحزينة- ثم طبريا . ثم تتوغل الطريق في أنحاء تكثر حركاتها الطبيعية ويسكنها عرب المضارب ذوو العيون السوداء الطويلة ، حتى قيصرية فيليب القائمة عند قدم حرمون «جبل الشيخ» ثم الصحراء . ثم الواحات ذات الخضرة الوافرة والأشجار الظليلة ، تجرى فيها السواقي كأفاعٍ من نور وتثقل الهواء عطور الورود والياسمين ، ثم تسمع تنهدات الأنهار العظيمة الجارية في قلب دمشق (مليكة الصحراء) .

وهناك وراء ستار الأشجار الباسقة وتحت غصون حب الآس المتدلية ينام صلاح الدين الكبير[1] . وأنهار دمشق تتنهد مهمهمة في أذن الجبار لتجعل نومته طويلة عذبة . .

تغادر السفينة ميناء حيفا إلى بيروت . بيروت ! ترى من ليس له في بيروت ذكرى ، إذا كان سورياً؟ منها تسعى القطارات الحديدية . هذا على حافة البحر إلى حين ، ثم تتفرع من هناك طريق تسير طلوعا إلى أعظم أثر تاريخي عرفه العالم حياً : أرز لبنان ! وذاك قطار آخر يصعد على أكتاف الجبال ، ماراً بأشهر المصايف ، فمنحدراً إلى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان وانتى لبنان ، فيرى بعلبك وقلعتها المحطمة العجيبة ، وحمص وحماة ، وحلب الشهباء جارة تلك البلدة التي شرفها اسم شاعرها العربي ، فيلسوف الشك واليأس والمرارة أبو العلاء المعري[2] .

هذه صورة مصغرة لسوريا بمدنها الكبيرة وما يتخللها من بلاد ثانوية ، وقرى وسهول ، وأطواد ووديان ، وأنهار وبحيرات وأحراج وصخور . رأيتها في رحلتي

الخيالية ورأيت فيها الرعاة سائرين وراء قطيعهم (؟؟ !) على أكف المروج ، ينغمون على القصب ألحانهم الطويلة الحزينة . ورأيت سكان الجبال مجتمعين تحت الأشجار الكبيرة ، ينشدون في ضوء القمر أدوار « العتابا » تلك الأدوار القديمة التي تشبه أنات الثكل وآهات النواح .

لقد عدت من رحلتي بالسلامة . ولم أحمل منها دمعة يعز عليَّ مسحها . . . ربي ! سوريا التي تدر لبناً وعسلاً كيف تموت جوعا؟

ربي ! وراء السماء الواسعة ، وراء الشموس والسيارات الدائجة في أبراجها العميقة ، وراء ملايين الشموس والسيارات التي لا تراها شموسنا وسياراتنا ولا يلتقي نور نورها بظلام ظلامنا ، وراء المجرة التي تضم عوالمنا الفلكية . وراء جميع هذه العجائب الرائعة التي هي أجزاء منك ومظاهر من قدرتك . وراء كل ما لا يرى وما لا يدرك ، هل تصنع شيئا عظيما هائلا تجبله بدموع البشر صغارك؟ !

مي

المحروسة . س ٤١ ، ع ٢٢٤٣ ، ١٣ يونية ١٩١٦ . ص ١

١- صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨- ١١٩٣) . ولد في « تكريت » بالعراق لعائلة من أرومة كردية . انتقل إلى دمشق فالأسكندرية فالقدس . تولى مصر فعزل الخليفة الفاطمي وأسس الدولة الأيوبية التي ضمت أيضا بلاد الشام . انتصر على الصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧ ثم فتح القدس . توفي في دمشق .

٢- أبو العلاء العري (٩٧٩- ١٠٥٨) . ولد في « معرة النعمان » من أعمال حلب في سوريا . أصيب بالجدري وهو في سنته الرابعة فذهب بنور بصره . اتجه إلى بغداد وأقام فيها في نحو منتصف العقد الرابع من عمره . كان شاعرا وناثرا .

رأس قاسم أمين

كتب سلامة افندى موسى[١] فصلاً في « الأخبار » الغرّاء يقول فيه ما ملخصه : أنَّ شكل رأس قاسم بك أمين يدل على أنه مغولى الأصل وأن أمّه عريقة في المدنية كالأمة المصرية لا تنتظر إصلاحها من رجل تترى ، ولا يحتسب أنَّ فرداً من شعب اشتهر بتعذيب نسائه طلباً للذة يكون هو محرر المرأة التى كان لها في المدينة القديمة منزلة رفيعة .

قد يكون هذا التلخيص غير منصف للهجة المقال ، فجمع الفصل فى جملة واحدة إنما يزيد اللهجة شدة والمعنى قسوة . وقد سرنى من حضرة الأديب بحثه لأنه لم يجر فيه على الأسلوب المبتذل ، بل أراد مجاراة رأيه الخاص دون الإذعان إلى الغير ، وفي هذا من الاستقلال ما فيه غير أنى لا أشاركه في ما استنتجه من بحثه .

إذا كان قاسم بك امين تترى الأصل فلماذا لا يجوز له أنْ يحب مصر التى أصبحت وطنه فتعلم لغتها منذ ولادته واهتز فؤاده لكل ما يطرأ عليها من حزن وسرور؟ وإذا كان جده أو جد جده أميراً تترياً فمن ذا الذي يحرم عليه أنْ يكون ديقراطيا خالصا محبا للشعب المسكين راغبا في إنهاضه؟ وإذا اتصل نسبه القديم بأمة اشتهرت بتعذيب نسائها فمن ذا الذي يمنعه عن النظر إلى ما حوله فيرى حالة المرأة التعسة ويدرك مقدار شقائها بالرجل ومقدار شقاء الرجل بها؟ لو تمنع الناس عن استعمال ما ليس في مصنوعاتهم وصمّوا أسماعهم عند كلام كلّ من كان جده غير جدودهم لما كان علم ولا عمل ولا مدنية ولا عمران .

كان نابليون من كورسيكا فقبله الفرنساويون نائباً لهم وامبراطوراً عليهم ، وإذا قلنا إنَّ تلك الظروف تدخل في حكم المستثنى ، فها أنَّ بعض التنظيمات التي

وضعها تجرى في فرنسا الآن كما في عهده . لقد كان روسو السويسري مهيئاً للثورة الفرنساوية وقد كان أعمق أثراً في معاصريه من أي مفكر غيره وإن كان فرنساويا صرفاً . وبنود القانون النابليوني تطبق الأحكام عليها في بلاد كثيرة -حتى في مصر- مع بعض التغيير الملائم لأحوال الشعب ، بل إن مشيد «المجلس العلمى المصرى» هو نابليون ، فلماذا ينضم إليه المصريون والأجانب على السواء؟ . . إلى أين تفضى بنا هذه النظرية إذا سرنا عليها !

إنما يختلف الناس بالشر فقط ، وليس من غرابة بين الشعوب إلاّ تنوع الأطماع . لكن الناس في الخير واحد . والأصفر الذي يحاول إصلاح ابناء قريته في أعماق «مملكة ابن السماء» إنما هو يخدم الإنسانية بأسرها ، بل يخدم من الإنسانية ذلك الجزء القابل الإصلاح باستعداده له وبارتقائه إلى مستواه .

فإن لم يكن قاسم أمين من المصلحين الذي[٢] يهزون الجمهور هزاً فما ذلك إلاّ لأن الوسط لم يكن بعد مستعداً للنهوض . وما القوة المكهربة المتجمعة في بعض النوابغ إلاّ مجموع قوى جمة تنتهي إليهم من نفوس محيطهم فتنتقل إليهم احتياجاته ورغائبه . حتى إذا ما أخذت تلك القوى والرغائب صبغة نفسه وطابعها فضى بها إلى قومه فهزتهم لأنها منهم ولهم .

لم يكن قاسم بك أمين إلاّ من المتألمين الذين يدفعهم الألم إلى الشكوى وطلب العلاج الشافي . لم يكن إلاّ من الذين يحفرون خطوط الإصلاح بالعناء والدموع فيهيئون الأرض للزرع والحصاد ، وسلام عليه في آلامه وإصلاحه ! وقد أحسنت الجامعة المصرية بالاحتفال بذكرى وفاته كل عام ، فإن مثل هذه الاحتفالات تترك في نفس الشبيبة أثراً فعالاً وتجعل ذكر المحسنين خالداً محاطاً بما يستحقونه من حب وشكر واحترام .

وسنقول في فصل آت كلمتنا في المحاضرة النفسية التي ألقاها يوم الاحتفال صاحب العزة احمد لطفي بك السيد .

خالد رأفت

المحروسة .س ٤٣ ،ع ٢٧٩٠ ، ٢٩ ابريل ١٩١٨ .ص ١

١- سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨) . كاتب ومفكر مصري . ولد في إحدى قرى الزقازيق بمصر حيث بدأ دراسته . تابع الدراسة في باريس ولندن . اعتقله الانجليز لتأسيسه حزباً اشتراكياً في مصر . عمل في التدريس والصحافة فأصدر مجلة «المستقبل» قبل الحرب العالمية الأولى ، ورأس مجلتي «الهلال» و«كل شيء» .

٢- المقصود الدين .

اقتراح لاسم شارع

في القاهرة شارع يبتدىء في شارع جامع شركس بين عمارة الشركة الايطالية وسراي المرحوم عمر باشا سلطان ، وينتهي في شارع الدواوين عند وزارة الحربية ، قاطعاً شارع البستان وشارع كوبري قصر النيل ونصف شارع آخر فاتني اسمه ينفذ على محطة حلوان ، ذلك الشارع يدعى شارع الحوياتي . وإذا كان القصر السلطاني العامر يطل على شارع البستان ويشغل منه نقطة هامة ، فإن بابه الرسمي في شارع الحوياتي .

أردت أن أعرف معنى «الحوياتي» فحاولت البحث عنه في القاموس غير أني ذكرت ضاحكا أنّ شوارع القاهرة لا نصيب لها في معاجم اللغة وأنّ مثل هذه الاسماء لا تفسير لها إلاّ في لغة أهل المدينة أنفسهم .

فسواء كان الحوياتي تصغيراً للحاوي أو اختصاصاً لمزاولة حرفة أخرى ، أني لا استحسن هذا الاسم الآن ، واقترح استبداله باسم «شارع السلطان فؤاد» .

جاهرت باقتراحي هذا قبل أن أكتبه فقال لي قومٌ : «وكيف يطلق اسم العظمة السلطانية علي شارع لا يبلغ طوله الكيلومتر !» غريب جداً أنّ من الناس من لا يقدر الأشياء إلاّ بما لها من الطول والعرض ! إذا كان شارع الحوياتي لا يبلغ الكيلومتر فهو على جانب عظيم من الجمال والنظافة ، وفيه الأبنية الجديدة والمنازل الأنيقة تتخللها باقات الحدائق الغنّاء .

وعلى كل إذا ارتأى بعضهم حفظ اسم العظمة السلطانية لشارع أكثر طولاً وعرضاً ، فإنّي اقترح أن يطلق على شارع الحوياتي اسم شارع قصر السلطان . فذلك الاسم أعظم معنى وأصدق حقيقة وأطرب لفظاً .

خالد رأفت

المحروسة . س٤٣ ، ع ٢٧٩٥ ، ٤ مايو ١٩١٨ . ص١

مؤلف «معارك الحياة»

قلما يقضي كاتب شهير في الغرب دون أنْ يكون لموته أسى في بلادنا ، فإن آدابنا العربية قد امتزجت بالآداب الغربية حتى كادت تصير نسخة منها ، فأكثر الكتب التي نتداولها الآن لدينا منقولة عن لغات الافرنج ، ومعظم مقالاتنا تستند إلى أبحاثهم ، كما أننا إذا أردنا تأييد فكر عصري أو إثبات رأي حديث استشهدنا بأقوالهم وبمصنفاتهم . أما الروايات التأليفية فاسم عندنا بلا مسمى . وإذا استثنينا الروايات الهزلية باللغة العامية فكل ما نراه على مسارحنا من الروايات مترجم عن لغات الأجانب ، وعن الفرنساوية بنوع خاص .

بين التلغرافات الكثيرة وأخبار الحرب التي لا تكاد تترك في الصحف مكاناً لأخبار غيرها ، برقية مؤلفة من كلمات أربع تنبيء بوفاة جورج اوهنه الروائي الفرنسوي . وإذا عرفت الخاصّة عندنا هذا الاسم فإنّ العامة لا تعرف إلاّ اسم رواية من قلمه ، طالما مثلت على المراسح المصرية .

ولد جورج اوهنة سنة ٤٨ ، وكانت فيها فرنسا معذبة بتنازعها بين الملكية والجمهورية والامبراطورية ، وقد تغلبت الحكومة الأخيرة فكانت إمبراطورية نابليون الثالث . وكأن قلق فرنسا في تلك الأيام أثّر في نفس الطفل تأثيرا جعله يشب ويترعرع ناظراً إلى ما حوله بعين نافذة تتفهم أحوال البشر ويستجوب آلام الاجتماع . فكتب ثلاثا وثلاثين رواية لكل موضوعها الخاص ، ولكنها مربوطة جميعاً فيما بينها بعنوان عام يجعلها أشبه بسلسلة تتصل بفكره العميق . والعنوان العام لرواياته هو «معارك الحياة» . وظهرت آخر واحدة منها في شهر فبراير من سنة ١٩١٤ اسمها «العشق يأمر !» . وقد خلفت «معارك الحياة» في ذلك العام معارك الجيوش في ساحات القتال !

أما روايته المعروفة في هذا القطر فهي رواية «صاحب معامل الحديد» أو رواية العواطف الشريفة .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٧٩٨ ، ٩ مايو ١٩١٨ ، ص ١

احمد زكي باشا في طنطا

لما جادت التعطفات السلطانية بمناسبة عيد ميلادها السعيد بلقب باشا على صاحب السعادة احمد زكي باشا سكرتير مجلس الوزراء ، تلقى الجمهور هذا الإنعام السامي بالارتياح ، لأن جميعنا عالم أنَّ سعادة الأستاذ باشا من زمن طويل ، ولا نعني بذلك باشويته على عهد الحكومة الخديوية السابقة ، بل نعني أنه كان وسيظل دائماً باشا في عالم العلم والفضل .

كان لامرتين يقول في صديقه الفيكونت ده فيريو أنه يمكن أنْ يستخرج منه عشرة رجال . وأرى أنَّ ذلك القول يصح إطلاقه على سعادة الأستاذ الذي لا أدري أين يجد الوقت للقيام بكل ما يفعله . فوظيفته الكبيرة تستغرق أعمالها ساعات كثيرات يوميا . وسل عنه بعد الظهر تجده غالبا في المكتبة الزكية سعيدا في اختلائه بكتبه العديدة ومناجاة أرواح المؤلفين . لكن انشغاله في ذلك لا يمنعه من ملاطفتك وتلبية طلبك أياً كان . وإذا سألته في أمر علمي أو استجوبته في مسألة تاريخية «خصوصاً إذا كانت ذات علاقة بالعرب» فسرعان ما تتهافت على يديه الكتب من مخابئها وتبعث الأسرار التاريخية من قبورها !

يبحث وينقب فنطبع كتب العرب بتحقيقه . ويدرس ويكتب قائما بالحجة على صحة موضوع شغفه به وهو عظمة العرب . ومع ذلك لا تفوته في القاهرة سهرة لطيفة أو حفلة أدبية . فإن لم تره في صدر القوم يوماً ابحث في محليات الصحف تعلم أنه كان في تلك الساعة متمما أمراً يتعلق بوظيفته أو قاضياً حاجةً تعود بالخير على الأزهر أو على الجامع الأحمدي ، وإلا كان حاضراً جلسة في الجمعية الجغرافية ، أو ملقياً بحثاً في المجمع العلمي المصري عن «كأس صلاح الدين» أو تالياً محاضرة فرنساوية في جامعة الشعب عن «مصر

الإسلامية» .

إذا ذكرت الجمعيات عند الغربيين فلسفية كانت أو علمية أو اجتماعية أو خيرية ، لصالح الإنسان أم للرفق بالحيوان ، أثبت لك الأستاذ أنها كلها عربية ابنة عرب . وإذا خطر ببالك ، أيها الجاهل ، اسم الغواصة والطيارة والتليفون والتلغراف اللاسلكي والتنكس وغيرها ، فاعلم . . . ولكن لا ، لا تعلم شيئاً ، بل سل زكي باشا تعرف أنَّ لهذه الاختراعات ولكثير غيرها أصلاً غير الأصل الحديث الذي تظن !

واليوم تحوي طنطا علمه وفضله ، فإن جمعيتي الاتحاد والإحسان السوريتيين للرجال والنساء ، تقيمان حفلتهما السنوية في تياترو البلدية بتلك المدينة . وبينما أنا أكتب هذه الكلمة أرى زكي باشا يخطب في ذلك الجمع البعيد . وإذا سألتني عن موضوع خطابه فلا يمكنني الجزم فيه ولكني أظن أنه لا يتعدى هاتين النقطتين في هذا الموقف : فإما أنْ تكون «الإحسان عند العرب» وإلا فهو «نبوغ المرأة العربية في الأندلس»

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٧٩٩ ، ١٠ مايو ١٩١٨ . ص١

١ - Alphonse de Lamartine (١٧٩٠-١٨٦٩) ، شاعر وسياسي وخطيب فرنسي ، يعتبر من كبار الشعراء الرومانتيكيين . تجلت قريحته الشعرية في العشرينات من عمره بعد موت المرأة التي أحبها . بدأ حياته الدبلوماسية عام ١٨٢٥ عندما عين سكرتيرا للسفارة في ايطاليا ، ولكنه انسحب من السلك الدبلوماسي عام ١٨٣٠ . دخل البرلمان عام ١٨٣٣ .

على ذكر القصيدة العمرية

نظرة في الأدب العربي

لم تجد الصحف كلمة ثناء إلاّ وقالتها في مدح شاعر مصر الكبير حافظ بك ابراهيم[1] . وما قصيدته العمرية[2] إلاّ نغمة مستحبة جرت على وفق مقاطعها آهات الرأي العام لأنّ الموضوع الذي طرقه تهتز له قلوب المسلمين . فما تمت حتى قوبلت بالاستحسان والتصفيق وتبرع الكرام بنفقات الطبع ، وهو أسلوب إعجاب صامت لو خير الشعراء والمؤلفون لاختاره منهم كثيرون . فجاءت القصيدة حسنة الشكل مضبوطة الحركة نظيفة الطبع تتقدمها كلمة ثناء للطابع ومقدمة في حياة عمر بقلم الأستاذ الجليل الشيخ محمد بك الخضري[3] .

قال الطابع في كلمته «إنّ هذا النوع من الشعر نادر جدا في اللغة العربية» . وهو قول صحيح ، وإذا استثنينا العمرية وقصيدتين أخريين من نوعها ، فلست أدري هل نجد شيئاً آخر يستحق كلمة «نادر» .

تنقسم الآداب ، عند جميع الشعوب ، إلى قسمين : النثر والشعر . فالنثر يشمل الرسائل والمحاورات والخطابة والتاريخ والقصص والروايات . والشعر يكون غنائياً أو تهذيبيا أو مفجعا أو قصصيا حماسيا . فالغنائي عندنا منه كثير ، وهو ما نسميه «الغزل والنسيب» . وقد نعثر أحيانا على أبيات حوت حكماً تهذيبية وإرشادات أخلاقية . إلاّ أنّ الشعر المفجع غير موجود عندنا لأن المراثي قسم من الشعر الغنائي . أما الشعر القصصي الحماسي فلا اسم له عندنا ولا مسمى . لقد استعمل الشعر القصصي الحماسي عند الفرنجة كثيرون ، وأشهرهم هوميرس عند الاغريق ، وفرجيليوس[4] ولوكانس[5] عند اللاتين ،

وترسينو[٦] وطاسو[٧] ودانتي[٨] عند الايطاليين ، وكموان[٩] في البورتوغال ، وألونزودي ارثليليا في اسبانيا ، وملتن[١٠] وبارين في انجلترا . ولا أجد اسما فرنساويا يمكن وضعه مع هذه الاسماء ، وإن كان فولتر قد أراد أنْ يكون مع هوميرس بوضعه قصيدة «هانرياد» .

أعلم أنَّ بعض أدبائنا دعا هذا النوع من الشعر باختصار الشعر الحماسي ، لكن هذا الاسم لا يؤدي المعنى تماما ، والشعر الحماسي موجود عندنا ومنه شعر عنترة العبسي[١١] مثلاً . وما الحماسة إلاّ شرط من الشروط المقتضاة في هذا الموقف . ومن تلك الشروط التاريخ ، والتعبير الشعري ، وجمال الأسلوب ، والحماسة ، والموعظة أحيانا كما فعل بعض الشعراء اليونان وليس هذا النوع من الشعر غائباً من اللغة العربية فقط ، بل تكاد تحرم منه جميع اللغات السامية . قال ايولد العالم اللاهوتي والمستشرق الألماني : «إن لغات الساميين شعرية غنائية أكثر منها خطابية قصصية» .

أما القصيدتان اللتان ذكرتهما فهما قصيدة بديعة لشوقي بك لا تنحصر في موضوع واحد ولكنها تسرد تاريخ مصر منذ بعيد الأزمنة إلى عهد الحكومة الخديوية السابقة وعيبها الوحيد أنها تنتهي بالمدح والثناء . وهي القصيدة التي مطلعها «حفت الفلك واحتواها الماء» تجدها في الشوقيات[١٢] . والقصيدة الأخرى لخليل أفندي مطران في مقتل بزرجمهر وهي من أجمل قصائده ، يتخللها أبيات تهذيبية وحكم أخلاقية وشيء من التهكم الشعري غير قليل تجدها في ديوان الخليل[١٣] .

آخذ بعضهم حافظاً بأنه أراد أنْ يكتب شعراً قصصياً حماسياً فاختصر في موضوعه كثيراً مع أنَّ ما وضعه الغربيون من هذا النوع يملأ مئات الصفحات ، لكنهم أخطأوا في نقدهم هذا لأن زماننا لا يحتمل التطويل على النمط الواحد . وقد فعل ذلك قبل حافظ شعراء العهد الاسكندراني من الاغريق فجاءوا بشعر قصصي حماسي كثير غير أنهم اختصروا في سرد الموضوع ونظم القصائد ما شاء ذوق عصرهم الاختصار . وأسجاعهم على ما نعلم تتغير كل سطرين اثنين ،

فكيف بشعرائنا وهم يستعملون سجعا واحدا من أول القصيدة إلى آخرها .

نؤمل أنَّ عمرية حافظ ستحث الشعراء على التخلص من معاني الماضي فيقلعون عن التغزل بوجه القمر ، وبعيون المها التي يجعلونها كل يوم بين الرصافة والجسر وإن لم تمر هناك إلاَّ مرة واحدة في كل هذه القرون الطويلة ، ويفتحون لنا عصرا أدبيا جديدا فيه إذا أرادوا مخاطبة امرأة لا يجعلونها في شعرهم رجلاً ، وإذا مدحوا رجل حرب وبطش لا يتغزلون بجماله كأنه فتاة لها عنق الغزال وقوام الغصن وعيون مكحولة بالسحر . .الخ .

والآن تخرج عمرية حافظ من عالم المدح والثناء وتدخل عالم الإفادة والتاريخ .

خالد رأفت

المحروسة .س ٤٣ ،ع ٢٨٠١ ، ١٢ مايو ١٩١٨ .ص١

١- حافظ ابراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢) . شاعر مصري . ولد في ذهبية بالقرب من قناطر «ديروط» بصعيد مصر . بعد وفاة والده قام خاله بتربيته فألحقه بمدرسة ثانوية في طنطا . ثم التحق بالمدرسة الحربية فتخرج فيها ضابطا في الجيش عام ١٨٩١ . خدم في السودان ما يقرب من سنتين وأحيل إلى المعاش عام ١٩٠٣ . عين مديرا للقسم الأدبي في « دار الكتب » عام ١٩١١ وبقي في منصبه حتى عام وفاته . أنعم عليه برتبة البكوية عام ١٩١٢ ، ثم « نيشان النيل » فأطلق عليه بعد ذلك لقب« شاعر النيل » .

٢- هي قصيدة حافظ ابراهيم المطولة المعروفه ب « القصيدة العمرية » ألقاها في حفل خاص أقيم عام ١٩١٨ في القاهرة . والقصيدة تسهب في سرد تاريخ ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ت ٦٤٤ ومنجزاته وتشيد بمناقبة ، وتقع في ١٨٦بيتا . أنظر القصيدة في : ديوان حافظ ابراهيم . شرحه أحمد أمين وأحمد زين وإبراهيم الأنصاري . ج١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠) ص٧٧ - ٩٧ .

٣- محمد الخضري (١٨٧٢ - ١٩٢٧) . باحث وخطيب مصري . بعد تخرجه في مدرسة العلوم عين قاضيا شرعيا في الخرطوم بالسودان . درس في مدرسة القضاء بالقاهرة . حاضر في الجامعة المصرية عن تاريخ الإسلام .

٤- Vergilius (٧٠- ١٩ ق م) . شاعر روماني . اشتهر بملحمتة « الانياذة» . توفي بالحمى أثناء زيارته لليونان . ألف« الرعائيات» و« الفلاحيات» .

٥- Lucanus(٣٩ - ٥٦) . شاعر ملحمي لاتيني . عرف بملحمته «فرسال » التي تصف المعارك بين قيصر وبومباي . تعلم فترة في أثينا . مات منتحرا . اشتهرت آثاره في أوروبا ويقال إنها أثرت على المسرحيين الفرنسيين في القرن السابع عشر .

٦- Giangiorgio Trissino (١٤٧٨ - ١٥٥٠) . شاعر ايطالي . يعتبر أول من كتب تراجيدية حديثة . ولد في فينيسيا ونفي منها لأسباب سياسية عام ١٥٠٨ . انتقل إلى روما عام ١٥١٤ ، ولكن عفى عنه بسبب تدخل البابا . أهم آثاره كانت ملحمة LItalia Liberata dai Goti التي استغرقت كتابتها حوالي عشرين عاما وصدرت عام ١٥٤٧ .

٧- Torquato Tasso (١٥٤٤-١٥٩٥) . من كبار شعراء النهضة الايطاليين . اشتهر بملحمتيه «أورشليم المخلصة» و «رينالدو» . تبحّر في القانون والفلسفة .

٨- Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١) . شاعر وناثر ومنظّر أدبي وفيلسوف ايطالي . ولد لعائلة ذات أصل نبيل . ساهم بشكل فعال في قضايا موطنه السياسة . من آثاره الهامة الملحمة الشعرية «الكوميديا الإلهية» .

٩- Luiz van de Camoes (نحو ١٥٢٤-١٥٨٠) . شاعر برتغالي . ولد في ليشبونة أو كويمبره وتعلم في كويمبرة حتى عام ١٥٤٢ . ثم التحق بخدمة البلاط في ليشبونة . بالاضافة إلى ملحمته Os Lusiadas (١٥٧٢) نظم كموان بعض الأشعار الغنائية .

١٠- John Milton (١٦٠٨-١٦٧٤) . شاعر انجليزي . أجاد اللاتينية في سن مبكرة ، فنظم بها الشعر إلى جانب الايطالية والانجليزية . كف بصره بين عامي ١٦٥١ و١٦٥٢ . أملى على زوجته وابنيته ملحمته الشهيرة «الفردوس المفقود» .

١١- عنترة بن شدّاد العبسي (نحو ٥٢٥-٦١٥) . شاعر جاهلي ، من أصحاب المعلقات . من أهل نجد أما أمه فحبشية . اشتهر بالشجاعة وعزة النفس . طمع بالزواج من ابنة عمه عبلة فصُدّ . حيكت حوله الأساطير .

١٢- وهي قصيدة «كبار الحادث في وادي النيل» ، وعدتها ٢٦٤ بيتاً كان أحمد شوقي قد ألقاها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في جنيف في سبتمبر ١٨٩٤ . انظر القصيدة في ديوان أحمد شوقي : الشوقيات . ج١ القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، د .ت . ص ١٧-٣٣ .

١٣- وعدّتها ٥٤ بيتاً . انظرها في ديوان خليل مطران : ديوان الخليل ، ج١ ، ط٣ . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٠-١٢٣ .

عربات المطافىء

لقد ضاقت الصحف عن نشر المحليات الكثيرة التي كانت تهتم بها في الماضي ، وما ذلك إلاّ لأن أخبار الحرب وما يتعلق بها لا تترك مجالا لغيرها . فما أكثر ما نسمع جرس التنبيه مثلا منبئاً بمرور عربات المطافىء فيدوي بنا المكان كأن الأرض زلزلت زلزالها . ثم ينقضي زمن تعقبه عودة العربات فنعلم من رنين أجراسها أنَّ الخطر قد زال غير أن ما نراه بالعين ونسعمه بالأذن لا نقرأ منه شيئا في صحف الغد التي تغضي عنه إغضاء الكرام . وإني لمستصوب قول القائل إنَّ الحرب أضرّت بمحرري صحفنا ومخبريهم . فبدلاً من أنْ يكد الواحد منهم قريحته فإنه يكتفي بسرد خلاصة أقوال التلغرافات وتعليق رأيه عليها . والمخبر يكتفي من الأخبار المحلية بما يأتيه منها عن طريق دفتر الداخلية والمحافظة والصدفة متكلاً على البرقيات لإملاء الصفحات البيضاء .

شبت النار بالأمس قبيل الساعة السابعة مساء وراء الكنيسة الألمانية في بولاق ، وقد تعالى اللهيب إلى قلب الجو فملأ الفضاء دخانا كثيفا . والواقف عند نافذة من الشوارع المجاورة شمالاً حتى الفجالة وقبله حتى باب اللوق ، كان يستطيع أنْ يرى هول ذلك الحريق . ولما كنت في شارع لا بد أنْ تجتازه عربات المطافىء للوصول إلى مكان النار كنت منذهلاً لانقضاء الوقت والهواء يساعد اللهيب على الازدياد والانتشار ، دون أنْ نسمع لجرس النجدة رنيناً . أخيراً مرت العربات نحو الساعة التاسعة ولم تلبث حتى رأينا اللهب آخذاً بالانكماش والتضاؤل قليلاً قليلاً حتى لم نعد نلمح منه شيئا بعد حين .

فلماذا لم يسرع رجال المطافىء في الحضور قبل تلك الساعة؟ لا يمكن أنْ يكون سبب الإبطاء في توانيهم لأننا نعرف نشاطهم في تأدية خدمتهم . ولكن

نقدر أنَّ سكـان الأحيـاء الـوطنيـة لا يفـتكـرون بهـم أو لا يـلمـون بـأي الـطرق يستنجدونهم حتى يصل الخبر صدفة إلى أحد العارفين أو يرى البوليس آثار النار فيبـادر إلى استدعـاء الـمطـافيء بـالتـليفـون ، وهل من تـليفـون في تلك الأحيـاء وضواحيها؟ على كل حال نرجو من الحكومة أنْ تهتم لهذه المسألة فتتلافى ما ينتج عنها من الأذى والخسارة . ليس من المعقول أنْ تظل النار متزايدة مدة ساعتين تقريباً في شارع يحسب مجاوراً لمركز رجال المطافيء . فإذا جهل سكان الأحياء الوطنية كيفية استدعائهم عمال المطافيء فلا بد من إيجاد وسيلة سريعة تساعد على تدارك الخطر .

وقد لاحظنا كذلك أن عربات المطافيء كانت متباطئة قليلاً في سيرها بسبب ظلام الشوارع وخوفاً من أنْ تصادم أحد المارين . فلماذا لا يستعمل في مقدمة كل منها مصباح كهربائي . كمصباح الاتومومبيلات يمتد إلى بعيد فترى ماذا يجرى في أقاصي الشارع أمامها ويساعدها على الإسراع لأن التأخر لحظة واحدة في مثل ذلك الحين قد يأتي بأضرار فادحة لا تعوض .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٨٠٤ ، ١٦ مايو ١٩١٨ . ص ١

الحميات

قف بنا نسائل مصلحتي الصحة والتنظيم عما اتخذتاه من الاحتياطات لمنع تفشي الحميات الخبيثة . وبما ذكرت مصلحتي الصحة والتنظيم معا إلاَّ لأن تنفيذ كثير من القرارات التي تضعها مصلحة الصحة منوط بوظيفة مصلحة التنظيم . كل يوم نسمع بامتداد الحمَّى في ناحية من أنحاء القطر فنقرأ توسلات الصحف إلى الحكومة بأخذ التدابير اللازمة ونعلم أنَّ أولياء الأمور يهتمون ما استطاعوا ويقررون القرارات لوقاية الصحة العمومية .

وبين المناقشات الطويلة وما يتخللها من أخذ وردٍّ تبرق أحيانا ، في جو الحيرة والتردد ، فكرة واضحة ورأي مفيد بين الآراء الكثيرة الباطلة . كذلك يشاع الآن أنَّ المجلس البلدي في الاسكندرية كاد يجد وسيلة تكفل الجميع مما يخشون . آمين ! هكذا فليكن ! لأن تنظيف الثغر من الأمراض يعود عليه بمنافع مادية كبيرة تأتيه من مكث المصطافين في ربوعه شهوراً أربع[1] . ولئن لم تظهر لنا بعد خفايا تلك الوسيلة التي ينتظر منها إقفال باب الخطر فإننا نعلم أنَّ ذوي الشأن آخذون بالبحث عنها ، وليس ذلك بالشيء القليل .

لقد أحسنت مصلحة الصحة بما اتخذته من الوسائل لمنع تفشي العدوى إلاَّ أنَّ ذلك لا يكفي . غريب جداً أنه ساعة يجب النظر في الأمور الصحية نرى أنَّ الأفكار متجهة في الغالب نحو إيجاد نظام يجعل المصاب بمعزل عن الناس ليكون انفراده حاجزاً بينه وبين الآخرين وإلا بحث الناس عن طريقة تمنع المكروبات من النمو .

ولكن أليس ثمة أمر أسرع فائدة وأضمن نجاحاً ، نعني محاربة الأسباب الأولية المكونة جراثيم الأمراض والعدوى؟ هل يجدي رش الشوارع نفعاً إذا باع

الجزارون لحماً لعبت فيه أدران العفونة؟ وماذا ينفع إستحمام الصحيح وانزواء المريض في منزله إذا قدم الباعة لزبائنهم لحوماً مقددة ترتع تحت الفلفل والبهار بما فيها من مكروبات كامنة؟

وليس المتجولون من الباعة بأقل الناس مسؤولية . ما رأيتهم يوماً قائمين في وسط الشارع والذباب حائم على أطباقهم يتناول منها ما يشاء ويضع عليها ما يشاء ، إلاَّ وتوجعت لما يجني أولئك الغافلون على زبائنهم . ولا همَّ لهم سوى المكسب وحفظ رأس مالهم الصغير بحفظ أصناف مأكولاتهم أياماً طوالاً .

إن إبادة الصنوف الغذائية التي أدركتها العفونة خارج الجمرك لا يكفي لتطهير ما تناوله الناس من القوت ، الشعب جاهل . هو طفل لا تهمه الوقاية ولا يفتكر بها . وأحسن ما تأتيه الحكومة لصيانة الصحة العمومية هو انشاء لجنة مراقبة علي جميع المواد الغذائية .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٨٠٥ ، ١٧مايو ١٩١٨ . ص١

١- المقصود أربعة .

ثقلاء الشارع

تجول في شوارع القاهرة زمرة من الشبان والكهول ولا يندر فيها الشيخ ، أقليتها من الأجانب اليونان والأغلبية من الوطنيين . لا يعلم إلاّ الله ماذا يفعل أولئك الرجال وأي مهن يتعاطون ، لكن ما مرت أمامهم سيدة إلاّ نالت من ثقلهم نصيباً ، فكأنهم التقوا ليمثلوا دوراً يجعل الناظر أنْ يهتف : «اللهم ساعد البشر على احتمال البشر !» لست أعني هنا أكثرية الرجال ، فلا يندر جداً الرجل الذي يرى سيدة جميلة دون أنْ يسمعها رأيه في أناقتها واستحسانه لمشيتها وإعجابه بعينيها ، كأن تلك الأقوال مفروضة عليه ومن ضمن واجباته الاجتماعية أنْ يجاهر بها فيتم واجبه بأمانة ويسير في طريقه . فليس هذا النوع هو ما أسميه «الثقيل» .

يقول قومٌ إنّ الرجل لا يتطاول على المرأة إلاّ إذا رأى منها بعض التشجيع وهو قول ينطبق على المهذب من الرجال ، وليس جميعهم بالمهذب ، مع الأسف . فإذا كان بعض السيدات لا يعرفن آداب السير في الطريق فيتعرضن بجهلهن لنظرات مستهجنة وكلمات لا يستحن سماعها -إذا كان ذلك وجدنا «للثقلاء» بعض العذر ، ولكن هناك سيدات من طبقة أخلاقية أخرى وهنّ مع ذلك لا يفلتن من صنوف ثقل الزمرة التي ذكرنا : فإذا رفعت السيدة نظرها باحثة عن طريقها ظن «الثقيل» أنها تبحث عنه . وإذا عبست عند سماعها كلامه ظن ذلك دلالاً وتدفق «لطفه» تدفق اليعبوب . وإذا ضاق صدرها فغيرت طريقها هرباً منه حسب ذلك مداعبة وإذا دخلت تبتاع حاجة في دكان فأول شيء يقع نظرها عليه ساعة خروجها هو وجه الثقيل المسكين . فليقل الأخلاقيون إذاً ماذا تفعل السيدة؟

من المتفق عليه أنه يجب أنْ تشكو أمرها إلى البوليس ، لكن البوليس ليس

موجودا في كل مكان وكثيرا ما يغض الطرف عن مثل هذه الحوادث لأنه لا يهتم بها ، ثم إنَّ اللائي يعرضن أنفسهن إلى مثل هذا الموقف موقف الشكوى إلى البوليس ، قليلات جداً لأنهن يخفن انتقاد المارين خصوصا إذا وجد بينهم من يعرفها . وكم من مرة تشكو النساء في اليوم وطائفة الثقلاء منتشرة في جميع أنحاء العاصمة .

إن هذه الفكرة فكرة انتقاد المارين ، تعذب المرأة ساعة تسير والثقيل يتتبع خطواتها فتسائل نفسها : «ماذا يقول الذي يراه يتبعنى على هذه الحال؟» فماذا تفعل ، هل تصفعه؟ ولكنها لا تتنازل دائماً إلى ذلك لأنها تخشى تلويث يدها بلمسه . كذلك تخشى إلفات النظر وتجمهر الناس حولها . فماذا تفعل إذن؟

لقد أخذ بعض السيدات بالشكوى على صفحات الجرايد وحسناً يفعلن . وعلى الصحف تأييد شكواهن والعودة إلى هذا الموضوع من حين إلى آخر رغبة في الإصلاح والتهذيب . وعلى كل ذى عرض وغيره من الرجال التشبه بما فعله يوماً أحد كبار المحامين :

كان المحامي يتأبط محفظته سائرا نحو المحكمة الأهلية بباب الخلق وأمامه سيدة يتبعها «ثقيل» من النوع الذي ذكرنا . كان يرى حركاته ويسمع كلماته متوجعا لثقل الرجل وراثياً لحال السيدة التي كانت تتأفف حيناً ، ثم تنظر شمالا ويمنة لعلها تجد بوليسا تشكو إليه أمرها ، فيقول لها«الثقيل» . «يا سلام على دى العينين !» وبينا هوكذلك إذا بالمحامي قد قبض على العضو الأكثر بروزاً من رأسه ، وهو أذنه ، قبض عليها بشدة فصرخ (الثقيل) مسترحماً وهو لا يدري هل اليد التي توجعه يد إنسان أم يد شيطان . أراد أنْ يلتفت نحو معاقبه فلم يستطع لأن اليد الحديدية ظلت ضاغطة على أذنه ، فتابع السير كالآلة العمياء والمحامي وراءه ، مدة خمس دقائق تقريبا إلى أنْ توارت السيدة عن الأنظار . إذ ذاك قال الثقيل وقد وصلا عند باب المحكمة . (في عرضك يا بك) فتركه المحامي بعد تردد لأنه ظن أنه قد أعطاه درسا سيذكره الثقيل زمنا .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٨٠٧ ، ٢٠ مايو ١٩١٨ . ص١

مقابر العظماء في مصر

قرأنا نبذة في جريدة «السفور» لأديب يحيي السيدة الفاضلة «باحثة البادية»[١] ويشايعها في الرأي الذي ارتأته ، وحث القوم على الاهتمام بمقابر نوابغ الأمة المصرية وتسمية الأجداث التي تضم الشيخ محمد عبده[٢] وقاسم أمين ومصطفى كامل[٣] «مقبرة العظماء» . لم ننتظر إلى اليوم لنعرف غيرة الكاتبة الفاضلة على قومها ووطنيتها الحارة الصادقة ، فإن ذلك ظاهر في كل ما خطه قلمها . والسيدات اللاتي أسعدهن الحظ بمعرفتها الشخصية وجدن في حديثها ما قرأته في كتابتها من الغيرة القومية والتحمس لكل ما هو مصري خصوصاً والإسلامي عموما . فإذا هي دعت اليوم إلى تنظيم آثار النوابغ من ابناء وطنها إنما هي الأديبة الغيورة التي عرفنا . غير أننا لم نفهم بالضبط ماذا يقصد «بمقابر العظماء» إننا لم نقرأ الخبر إلا في «السفور» وليست تفاصيله هناك صريحة واضحة .

في لوندرا كنيسة تدعى «وستمنستر باى» شيدت في عصر هنري الثالث[٤] في أواخر القرن السادس عشر ، وهي تضم رفات ملوك انجلترا وأعاظم رجالها . والبانثيون في باريس رفع ليكون كنيسة ، إلاّ أنّ الثورة التي غيرت كل شيء ، جعلته مدفناً لأعاظم الرجال وأطلقت عليه اسم البانثيون ناقشةً عند مدخله جملةً شهيرة وهي هذه : «إلى أعاظم رجال الوطن الشكور» . فإذا كانت مقابر نوابغ المصريين محاذية الواحدة للأخرى في مقرها الأرضي الأخير وقصدت حضرة الأديبة أنْ يطلق على تلك البقعة اسم «مقابر العظماء» فالأمر حسن ونحن لا نرى اعتراضاً على ذلك . ولكن إذا كان الغرض من تلك الفكرة جمع الأموال وإقامة البناء المخصص لمقابر العظماء فإننا لا نرى الوقت مناسباً لذلك .

إن لمصر القديمة من أهرامها العظيمة مدافن لملوكها ومنارة لصحرائها إنما هي أعجوبة الآثار ومثل الأبنية ، غير أنَّ مصر الحديثة لا تزال في دور الطفولة وهي تقتصر في هذا الدور على رضاعة لبن المدنية العصرية ليس غير ، فهي الآن في حاجة إلى شيء آخر ، هي تحتاج إلى تهذيب الأحياء وإخراج الرجال منهم . تحتاج إلى قلوب قوية وعقول كبيرة وهمم ناهضة . تحتاج النفوس إلى النمو ليكون أطفالها رجالا ورجالها نوابغ قبل أنْ تهتم بمن قضى من النابغين . وأرواح النابغين إنما ترتاح إلى ارتقاء إخوانها الأحياء وتقدمهم في سبيل العلم والفلاح أكثر من ارتياحها إلى رؤية رفاتها تحت القبب الباذخة بين الأعمدة الهيفاء .

فإذا أردنا أنْ نكرم الأموات ونجعل أثرهم خالدا فلنهذب الأحياء ونرقّهم حتى يجيء يوم فيه يعرفون فضل الموتى عليهم .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٨٠٨ ، ٢١ مايو ١٩١٨ . ص١

١- «باحثة البادية» هو الاسم المستعار للكاتبة المصرية ملك حفني ناصف (١٨٨٦-١٩١٨) . ولدت في القاهرة . بدأت تعليمها في المدارس الفرنسية ثم التحقت بالمدرسة السنية . وفي عام ١٩٠٧ تزوجت من رئيس قبيلة الرماح (اتخذت اسم «باحثة البادية» إشارة إلى بادية الفيوم) . لها «النسائيات» (١٩١٠) وهو مجموعة مقالات كانت قد نشرتها في صحيفة «الجريدة» .

٢- محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) . مفكر ومصلح إسلامي . ولد في أحدى قرى الغربية بمصر . بدأ تعليمه بالجامع الأحمدي بطنطا وأتمه بالأزهر . تولى تحرير مجلة «الوقائع المصرية» . نفاه الانجليز من مصر فسافر إلى باريس حيث أصدر مع أستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقى» . تقلد منصب مفتي الديار المصرية .

٣- مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) . سياسي وصحفي مصري . ولد بالقاهرة . درس القانون في جامعة «تولوز» بفرنسا . أسس جريدة «اللواء» عام ١٩٠٠ . أنشأ الحزب الوطني وانتخب رئيساً له حتى وفاته . ناضل في سبيل استقلال مصر .

٤- Henry 111 (١٥٥١-١٥٨٩) . اعتلى عرش فرنسا عام ١٥٧٤ . وقّع اتفاقية صلح مع البرتستانت عام ١٥٧٦ . مات مطعونا .

أمراضنا الاجتماعية

التسول للقوت

سرْ في المدينة طولاً وعرضاً ، من أقاصي العباسية إلى ضواحي القلعة تجد المتَسولين وراءك وأمامك وحولك في كل نقطة وفي كل حين . إذا دخلت حانوتاً ما فارقوك إلاّ عند بابه ليستقبلوك ساعة خروجك منه ، أو جلست في قهوة تألبوا عليك من كل صوب وناحية فإما إحسان إلى كل منهم وإما فرار ينتهي بك إلى قهوة أخرى حيث تلقى مثل ما حملك على الفرار . وإذا دنوت من كنيسة أو جامع أو أي محل من المحال العمومية سواء كان مرسحا أو سينماتوغرافيا ، وجدت منهم جيشا يتزايد عدده حتى صاروا كالذباب يتهافتون على المرء فلا يدري كيف يبعدهم عنه ليتخلص منهم .

الجمعيات الخيرية عندنا كثيرة وكفانا برهانا على تعددها صنوف أوراق اليانصيب في أيادي بائعيها . ونحن نعلم أنَّ هذه الجمعيات تعمل الخير ما استطاعت وما سمحت لها محتويات صناديقها ، وعلى رغم ذلك يظل نزلاء الشوارع على ما نراه من البؤس . والأغرب أنَّ أكثريتهم تنتمي إلى العنصرين ذوي الثروة الواسعة ، أعني الوطنيين واليونان . تكاد تكون الجالية اليونانية أغنى الجاليات في هذه المدينة ومع ذلك فمعظم المتسولين الأجانب إنْ لم يكونوا ايطاليين فهم يونان ، لكن الشقاء مخيم خصوصا على الطبقة المتسولة من الوطنيين . إن منظر الشيخ منهم والنساء والأطفال ليفطر القلب ، ومنهم الضعيف والعاجز وذو العاهة وليس من يهتم بهم أو يلقى نظرة إشفاق عليهم . وإني لأعجب من إعراض الجمعية الخيرية الإسلامية عنهم وهي التي توفرت

لديها أساليب المساعدة لأنها بما عندها من مال وعقار سنوي أغنى جمعية خيرية نعرفها في شرقنا الأدنى .

يقولون إنّ هذه الجمعية لا تهتم إلاّ بتعليم ابناء البائسين على حسابها وهذه هي طريقتها الكبرى في الإحسان . ولكن ما تعليم البائسين مجاناً ، على وفرة نفعه إلا فرع من فروع الإحسان ، وهناك مساعدات أخرى تكاد تفوقه أهمية ، أعني إيواء نسوة عاريات يمددن يدهن ليأكلن ، والنظر في أمر فتيات صغيرات لا يعلم من أين أتين وإلى أين مصيرهن . وإقامة ملاجىء للعجزة لو خصصت لهذا الغرض ما نزلها من المال بمناسبة وفاة المغفور له السلطان حسين[1] ، وعنيت باستثماره دون غيره بإحدى الطرق التجارية ، لساوى هذا الجزء من ثروتها رأس مال بعض الجمعيات الأخرى وقامت بإعالة عشرات ، وربما مئات ، من الأشقياء الذين لا ملجأ لهم .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٨١٣ ، ٢٧ مايو ١٩١٨ . ص١

١- السلطان حسين كامل (١٨٥٣-١٩١٧) . ولد وتعلم في القاهرة وتابع دراسته في باريس . تولى السلطة بعد أن عزل الخديوي عن عرش مصر عام ١٩١٤ وتوفي في العام ذاته .

ذكرى خميس الجسد

سمعت في هذا الصباح رنين نواقيس الأعياد وإذا بيوميتي تنبئني بأن اليوم (خميس الجسد) . مالي وتحديد معنى الكلمة لاهوتياً وفلسفياً واصطلاحات تقرير الكرادلة وإثباتات المجامع الدينية ! كنت وما زلت أعتقد أن الدين سرٌّ بين الخالق والمخلوق ، وأنه تعالى ما دام إله القلوب والنيات ، فهو لا يهمه من عبيده سوى الإخلاص في الأعمال والأقوال إخلاصهم له في خفايا الأفكار والضمائر ، وما بقي الإنسان مصغيا لصوت نفسه عاملاً بما يوحيه إليه همس الضمير النقي فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

على أن هذا العيد يذكرني بعهد مضى . أغمض عيني عن هذا المحيط فينطلق فكري سراعا إلى بقعة قائمة على شفة البحر المتوسط حيث الزهيرات الجميلات يفتحن أكمامهن على صفحة المروج وعند معاطف الجبال ، وحيث تمتزج بالهواء أرواح النعناع ، والصبتر والليمون والياسمين . ينطلق فكري إلى سوريا كما كانت قبل أنْ تدوي في جوانبها لمعة المدافع ، يوم لم تكن تزعج فيها حركة المدنية سكوت الأجيال ، فكان جوها هادئا صافيا فوق جمال الطبيعة المهيب ، لا يسمع فيه إلاّ تغريد الأطيار الثرثارة وتصفيق الأجنحة السيارة .

أما في مثل هذا اليوم فكانت تملأ الفضاء أناشيد البشر فتحمل إلى الأفق أثر أشرف عاطفة تهز القلب الإنساني وهي العاطفة الدينية . فقد يحتفل به في عينطورا على أحسن ما يرام من الجمال ، فتشترك في تكوين الموكب مدرستا البنات لراهبات الزيارة والصبيان للآباء العازاريين ، ويضم إليهما أهل القرية أجمع ونفر غير قليل من سكان القرى المجاورة . ولما تخرج الفتيات من دير الزيارة إلى مدرسة القديس يوسف كن يجدن (الدورة) سائرة في حديقة

المدرسة تتخلل موكبها الأعلام الدينية والموسيقى وصفوف المرتلين من تلاميذ وآباء عازاريين . وكانت تلك آواخر أيام المرحوم الأب الفونس ملياج رئيس مدرسة عينطورا الشهيرة .

وبعد الصلاة في الكنيسة كنا نخرج بأعلامنا وأناشيدنا إلى تلك الطريق المتعرجة من أعماق الوادي صعوداً إلى كتف الجبل بين الصخور الرابضة كالأسود وغابات الصنوبر المعطرة . فنلقى في سبيلنا هياكل بيضاء نصبت تحت الأشجار الكبيرة وفاحت حولها روائح البخور ، فنقف عند كل مرحلة من تلك المراحل وتتضامن أصوات الجمع في ترتيل نشيد واحد تتماوج رناته في قلب الطبيعة الصامتة ، وذلك النشيد فوق الجبال المصغية تحت الشفق إزاء البحر البعيد المختلطة حدوده بخطوط الأفق ، لم يكن أعظم منه شيء ، ولا أعمق منه أثر !

وكان الهيكل الأكبر يقام على مرتفع الجبل أمام كنيسة «سيدة السنديانة» . وقد دعيت بهذا الاسم لأنها في جيرة سنديانة كبيرة كنا نقف تحتها فتحضن جمعنا غصونها المتدلية ، بينما يقوم فينا الأب سلياج خطيباً حتى إذا انتهى الاحتفال عدنا كل إلى مدرسته أو بيته حاملاً من تلك الساعة أعذب تذكار .

كذلك كان هذا الاحتفال في الناصرة بفلسطين ، فيشترك فيه جميع أهل البلدة من نساء ورجال ويسير الموكب في الشوارع مرتلاً حتى ينتهي إلى كنيسة «دير البنات» القائمة على أكمة عند مدخل الناصرة ، وما كان أعظم هيبة الأناشيد وقوة تأثيرها بقرب مدافن الموتى من الآباء الفرنسيسكان في تلك الحديقة الغنَّاء .

فلسطين الناصرة عينطورا ! أيتها الأسماء العزيزة ، كم من ذكرى تتضمن حروفك وما أكثر ما فيك من عذوبة طاهرة تهيج الحنين والشجن ! ما أجمل ما فيك من رياض تسقيها مياه الأوطان وغابات مختفيات في حنايا الجبال الشامخات وما أعز من يعيش في ربوعك من أهل وحبيب وما أغلى ما حوته مدافنك من رفات موتانا !

كتاب الحياة! ترى هل للعيون نصيب من مراجعة قراءة صفحات منك جميلات قلبتهن يد الأيام؟!

المحروسة. س ٤٣، ع ٢٨١٦، ٣٠ مايو ١٩١٨. ص ١

الدكتور علوى باشا

مات علوي باشا ، ولئن ذكرت الخدمات الجليلات التي أداها في حياته الطيبة بالثناء فإن موته يحدث فراغا كبيراً ، في مكانين ملأهما إلى اليوم بأهلية وكرامة : الطب والجامعة المصرية .

لو كنت شاعراً لقلت إنَّ الأمطار المتدفقة في هذين اليومين ليست إلاَّ دموع عيون تعهدتها عنايته وشفاها علمه فجاءت الآن تبكيه ، لكن له من شهرته الواسعة وثقة الجمهور به وإجلال القوم له ما يغنيه عن قريض الشاعر ونثر الناثر .

ولم يقتصر في تقدير كفاءته وإكبار خبرته وعرفانه على الجمهور المصري فحسب ، بل تساوى في ذلك الأجنبي والوطني والكبير والصغير فقد سمعت علاّمتنا الدكتور صروف يقول «وقد أصيب في عزيز له في بصره» : « . . يعالجه جمهور من أحسن الأطباء لكني أنتظر رأى الدكتور علوى باشا لأكون على ثقة من الأمر» . ولم يندر سماع مثل هذه الكلمة المصرية عن ثقة قوية واستسلام تام من الاوربيين رجالاً ونساء مع إنَّ أهل الغرب لا يركنون عادة إلى طبيب من غير جنسيتهم .

أما الجامعة المصرية فكان يصرف فيها من وقته شطراً كبيراً غير مبال بما تكبده أمورها من نصب وكد ، شأن الذين يحبون شيئاً فيرون التعب لأجله راحة ، ويحسبون القيام بالواجب تقصيرا . فكنت إذا دخلت الجامعة فإما تجد عند بابها مركبة الدكتور علوى وإما تلتقى به في بهوها أو تسمع صوته في إحدى غرفاتها . ووقت غيابه عنها كنت تشعر بحضوره قلباً وروحاً ، وترى خياله صاعدا سلمها عاملاً في إدارتها مهتما بضبط حساباتها وتحسين شؤونها .

أذكر أني كنت يوماً في دار الجامعة مع خالد الذكر الدكتور شلبي شميل

منتظرين محاضرة المسيو كليمان في بهو الدور الأعلى . فما استقر بنا المقام حتى فتح باب غرفة الأعضاء وخرج هؤلاء بعد انفراط عقدهم وكان الدكتور علوى باشا آخر الخارجين . ولم يقع بصره على الدكتور شميل حتى هتف هتاف السرور وامتدت يده مصافحة :- أهلاً يا دكتور ! فقال الدكتور شميل مازحا كعادته : ماذا تفعل هنا بعيداً عن «العيون»؟ «مشيرا إلى مهنة الرمدى» فابتسم الدكتور علوى باشا كمن يقول : «هذه الجامعة التي تحسبها بعيدة عن مهنتي هي أعز العيون لدي وأجملها في نظري لأنها إحدى عيون الأمل المطلة بقومي على آفاق العلم والارتقاء» .

لعل كارليل[1] الكاتب الانجليزي لما قال في العاملين بهدوء وصمت لخير أمتهم إنهم «ملح البلد» أراد بهم أمثال علوي باشا . إن الأعمال اليومية المتتابعة تستدعي شجاعة عظيمة وثباتا مستمرا . وقد تكون أحيانا أكثر فائدة وأجلب خيراً من أعمال باهرات تدوى بذكرها الأندية ، فإذا قام كبار الأمة المصرية يؤنبون هذا الكبير ويمجدون خدماته الطيبات فأحر[2] بالجامعة المصرية ومن فيها من أعضاء وأساتذة وطلبة أنْ يبكوا المساعد المجد والعامل المخلص لترقية هذا المعهد الأهلى الجليل .

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٩٣٢ ، ٢٦ أكتوبر ١٩١٨ . ص ١

١- Richard Carlile (١٧٩٠-١٨٤٣) . صحفي انجليزي . كان والده اسكافيا . بدأ العمل بالصحافة عام ١٨١٣ . عرف بآرائه المتطرفة وخاصة فيما يتعلق بحرية التعبير . عارض النظام الملكي ودعا إلى التعليم العلماني وتحرير المرأة .

٢- المقصود فأحرى .

برىء يشنق
وسجين ينتحر

إذا ظلمت يوما أو تهددني شقي بالغدر أو خشيت سوء معاملة أحد ، التجأت إلى هيئة القضاء وما يمثلها من دوائر الأمن العام كالمحافظة والقسم ونفر من البوليس إلخ . حتى إنَّ مجرد وجود البوليس فى مكان يجعل الناس آمنين ، وذلك ليس فى الحقيقة فقط بل في عالم الأحلام كذلك . إنَّ البوليس في الحلم يعني النظام والأمن والسلام ولكن إذا نزل بإحدى هذه الدوائر خلل ما - وهي أنظمة بشرية قابلة الخطأ - وكان ذلك الخلل سيء العاقبة على الشعب ، وإذا أخطأت هذه الدوائر سهواً أو إهمالا فإلى من ترفع الشكوى وإلى من يلتجىء المتظلم؟

بالأمس حكمت المحكمة بالإعدام على مجرم رأت أنَّ جرمه ثابت لا شبهة فيه ، فنفذ الحكم وأعدم المسكين شنقا . وكان صباح وكان مساء فصرحت المحكمة باشتباهها بثبوت الجريمة وكادت تقول إنَّ الرجل برىء ، وما زال المولجون بالأمر يراجعون أوراق تلك القضية للبت النهائى في براءة الرجل ، ولكن ماذا ينفع هذا البت بعد ذلك التصريح وللرجل المذكور عليه ذرية وأولاد ليس لهم من يعولهم؟ بل ماذا تنفعه البراءة وقد ذهب مظلوما فخسر حياته وهي الشيء الوحيد الذى لا يعوض؟ واليوم سمعنا أنه جيء برجل فى حالة سكر إلى قسم الخليفة وسجن فى سجن القسم وانتحر فى خلال الليل فعلى من يقع دم هذا المسكين الآخر؟ . تذكر رصيفتنا «الأهالى» أنَّ هذه السجون العارية الرطبة قد تجلب للموقوفين فيها أمراضا شتي في هذا الفصل ، وقد تكون تلك الأمراض قاضية عليهم بسرعة أو تظل داء عضالا يشقون به فوق شقائهم طول

حياتهم التعسة . وهو قول حق وعلي الحكومة أنْ تعيره ما يستحق من الالتفات . أما نحن فنود أنْ نفهم كيف يؤتى بامرىء إلى القسم في حالة بلغت منها الشدة أنها أدت بصاحبها إلي الانتحار . كيف يكون هذا فلا يلتفت إلي ذلك العليل ولا يراقب حيناً حتي تخف وطأة الشراب فيستسلم إلي النوم ناسياً في حضنه أوجاعه وتعاسته؟

من يدرينا ما هو السر الذى دفع به إلى السكر فالانتحار؟

تري متي تذكر الحكومات أنَّ المجرم مريض أكثر منه مذنب وأنه خليق بالرحمة والتمريض والمعالجة أكثر منه بالقسوة والإهمال والخشونة؟ ومتى تذكر أنَّ ما تنفذه عليه من الأحكام ليس الغرض منه الاقتصاص بل تهذيبه ومنع شرّه وحماية صوالح الذين يتهددهم مرضه العصبى أو الأخلاقى . متى تذكر أنَّ العدل نفسه يقضى بالخفيف من أوجاع الشقى وأن آخر كلمة ترتعش على شفاه البشر أمام الضعيف هى كلمة حب وغفران وليس كلمة كره وانتقام؟

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٢٩٨٤ ، ٣٠ مايو ١٩١٨ . ص١

المرأة الاجتماعية

قالت مكاتبة صحيفة انجليزية كبرى في مدح مدام ولسن[1] : «لقد شعرت حالاً بأنها ليست بالمرأة الاجتماعية لأنها صافحتني بإخلاص ، وفي لمس كفها قوة وعزم وصراحة» . ونحن القارئون هذه الجملة بعد أن عرفنا من رئيس الولايات المتحدة شخصيته المعنوية الظاهرة في خطبه ، نفكر هنيهة قائلين : «أيمكن أن تكون امرأة الدكتور ولسن[2] امرأة اجتماعية محضة؟ إنَّ ذلك لمستحيل!» . ليست المرأة الاجتماعية بغير المحمودة بل هي ممدوحة دائما في الاجتماعات والأندية ، يشترط أنْ تكون موجودة في دائرة الحامدين . أما إذا كانت غائبة فإنهم يمدحونها كذلك مضيفين إلى الثناء العطر كلمة «لكن» . تلك «اللكن» الرهيبة التي لا يفلت من أشواكها أحد : هي من أجمل النساء لكن . . .» -«هي من أفضل من عرفت لكن . . .»

والمرأة التي تجد في نفسها ما يدفعها إلى أنْ تكون أقل «اجتماعية» من المرأة الاجتماعية الصرفة ، الويل لها ثم الويل ! إنَّ هناك نعتاً يعانق اسمها في جميع صالونات «أصدقائها» ، إنها تنعت بالشاذة !

***

المرأة الاجتماعية من ثمرات المدينة الحديثة . وبما أنها موجودة في أوروبا فقد تحتم وجودها بيننا ، وإن كان «الاجتماع» عندنا مفقودا بالمرة . وذلك الاسم يعم المرأة السافرة والمرأة المحجوبة على السواء . عندنا سينماتوغرافات وتياترات وكونسرتات . وعندنا أناس يخطبون ويتزوجون ، وعندنا زائر ومزار ، وضيف ومضاف ، وعندنا أمراض وأفراح وأتراح وخياطات وأطيان ومنازل ، فمن يتحدث بجميع هذه الأشياء ومن يروج الأخبار وينشرها في جميع أنحاء

المدينة إنْ لم يكن المرأة الاجتماعية والرجل الاجتماعي؟

المرأة الاجتماعية الاوربية تكون في الغالب على شيء من العلم لتتمكن من محادثة ضيوفها أو تفتح لهم باب الحديث على الأقل في موضوعات مختلفة . ولابد أنْ تكون على جانب عظيم من معرفة آداب الصالونات والاصطلاحات الاجتماعية لترضي زائريها وتفترق وإياهم على سرور وسلام . لكن المرأة عندنا تتنازل عن هاتين الصفتين مكتفية بكل ما عداهما من إتقان اللبس والزوزقة وكثرة الابتسام والتهكم بلطف والانتقاد بمرارة والثرثرة التي لا طائل تحتها . وما أكثر ما عندها من اخبار «الدوطة» والوراثة «والتروسو» والشاي عند سولت «والجلاس» عند جروبي ، حتى لقد يدهشك ما تسمعه من هذه الصحيفة الحية وتظن نفسك عائشاً في غير هذه المدينة وفي غير هذا العالم عندما تتراكم على رأسك تلك الأحاديث التي تنتهي الزيارة وهي لا تنتهي !

إذا كانت هذه العلائق الاجتماعية ضرورية لاشتراك البشر في الحوادث القومية فإن فيها واسطة للقضاء على قوة الفكر وملاشاة صدق العواطف . إن الذي يتكلم كثيرا يفتكر قليلا والذي يحب جميع الناس لا يحب أحداً على الإطلاق . ذلك لأن قوة الإنسان واحدة فإذا تحولت إلى الخارج كلاما وثرثرة ضعفت في الداخل والعكس بالعكس . وشقاء العائلات آت من تلك الثرثرة الاجتماعية التي هي مع المقامرة أوجع العلل الإنسانية في أيامنا .

***

على أن هذه الحرب مغيرةٌ كلَّ شيء . لقد تألمت المرأة كثيراً والألم مهذب قادر يلاشي الإضافات التافهة وينبه في المرء ذاته الحقيقية مساعدا إياه على إدراك مضي الحياة وكاشفا له النقاب عن وجهها الجميل . وسوف تبرز المرأة أكثر ذكاء ونشاطا وأصدق قولا وأعمق عاطفة وأتمَّ جمالا . سوف تنهار بينها وبين الرجل تلك الجدران الدهرية التي أقامها الجهل والاستبداد . سوف تكون مصافحتها كمصافحة مدام ولسن قوية مخلصة مستقلة صريحة . سوف تفتخر حين يقال عنها إنها ليست بالمرأة الاجتماعية الصرفة ، ولا يكون ذلك إلاَّ مضيفا

إلى عذوبتها النسائية المصطلح عليها عذوبة قلبية أكيدة .

ونحن اللائي نقلد الاوربيات في كل شيء لا بد أنْ نقلدهن في ذلك الارتقاء المتعالي فوق ارتقاء الآلات والأزياء . هن تألمن في هذه السنوات الأربع فاتخذن ألمهن سلماً للارتقاء . فلنذكرن أننا نتألم من زمن طويل ! إذا كان الألم مقياس التقدم ، فمن ذا الذي حكم علينا بهذا التقهقر المغلف بصدأ الأجيال؟

خالد رأفت

المحروسة . س ٤٤ ، ع ٣٠٠١ ، ٢٠ يناير ١٩١٩ . ص١

١- Edith Wilson (١٨٧٢-١٩٦١) . الزوجة الثانية للرئيس الأمريكي وودرو ويلسون . ولدت في ولاية فرجينيا . لم تحصل على دراسة عالية نظامية . اهتمت بالقضايا السياسية المحلية والعالمية ، ويقال إنّ زوجها كان يقدر آراءها في إدارته لدفة الحكم .

٢- Woodrow Wilson (١٨٥٦-١٩٢٤) . الرئيس الثامن والعشرون للولايات الأمريكية المتحدة (١٩١٣-١٩٢١) . كان زعيم الحزب الديمقراطي . أدخل بلاده في حلبة الحرب العالمية الأولى (١٩١٧) .

الحركة النسائية عندنا - ١ -

أقول «عندنا» وأعنى بذلك ذوات الحجاب الإجباري وذوات الحجاب الاختياري معاً لأن العدوى موجودة في كل شيء في الخير كما في الشر ، في التقدم كما في التخلف فإذا ما برز نور معنوى في نقطة معينة اخترق شعاعه كل فكر أوجدته الظروف في مستواه . وعبثا نسدل الحجب على الأبصار إذا كانت البصائر متنبهة وكانت النفس على استعداد لقبول الراقى من التأثيرات .فلئن تقرر وجود حركة نسائية بين السافرات تحتم وجودها بين المحجوبات وغمرتهن جميعا موجتها المحيية وإن كانت في فريق أظهر أثراً منها في الفريق الآخر .

قضت باحثة البادية بعد سكوت سنوات أربع فكان موتها أفصح مقالة وأبلغ عظة ، وقد كشف ذلك الظرف المحزن عما لها من مكانة رفيعة في نفس الجمهور ودل على درجة الارتقاء العالية التي يسع المرأة الوطنية أن ترمي إليها .

لا أدري ، هل نالت من الأذهان والقلوب فصول «الباحثة» وآراؤها وما كانت تبغيه من الإصلاح في أيام جهدها مثلما نالت بعد رحليها؟ إنه ما طار نعيها حتى انتشرت معه الكآبة وعمَّ الأسف ، فسودت أعمدة الصحف وكثرت فصول الثناء على اجتهادها وفضلها وتعددت قصائد البكاء على شبابها . وقد اشترك في ذلك الرجل والمرأة والمحمدي والعيسوي والشاعر والثائر والصحافي والأديب حتى الذي لم يكن ليعنى بالصفحة النسائية من الأدب العصري وجد كلمة أسف يضيفها إلى كلمات أسف كثيرات سبقتها .

ذلك لأن مثل هذه الأفراد النادرة لا يخص أسرته فقط ، وبموته إنما تكون أمته خاسرة . لما صمت صوت الباحثة للمرة الأخيرة أحس الجمهور بأن ذلك الصوت كان شجياً ، وبأن القلم الذي انتزعته مخالب الردى كان موسيقيا ، أليس من خصائص البشر أن لا يفطنوا إلى جمال شيء وندورته إلاَّ بعد الرحيل الذي لا

رجوع وراءه؟

ولم يقتصر على فصول الصحف وقصائد الشعراء ، بل عنى النساء بإقامة حفلة تأبين من جهتهن بينما كان الرجال يهتمون بحفلة الرجال ، فسبق هؤلاء وأقاموا حفلة الأربعين وكانت حفلة مهيبة جليلة . فرأت اللجنة النسائية المتشكلة برئاسة السيد المثلى حرم شعراوي باشا أنْ تؤجل عملها فتعقد الاجتماع النسائي بمناسبة مرور عام على وفاة الراحلة الكريمة وأن نحاول في خلال هذا العام إيجاد أثر لذكرها الطيب في المدرسة التي تربت فيها ، ومجرد تفكير السيدات بهذا وذك واهتمامهن بكيفية تنفيذ ما حسن في نظرهن دليل على تغيير كبير جار في النفوس .

أما اجتماع الرجال فقد حضره كل علم ووجيه وكبير . ولو كان المؤبنون من النشء الجديد القائل بسفور المرأة وتحريرها لرأينا الأمر طبيعيا ، ولكنهم كان أكثرهم إنْ لم يكن كلهم من ذوى العمائم والعلماء من الشيوخ ، ومن المطربشين الذين هم أقرب إلى حزب «المحافظين» منهم إلى أي حزب آخر . وقد فاه أحد الخطباء بهذه الجملة الكبيرة المعنى : «أيها الرجال قولوا للنساء إننا نكرم النساء الصالحات كما نكرم أعاظم الرجال» .

ولكن كيف يذهلنا ذلك وقد كان دائما أهل الذكاء والنبوغ مفيدين بمماتهم كما في حياتهم ! فإذا ما أسبلت منهم الجفون على العيون الجامدة فكأن النفس تنبه القوم باعثة فيهم اهتماما وتحمسا لما جاهدوا من أجله طويلاً . فهم بالشمعة التي يشتد لمعانها ساعة الانطفاء شبيهون ! لما قامت نساء الغرب بحركتهن لم يؤيدهن فيها من الرجال إلاّ آحاد وقد هزأت منهن مجاميع ، واليوم وقد مرت أعوام الجهاد والألم والثبات فقد استلمن إلى مصلحتهن أعلى أصوات امريكا واوربا وأكثرها فعلاً وأعمقها تأثيرا . أما عندنا فاذا ذكرت الحركة النسائية ذكرنا أنَّ الرجل كان موجدها ومؤيدها ، وأنه ما زال ساعيا في تنشيطها . وقد جاءت حفلة الرجال التأبينية أتم مصداق لهذا الإقرار .

ميّ

المحروسة . س ٤٣ ، ع ٣٠٠٦ ، ٢٧ يناير ١٩١٩ . ص ١

الحركة النسائية عندنا - ٢ -

اعترض معترض على مقالي السابق قائلاً : «أين الحركة النسائية عندنا وكيف نكتب في موضوع أهم ما يقال في تحديده أنه موجود بيننا وجود العنقاء أي بالاسم ليس غير؟ . إنَّ ما يسميه الغربيون «حركة نسائية» يعنى ارتقاء المرأة المتزوجة (ذلك الارتقاء الظاهر في إدارة بيتها وتربية أطفالها وفي جعل أسباب الهناء موفورة لمن هم حولها وتحت سلطتها) وارتقاء المرأة العازبة على السواء . هي حركة مؤلفة من معارف واسعة وخبرة متنوعة وممارسة علوم كالفلسفة والفلك وغيرهما من الفنون كالطب والمحاماة والتجارة والتمريض وما نحوها . هي تنبىء عن تأليف جمعيات خيرية وأخلاقية وأدبية لمساعدة المحتاج ومحاربة السكر والعاهات الأخلاقية وحماية الفتيات اللاتي ليس لهن من يلتجئن إليه . تلك «الحركة» تتناول التوظف في مصالح الحكومة والجلوس في كراسي القضاء كما هي الحالة في امريكا واسوج ونروج وإشغال مكان مهم في المجالس العلمية كمدام كوري والآنسة شاندون في فرنسا ومدام لافيروف في نروج وغيرهن . بل إنَّ تلك الحركة تتناول المطالبة بحقوق الانتخاب والتربع في المقاعد النيابية وهو أمر تقرر الآن في أعظم ممالك اوربا كما سبق تنفيذه في امريكا . هذا ما نسميه حركة نسائية . فأين نحن من ذلك ونساؤنا راتعات في بحبوحة الحياة التي لا تستوجب جهادا وهن لا يحسبن حسابا لغير زينتهن وزياراتهن واستقبالاتهن ولا يقرأن من ثمرات المطابع إلاَّ الروايات ومجلات الأزياء ، ولا يعرفن من حوادث العالم إلاَّ ما يمثله المرسح والسينماتوغراف . يتكلمن لغة ويخلطنها بلغة أخرى ومعارفهن الفنية لا تتعدى توقيع بعض الألحان على البيانو وإنشاد قطع موسيقية ملتها الأسماع والنفوس . ولا نرى فصلا في

تربية المرأة ووجوب تعليمها وارتقائها إلاّ يكون من قلم الرجل ، إذ ليس بين النساء من تكتب . إذا كان هذا ما يدعى حركة نسائية فترى كيف الجمود؟

إن الاعتراض كالانتقاد من أسهل الأمور وفي الاعتراض كما في الانتقاد شيء من الحقيقة –في الغالب . فإذا قلنا إنَّ لا حركة نسائية في العالم إلاّ حركة الجلوس في السربون ورصد النجوم في أكبر مراصد الغرب ، والمطالبة بحقوق الانتخاب والتصويت في مجالس النواب ، إذا قلنا ذلك يئسنا من تحسين حالة المرأة الوطنية ورفع مستوى فكرها ومعارفها . إنَّ الذي ينظر إلى ما فوقه كثيراً دون تقدير مزاجه ووسطه والظروف المحيطة به واعتبار ما بينه وبين من يقصد التشبه به من الفروق الطبيعية والاجتماعية ، فذلك ليس بالمصلح ولا بالمصطلح بل هو فوضوى صرف .

أذكر أني قرأت منذ شهور قريبة مقالاً لإحدى كبيرات الكاتبات في اوربا بعنوان «النهضة النسائية في الصين» ، أثبتت فيها أنَّ أهم مظهر من مظاهر تلك النهضة التي تبشر بمستقبل باهر في نظرها هو أنَّ بعض البيوتات الأكثر محافظة على تقاليد الجدود فتحت أبوابها للمعلمات الغربيات اللائي دخلن لإلقاء الدروس بلغتهن الغربية على الفتيات الصينيات وتعليمهن علوم اوربا وفنونها وإطلاعهن على ما هو جار من جليل الحوادث في العالم .

فإذا جاز أنْ تسمي هذه نهضة نسائية جاز لنا نحن اللائى حزنا ذلك منذ سنوات تذكر أنْ ندّعي وجود مثل تلك الحركة بيننا . نعم إنَّ جلوس النساء في كراسي العلم والقضاء والنيابة مظهر من مظاهر نهضتهن المباركة . مظهر فقط ، ولكن جوهر تلك النهضة وأساسها قائم في الأعمال اليومية البسيطة ، في ما تتعلمه كل امرأة من درس جديد وتصل إليه من خبرة مفيدة وتتوق إليه من الرفعة الفكرية وتأتيه من الإصلاح في وسطها مهما كان حقيرا . الارتقاء ليس ككرة المدفع المندفعة بقوة بل هو حركة بطيئة يتتابع سيرها ولا يفطن إليها المرء إلاّ يوم تصبح شيئا بارزا كبيرا وتلك الحركة موجودة عندنا وليس بطئها بالشاهد على عدم وجودها .

أما كون الرجل موجد هذه الحركة ومؤيدها ومنشّطها فهو أمر لا ريب فيه وقد اعترفت به في مقالي السابق . لئن كان مجموعنا راتعاً في جهله ودعواه وهو بهما سعيد ، فإن الأفراد منا تعلموا وتثقفت عقولهم واطلعوا على ما جاء به الفكر الغربي من اختراع وما وصل إليه من ارتقاء . وقد وقفوا كذلك علي نهضة المرأة الغربية ولما أن قابلوا بينها وبين أختها الشرقية شعروا بالهوة الهائلة بينهما وتألموا لذلك الانحطاط البادية آثاره في بيوتهم ومجتمعاتهم وجميع أحوالهم . وقد أوجد ذلك الشعور قاسم أمين وكتبه وفصوله في تحرير المرأة وإصلاح حالها . ومازال موحياً جميع المقالات التي يعالج فيها ذلك الموضوع الخطير .

ميّ

المحروسة ،س ٤٤ ،ع ٣٠١٢ ،٣ فبراير ١٩١٩ . ص١

الحركة النسائية عندنا -٣-

«إياك وكل جليس
لا يفيدك علما ولا
تصيب منه خيرا»

.-حكماء العرب-

إذا اجتمع متعلم وجاهل لغرض من الأغراض فقد لا يشعران بما بينهما من الفروق لانشغالهما عن ذلك بأمر معين أو بموضوع يستفيد كلاهما من الاشتراك به . ولكن إذا أرغم الفريقان على السكنى معاً فلا يدوم الوفاق بينهما إلاّ بهبوط المتعلم إلى مستوى صاحبه الفكري ليكون التفاهم بينهما ميسورا . وفي ذلك من سعة الصدر ما فيه . على أن الهبوط المتتابع من الفريق الواحد يؤذى ممارسه على غير علم منه في حين أنه لا يأتي الفريق الآخر بأدنى فائدة . فإذا سلمنا مع الباحثين أنّ المرء ابن وسطه علمنا أهمية الوسط وعظمة تأثيره ووجوب انتخاب الأفراد المكونة وسطنا ما سمحت لنا الظروف والممكنات . وعلمنا بالتبع سر ميل المرء إلى معاشرة جماعة دون جماعة . فإذا اهتم المرء المتعلم عندنا بتعليم المرأة ورمى إلى تحريرها أدبيا واجتماعيا وخط لها طريقة الإصلاح والمعرفة متمنيا رفعها إلى درجته المعنوية فما هو إلاّ مهيىء لنفسه وسطا يلائم فكره العصري ومستوى تتوفر فيه أسباب التقدم له ولابنائه جميعا ، ونفساً تفهم رغباته ، وعقلاً يستطيع عبور حد الأنانية الضيق ليشاركه في أفراحه وأحزانه ومعارفه وآماله . اقرأ هذا البيان الموجع من رجل كتب أهم ما كتب لإصلاح حال المرأة الوطنية :

«لقد تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ولا يظهر اختلافهن

إلاّ في الملبس والحلى وكلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها . المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . مداركهما في مستوى واحد مع إننا نرى أنّ المرأة في الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة ، ذلك لأن الرجال في هذه الطبقات تربّت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معا .

«فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب يميل إلى الأشكال اللطيفة والإحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة . يسكت في أوقات ويتكلم في أخرى ويضحك في غيرها . له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكى مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس وفي كل فكرة تتولد في ذهنه وإحساس يؤثر على أعصابه يود أنْ يجد بجانبه إنساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه . فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها ولا يلبث أنْ يرى نفسه في عالم وحده وامرأته في عالم آخر ، إذ هي تعتبر أنّ الرجل ما خلق في هذه الدنيا إلاّ ليشتري لها الأقمشة الغالية والجواهر النفيسة .

«ومتى رأي الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل احتقرها واعتبرها من الاعدام التي لا أثر لها في شؤونه ، وهي متى رأته أهمل وأغضى ضاق صدرها وظنت أنه يظلمها وبكت سوء حظها ونبتت البغضاء في قلبها . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن أنّ الجحيم أشد نكالاً منها ، عيشة يرى كل منهما فيها أنّ صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة» .

وما قيل عن الزوجة يجوز قوله عن الأم والأخت والابنة . ولا تظن أنّ قاسم أمين وحده يتكلم بهذه اللهجة ، فالمتذمرون كثيرون وناشدو الإصلاح ما فتئوا يكتبون ويخطبون ، وكلهم يريد المرأة حرة راقية ذات شخصية قائمة بنفسها تفرح بنور الشمس وتتمتع بمسرات العلم مدركة من الحياة غير القشرة الظاهرة والمعاني التافهة .

ففي صحيفة «السفور» و «المنبر» فصول محمودة مشكورة وتكاد السفور لا تصدر عددا من أعدادها إلاّ وفيه مقال أو مقالان عن المرأة ومنها . وتنتهز الصحف الأخرى والمجلات بعض الفرص لحث المرأة على التعلم وتشجيعها وتأييد حركتها . على أني عثرت على أبحاث ثلاثة ترسم المرأة كما هي الآن وتعين الذاتية النسائية كما يود الرجل أنْ تكون . والأبحاث التي أعني هي كتاب نقله أميل افندي زيدان عن الفرنساوية ، وفصل في حالة المرأة الوطنية الحاضرة نشر في مجلة «السفنكس» الانجليزية ، وخطاب ألقاه داود افندي بركات[1] في حفلة مدرسة الامريكان للبنات بالاسكندرية : ففي الأول نرى موقف المرأة في العالم ورأي عالم اجتماعي في ملكاتها وصفاتها وعيوبها ، وفي الثاني تضيق دائرة الموضوع حتى تنحصر في المرأة المصرية والمتمصرة فنعلم كيف يرانا الأجانب ونقف على حكمهم علينا . وفي البحث الثالث نرى كيف يريد الرجل الراقي أنْ تكون المرأة وما هو الدور الذي يحدده لها في الهيئة الاجتماعية والعيلة والأمة .

وسنرى تحليل هذه الأبحاث في الاعداد الآتية .

ميّ

المحروسة . س ٤٤ ، ع٣٠١٣ ، ٤فبراير ١٩١٩ . ص١

١- داود بركات (١٨٦٧-١٩٣٣) ، صحفي لبناني ، ولد في كسروان بلبنان . هاجر إلى مصر عام ١٨٩٠ . حرر في عدة صحف شامية في مصر . تولى إدارة تحرير جريدة «الأهرام» بعد وفاة منشئها بشارة تقلا .

الحركة النسائية عندنا - ٤-
خلق المرأة

قضى خالد الأثر جورج[1] بك زيدان منذ سنوات خمس تقريبا ، ولو وقع «الهلال» بين يدي من جهل ذلك لظل واثقاً بأن منشيء «الهلال» حي وظن أنه أوقف نشر رواياته التاريخية حينا لغرض مقصود . إن محل زيدان الكبير قد ملأه نجله الفتى حتى لم يترك فيه قيراطا خاليا . وهذا أحسن ما يقال في وصف الكاتب الذي نقل إلى العربية كتاب «خلق المرأة» .

الكتاب مختصر مفيد يبحث في صفحات المرأة وعيوبها وكأنما مؤلفه مسيو ماريون ينسب كلاً من سجاياها الحسان إلى طبيعتها النسائية ، أما العيوب فيعترف بأنها نتيجة ما ذاقته ، من ضغط واستبعاد وقاسته من امتهان وألم . حجب الرجل عنها النور كل هذه القرون فضعف منها الجسم والعقل ونمت الأنانية وتطرفت قوة الشعور حتى كادت تكون داء . عقلها لا ينفذ إلى ما وراء الظواهر وذكاؤها «وثّاب» لا يصبر على التعمق والاستقصاء وإدراكها لا يحفل بغير الأشياء السطحية القريبة التي لها بها علاقة ماسة . أما حبها لذاتها فقد ربّى فيها عيوب الكذب والتضليل والخداع والتظاهر بعكس ما في نفسها لتهدئة غضب الرجل واكتساب رضاه ومحبته . وبعد تقرير ذلك يقول الكاتب إنّ كل هذه العيوب نتيجة تربيتها الماضية ويؤكد أنّ الرجل لو كان مكانها وقاسى ما قاست من امتهان الحقوق والعبودية لكان اليوم دونها منزلة معنوية .

لما قرأت هذا شعرت بأن مسيو ماريون رجل بلا أقل ريب . وأن هذه العيوب التي وجدها عالمنا هذا في المرأة حتى كادت تصبح جزءا من خلقها ، موجودة كلها في خلق الشعوب المستعبدة فمن ذكاء سطحي لا يتناول إلاّ القريب

المحسوس ، ومن تظاهر بما ليس في النفس للمخادعة والتضليل إلى ثرثرة دائمة كانت وستظل أبداً شعاراً للفكر الضيق والعقل القليل ، كل ذلك في أخلاق العبيد ، وكيف ينتظر غير ذلك من رجال لم يرضعوا إلاّ لبن العبودية؟ المرأة التي تتربى الشعوب على ركبتيها تطبع الشعوب بطابع نفسها فإذا كانت عبدة كان ذووها عبيدا محتقرين ، وإذا كانت سيدة حرة قامت أمتها عالية الجبهة بعيدة الغاية لأن الأم أنضجتها لحياة الحرية والفخار .

ومن العجيب أنَّ بعض الرجال يخافون أنْ تفقد المرأة عيوبها إذا نالت من العلم والتربية نصيبا . يخافون على ثرثرتها التي دفعت بهم إلى هجر منازلهم إلى البارات والحانات . يخافون أنْ تتسع مداركها فتوفر عليهم نصف المسؤولية وتساعدهم على قضاء حاجاتهم مخففة عنهم عبء الحياة . يخافون أنْ تفقد قوة الغش والمخادعة والتظاهر بالبكاء والخوف كأنما هم ينهلع منهم القلب إذا كانوا محبوبين حقيقة لذاتهم ولا يريدون إلاّ حبا ولطفا وخضوعا وطاعة بالتمثيل والتخييل . فلذلك يكرهون «النساء العالمات ذوات الشخصية البارزة» كأنما ليس للمخادع الكاذب من شخصية بارزة !

إن هذه الكلمة التي أراد بها مسيو ماريون التعبير عن شعور بعض المتقهقرين ، لا يقولها إلا فئة مخصوصة وهي التي تكره العالم ولو كان رجلا مثل مسيو ماريون نفسه . ومن النساء كثيرات يشعرن بمثل ذلك . اقرأ كتب قاسم أمين وأمثاله تعلم أي نوع منهن يكره العلماء ، أما أكثرية الرجال فإنها ينشرح منها الصدر وتطرب النفس لارتقاء المرأة ويرضيها باب المسابقة المفتوح ، وجهاد المرأة التي كانت بالأمس «شيطانا جميلا» و «حيوانا لطيفا» يخلق عند أكثر الرجال قوة جديدة للجهاد بينا هو يحبو الحياة معنى أنيسا ويسكب عليها البسمات فينسى الرجل الكد والتعب ولا يجد في الجهاد إلاّ سرورا . وإذا كان الرجل راقيا جدا قال ما قاله بالأمس جون ستيورت ملل[٢] وما يقوله اليوم لويد جورج[٣] والدكتور ولسن ، وما قاله مسيو ديولا فوا ومركز زوجته العلمي لا يقل عن مركزه ، ومسيو كورى الذى عرف الشرق والغرب تفوق زوجته . الرجل

الراقي يسعد بالمرأة العالمة كما سعد ادمون روستان بامرأته ومكانتها بين شاعرات المغرب تضاهي مكانته بين شعرائه ، وكما سعد هرشل[٤] الفلكي الشهير بشقيقته كارولينا هرشل[٥] التي كانت أكبر مساعد له في أبحاثه وأرصاده وقد اكتشفت مثله نجوما وأقمارا . ويعترف بفضلها اعتراف پول آدم[٦] بفضل والدته الشهيرة جوليبت آدم[٧] التي بثت فيه حب الأدب ورفعته إلى مركزه السامي بين كتّاب فرنسا . ثم إنَّ النوابغ بين الرجال قليلون جداً . فلماذا يخشى الرجال أنْ تملأ نوابغ النساء الشوارع والمنازل؟ والحقيقة أنَّ اعتراض الرجل ما زال مبهما ولو تعمده ناقد لهدمه حرفا حرفا .

وأعتقد أنَّ اختلافهما يزول مع الزمن يوم يرتقيان معا فيريان معاني الحياة متسعة أمامهما . أما الأناقة والكياسة التي يخاف الرجل أنْ تفقدهما المرأة في العلم والدرس فهو أمر مضحك . ترى هل يعدم المرء طبيعته إذا قل جهله؟ المرأة تظل امرأة دائما سواء كانت متعلمة أو جاهلة ، غير أنها إذا ارتقت ارتقت منها مظاهر الأنوثة ، وقد لاحظ ذلك كتّاب فرنسا في المؤتمر النسائي المنعقد في باريس قبيل الحزب فقالوا إنَّ أجمل أثواب ذلك الفصل وجدت في ذلك الاجتماع وأفخر البرانيط كانت على رأس الخطيبات اللائي تكلمن مطالبات بحقوق النساء ، وأكثرهن من المتزوجات المشهورات بمساعدة أزواجهن وإسعاد ذويهن . إن مسيو ماريون يقول بتعليم المرأة وتثقيفها وفتح جميع أبواب العمل أمامها لأن عندها لذلك الأهلية الكافية ، وقال إنَّ صفاتها وملكاتها الفكرية والعلمية تنمو بالاستعمال ولكنه أراد إقفال باب السياسة في وجهها مع أنه اعترف في فصل سابق بوجوب اشتراكها في التشريع وسن القوانين المنوطة بجنسها . يهمنا كثيرا أنْ ينال الجنس النسائي حظوة في عين مسيو ماريون وفي عين أترابه العلماء وأن تحوز المرأة اهتمامهم ورضاهم . ولكن ما العمل وقد شاءت الحياة غير ما يبتغون ! فقد فتحت الأمم مجالسها النيابية للنساء وما ارتفعت المرأة في أمة وتبوأت كراسي العلم والقضاء والحكم والنيابة إلاَّ ظهر في ذلك القطر تحسن محسوس في حالة الشعب وقل عدد الجرائم وبرزت آثار الإصلاح الذي لا تقدر

عله إلا أيد المرأة ، فما أسف شعب لارتقاء المرأة الذي حدا به إلى السعادة . وسوف تنال المرأة في المستقبل أكثر مما هي اليوم نائلة .

ولما نطبق كتاب «خلق المرأة» وما يتبعه من تاريخ الحركة النسائية في العالم نرى نفسنا بعيدين عن المرأة الشرقية الذليلة التي ما زالوا يريدونها «حيوانا لطيفا» ! فنرثى لحالها وحال الشرقيين النائمين الهابطين بهبوطها وبودي لو أصرخ قائلة : افيقوا ! افيقوا !

فشكراً لزيدان أفندي الذي أبرز هذا الكتاب إلى عالم الأدب وفيه صورة جليلة لموقف المرأة ذلك الموقف السامي الذي يشرفها ويشرف الرجل معها . وبه نرى طريق الإصلاح ومن فصوله ما يحث المرأة المكتفية بالزوزقة والزركشة والثرثرة على العمل ، إذ ينبئها بانقضاء وقت الجهل والظلام وبحلول زمن سعادتها بإسعاد الجنس البشري وتحريره بتحريرها .

ميّ

المحروسة . س ٤٤ ، ع ٣٠٣٠ ، ١٢ فبراير ١٩١٩ . ص١

١- المقصود جورجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) . صحفي وأديب ومؤرخ لبناني . ولد وتعلم ببيروت . نزح إلى مصر وأسس مجلة «الهلال» في القاهرة عام ١٨٩٢ ودار نشر تابعة لها . ألف عدة كتب في التاريخ والتمدن واللغة والأدب إلى جانب رواياته التاريخية .

٢- John Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣) . فيلسوف وعالم اقتصاد انجليزي . تعلم على يد والده . دافع عن الحرية الفردية وكان من أنصار حقوق المرأة المتحمسين . من أتباع المدرسة الاختيارية .

٢- Lloyd George (١٨٦٣-١٩٤٥) . سياسي بريطاني . رئيس حزب الأحرار . ترأس الوزارة (١٩١٦-١٩٢٢) ، ولعب دوراً هاماً في مفاوضات مؤتمر الصلح في فرساي عام ١٩١٩ .

٤- Frederick William Herschel (١٧٣٨-١٨٢٢) . فلكي ألماني . ولد في «هنوفر» في ألمانيا . كان في بداية أمره موسيقيا ثم قدم إلى انكلترا عام ١٧٥٧ وأخذ يهتم بالفلك . اكتشف «أورانوس» وتوابعه عام ١٨٨٧ .

٥- Caroline Herschel (١٧٥٠-١٨٤٨) . فلكية ألمانية . ولدت في «هنوفر» بألمانيا . لم تتلق دراسة منتظمة ولكنها تأثرت بأجواء البيت فيما يتعلق بعلم الفلك . سافرت إلى انجلترا حيث درست الانجليزية والغناء والرياضيات . اكتشفت ثمانية مذنبات إلى جانب منجزاتها المشتركة مع شقيقها فريدريك .

٦- Paul Adam (١٨٦٢-١٩٢٠) . روائي فرنسي . ولد وتعلم في باريس . تأثر في روايته بالمدرستين الطبيعية والرمزية .

٧- Juliette Adam (١٨٣٦-١٩٣٦) . روائية وصحفية فرنسية . أسست مجلة سياسية . كانت تدير صالوناً فكريا له تأثير فعال في الدوائر السياسية والأدبية .

تأبين باحثة البادية

سأكون «مخبر المحروسة» ولو مرة في حياتي ولكن «خبري» خليق بأن يوضع تحت عنوان «الحركة النسائية عندنا» لأن فيه واحداً من أهم مظاهر هذه «الحركة» ، عنيت تقدير المرأة للنبوغ وجعله في المكان السامي الذي يليق به في الأفكار والقلوب . ولقد رأيت في هذا الاحتفال من دلائل النجاح والرغبة في التقدم ما يبشرني بأن نهضة المرأة في مصر لن تكون «قشة تشتعل لحظة ثم تنطفىء» كما ينعت كثير من الأجانب بعض المشروعات المصرية . بل أعتقد أنّ للحركة النسائية هنا مستقبلا باهرا عائدا على هذا الوادي بالخير والهناء .

أقيمت حفلة ذكرى باحثة البادية صباح (الجمعة) أمس الأول في سرادق كبير نُصب في حديقة الجامعة المصرية . وقد وضع منبر الخطابة في صدر المكان وعلقت وراءه صورة الفقيدة العزيزة بزيها العربي الجميل وجلست إلى يمين المنبر حضرة رئيسة اللجنة حرم سعادة علي شعراوي باشا تحفُّ بها حرم المرحوم شقيقها عمر سلطان باشا وكريمتها ، وحرم خلوصي بك ، ومدام حبيب بك خياط ، وسائر أعضاء اللجنة والخطيبات وعلى صدورهن شارة سوداء يتوسطها زر أحمر رسم عليه العلم المصري والصليب المسيحي . وجلست أمام المنبر سلفة الباحثة حرم حامد باشا الباسل ، وكريمة زوجها عبد الستار بك الباسل والآنسة حنيفة حفنى بك ناصف شقيقتها التي لم تجف دموعها من أول الاجتماع إلى آخره . وقد غص السرادق الواسع بالسيدات من مسلمات وقبطيات وسوريات ، ولم ألتقط إلاّ اسماء قليلات كانت حاملاتها قريبات منى ، وهذه بعضها : حرم راتب باشا . حرم محمود شكري باشا وكيل وزارة الحقانية . حرم ادريس راغب باشا وكريمتها أمينة هانم . كريمة حسين

الدرملي باشا ، كريمة حسين واصف باشا ، كريمة حسين رمزي باشا حرم أمين واصف بك ، حرم حامد الشواربي بك ، حرم يوسف شريف بك ، حرم محمد ابراهيم بك ، حرم عبدالقادر الجمال بك ، حرم محمد حلمي بك ، حرم يوسف ثابت بك ، مدام الدكتور الصروف ، مدام جندي بك ابراهيم صاحب الوطن ، كريمة شي بك ، كريمة المرحوم عبد الرحمن بك سامي ، حرم احمد سعيد بك عمدة كفر الشيخ . الخ .الخ . وجمعية «المرأة الجديدة» و جمعية «فتاة مصر الفتاة» وعدد كبير من المعلمات والطبيبات طالبات المدرسة السنية . وكانت البرانيط كثيرة ولكن كيف الوصول إليهن لأعرفهن؟ وقد حيتني فتاة واحدة ببرنيطة هي الآنسة ليندا سركيس . وقدر أن عدد الحاضرات كان يزيد على الخمسمائة .

الخطيبات

وفي الساعة العاشرة تماماً بدأت الحفلة بتلاوة القرآن الكريم . وتكلمت حضرة الرئيسة حرم شعراوي باشا والسيدة فيكتوريا ابادير والسيدة نور حسن وكيلة ناظرة مدرسة المعلمات في طنطا و السيدة نور الهدى ناظرة مدرسة الجيزة . والآنسة زينب محجوب بالنيابة عن نساء الفيوم . وقرأت الآنسة زينب فؤاد خطبة حرم الشيخ محمد أحمد . وتلتها حرم احمد بك شاكر وسكرتيرة جمعية «المرأة الجديدة» فالسيدة زينب لبيب والسيدة سنية احمد والسيدة فاطمة سالم حكيمة المدرسة السنية . وألقت الآنسة زينب محجوب قصيدة أمام خليل حصاب وكانت مسك الختام قصيدة مؤثرة للآنسة نبوية موسى[1] المعروفة في عالم الأدب وقد صرفت الأعوام الطوال في تهذيب المرأة وتعليمها .

كثير من هذه الاسماء مجهول لدى القارىء ولكني أؤكد له أنَّ جميع هؤلاء السيدات والأوانس أجدن كل الإجادة معنى ولفظا وإلقاء وهو أمر مدهش إذا ذكرنا أنَّ منهن من يعتلين منبر الخطابة لأول مرة .آمنت اليوم بقول القائل أنَّ المصري خطيب من طبعه .

ولو حضر الاحتفال بعض من يستخفون بذكر المرأة لأدخلوا في حكمهم

تعديلات مهمة . ومن جهة أخرى لو حضره محمد بك فريد وجدى[٢] لما صرخ صرخاته القوية بعدم تحرير المرأة وبمنع التعليم عنها إلاّ ما كان ضروريا لحياتها الأنثوية الصغيرة ، خوفاً عليها من أنْ تسترجل . لو حضر لرأى أنه بينا هي تقرض الشعر وتنمق الألفاظ وتحسن الإلقاء إذا بها امرأة صرفة أي أنَّ بيانها يظل مملوءا قلبا وعواطف .

نعم كل واحدة من الخطيبات كانت تتكلم بقلبها وعواطفها ، وكم من يد نحيفة بين الحاضرات رفعت منديلها المخرم إلى عينيها لتمسح دموعها . لقد حضرتُ احتفالات كثيرة لحضرات الرجال ولم يكن احتفال الأمس أقل منها نظاما وترتيبا . والفضل في ذلك لحضرة سكرتيرة اللجنة السيدة بلسم عبد الملك[٣] . فقد كنا نحن أعضاء اللجنة كذلك بالاسم فقط ، ولم نساعدها إلاَّ بإكثار الاقتراحات عليها ! وقد ألقي كل التعب والكد والجرى والمراسلات على عاتقها ، ولقد كللت أعمالها بالنجاح التام فاستحقت الشكر الجزيل وأرضت روح صديقتها العزيزة باحثة البادية .

أبيات خليل مطران: حكايتها

خرجت قبل الاحتفال بيوم عند المساء لقضاء أمر يتعلق بالحفلة فما خطوت في الشارع خطوات قليلات إلاّ وقابلني خليل بك مطران ، وبعد كلمات السلام سألني عما يشغلني هذه الأيام فأجبت أنَّ الاجتماع الذي نعقده في الغد لتأبين الباحثة شاغلي الأكبر . ثم قلت : «ليت لنا بعض أبياتك نتلوها في الحفلة –من تلك الأبيات القليلة العدد المرصوصة الألفاظ والمعاني» ! ولما ودعني ترك لي وعداً بأن الأبيات تصلني في الغد ، سرت مسرورة ولكني لم ألبث أنْ أسفت لأني أعلم أنَّ من كان كخليل بك شاعرا في دمه لا يقترح عليه ولا تسخّر شاعريته حتى ولا لموضوع جليل . إنه لا يجود إلاَّ حين يكون «هو» فيرسل زفراته نشيدا وألفاظه حكَماً . الشاعر الذي يسيطر ببيانه على نفوس الآخرين فيعجنها ويكيفها كما يشاء يظل عبد نفسه في حركاتها وتأثرها ، وإلا فلا يكون شاعرا عظيما .

فكيف يرغم على لبس حالة نفسية لا يريدها؟

أزف وقت الاجتماع ولم تجيء الأبيات فقلت «حسناً فعل !» ولكني لما عدت إلى البيت دفع إليّ البواب بالأبيات الذهبية المنشورة في محروسة اليوم فنسيت أسفى وقلت «لو لم يكن اقتراحي إلاّ سببا لنظم هذا البيت لكفى» :

إذا مـا قـرأنـا لهـا آيـة حسبنا الحـروف بهـا شاديـة

اقتراحات حرم شعراوي باشا

هي أول من أفتكر بتأبين الباحثة في العام الماضي كما أنها كانت دائما في مقدمة السائرات بالحركة النسائية إلى الامام . وقد افتتحت حفلة الأمس بكلمة عصماء وختمتها باقتراحات ثلاث ذكرتها الآنسة نبوية موسى :

الاقتراح الأول : تكبير صورة الباحثة بالزيت وعلى من شاءت من السيدات الاشتراك بهذا العمل أنْ ترسل ما تتبرع به إلى حضره الرئيسة . ولقد سئل عبد الستار بك الباسل في أمر هذه الصورة فلم يعترض على وضعها في الجامعة المصرية لأنه كبير العقل والقلب .

الاقتراح الثاني : أنْ نخابر إدارة الجامعة في وضع الصورة المذكورة في قاعة يطلق عليها اسم «قاعة باحثة البادية» ومقابل ذلك تتبرع حرم سعادة شعراوي باشا للجامعة بمساعدة سنوية قدرها ١٥٠ جنيها .

الاقتراح الثالث : أنْ يرسل تلغراف إلى والدة الفقيدة الكريمة ، ومثله إلى صاحب العزة قرينها للتعبير عن عواطف النساء المجتمعات في ذلك الاحتفال . وقد صودق على كل من هذه الاقتراحات ونطقت الألسن على هذه السيدة النبيلة . وأقول يا ليت أسيادنا الأغنياء يتمثلون بحرم شعراوي باشا من هذا القبيل ، بالثناء ، إذن لما أمست جمرات مشروعاتنا رمادا ولما صارت تضرب في إهمالنا وتهاوننا الأمثال !

انتهاء الحفلة

وفي الختام نهضت إحدى صديقات الفقيدة وفاهت بكلمة شكر عن الآنسة حنيفة حفني ناصف التي لم تمكنها دموعها من الكلام وانتهت هذه الحفلة الفخمة كما ابتدأت بآي الذكر الحكيم . لقد أشرفت الرئيسة على هذه الحفلة وهي في دور التكوين وسنت خطة نظامها وقرأت كل خطبة وكل قصيدة باعتناء لتكون واثقة مما يقال ، فجاءت على أتم ما يكون . وكأني بروح الباحثة تبسم اليوم وتشكر إذا كانت الأرواح ممن يشكرن باسمات ، وقد حملت المرأة المصرية من هذا الاجتماع عاطفة جديدة بل عاطفتين جديدتين . العاطفة الأولى أنَّ لها ملاكاً يهيمن عليها من عالم الأرواح وهو باحثة البادية نابغة النساء . والعاطفة الأخرى أنَّ لها قائدة قادرة تسير بها في طريق التقدم والنور وهي حرم شعراوي باشا التي أرجو أنْ تمكنها الأحوال من نفع بنات جنسها بمثلها وذكائها فتؤدي لقومها أجلَّ الخدمات لأن المرأة تحتاج جد الحاجة إلى من يقودها ، ومَنْ أقدر على ذلك من تلك التي كتبت الحياة على جبهتها كما وضعت الطبيعة في خلقها نبالة القائد وهدوء المفكر . والآن بقي عندي سؤال تتفرع منه أسئلة هل يعرف المصريون قيمة المرأة المصرية وكل ما في قلبها من كنوز الحب وفي فكرها من ذكاء واستعداد للتقدم؟ أتمنى أن تتمكن هذه من إبراز كل قواها الشريفة وأن يسمو الرجل حتى يصير أهلاً لفهمها وتقديرها كما تستحق أنْ تكون .

ميّ

المحروسة . س ٤٤ ، ع ٣٢٢٧ ، ٣ نوفمبر ١٩١٩ . ص١ (نشرت تحت العنوان العام : الحركة النسائية عندنا-٣-)

١- نبوية موسى (١٨٩٠-١٩٥١) . مربية مصرية . تخرجت في «المدرسة السنية» حائزة على شهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٠٧ . عملت مدرسة فمديرة في مدارس وزارة المعارف . فصلت من وزارة المعارف عام ١٩٢٦ إثر خلاف مع وزير المعارف ، فأنشأت مدرسة خاصة . أصدرت مجلة «ترقية الفتاة» (١٩٢٣) . لها «المرأة والعمل» (١٩٢٣) .

٢- محمد فريد وجدي (١٨٧٨-١٩٥٤) . أديب وصحفي مصري . ولد وتعلم في الاسكندرية . انتقل إلى القاهرة حيث أصدر جريدة «الدستور» عام ١٩٠٧ . تولى تحرير مجلة «الأزهر» عام ١٩٣٣ . نشر «دائرة معارف القرن العشرين» في عشرة مجلدات .

٣- بلسم عبد الملك (ت . ١٩٤١) : صحفية قبطية مصرية . أنشأت في القاهرة مجلة «مجلة المرأة المصرية» (١٩٢٠-١٩٣٩) .

من الآنسة ميّ
إلى الدكتور نظمي بك

سيدي

حياة البشرية بأجمعها تبسم في بسمة الطفل ، وأنفاسه العطرة تبعث القوة إلى محيطه ، وفي نور عينيه تنشر صحيفة أماني الإنسانية ووعودها ، وكأن نضرته وثيقة تضمن للذراري عيشا رغيدا وعمرا طويلا .

الكهولة والشيخوخة يوم الأمة وأمسها القريب ، فلئن ألقت مظاهر الانحطاط عندهما في نفس الرائي عاطفة مبهمة يطفو عليها الأسف وبعض الاشمئزاز فإن مشهد الطفولة العليلة يوهم بأن الرجاء في ضلال والانتظار في خذلان ، كأن المستقبل قد عزم على إخلاف عهوده مع الأسرة والأمة جميعاً . الطفل رمز المستقبل وصورته ، وكل طفل ولي عهد من نوعه لأنه إنما به تمتد[1] عمر الأسرة والأمة . فكيف تعقد الآمال على الأطفال إذا سمح للمرض أنْ يفتك بجانب منهم ويترك الجانب الآخر فريسة الضعف والتقهقر بل كيف تنشد الرقي شعوبٌ ، أطفالها سقيمة خائرة؟ وهل للقوة والإرادة والنشاط والعزم وحب العمل مكان في جسم تراخت منه الأوصال يملأ صاحبه النهار شكايةً والليل أنينا؟

آه لو أتقنت الأمهات تربية جيل واحد فحسب لخفت وطأة الوراثة . ولا أعني الوراثة القريبة التي كثيرا ما تتملص منها الذرية المباشرة بفعل المقاومة والوقاية ، وإنما أعنى الوراثة المتقطعة ، أو الرجعية ، ذات المباغتات المدهشة في حياة الأفراد والجماعات ، ولو أتقنت الأمهات تربية جيل واحد لانحل نصف المشاكل الاجتماعية ولأصبح التهذيب الأخلاقي ميسورا للجميع . لأن في فن

حفظ الصحة تكاد تنحصر جميع الوصايا الأخلاقية لمن فهم من الفن لبه ، ولأن الطبيعة قد أحكمت الرابطة بين النفس والجسد فصار تفاعلهما الواحد في الآخر أمراً مقضياً .

يذهلني أنَّ المرأة تتعلم كل فن قبل مزاولته وتهمل الفن الجوهري الأكبر ، من وقاية الأطفال وتهذيبهم وأسفاه ! إنها لا تتعلمه إلاَّ بأولادها فتشتري علمها بأغلى ثمن ! وقد لا تملك ناصية الاختبار إلاَّ بعد فوات الوقت إذ يكون الموت قد أخذ الصغير أو يكون المرض قد نفث سمه في أعضائه وهيأ له حياة تعسة . وطالما بحثت في سري عن وسيلة لتعليم الأمهات في الوقت المناسب وها أني أرى في سلسلة كتبك عن الأطفال وسيلة حسنة نافعة . فلا عجب إذا عكفت على دراسة هذه الكتب المنسقة المكتوبة بأوضح عبارة وأسهل أسلوب كل أم مصرية ومتمصرة . ولقد حق على الرجل الذي أعطي علم الطبيب ومهارة الخبير ، وبراعة الكاتب ، وغيرة الوطني ، وإقدام المصلح -لقد حق علي هذا الرجل الذي يدعى «الدكتور نظمي» أن يعتني بالطفل المصري عناية مثلي فيضع المشروعات الخيرية لرعايته إذا كان فقيراً ، وينشىء لوقايته وتدبير صحته هذه الكتب الجميلة القيمة .

فإن أنا شكرت لك تفضلك بإتحافي بكتبك : «تربية الأطفال ، تمريض الأطفال وأمراض الأطفال» شكراً خصوصياً ، فإن لدي ما يفضل هذا وهو الشكر العمومي الذي تستحقه خدماتك الجليلة العديدة . وهذا الشكر أسديه الساعة بصفتي فرداً من جماعة وجزءاً من كل .

ميّ

المحروسة . س ٤٧ ، ع ٣٦٠٤ ، ٧مارس ١٩٢١ . ص٢

١- المقصود يمتد .

إلى حفيد عبد القادر

من الآنسة مي*

(المحروسة) جاء في جريدة البرق البيروتية تحت هذا العنوان ما يلي :

اطلعنا على كتاب للآنسة (مي) بعثت به إلى سمو الأمير سعيد عبد القار فرأينا فيه قطعة نفيسة من الجمال ولا غرو وللآنسة مي في انشائها ما يصح أنْ يكون مثالاً عاليا للأدب العربي وهذا هو الكتاب :

القاهرة في ٢ يوليو سنة ١٩٢١

يا سمو الأمير

اسم الأمير عبد القادر الجزائري[1] اسم نتلقنه نحن أبناء سوريا أطفالاً مع الكلمات الأولى ونلثغ في لفظه متمهلين كما تداعب شفتا الرضيع حروف الاسماء المحبوبة ، فيمثل ذكره لمخيلتنا جناحا كبيرا يخيم علينا بألوان قوس قزح . ثم نشبّ وتتسع المدارك منا باتساع المعرفة فتبدو لنا فروق الجنس والعقيدة والدَرجة القائمة بين البشر . وإذ يتصل بنا أنَّ الأمير عبد القادر هو «حامي النصارى» تتضح عواطفنا الموجهة إليه ونجلّه لأنه أجار جماعة وأبعد عنها الأذى ، ويصبح جناح ذكره مخيما بألوان حارة من الشعر والخيال تلازم عادة صور النخوة والشهامة . ثم نجتاز من الحياة أعواماً أخرى نعرف خلالها أن التاريخ الحقيقي هو غير التواريخ المقبولة وأن الأسباب المسلّم بها في الثورات والقلاقل هي غير السبب الجوهري ، ونعلم أن الفروق بين بني الإنسان سطحية على عمقها وأن الأعاظم منهم يقطنون عالماً سما فوق الطوائف والأحزاب والتعصبات والدرجات -عالم الجامعة الإنسانية الشاملة .

يومذاك نقدر الأمير عبد القادر حق قدره ، ونُجلّ خلقه ، ونرفعه على عرش

معنوي خالد هيىء له . ليس لأنه حمى النصارى فعزز برعايته كرامة الإسلام -وما الإسلام والمسيحية سوى أخوة رضية في حضن الرحمن -بل لأنه بطل من أبطال تلك الجامعة الإسلامية العليا . إذ ذاك يزيد نجاح ذكره انبساطا وروعة لأنه تلون بألوان المجد والفخار . فيفعل ما تفعله الأمم بأبطالها أي أننا نحول اسمه إلى أبسطه تجرداً من الألقاب ويغدو في عرفنا «الجزائري الكبير» .

ولا أخالك لائمي ، يا صاحب السمو ، إنْ أنا صرحت بأن أول ما وقع عليه نظري من رسالتك هو ذلك الاسم العظيم الذي تلا توقيعك . ولا أراك إلاّ باسما إنْ أنا اعترفت بأني ابتسمت له . ثم قرأت سطورك الجلية فوجدتها -ما ينتظر أن تكون- مصداقا لذلك المبدأ العلمي القائل إنَّ الموتى يحيون في ذراريهم بمميزاتهم وشمائلهم الباهرات . وظهرت لي كلمات تشجيعك آيات كرم ملونة هي الأخرى بألوان قوس قزح وبألوان الشعر والخيال وبألوان المجد والفخار جميعاً . وكل ما يجول في نفسي من شكر يتجمع بداهة في هذا الهتاف الواحد : فليحيا الجزائري الكبير كبيراً بأحفاده كما هو كبير بفعاله !

ميّ

المحروسة . س ٤٧ ، ع ٣٧٠٢ ، ٥أغسطس ١٩٢٠ . ص١

* أعيد نشر نفس الخطاب لمناسبة زيارة الأمير سعيد عبد القادر لمصر في «المحروسة» ، س٤٩ ، ع ٣٩٥٤ ، ٤ سبتمبر١٩٢٣ . ص٣

١- عبد القادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٣) . سياسي جزائري . ولد في إحدى قرى منطقة وهران بالجزائر . تعلم في وهران . قاوم الاستعمار الفرنسي في الجزائر . بعد استسلامه عام ١٨٤٧ نفي إلى طولون في فرنسا . استقر في نهاية المطاف في دمشق حيث توفي .

جامعة سيدات الشهباء

نشرت جريدة الأمة الحلبية تحت هذا العنوان ما يأتي :

. . .قد وقفت على فكرة انشاء جامعة لسيدات حلب الكرائم فاستحسنتها أيما استحسان ، كل ما أسمع عن إخواتنا الحلبيات أنهن جميلات عذبات ولقد أنست بلقاء بعضهن فتحققت بالخبر ما أوصله إليّ الخبر ولكني أعترف بأني على جهل تام من حيث حالتهن الفكرية والمعنوية ، ولا بد أنْ تقع مسؤولية جهلي هذا على أديبات حلب اللائي لا يوقفننا على تفاصيل الحركة النسوية في ربوعكم . لا أدري هل في الشهباء جمعيات خيرية وأدبية للنساء ، ولكن كيف كانت الحال ، فإن تكوين جامعة السيدات حسن العائدة جليل الفائدة ولا أخال الراقيات من سيدات حلب إلاّ مباشرات بانشاء تلك الجامعة ذات الغاية النبيلة الثلاثية لأنها وطنية واجتماعية وأخلاقية جميعا ولا أرى (جامعة السيدات) في بيروت إلاّ مرحبة بشقيقتها وسميتها الحلبية .

زعم سقراط الفيلسوف اليوناني -الذي دعي أبا الأخلاق لأنه أوّل من تكلم عن الأخلاق في بلاد اليونان -أن الخطيئة هي الجهل بعينه وأن لا خطيئة مع المعرفة ولئن شوه هذه النظرية بعض الخطأ فهي ككل نظرية سواها على جانب من الصواب . كثيرون يعلمون أنّ ما يفعلونه شر ولهم من ينبههم ويرشدهم ولكنهم لا يرتدعون ويظلون يأتون العمل السيء بقوة العادة الفردية أو بقوة الوراثة المتغلبة على الإرادة أو بضعف المقاومة في النفس . ولكن من الناس من يود أنْ يعلم ماذا عليه أنْ يعمل وأي سبيل يسلك وإلى أية وجهة يقصد -فلا يستطيع أنْ يعلم . يود أنْ يجد ناصحا حكيما يدله إلى طريقه واستثمار ما لديه من الاستعدادات والممكنات فلا يجد . يود أنْ يهتدي إلى مؤدب يثقفه ولو بقسوة

وعنف فلا يهتدي ويبقى ألعوبة تتقاذفة أمواج الأحوال حتى «يتعلم» مع الزمن ولكنه يتعلم بعد فوات الفرصة فيخسر المجتمع ما كان يناله من خير على يده لو سار على هدى منذ مطلع السبيل ذاك هو الجاهل المرغم ، ذاك هو الحائر الشقي ، ذاك هو المظلوم في الحياة ، ذاك هو الضحية .

وهذا النوع موجود بين النساء أكثر منه بين الرجال تقولون إنه ليس على المرأة إلاّ أنْ تطيع والديها فتاةً وتمتثل لقرينها زوجةً لتسير ظافرة لا عاثرة .

كلام في كلام يا سادتي وأنتم الوالدون والإخوة والأزواج واثقون من أنَّ هذا كلام . . . ليس غير لأنكم تعلمون كم من فتاة تشقى بين حيرتها الشخصية وتخبط عائلها وكم من زوجة تتفطر بين ترددها وانحطاط زوجها وكم من أخت يذلها ذكر أخيها الجبان . وأولئك يأمرون ويتجبرون ويتبخترون ويهددون ويتوعدون وهم لا يستحقون أكثر من الإعراض وعدم المبالاة ولئن كثر في السجن الأبرياء المظلومون فكم من حر يملأ ظله أرصفة الشوارع وهو حقيق بأن يلقى في أعمق زوايا السجون . عفوا أيها السادة الرجال لا أقصد التحامل وكيف لا أنصفكم وأنا أعرف عيوب المرأة الشريرة . إذا كانت المرأة خبيثة الأخلاق عوجاء الحكم ، بتراء الإدراك فهي لا تهدم البيت حجراً حجراً فحسب ولكن واأسفاه إنها تبيد قواه المعنوية وتفني فيه الصفات والملكات التي هي عز الأسرة وفخرها -هذا إذا لم تقم في وجهها إرادة قوية ويد حازمة .

إنما عنيت أنَّ المرأة أحوج إلى الخضوع والانقياد من الرجل ويكثر عذابها في مجاهدتها ضد نفسها وذويها وضد المجتمع في آن واحد ، ذلك المجتمع الذي بنى أحكامه على الظواهر جاهلاً الدخائل المؤلمة المضنية . لذلك أقول إنَّ جمعيةً أو جامعةً تجد فيها كل امرأة وكل فتاة على اختلاف الملل والنِّحَل تجد فيها تعزية وسلوى ومثلاً طيباً ، فهي خير مدرسة ، هي في الظاهر ناد اجتماعي لكنها خلت من عيوب الأندية ، وفيها فائدة المدرسة وليس فيها منهاً العنف . هناك تتعلم المرأة لاعبةً على نوع ما ، تتعلم فن الحديث المأنوس خاليا من النميمة والاغتياب فتلطف عواطفها وترتقي أفكارها ، هناك تتعلم احترام حرية

جميع الأديان وجميع المذاهب ، هناك تحتك بمن يعرفن ما لا تعرفه وتشعر بقوة الرابطة النسوية فتدرك أهمية مكانتها في العائلة والأمة والإنسانية جميعاً .

ما أحب أخبار «جامعة السيدات» البيروتية إليّ وإلى كل من يهمه رقي المرأة وما أشد سروري بمرأى روحها تسري في عواصم سوريا جميعاً وما أحرى الشهباء بالأسبقية وهي التي أنجبت من نحن ، طفلات الأقلام في هذه الأيام ، حفيداتها بالروح -عنيت السيدة مريانا مراش [1] ولست بقائلة إنه على كل سيدة أن تكون كاتبة شاعرة خطيبة . . . لئن تحتم أن يكون للنساء أقلام وأصوات منهن توصل إلى العالم أخبارهن ، فحسب المرأة شرفاً أن تكون زوجة صالحة وأمّاً صالحة ، حسبها شهادة من زوجها وولدها إذا ذكرها قال «هي سعادة حياتي» ولكن كما أنّ لكل جيش راية يلتف حولها وهي شعار فخاره كذلك يحسن أن تلتف كل جماعة حول اسم عظيم .

ميّ

المحروسة . س ٤٧ ،ع ٣٧٦٠ ، ٣١ أكتوبر ١٩٢٠ . ص ١

١- مريانا مراش (١٨٤٨-١٩١٩) . كاتبة وشاعرة سورية . ولدت في حلب بسوريا . درست العربية على أبيها وأخيها والفرنسية في مدرسة «راهبات ماريوسف» . سافرت إلى أوروبا واطلعت على الحياة هناك . أقامت صالونا أدبياً في حلب . لها ديوان شعر بعنوان «بنت فكر» (١٨٩٣) .

خطاب الآنسة «ميّ»
في الاحتفال بشرقي عظيم

يرى القراء في غير هذا المكان وصفاً للاحتفال الذي أقامه حضرة الفاضل الياس افندي زيادة[1] صاحب هذه الجريدة تكريما للأستاذ الجليل جبر ضومط[2] وقد ألقيت فيه الخطب العديدة ، ويسرنا أن تحظي المحروسة بنشر خطاب الآنسة «مي» سيدة كاتبات ومفكرات هذا العصر ، وها هو ذلك الخطاب البليغ الجليل :

أيها السادة : عندما عهد إليَّ والداى أن أقوم أمامكم بالواجب العذب واجب الترحيب والامتنان كنت أقرأ لماكس نورداو[3] كتاباً ورد فيه رأي من الآراء المعروفة لهذا الكاتب . وهو قوله ، إنَّ الشكر الذي يزعمونه إقرارا بجميل حاضر أو سابق إنما الغرض الصميم منه اقتناص جميل جديد . فأغرتني هذه المغالطة الشيقة ككثير من مغالطات نورداو وطفقت أقلبها على وجوه شتي لأتبين الغاية التي أرمي إليها علي غير معرفة مني - تلك الغاية المضمرة التي ما زلنا نطلبها بعد أن فاز منزلنا بتشريفكم له وضمكم ساعة بين جدرانه السعيدة بحضوركم .

أما الغاية الصريحة التي نسدي الشكر لأجلها فهي تفضلكم بتلبية الدعوة وحضور هذا الاجتماع الذي عقد باسم العلامة جبر افندي ضومط . وإنما أردنا بهذا الاجتماع أن نزجي إلى الأستاذ تحية يشترك فيها أصدقاؤه الذين نعموا بعطفه فقدروا ما فطر عليه من الصلاح والصدق والإخلاص . تحية يشترك فيها تلاميذه العديدون المنتشرون في القطر المصري - فضلاً عن الأقطار الأخرى - اعترافاً بما لديه من يد في تخريجهم على حب اللغة العربية وإتقانها ، على حب العلم وخدمته ، على حب التخلق برضي الأخلاق وهو لهم في ذلك خير قدوة . تحية يشترك فيها كذلك أهل العلم وحملة الأقلام الذين عرفوه في كتبه اللغوية القيمة

أو فيما سمعوا عنه من حديث فضله فجاءوا يثبتون أنه بينما تتناحر الأسر باحتكاك الحاجات وتتنابذ الأنساب بتنافر المطالب ، يظلون هم أهل العلم والقلم عائلة واحدة سامية دواماً على استعداد لتوحيد الكلمة في كل ما هو تحبيذ للفضل ، تقدير للكفاءة وشحذ للعزائم ، وفي كل ما من شأنه أن يبعث في النفوس نورا وحياة ونبلاً .

بيد أنَّ لديّ أمراً آخر أود أن أفضى به وقد اكتشفته عند الأستاذ ضومط خلال الصيف الماضي . كان ذلك على قمة من قمم لبنان الشماء المشرفة على استدارة الشواهق المتناسقة ، على الآكام والهضاب المترامية نحو الساحل ، على البحر البعيد الفسيح وقد امتزج أفقه الأقصى بسحب الغروب الملتهبة . كنا هناك تحت خيمة النزل في حلقة من الزائرين . وأمام مشهد المساء البنفسجي ، أمام مشهد الشفق الرائع ، تعلمون أيها السادة ما يخالج النفس من توق عميق وصبابة إلى أزمنة غير معروفة ، إلى أمكنة غير محدودة ، إلى مدركات غير مدركة ، يحاول المرء أن يفسرها بحاجاته الوجيعة ويحاول الإحاطة بها بممكناته الإنسانية الميسورة . وإنما هو يحاول ذلك ليتسنى له أن يرجو ، يحاول ذلك ليتسنى له أن يستخدم في سبيل أمر ما ، ما أوتي من ذكاء ونشاط وقوة ، عندئذ وتحت هذا التأثير دوت نفسى بأسئلة تضطرب لها اليوم الشبيبة الشرقية اليقظى ، وقد ينطوي كثير منها تحت هذا السؤال الواحد : أين وطني؟

أين وطني يا من تقدمتموني في حياة الأمة فأناخ عليكم الدهر بكلكه فما تركتم لي غير ميراث موزّع الأجزاء مقطّع الأوصال؟ أين وطني أيها المتقاذفون بالحجج والأدلة ، المتمادون في التأويل والتحريف حتى نسيتم في غضبكم الغرض الذي لأجله تغضبون؟ أين وطني أيها الجيل السائر أمامي ، الطالب مني الخضوع والامتثال . ولكنك لا تستطيع أن تنتحي لي في الحياة سبيلاً ، وها أنا بين ترددك وترددي في عناء وشقاء؟ أين وطني أيتها الأرض التى هي وطني ، أين وطني؟

وهنا لفتني عن سؤالي المتكرر مناقشة دارت حولي بين اثنين من الزائرين . مناقشة هادئة حصيفة ولكنها جادة جليلة الشأن . موضوعها يقظة الشرق وكيفية

تنظيم الرابطة المعنوية بين أهل الشرق . فأحد الرجلين يقول بالعنصرية ، والآخر يدعو إلى القومية - العربية . المناظر الواحد يقول : إنما أريد للشرق مناعة وكرامة ، وإن لم يكن لذلك من سبيل سوى العنصرية - أي تغلب عنصر على عنصر أو عناصر - فحي على العنصرية . وإني لملّم بمواهب ابناء الشرق وبعظمة كرمهم الموروث لأكون واثقاً بإنصافهم في إعطاء كل ذي حق حقه . فيعترض المُناظر الآخر قائلا : كلا ! لقد أصبح الشرق أشرف من أن يتسول أهله الإنصاف والحرية . وإذا شئنا أنْ نكون من أبناء الحياة فعلينا بالقومية بما تنطوي عليه من عوامل اللغة والاقتصاد والعلم والعطف والتفاهم ، الخ . . فنتبادل ضمنها الحقوق والواجبات والحرية والمساواة ، لا تبرعاً ولا تسولاً ، بل الحق الطبيعي المعطى لكل ذي مقدرة ، فبالقومية وحدها نقيم صرح الشرق الجديد !

قد يظنّ لأول وهلة أنّ الداعي إلى القومية أو التطور كما نقول بلغة هذا العصر - هو من الأقلية في بلادنا ، بينما المدافع عن العنصرية أو المحافظ - كما نقول بلغة هذا العصر أيضا - هو من الأكثرية . ولكن الواقع هو أنّ ذلك « المتطور» هو رجل من أكبر البيوتات الإسلامية في سوريا ، تلك البيوتات التي كانت الزعامة دواما في يدها . أما المدافع عن العنصرية أو« المحافظ » فكان هذا الأستاذ ضومط المسيحي الذي ترون .

لذلك أضيف إلى تلك التحية المشتركة تحية أخرى : إني أحيي فيه الرجل الشرقي الصميم الذي يحب بلاده لا لأجل ما يجني منها ويبتغي ، بل يحبها لأنها هي هي ، شأن المحب العنيد الذي يستوي عنده الغنم والتضحية والعذاب والنعيم .

قد تقولون أيها السادة ، إنّ ماكس نورداو صدق هذه المرة لو أنا سألتكم أن تزيدوا اهتماما بموضوع القومية الشرقية . وإني لأرضى - أرضى أن يقال إنّ وراء شكر أسديه إنما أدعو إلى الجمع بين الرأيين اللذين لا غنى لنا عنهما رأى المحافظة على كل ما عندنا من موروث نبيل ورأي احتضان كل مكتسب نافع . وتلك السنة الخليقة في جميع الموجودات إذ لا تتم للكون غايته من جميع

أجزائه إلاّ بتتابع النبذ والمحافظة والتخلي والاكتساب . إني لأغتبط أن يترك فيكم هذا الاجتماع ولو بعض الرغبة في أن يتناول كلٌّ منكم هذا الموضوع بعطفه ، ويمحصه بمقدرته ، وينشره بنفوذه فيكون عاملا في سبيل غاية عظيمة . وإنما السعي لغاية عظيمة غاية في ذاته ورفعة ونوال .

أما أنت أيها الأستاذ المسافر فغداً عندما تجتاز الصحراء تمر بالعريش الذي يرونه الحد الفاصل بين مصر وسوريا فتراه أنت الشرقى الصميم يدا خضراء يد السلام والرجاء الجامعة بين القطرين رغم أهوال المفاوز وقحط الصحراء . وحسبك يا سيدي فخرا وفضلا أنْ تواصل ما قمت به إلى الآن وهو نشر اللغة الجميلة لغة القرآن ، وتأييد العلم والعرفان ، والدعوة إلى الثقة والتسامح ومحبة الأوطان !

المحروسة . س ٤٩ ، ع ٣٨٣٠ , ١٤ أبريل ١٩٢٣ . ص٣

١- الياس زيادة (١٨٥٨- ٩٢٩) . والد مي ، صحفي لبناني . ولد ونشأ في قرية «شحتول» بكسروان في لبنان . تعلم في مدرسة الحكمة في بيروت . قدم إلى الناصرة مدرسا في مدارسها عام ١٨٧٩ ، وهناك تزوج بفتاة فلسطينية (نزهة معّمر) . نزح مع عائلته إلى القاهرة عام ١٩٠٧ وعمل في الصحافة . امتلك وحرر جريدة « المحروسة» من عام ١٩٠٩ وحتى وفاته في القاهرة .

٢- جبر ضومط (١٨٥٩- ١٩٢٩) . أديب سوري . ولد في « صافيتا» بسوريا . تعلم في المدارس الأمريكية . قدم إلى مصر عام ١٨٨٤ وعمل في الصحافة . عمل مترجما في حملة غوردون إلى السودان . درس العربية في جامعة بيروت الأمريكية .

٣- Max Nordaw (١٨٤٩- ١٩٢٣) . كاتب ومفكر مجري .



مجلة "المقتطف":

١- يا سيدة البحار

٢- شرر وحبب

٣- وداع لبنان

٤- ألحان الخريف

٥- بين الفاتيكان وجريدة "لاكسيون فرانسيز"

مجلة "النهضة النسائية":

١- كلمة

مجلة "الهلال":

١ - أهم حادث أثر في مجرى حياتي



يا سيدة البحار(١)

(جاءت الأخبار التلغرافية منبئة بأن الحكومة الألمانية مسؤولة عما أصاب الباخرة لوزيتانيا والذين كانوا فيها ، لا شركة (كنرد) صاحبتها فبعثت إلينا الأنسة النابغة ماري زيادة (مي) بالتأبين التالي وكانت قد كتبته يوم إغراقها سنة ١٩١٥ ثم وعدت بأن تشفعهُ بتأبين الأسطول الالماني العظيم) .

أسمعت ما طيرتهُ عنك البروقُ وما قالتهُ فيك الأنباء؟ لوزيتانيا ! أبلغك ما بلغنا وتعرفت ما يكتبون؟

قولي ! هل تمردتْ أرواح الكهرباء في الفضاء وثارت قوات العناصر في أعماق السماء ، أم هجمت أسدُ البحر على الأسلاك الممدودة تحت الماء طالبة من معارف البشر لداء خفيّ شافي الدواء؟

قولي ! أسمعتَ بما أذاعتهُ عنك الأنباء؟

لوزيتانيا ، أجيبي ! أنت التي خضعت لها رقابُ الأمواج أعواماً ، ولثمت المياه قدمها شهوراً وأياماً ، أنت التي ذاب لحرّ أنفاسها جليد البحار القاصيات ، وابتسمت لقدمها شموسُ السواحل الدانيات ، أيتها الهازئةُ بهيجان العواصف وثورات اللجج وغضب البراكين ، يا صلة العمران النبيلة بين العالمين ، لوزيتانيا ! يقالُ إنك غارقةٌ ، يا ذات الدلال السائر ، ويذاعُ أنك هابطة؟ يا قاهرة العنصر القاهر . أصحيحٌ ما يقولون وما هم مذيعون؟ أتقعين صريعة نيران الجبّار العنيد؟ أتتضاءلُ منك القوى إزاءَ بطشه فيذوبُ منك حتى صلب الحديد؟

أنت التي قطعت المسافات الشاسعات ببسالة باسمة ، وملأت وحشة البحار الواسعات بزفرات الحياة وأصواتها ، أنت الآملة بكل شيء لأنك يائسة من كل شيء ، أيتها المرأة المتنمرة ، كيف لم تجيبي على صواعق الإنسان بصواعقك

المنتقمة؟

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

ألا تذكرين يوم غادرت العالم الجديد تحملين للأجسام طعاماً وتنقلين للنفوس غذاءً ، وتمثال الحرية يحييك بقبسه المحيي ويتمنى لك سفراً سعيداً؟ يوم شيعتك أنظارٌ وقلوب وقد أودعتك أموالاً وأسراراً وأرواحاً غاليات ، ألا تذكرين؟ كيف لم تصوني وديعتك سائرة بها إلى مرفإ الأمان سالمة؟ كيف لم تحرصي على ما ضممت إلى قلبك ، أيتها العاشقة الصامتة؟

لوزيتانيا ! لوزيتانيا ! لقد ذقت رعشة الموت ، يا ضحية الحياة ! وعرفت طعم الأبدية ، يا أثر الفكر الزمني !

في أحضان المياه الدامسة حيثُ لا شموس ولا كواكب ولا أقمار ، حيث تتموجُ في الهاوية من العناصر الاسوداد والاخضرار . حيث لا يركز سوى دمدمة العواصف الهائجة على صفحة الماء ، ولا صوت غير صدى الصواعق المنبثقة من جبين الأفق على وجنة الغبراء . حيث تمرُّ أفكار البشر على الأسلاك البحرية صامتة ، حيث لا كلام ، ولا أنين ، ولا نواح ، ولا إنشاد ، في أحضان المياه الغُدافية ، في الهاوية المرعبة ، هناك تندثرين ، تندثرين في كهوف نبتون[1] السائلة ، وفيها تقطنين ،

هناك تضمين إليك وديعتك التي لم تستطيعي صيانتها في الحياة فتكونين في الردى لها من الصائنين .

هل من دمعة تصل إليك مخترقةً مياه البحار؟ هل من قبلة تهبط نحوك مداعبة ما لديك من الأسرار؟ لكن قد كفنك السكوتُ الدائم والجمودُ المتحرّكَ الذي لا قبلات لديه ، ولا دعابة ولا عبرات؟

لوزيتانياَ لوزيتانيا !

سوف ينتقم لك البشر من البشر ، سوف يقيم التاريخ لك ولإخواتك هياكل تحيين فيها كالآهاتَ ، سوف تنظمُ لك الأناشيد وتعزفُ لذكرِك طروبُ الآلات ، لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

وإذا سئلت في أعماق الهاوية عن الإنسان الذي أبدعك واستخدمك قولي إنَّ مقاصده شريفة وآمالهُ عظيمة ، قولي إنهُ أحبك وبكاكَ . وإذا سألتك أرواح العناصر مذهولةً : إذاً كيف فتك بك؟ أجيبي أنَّ الذيَ قضى عليكَ ليس التَحالف الملقب بالإنساني ، بل الجبير المنعوت بالجرماني

مي

المقتطف . م ٥٥ ، ج٣ . سبتمبر ١٩١٩ . ص . ٢٢٠ - ٢٢١

١- بنيت اللوزيتانيا لشركة كنرد البريطانية سنة ١٩٠٧ بمدينة غلاسكو من الصلب (الفولاذ) وكان طولها ٧٩٢ قدماً وعرضها ٨٧ قدماً وعلوها ٥٦ قدماً وحمولتها ٤٢ ألف طن وسرعتها ٣٦ ميلاً بحرياً في الساعة وقوة آلالاتها البخارية سبعون الف حصان .

٢- نبتون هو إله في ميثولوجية الاقدمين .

شررٌ وحَبَب

• حكمة اليوم في مذكرتي تقولُ إنَّ الدعة أقدرُ من الحدَّة ، كما إنَّ أعظم الدهاء يكون أحياناً في البساطة .

كيف أشفقُ على الذي يبدد ألمهُ في الشكاية والتظلّم فلا يبقى منهُ ما يستدعي الشفقة؟ كل شفقتي تتجه إليكَ أنت الذي لا تشكو مع إنَّ ألمك صامت لا حدّ لهُ ولا نهاية .

• هل من سبيل إلى حلّ عقدة تستوجبُ القطع ، وكلّما لمستها علمت أن خيوطها من نياط قلبك؟

• لا يُضعفُ الثناء والطعن كالكلام الحماسي والتبجيل في ما هو عاديّ والكلام الفاتر في ما هو عظيم جليل .

• تتهيب المرأة أمام مقدرة الرجل لاعتقادها أنهُ أبرع منها في الإلمام بالأمور من جميع جهاتها . فما أشدّ خيبتها يوم ترى الرجل الذكيّ الحساس لا يدرك ولا يريد أن يدرك من الحسنات أو السيئات إلا وجهاً واحداً فقط !

• كم نتذرَّع بالذكاء والعلم لنقول كلاماً سخيفاً «بأستاذية» !

• من خساسة النفاق أنهُ يتكلّم بلهجة تحاذي الصدق ويتلوَّن بلون الواقع المحسوس .

• أليس من المدهشات أنَّ مظاهر الباطل أقدر في الإقناع أحياناً من مظاهر الحق؟

• كنتُ أحسبُ الباطل مركّباً معقداً والحق بسيطاً واضحاً . أما الآن فقد بدأتُ أرتابُ وأتساءل . لماذا ترى الناس أقرب ما يكونون إلى اعتناق الباطل؟

● لا تلمس الحقَّ البسيط الجليَّ إلاَّ النفسُ البصيرة الرفيعة .

●ترى أيّ صدق وأيّ حق يُظهر براءَتكَ أمام أناسٍ وطّدوا النفس على تجريمكَ والحكم عليك؟

● الألم الكبير تطهير كبير .

● أخرجُ من بعض الاجتماعات شاعرةً بأن الناس أخذوا مني شيئاً كثيراً أقضي أسابيع في الاستيلاء عليه من جديد - دون أنْ أعرف ما هو .

● ليس ما يحمل على تقدير الحياة وحبها كشهامة الرجل الشهم

● يخيل أحياناً للمتأمّل باستئثار المرتبة والمجتمع أنَّ الفرد آلة لهما لا إنهما للفرد ومنه .

● القلب الكبير الذي يحوي العالم يضيق بالقلب الصغير يوم يزعم هذا السيطرة عليه وتنظيم عمله .

● لا يتيسَّر التساهل مع القلوب المحدودة ، والعقول الصغيرة ، والمقاصد الركيكة إلاَّ وهي بعيدة .

● بعض الباحثين طويلاً عن كلمة ظريفة يفاجئون بها العالم - لا ينقصهم ليكونوا ظرفاء إلاَّ أنْ يكونوا ظرفاء .

● ما أثمن نصيحة صديقك المخلص الحكيم عندما تنشط عن طيش أو عن قلة مبالاة !

● ألقى رومانيّ شهير إلى الجاهل بهذه النصيحة : «انظر واسمع واسكت !» (Vidi, audi, taci) والذي يفهم هذا ويحققهُ في حياته لا يكون جاهلاً . بل هو العليم الحكيم .

● أجل - لكلّ منّا حقٌّ على الحياة والحرية والراحة . ولكن ليس على راحة

الآخرين ولا حياتهم ولا حريتهم .

• الاختبار والعلم يصقلان العبقرية ولكن لا يقومان مقامها .

• للنبوغ مؤمنون وكافرون .

• لو أُرغمتَ على قبول أحد الثلاثة فأيّهم تختار : الذي يعاديك علناً ويرجمك صراحاً مؤوّلاً كلَّ حسنة فيك ومنقّصاً لك كل فضل؟ أم العدوّ المتقمص بثوب الصديق الذي يدسُّ وراء كل ثناء ظاهر ضعفهُ من الطعن؟ أم الذي يبدأ بالثناء عليك أجمل الثناء ليصدّق الناس بَعدئذ افتراءه بحجة ذلك الثناء المضلّل؟

• بين أحد الشعانين أي يوم الاحتفاء العظيم بدخول المسيح إلى أورشليم ، وبين الجمعة العظيمة أي يوم صلبه على خشبة العبيد ، أربعة أيام لا غير !

• قبل أنْ تمزقنا ظلماً أظافر الحياة نشفق على الذي يموتون ونحسبهم محرومين من جمال الكون وهناء العمر . وبعدئذ - بعدئذ يوم تقسو الحياة على شبابنا وقلوبنا وأفكارنا وآمالنا نغبط الذين مضوا ونعلم أنهم من المختارين المحبوبين .

• الألم محسن كبير لأنهُ يجردنا من الغرور والدعوى .

• يحسب بعضهم أنَّ السدود التي يجتهدون كثيراً في إقامتها تكفي لإطفاء نور الشمس وتضييق رحاب الفلك

• ما أشقى المحسود وما أحراه بالعطف ! وما أشقى الحسود وما أحراه بالعطف .

• في المُعذِّب والمعذَّب لا تجد إلاّ الإنسانية المتسلّقة طريق جلجلتها راسفة في القيود ، دامية الجراح ، وفي صميم قلبها عتاب للحياة التي لم تسمح أنْ تكون صالحة كما كانت تودّ أنْ تكون .

• سؤال صغير كنتُ أعيده على نفسي يوم كنتُ أستمع على مقاعد المدرسة للكاهن الصالح الذي كان يشرح لنا التعليم المسيحي ، وما زلت أردده اليوم بلجاجة أشدّ وحرقة أعمق : لماذا يخلق الله الأشرار؟

• لو كانت السعادة متعلّقة بشأن أو شأنين من شؤون الحياة لتيسرّت لجميع الناس دهراً بعد دهر . ولكنها ، كالشقاء ، تتألف من جميع عناصر الحياة ، ووقع كلّ من تلك العناصر يختلف باختلاف الأمزجة . لذلك تجد البحث عنها متواصلاً والتساؤل عنها متجدداً في كل قلب ينبض ويتألّم .

• جبّارٌ هو ذاك الذي يكون شعاره في الحياة : «سأتألم ، ولكني لن أُغلَب !»

• كلاّ - كلاّ ! لا ظلام في الحياة . وإنما هي أنظارنا الكليلة التي تعجز عن مرأى النور في أبهى مجاليه .

ميّ

المقتطف . م ٦٤ ، ج٥ ، مايو ١٩٢٤ ، ٥١٥ - ٥١٩

ألحان الخريف

(هذه الشذور شقيقة ما نشرناهُ في مقتطف نوفمبر وهي أيضاً من ديوان نابغتنا مي الذي نظمتهُ بالفرنسوية وسمتهُ بما ترجمتهُ «أزهار الحلم» فهل يقنع قراء المقتطف بأن يكون نصيب هذه المعاني الشعرية النظم بالفرنسوية والنثر بالعربية وهي لغة المنشئة الأصلية؟ هذا سؤال نحيلهُ عليها – المقتطف) .

(١)

طافت في الجو روحُ الخريف ، يا سوريا ،
وعلى ضفاف النيل أنشأت ربَّةُ الشعر تشدو ،
فخالجني الشعورُ بالوحشة
لاغترابي عن سحرك البعيد الخفيّ . . .
وها يعاودني ذكرُ ربيعك البهيج
وعهدُ الساعات المفعمةَ هناءً وصفواً–
ساعات خَلَتْ من الغموم والدموع
ولكن سرعان ما تولّت !

***

وفي تبلبل مخيّلتي وازدحامها
يتجلّى لي من لبنانك الوسيم
رسمٌ نمّقته إلهة الفنونَ
تحت سماء صافية وزرقة فاتنة :
فألمحُ الأرزَّ الرفيعَ الذُّرَى
تتمايل أغصانُهُ سامقةً نحو العلى
تُلامس أطلس الجو ببنانها الخضراء العسلية
لمس قلم يخط على الصفحة النظيم . .

***

وإني ، يا لبنان ، لأحدّث نفسي بحديث صيفك ،

وأسمعُ صدح أطيارك في حدائق حفلت بالورد ،
وأستعيد نداءات القلوب ذات الحبّ الراسخ العنيد ،
التي ذاقت نشوةَ الطرب في ظلّ أحراجك
وتمتلكني حاجاتُ النفوَس الغضّة النقيّة !
من ظمأ إلى الحب ، وركون إلى الإيمان ،
وثقة بالأمل والصدَق والامتثال ،
ويقيٍن بذيوعِ العطفَ وخلودِ الصلاح

***

كنتُ في المدرسة وسني دون الخامسة بعد العاشرة
ومشهد الأمواه يعرض لناظري رؤى الفراديس
فتهتزُّ نفسي وتسمو وتطير . . . ومنذ ربيعين اثنين
لم تنسيْ مني الشجن ، يا هذه الهزَّة الشعرية !

***

كالشمس والصحو للدَجَن والمطر سحرهُ ،
وكالسعادة والهناء للألم والَغمّ لذاذتهُ ،
وأعمق الخوالج عذوبةً وأعظم العواطف إيحاءً
إنما نسبرها في الحرمان والتفادي

***

لذلك أحبُّك ، أيها الخريف الوسنان ،
حبي للربيع رسول اليقظة والازدهار
أحبُّ منك النسائم الكئيبة المتناوحة ،
والأمساء الخاشعة ، والأحزان الحنونة .
أحبُّ ما يشيعُ في بنفسجي إشفاقك
من نغمات كأنها آخر ما ترَسلهُ القيثارة المحطّمة ،
فينتشرُ بثُّ الاثنين في أصداء اكتئاب ،
ويتباعدُ خفّاق المقاطع متلاشي الزفرات . .

(٢)

لقد احمرَّت أوراق الخريف
خجلاً من قبلته الفاترة ،
إذ عانقها وناجاها بلسان نسيمه اللبق
الذي يتوانى حزيناً ثم يعصف صَائحاً

***

هو ذا الأفق على الرياض يبكي ،
والأطيارُ تهجسُ قرب تدفّق الغدران ،
والعشبُ يرتعشُ عند معاطف الجبال
ارتعاشاً طويلاً واسعاً كارتعاش الأمواج
أيها الخريف ! يا موسم الصفائح والمعالم فوق القبور ،
وموسم الأشرطة والأزهار المبلّلة بالدموع !
وموسم أشجار السرو الساجعة في المدافن
وموسم تفطر القلوب حسرةً وأسى !

***

يا موسم ما لا يُنسى
ممّا نستحضره حيال مضاجع الراحلين
إذ تتلمس أيادينا دقائقَ ما لا يُلمس
من أشتات الآمال المبعثرة الذاوية !

***

يا موسم الشكاية والعويل والانتحاب
بعد الضحك الذي انقضى ولنْ يعود ،
وموسم اليأس الذي يفجع الفؤاد
إزاء هدوء المسافة وجور الزمان !

***

ها هي ذي روحك الموزّعة الشائعة
تتجمّع لندائي وتفزع للتذكارات الرهيبة :
فما أنت إجمالاً ، يا أيهذا الخريف ،
إلاّ موسمَ الأجفان المسيلة الجامدة . .

إيزيس كوبيا (ميّ)

المقتطف . م ٦٥ ، ج ٥ ديسمبر ١٩٢٤ ، ص ٤٩٠ - ٤٩٣

بين الڤاتيكان
وجريدة «لاكسيون فرانسيز»
للآنسة "مي"

نحن في شهر أبريل الذي عُرف يومهُ الأول بإجازة تهادي السمكة التقليدية . فهل أنا بتغيير موضوع الحديث هذه المرة ، أبغي توجيه سمكة أبريل إلى قرَّاء «المقتطف»؟

كلاَّ . فالموضوع أهم وأجلّ من أن يكون وسيلة للتراشق بطريف الأكاذيب والافتراءات . إلاَّ أن بعض القراء يرون أني أوجزتُ كثيراً في الإلماع إلى هذه القضية ، قضية التنافر بين الڤاتيكان وجريدة «لا كسيون فرانسيز» ، خلال حديث الشهر المنصرم وأنَّ عليَّ -وأنا التي أثرت ذكرى هذه القضية- أن أوضحها بعض الشيء أو أزيل عنها بعض الغموض على الأقل ، نظراً لغرابتها ، أمّا أن ذلك مفروض عليَّ ، فلا ! وأمّا أني مستعدة للإرضاء في حيز مقدوري ، فنعم . ولكن النية الطيبة والاستعداد للارضاء ليسا كفيلين بتقديم ما يُرضي . عندما أكتبُ عن شخصية أدبية لستُ أعني كثيراً أو قليلاً برأي الآخرين ، فيها وبما كالوا لها من قدح أو أغدقوا عليها من ثناء ، إنما أعني بأثرها فيَّ وبالصورة التي رسمتها هي من كتاباتها في نفسي . ولا شأن لي في غير ذلك .

أما موضوع الخصومة السياسية أو الدينية أو الأدبية فليس لي من رأي شخصيّ فيه ، وبخاصة لأني أجهل مجموعة تفاصيله وخفايا الأمور التي كونتهُ . وكل ما أستَطيعهُ لا يزيد عن طاقة أيّ أحد قرأ شيئاً في هذا الموضوع دون أن يجد من نفسه حافزاً لمشايعة هذا الفريق أو ذاك . هذا مع العلم بأن على الكاثوليك جميعاً

أن يحترموا كل قرار موسوم بتوقيع قداسة البابا ، دون مناقشة أو جدال .

وعلى ذلك ، أتناول هنا أقوال كاتبين اثنين ليسا من أعداء الكنيسة بل على النقيض هما من أعداء أعدائها وهما يدافعان عن عقديتها . أولهما دوديه نفسه ، صاحب جريدة «لاكسيون فرانسيز» والآخر هو رينيه دي پلانهول[1] الذي يُعدُّ في طليعة كتّاب فرنسا المعاصرين في النقد السياسي والاجتماعي والأدبي والفني . ولست أعرف بالضبط قيمة رأيهما في هذا الموضوع ، وكل ما في الأمر أنني ألخص ذلك الرأي تاركة تبعته على صاحبيه .

***

سبق أن أشرت في حديث الشهر الماضي إلى كلمة مقتضبة من ليون دوديه في موضوع الخصومة وهنا أورد تلك الفقرة كلها :

«أما الاضطهادات التي يوجهها إلى جريدة -لاكسيون فرانسيز- الڤاتيكان المستسلم لذي الهوس الجرماني (germanomanc) سكرتير الدولة (الڤاتيكانية) جسبارّي (الكاردينال) ، الڤاتيكان الذي يضللونهُ في أهمية حركتنا ومبلغ تأثيرها -تلك الاضطهادات أثارت سخطي لأجل أصحابنا المؤمنين أمثال روجر لاميلان وتريستان لامبير ، ولأجل أصحابنا غير المؤمنين ولكنهم من أنصار الكنيسة أمثال شارل موراس . بيد أنّ تلك الاضطهادات فيما يختص بي لم تؤثر فيَّ ولم تزعزع من عقيدتي . بل أكثر من ذلك ، إنها بدت لي كامتحان من العناية الإلهية يعدّنا للنصر النهائي بعودة الملك . إنَّ طبيعة تلك الاضطهادات الشاذة الغبية اللاغية والتمرد السليم الذي أثارته ، كان لها الواقع المناقض الذي كثيراً ما نجده في التوسطات الإلهية . الأقدار تضربنا بطريقة مباشرة . أما العناية الالهية فتضربنا بطريقة منحرفة ، ملتوية . . . وقد أتيح لي أنْ الاحظ ذلك غير مرة (صفحة ٢١٧ من كتاب "Vingl-Neuf Mois d'Exil") .

ويقول صفحة ٢٢٢ و٢٢٣ من الكتاب نفسه :

«كثيرون من رجال الاكليروس الذين أسخطتهم إجراءات روما المتعددة عبثاً ضدنا من رشق بالحرم ومن تعذيب ضمائر المحتضرين ، طالما طرقوا بابي فاستقبلتهم دائماً بسرور وامتنان ورأيت فيهم تلك الشجاعة التي يحتاج إليها

الكثيرون من أصحاب المقامات في الكنسية ، شجاعة نجدها في هذا الموقف كما في غيره ، حليفة طريقة عكسية في تدرُّج المراتب -عدا الاستثناء الجليل الشأن . في جميع الأنظمة البشرية ، حتى الأنظمة المتصلة بحظوظ النفس ، نلحظ التناقض في الهمم وفاقاً للرقي الإداري . هو المجتمع الذي يريد ذلك . يجب أن نعرف ذلك مع حسب حساب الاستثناءات السامية – وأن لا نحنق من جرائه . فقد قال موراس إنَّ الحنق والامتهان ليسا من المهارة السياسية في شيء» .

ويقول في كتاب "Paris Vecu" [1] : «ولما وجب قول الحقيقة فإني أضيف أنَّ الاضطهادات الرومانية الموجهة ضد «لاكسيون فرانسيز» منذ سنة ١٩٢٦ لم تزعزع لحظة واحدة من إيماني . كثيراً ما يحدث في الواقع أنْ يضطهد المدافعين عن قضية وأن ينكرهم أولئك الذين يتفانى المدافعون في خدمتهم ، إذ يرى المضطهدون من مصلحتهم أن يتضافروا مع الأعداء على حساب المدافعين ، لحين انتصار هؤلاء على الأقل . هذا أمر جد بشري . .» (صفحة ٥٩-٥٨)

عرفنا مبلغ إعجاب دوديه بموراس ، وهاك شواهد أخرى على ذلك الإعجاب العظيم . فهو يقول في مذكرات (Paris Vecu) عند وصفه الحي اللاتيني في باريس : «إنما ذلك المزيج من الكد والتفاهم والإنصاف والشباب أيضاً ، ومن الاستحثاث والحب (أجل الحب ، حب المرأة وحب المعرفة) والدعابة التي لا تحمل غمًّا ، هو ما كان يكونّ وما زال يكوّن جو الفتنة العميقة في الحي اللاتيني . غير أن في الوقت الذي أكتب فيه ترى الروح السياسي قد تبدل تماماً . في عهد دراستي كان الحي اللاتيني جمهوريًا راديكاليًا ومضادًّا للجنرال بولانجه . أما اليوم فالحي ملكيٌّ ولا يحلف إلاّ بموراس . وكون موراس من كبار رجال العلوم الادبية (un tres grand hunianiste) مما ينشر الحماسة له من الضفة السياسية إلى ضفة الثقافة العامة . إن الإعجاب كالحب ، ينزع إلى الكمال وإلى المطلق . . .»

وفي مكان آخر : «انهزمت اليعقوبية (Jacobinisme) فحلت محلّها النابوليونية

(Napoleonisme) الطاغية العاملة على التمركز . وما فتئت تنيخ بكلكلها على كلية الطب في باريس ، ولكن يقال لي إنها الآن أخف وطأة منها في عهد دراستي . ذلك لأنهم أدركوا أن الكثيرين من الأطباء والجراحين أخذوا ينضمون منذ بضعة أعوام إلى عقيدة موراس وإلى الملك . للأمم كما للأفراد ، أطباء أمثال ريشليو ، وكافور ، وبيزمارك ، وموراس ، يسمونهم رجال الدولة ولكنهم في حقيقة الأمر أطباء . وقد بذل موراس جهده ليشفي فرنسا ومن خلالها أوربا ، من عديد العلل التي خلقتها الثورة والامبراطورية . فأدركت ذلك هيئة الطب الفرنسي كالشبيبة الفرنسية ويمكن أن يقال كصفوة الأمة كلها . ومن المحزن أن البابا بيوس الحادي عشر[٢]، على نقيض سلفه بيوس العاشر[٣] ، لم يفهم ذلك ولم يحسه . لقد ضلل قداسته ، بلا ريب ، الكاردينال المهووس بنزعته الجرمانية ، جسباري . ولولا ذلك لوفر على نفسه إخفاقاً لاذعاً ، نحن أول من يأسف له» . (صفحة ٥٨-٥٧ من "Paris Vecu") .

***

أما في نظر رينيه دي پلانهول فجريدة «لاكسيون فرانسيز» في طليعة الصحف الفرنسية نزاهة واستقامة . وهو معجب بليون دوديه ، يفصح عن إعجابه هذا غير مرة ويحلل له ، نظراً لصدق مواهبه ، ما يستهجنه عند كثيرين من ذوي الشهرات التي شادها الغرض أو المال أو الدسيسة أو الطموح السخيف . وفي كتابه (Le Monde a L'Envers) الصادر سنة ١٩٣٢ حيث يحمل على فرنسا الراهنة ويتناول بالنقد حتى أنظمتها الفنية والأدبية ، هو يسخر من وفرة ما تصدره المطابع لانحطاط نوعه الثقافي والفني في نظره ويلوم الذين يزعمون نفوسهم كتّاباً ومؤلفين لكثرة ما يسوّدون من لغو الكتب رغبة في الربح المالي وفي توطيد شهرات لا دعامة لها. ولكن تراه في صفحة ٢٠٥ من ذلك الكتاب يبرر كثرة الإنتاج من ليون دوديه. فيقول :

«إن أكثر صانعي الكتب يندفعون وراء محنة التصنيف ، بما يفوق مقدرتهم ، لأن مقدرتهم هي محور الموضوع. ليس الغرض حمل الكتّاب على الاقتصار

على قاعدة متشابهة وفرض كمية الإنتاج عليهم جميعاً بطريقة متماثلة. عند ما رجلٌ كليون دوديه يخرج المؤلفات بوفرة فهو في ذلك يخضع لمزاجه أكثر مما يطيع مقتضيات العصر. وقد كان يفعل ذلك في عصر غير هذا العصر ، شأنه شأن بلزاك أو ڤولتير. ولكن حيال هؤلاء الكتّاب الذين ترى عندهم الأفكار والخيالات في تفجر مستديم ، يوجد آخرون عبقريتهم أقل خصوبة وهم موهوبون لإنتاج كمية محدودة من الصفحات تتجمع فيها كل ماويتهم «الأدبية» – (Toutc lcur se've)».

غير أنَّ إعجابه بدوديه ليس هو الذي يقود قلمه في شرح قضية «لاكسيون فرانسز» مع الڤاتيكان ، على ما يبدو لي. وقد أفرد في كتابه المذكور آنفاً ، فصلاً لموضوع «الكنيسة بين أعدائها والمدافعين عنها». وهو الفصل السادس ويبتدىء صفحة ٢١٧ فيسجل في مطلعه «أنَّ الكنيسة نفسها- كائناً ما كان الألم الذي ينتابنا من تعرف ذلك -الكنيسة نفسها لم تتفلت مما يلازم هذا العصر من تشويش وارتباك». «ليس المراد بهذا الكنيسة من حيث هي تثبت نفسها نظاماً إلهيّا وأنها بصفتها تلك تحتفظ بالعقيدة الدينية وتعلمها... وإنما المراد في هذه الصفحات هو عملها البشرى والسياسي والاجتماعي خصوصاً في فرنسا اليوم...

«تأسست الجمهورية في فرنسا منذ ستين عاماً ومن غاياتها الأساسية الثابتة محاربة الكنيسة والعمل على هدم العقائد والتعاليم المسيحية... فما هو سلوك الكنيسة حيال هذا النظام؟ لقد أبت الكنيسة دائماً التحزب لأي سلطان زمني وهي تسلم بأن جميع صنوف الحكم مباحة مشروعة. فلم يكن لها أنْ تنكر الجمهورية من حيث هي نظام حكم بل على النقيض ، لتتملص من أنظمة كانت تخيل أنها تنكر الشعب الفرنسي وكانت الكنيسة لا تراها ضرورية وقد كان ذكرها يظهر الكنيسة بمظهر المغرضة -كان على الكنيسة أنْ تحمل المؤمنين على قبول النظام الجديد بنزاهة»..

«ولئن باشرت الجمهورية حملتها ضد الكنيسة فإن الزمن لم يكن ليثبت بعد أنَّ هذا التعصب ضدها ضروري. فأعرب البابا لاون الثالث عشر[٤] عن رجائه بأن

كاثوليك فرنسا بقبول الديمقراطية إنما ينجحون بتجريدها من صفتها المضادة للمسيحية ، لأنهم بذلك يكفُّون عن تقديم السبب السياسي لمحاربة الدين. فيسَّر اتحاد الفريقين (LeRalliement) اختباراً كان يومئذ مغريا ، ولكن في وسعنا اليوم أنْ نقدر نتائجه». وتلك النتائج في نظر المؤلف لم تكن إلاَّ الإخفاق التام . ويستأنف في نفس الفَصل فيوصلنا إلى صميم الموضوع :

«باستثناء أصحاب عدم المبالاة في الموضوع الديني ، ومنهم العدد الأكبر ، يوجد بين الذين لا يؤمنون فريقان : الفريق الأول يتكوَّن من الموظفين الرسميين في الجمهورية ، وهم فريق الذين لا يؤمنون ويمقتون الذين يؤمنون».. «والفريق الآخر يتكوَّن من الذين لا يؤمنون لأنهم لم يتلقوا في نفوسهم نعمة الإيمان ، ولكنهم يكبرون الإيمان كحسنة من أعظم الحسنات التي تغني النفس ، ويجلون في الكنيسة إنْ لم يكن النظام الإلهي فأعلى الأنظمة البشرية. بينهم وبين الإيمان تقوم اعتراضات عقلية لم يتمكنوا من التغلب عليها. ولكن بدلاً من أنْ يجعلوا عجزهم مثالاً فيستخرجون منه تعليماً ، هم يتحرزون من تحقيق أي تحزب ضد الإيمان الذي يتمنون سعادته لجميع النفوس.

«تلك كانت عاطفة موريس باريس. وهذا هو شعور شارل موراس وغيره من الذين لا يؤمنون ، المتحدين بقوم كثيري العدد والأهمية من الكاثوليك الموالين لحركة «لاكسيون فرانسيز». وهذا الاتحاد كان منطقياً وطبيعياً. لم يكن مدهشاً أنْ ينضم الذين لا يؤمنون إلى الذين يؤمنون في الميدان السياسي ما دام هؤلاء وأولئك على اتفاق ليس فقط فيما يتعلق بضرورات الدولة ، بل كذلك فيما يتعلق بحقوق الكنيسة وهي ذات الحقوق التي تطالب بها الكنيسة. أولم ينصح البابا بيوس العاشر باتحاد جميع الأشخاص المستقيمين للدفاع عن الحريات الدينية؟...

«... والأمر هو أنه بينما الڤاتيكان يحاسن أنصار العلمانية ويسمح للكاثوليك بمناصرتهم ، نرى الڤاتيكان يدخر لموراس ولأصحاب موراس أشد الجفاء. هؤلاء الناس الذين يخدمون مصلحة الكنيسة بعناء وبتجرد تام من الغرض ،

يصب عليهم الفاتيكان اللعنات ويعاملهم معاملة الموبوئين ويهددهم بأقسى العقوبات وبحرمانهم من الأسرار الكنسية ، كما يحظر على الكاثوليك الانضمام إلى جماعة «لاكسيون فرانسيز» وتداول صحيفتهم وتأييد حملاتهم السياسية.

«-لماذا؟ إننا نجهل السبب. لقد كتب شارل موراس في الماضي كتباً لا يسع الكنيسة إلاّ استنكار بعض صفحاتها. ليس من يجادل في ذلك حتى ولا المؤلف نفسه. ولكن في مؤلفات دومرج وبوانكاره[٥] وبريان وتارديو يمكن استقاء بيانات أخرى كثيرة لا يسع الكنيسة إلاّ مصادرتها.. وما تتقصده الكنيسة ليس كتابيْ موراس «طريق الجنة» و «آنثينيا» ، ولكنها تتقصد عمل موراس السياسي وبخاصة العمل الذي يصطنعه منذ تأسيس «لاكسيون فرانسيز» اليومية. إن علماء اللاهوت الأكثر اطلاعاً يرون ذلك العمل في دائرته الخاصة وليس في ما يستوجب اللوم ، وإن هم أسفوا لانه لا يقوم على دعائم الحقيقة المنزلة. حتى الكاردينال آندريو (Andrieu)نفسه كان يرتئي هذا الرأي عندما كان يثني على قلم موراس ، قائلاً إنَّ ذلك يوازي سيفاً.

«... بينما أمثال بريان وتارديو لا ينفكون عن العمل ضد الإيمان فإن موراس لم يعمد يوماً إلى تحويل نفس عن الإيمان أو إلى هدم الوسائل الطبيعية التي تمكن الإيمان من النمو وتحفظه ، بل على النقيض ، كثيرون هم الذين ارتدوا إلى العقيدة حواليه بفعل تأثيره ليس بسبب ما يعلنه نحو الكنسية من إعجاب وصداقة فحسب ، بل بفضل شتيت المقارنات التي أوضحها للكثيرين بين القوانين السياسية والاجتماعية التي ينادي بها وبين التقاليد الكاثوليكية. ومع ذلك فالذي يحكم عليه ليس بريان وتارديو ، بل هو موراس. فبأي الضلالات تراه أوحى إلى أصدقائه المؤمنين؟ لقد توسل هؤلاء ليُكشف لهم عن ذلك ، ولكن عبثاً : العقوبة تطبق عليهم دون أنْ توضح لهم خطيئتهم».

«... إنَّ النص الوحيد الثابت رسمياً من الفاتيكان وفيه البيان عن إلحادهم هو خطاب الكاردينال آندريو ، ذلك الخطاب الي يُشرد الألباب ، وفيه ينسب إلى موراس القول المشكوك في صحته : «محرم دخول الله إلى مراصدنا». من هذا

الخطاب أدرك كاثوليك «لاكسون فرانسز» أنهم يصطنعون العبودية ويأخذون بأسباب الإلحاد. وقد احتج هؤلاء الكاثوليك على غير جدوى معلنين أنهم حياتهم لم يفكروا في إعادة تجارة الرقيق وأنهم يؤمنون بكل ما تعلمه الكنيسة. فلم يصغ إليهم أحد. وفي مجرد بقائهم على وفائهم لموراس الكفاية للإثبات أنهم يفكرون في كل ذلك حتى ولو كانوا واثقين من أنهم لا يفكرون ! وبينما كان الفاتيكان يعلن على هذه الصورة مناهضته للملكيين مقاومي الأنظمة العلمانية ، هذه الأنظمة العلمانية ممثلة في ساسة يباركهم الفاتيكان من أمثال ميللران وبريان ، كانت سارية تشيع في البلاد الفرنسية الروح الذي لا هو ديني ولا هو أخلاقي . ويختم دي بلانهول هذا الفصل بهذه الكلمات. «هذه هي المناقضات المحيطة بالكنيسة في أيامنا»... «لست أحنق. إني أرقب وأحاول أنْ أفهم ، ولكن عبثاً. فافهموا أنتم إذا استطعتم».

***

أفهمتَ ، أنت الذي يقرأ؟

أما أنا فأعترف بأني كلما توسعت في مطالعاتي في هذا الموضوع أمعنت في الجهل له وزدت عجزاً عن إدراك لبابه. قد يكون أنَّ مطالعاتي لم تتناول إلاَّ النواحي الثانوية والإضافية وأنها هي التي وزعت من فكري بإقصائي عن الفكرة الجوهرية الصميمة التي تفيض على المشكلة نوراً وتجلوها أتمَّ الجلاء. فهل بين القراء من يهديني؟

وبعدُ أوليست هذه الحالة هي الواقعة حوالينا في أكثر الشؤون حتى أقربها إلينا وألصقها بحياتنا؟ نرى من الأمور المظاهر والنمو والترامي ، ونطّلع على الكثير أو اليسير من التفاصيل والأجزاء ، ولكن منذا الذي يستطيع أنْ يزعم أنه مَلَكَ الباعث الأساسي وتمكّن من المصدر؟ وفي هذا الموضوع الذي تتنازعنا منه الفروض ، كيف يتسنى أنْ نبتَّ في الحكم صادقين؟

المقتطف. م٦٨ ، ج ، ٤ ابريل ، ١٩٣٥ ص ٣٩١-٣٩٦

١ – صدر هذا الكتاب سنة ١٩٣٠ (هامش الكاتبة)

٢ – Pius XI (١٨٥٧-١٩٣٩). جلس على كرسي البابوية من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٩. ولد في ايطاليا ودرس في ميلان ثم باريس حيث نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة واللاهوت والقانون الكنسي ، هاجم الزعيم الألماني هتلر عام ١٩٣٧ متهماً نظامه بالخروج على التعاليم المسيحية.

٣ – Pius X (١٨٣٥-١٩١٤). جلس على كرسي البابوية ما بين ١٩٠٣ و ١٩١٤ ولد في إيطاليا. رُسِّم كاهناً عام ١٨٥٨ وأسقفاً عام ١٨٨٤ وكاردينالاً عام ١٨٩٣ كان من أهم إنجازاته تعديل القانون الكنسي وتعزيز السلطة المركزية للكنيسة.

٤ – L'eon XIII جلس على كرسي البابوية بين سنتي ١٨٧٨ و١٩٠٣ . اهتم بالقضايا الاجتماعية والعمال.

٥ – Raymond Poincare (١٨٦٠-١٩٣٤). سياسي ورجل دولة فرنسي. ترأس الجمهورية الفرنسية بين ١٩١٣-١٩٢٠ ترك مذكرات هامة لفهم تاريخ أوروبا الذي سبق الحرب العالمية الأولى

١ - كلمة

للكاتبة الشهيرة الآنسة مي

أفسحت لي «نهضة السيدات» هذا المكان في مجلتنا الجديدة ، فحباً وكرامة. ولكني لا أريد أن أقول سوى كلمة صغيرة مخلصة . «نهضة السيدات» إحدى الجمعيات النسائية الثلاث في القاهرة وقد أدت إلى تكوينها الحركة النسائية الحاضرة فما المراد من هذه الحركة ، وما هي الغاية التي ترمي إليها.

هل المراد منها أن تشغل السيدات الشوارع بصفوفهن المتظاهرات ، وأن يملأن الجو بأصواتهن الهاتفات ، أم هو رصّ احتجاجاتهن في أعمده الصحف كلما تكلم في قُطر متكلمٌ أو صَمتَ في صقعٍ خطيبٌ؟

لقد مر على هذه البلاد يوم تحتم فيه أن ترفع المرأة صوتها لا لتثبت كفاءتها السياسية فإن كفاءة الشرقيات لا أقول السياسية بل الاجتماعية ما زالت في دورها الأولي -بل لنشهد العالم على أنها والرجل سواء في الرغبات الوطنية والمطالب القومية ، وأنها لا تأبى السفور ولا تخاف الخطر في سبيل حرية بلادها. فقوبلت جرأتها وحماسها بالثناء والإعجاب ، أعجب الرجل بها ، وأثنى عليها لا لسروره بتلك المظاهرات من حيث هي مظاهرات فقط ، بل لأنها أنبأته بوجود استعداد للرقي. شعر بأن أخته المصرية التي كان يظنها جامدة هامدة لا تهزها العواطف الكبيرة ولا يصل إليها حدّ المسائل العامة ، قد أبطلت زعمه دفعة واحدة وأرته مثالاً صغيراً من الكثير الذي تقدر عليه.

أقول «مثالاً صغيراً» لأن المظاهرات والهتاف أسهل الأشياء لا سيما وأن العدوى العصبية تسري بسرعة من فرد ، ومن جماعة إلى جماعة ، فيبكي المرء إذ يبصر الجمهور ، باكياً ، ويضحك عند ما يخاله ضاحكا ويصيح ما دام الصياح

محيطا به.

أما الشيء الكثير تقدر عليه المرأة وأصبح القيام به مجتمعا عليها بعد أن اتجهت نحوها الأنظار فهو العودة إلى المنزل ، مملكتها ، والاهتمام بتربية نفسها وتربية ذويها لتصير أهلا للاسمين الجميلين اللذين حملتهما إلى اليوم دون أن تدرك ما يخولان من حق وما يقتضيان من واجب ، اسمي زوجة وأم. يتحتم عليها أن تعود سيدة لا عبدة إلى المنزل مستودع قوي الأمّة ومهبط سعادتها ، وأنْ تخفت صوتها حتى يصل إلى قراره الطبيعي قرار العطف والعذوبة والمحبة. ما أهنأ الحياة المنزلية على مقربة من أم مدبرة حصينة وزوجة أمينة صادقة ! هناك يتفهم أفراد الأمّة معنى عظمة ينشدونها ويتربون على استقلال شغفوا بمظاهره.

ليس الرقي قائماً بقول الجماعة «أدينا ارتقينا» بل هو عمل حيوي طويل عسر. ولا الحرية الحقيقة في الحرية السياسية فقد تكون الأمة حرة سياسيا وعبدة في أخلاقها وميولها. وإنما الحرية الفضلى حرية النفس ، والاستقلال الأمثل استقلال الفكر ، هما البذرة التي تزرعها يد الأم في قلب ذويها يوم تكون يدها حقيقة برعاية ذلك الزرع الجليل.

هذا هو «الكثير» المنتظر. ولا أتحاشى القول إن البلاد قد تستغني عن كل صنوف الاستقلال الخارجي في تطورها الحديث ولا تستغني عن عمل الأم والزوجة في البيت منشأ كل حرية ومنهل كل عظمة.

ويتبع هذا العمل العائلي الجوهري عمل اجتماعي عظيم هو تنبيه المرأة إلى مراقبة شؤونها وإصلاحها ، والاهتمام بالفقيرات لا بالإحسان إليهن فالإحسان وسيلة من أضر وسائل الفساد والانحطاط ، بل بتعليمهن ما يكفل معيشتهن من مهنة وصناعة ، وإفهام كل امرأة من كل طبقة وجوب إتقان عمل ما يكفيها ذل الاستعطاء عند الحاجة ، وأن الشرف كل الشرف في الاتكال على النفس والعار كل العار في أن يكون المرء عالة على ذويه وعلى المجتمع.

ولقد أنست بلقاء حضرة مؤسّسة «نهضة السيدات»[1] فسمعت منها ما ينم عن رغبة في إفادة قومها ولفت المرأة المصرية عن التظاهر الفارغ وتسييرها في سبيل

الكرامة ، فاستحقت أن يتلقى الجمهور مجلتها هذه بتحية طيبة متوسماً في جمعيتها خيراً وحسبها عاملاً من العوامل الصالحة لإنهاض المرأة والأمة جميعاً.

ميّ

مجلة النهضة النسائية س١ ،ع١ يوليو ١٩٢١ ص١٣-١٤

١- وهي لبيبة أحمد. صحفية مصرية وصاحبة النهضة النسائية التي صدرت عام ١٩٢١ وتوقفت عام ١٩٣٩ أنشأت جماعة «النهضة النسائية» عام ١٩٢١ .

أهم حادث أثرّ في مجرى حياتي

«في مشاهد لبنان الجميلة حيث الجنان المزدانة بمحاسن الطبيعة الضاحكة ، والجبال المشرقة بجلالها على البحر المنبسط عند قدم هاتيك الآكام الوادعة- كنت أسرح الطرف بين عشية وضحاها وأنا طفلة صغيرة بمدرسة عينطورة ، فكانت توحي إلى نفسي معاني الجمال ، فتفيض شعرا أسطّره في أوقات الفراغ وأثناء الدروس التي كنت أشغل عنها بنظم الشعر وتدوينه حتى اجتمع لي منه مجموعة باللغة الفرنسية سميتها«أزهار الحلم» ونشرتها بامضاء « ايزيس كوبيا» سنة ١٩١١ بعد أن نزلت مصر مع والدي . وكانت هذه المجموعة أول كتاب صدر لي في عالم التأليف .

«ولما رأى المحيطون بي أني أكتب باللغة الفرنسية دون العربية نصحوني بدراسة العربي ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ، وكان والدي رحمه الله قد أصدر في هذا العهد جريدة المحروسة ، فأخذت أقرأ بعناية كل ما يكتبه فيها كبار الكتاب حتى تكونت لي ملكة عربية شجعتني على ترجمة رواية فرنسية بعنوان «رجوع الموجة» وكانت أول كتاب نشرته باللغة العربية . وفي هذه المدة كنت أتابع دروسي باللغة الألمانية والفرنسية والانجليزية ، ثم ترجمت رواية هجرة الفرنسيين إلى أميركا بعنوان «الحب في العذاب» وقد تقررت في برنامج المدارس الثانوية بعدئذ .

«وأخذت أتابع الترجمة والكتابة فترجمت عن اللغة الالمانية رواية «غرام ألماني» ونشرتها بعنوان «ابتسامات ودموع» ، وفي سنة ١٩١٣ زارنا المرحوم الأستاذ سليم سركيس ودعاني لإلقاء خطاب جبران خليل جبران في حفلة تكريم خليل بك مطران فقبلت هذه الدعوة ، وكانت أول مرة وقفت فيها فتاة

عربية تتكلم باللغة العربية في حفلة رسمية تحت رعاية الخديوى افتتحها رئيسها حضرة صاحب السمو البرنس محمد علي بخطاب . وبعد أن تلوت الخطبة ذيلتها بكلمة من عندي لتحية المحتفل به فلقيت من الحاضرين تشجيعا عظيما . وبعد ذلك ابتدأ يجتمع عندنا شبه «صالون أدبي» كل يوم ثلاثاء مكث أعواما تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا صبري فاقتبست منه تهذيبا عربيا بما كان يلقى فيه أثناء الحديث باللغة العربية الفصحى .

«وفي سنة ١٩١٤ أرادوا أن يؤسسوا ناديا أدبيا مختلطا من الشرقيين والغربيين بدعوة من الكونتس أولغا دي لبيديف . فدعيت إلى الاشتراك فيه ، وكان بعض المجتمعين فيه من الوزراء السابقين ووزراء الدول وقريناتهم والعلماء والأدباء وكبار القوم . وهو في هذا الاجتماع ، قال لي الأستاذ السيد لطفي بك أثناء حديثه معي : «لا بد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم لكي تقتبسي من فصاحة أسلوبه وبلاغته » فقلت له : «ليس عندي نسخة من القرآن» فقال : «أنا أهدي لك نسخة منه» وبعث لي به مع كتب أخرى ، فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربي وما في القرآن من روعة جذابة ساعدتني على تنسيق كتابتي .

«وفي خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ، فكنت أدرس فيها تاريخ الفلسفة العامة وتاريخ الفلسفة العربية وعلم الأخلاق على المستشرق الاسباني الكونت دي جلارزا ، وتاريخ الآداب العربية للشيخ محمد المهدي ، وتاريخ الدول الإسلامية للشيخ محمد الخضري الى أن انتهت الحرب الكبرى وقامت الحركة الوطنية المصرية . وهنا كانت يقظتي الأدبية الصحيحة ، والخلق الجديد الذي أمدتني تلك الحركة بروحه .

«ولما توفيت باحثة البادية أبَّنتُها بمقالة في «المحروسة» كان الناس يقرأونها والفقيدة العزيزة محمولة على الأعناق . فنقلها الدكتور صروف إلى المقتطف وطلب مني أن أكتب للمقتطف بحثاً فيما كانت تنادي به الفقيدة الراحلة . فكتبت عدة مقالات جمعتها في كتاب «باحثة البادية» وكان أول كتاب كتبته امرأة عربية باللغة العربية في امرأة عربية ، وكان هذا أول مؤلف لي باللغة العربية

وأول كتاب في بابه باللغة العربية وقد صدر سنة ١٩٢٠ .

«وعلى ذلك أستطيع أن أقول إن أهم ما أثر في مجرى حياتي الكتابية ثلاثة أشياء أولها النظر إلى جمال الطبيعة ، والثاني القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة ، والثالث الحركة الوطنية التي لولاها ما بلغت هذه السرعة في التطور الفكري . »

---

* الهلال . س ٣٨ ، ع ٤ . فبراير ١٩٣٠ . ص ٤٠٠ - ٤٠١ .



"مجلة المرأة المصرية"

١- شرر وحبب
٢- خطرات عن الحياة
٣- خطبة الآنسة مي في مؤتمر العائلة
٤- إلى صديقة بعيدة
٥- خطبة مي في تأبين سليم سركيس
٦- رسالة إلى بلسم (عبدالملك)
٧- المعرض المصري لجماعة الخيال
٨- ميزانية العائلة وأهميتها
٩- عظماء الرجال: جورج واشنجتون
١٠- حكاية صبي المكوجي المصري
١١- أين النشيد القومي المصري؟
١٢- زفاف كريمة حفني ناصف بك
١٣- حكاية قلب وعرش
١٤- رسالة إلى ماري برسوم
١٥- مثال من شقاء المرأة في الشرقية
١٦- فقيدان اثنان
١٧- عام يُطوى وعام يُنشر
١٨- الذكرى السادسة عشرة لباحثة البادية
١٩- مي في طريقها إلى مصر



شرر وحبب

• وهل البشر بعضهم لبعض سوى آلات تعاون وسرور في الاستثناء العذب المعزى، وآلات مقاومة وتعذيب في القاعدة المطردة؟

• قالت لي امرأة «جميع الناس يقولون عني هذه أجمل امرأة رأيناها في حياتنا» عندئذ تأملتها فبدت في معاني دمامة لا تطاق. ثم قالت لي وجميع الناس يقولون «هذه أعقل وأحصف امرأة رأيناها في حياتنا» فجعلت أسائل نفسي عن الفواجع التي تحدثها هذه المرأة بين جدران بيتها.

• كم نزيل فيك مظلوم أيتها السجون، إذا قوبل بذوي الجرائم البكماء التي لم يذكرها القانون!

• سمعت رجلاً يقول «إنما كانت أمي أصل كل شقاء في حياتي» ففهمت عندئذ قول آخر «لقد كانت أمي سعادة حياتي».

• كم ذا فخمت الموهبة الضئيلة عند شخص، أيها الحسد لتنتقم من الموهبة العظيمة ولتوهم السامع أنّ هذه العظمة هي الضآلة وأن تلك الضآلة هي العظمة!

• قال السيد المسيح: كونوا ودعاء كالحمامة وحكماء كالحية. ولكن إلى أين مصير الوداعة لو هي كويت كل يوم بالحديد المحمى؟ وماذا تكون حال الحكمة تحت وخز الإبر المستمر؟

• لبعض المتنطعين باسم «النقد» حسنات منها إفهام المتأمل كم ينجح المرء أنْ يكون بليداً غبياً وهو يتعمد الظهور بمظهر الذكاء واللوذعية.

• دللت الحيوان فقبّل يدي، وقبّلها حتى حين آلمته لأنه ذكر أني أحسنت إليه

قبل ذلك . وصانعت الإنسان فصفعني وطالبني بأجرة هذا «المعروف» .

• علمني الإنسان القساوة بحسده وتحامله ونفاقه . فعندما أريد أنْ أشعر بعواطف الرحمة والشفقة أعود إلى الحيوان .

• هل من منفى أبعد وأكثر وحشة من الغربة في قلب الوطن بين الأهل والأصدقاء؟

• رأيت جبابرة الهدم حولي يعملون ، فحملت معولاً ومضيت أساعدهم لأكون من أبناء العصر النافعين . فاعترضني حكيم الدهور وقال : لا يهدم إلاّ من عجز دون البناء .

• لو كنتم محقين لما احتجتم إلى كل هذا الإسهاب .

• ينصحني بعضهم كأني استشرته وسلمت له قيادي !

• حسد عاديّ الذكاء للعبقري أعظم من حسد الفقير الحسود للغني ، لأن الغنى صفة اكتسابية فقد يصير الفقير غنياً . أما العبقرية فصفة طبعية تصقل ولكنها لا تكتسب .

• الجوهرة ثمينة في ذاتها ، فتقديرك لها شهادة لنفسك بالمعرفة والذكاء لا شهادة للجوهرة بنفاستها .

• تحرج الناس بغمومك ومسؤوليتك وحاجتك ، أتراك تحسبهم بلا غموم وبلا مسؤولية وبلا حاجة؟

• المستنقعات تحكم على النهر بالهوس والهوج لأنها تتابع سيره على الدوام ولا يستريح .

• أكثر الناس يتباهون بعرض صنوف أحزانهم وآلامهم . لهفى عليكم يا من تخجلون بالحزن وتسترون الألم بستار القبول والابتسام !

• نحرتموني نصائح وقتلتموني إرشادات ، يا أحبابي ! رأيكم لو قلت إني لا أتبعها

لأنها تدل على قصر في النظر واعوجاج في الحكم؟

• ما أشد كآبة من لا يستطيع الدنو من مهد طفولته الجميل المملوء بحلو الذكريات - لأن ذلك المهد ترعى فيه وحواليه الأفاعي والعقارب !

• غردت الشحارير فقال كليل السمع : ما بال الغربان تنعق؟

• نكتة الظريف تضحك وتضحك نكتة الآخر أيضا ، على أنَّ الفرق بين النكتتين أنَّ الأول يقول نكتته مسوقاً مرغماً . وأما «الآخر» فيشتهي يوما أنْ يأتي بنكتة فيجهز صناديقه ويقطع تذكرة السفر وينتقل من قطر السكة الحديد إلى الزورق فالباخرة ويسافر في البحر أياما . وأخيرا يصل إلى شاطىء يشتري منه النكتة المنشودة ثم يعود إلى وطنه ويدفع عن النكتة رسم الجمرك . ثم يعود إلى بيته وينام ليلته بسلام وينهض في الغد وقد استراح من وعثاء السفر . فيفتح صناديقه ويخرج النكتة وينشرها على الناس - فيضحكون .

• كم من طهر وبراءة هما من الشفوف والحقيقة بحيث يعجز عن الوصول إليهما حتى نظر العدل الجاد المخلص في استقامته !

• قال لي أديب نبيل : إنَّ ما تقولينه الآن هو من كلام العامة . فدعينا منه وهاتي من كلام ميّ . فوافقت ولزمت الصمت .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٤ ، ع٧ . ١٥سبتمبر١٩٢٣ . ص٣٤١-٣٤٣

خطرات عن الحياة

إنَّ أكبر ما تعاب به الاشتراكية المتطرفة هو نفخ الخامل والكسول والجبان وإيهامهم أنهم في الدنيا الكل في الكل ، والقضاء على تلك المكرمات الإنسانية وتلك الصفات النبيلة ، صفات القناعة والنزاهة والخضوع والرقة والتهيب أمام الأشياء العظيمة الجلية التي هي أثمن إرث في متحف العصور والمناداة بصلاح ما يناقضها .

***

يهدم التطور صوراً قديمة ويبدع صوراً جديدة على يد أشخاص يخلقهم التطور نفسه وقلَّ مَنْ فهمهم في محيطهم ، وكلما تعالوا إلى المثل الأعلى أفرط العامة في الاستخفاف بهم ودفعهم عنهم لأنهم «لا يشبهون جميع الناس» ، على أنَّ نفوذ هؤلاء الأفراد وفوزهم النهائي إنما يتعلق بما عندهم من شجاعة وإقدام واعتقاد بأن الحرية الفردية المطلقة يجب أنْ تكون دعامة المدنية الجديدة الحقة لأن الإنسان حر . ولو كانت فكرة الحرية وهمًا لوجب الأخذ بها لأنها وهم ضروري للرقي .

***

الوطنية ! يا للكلمة الساحرة المنبهة كل فكر ، الملهبة كل قلب ، الشاحذة كل عزيمة ! لقد كانت دواماً عظيمة حتى في معناها الضيق يوم كانت تحسب البلاد كل العالم ، وأهل البلاد الشعب المصطفى الأوحد . ولقد كانت في معناها الواسع عطفة رحيبة امتازت بها النفوس الحرة في كل زمان ومكان غير أنها شاعت وصارت لكل أمة ناهضة منذ قرن وبعض قرن بعد أنْ هدم بنو الفرنسيس جدران البستيل ناشرين على حدود الوطنيات أعلام الثورة الفكرية ، وجاعلين

الأقطار تتجاوب أصداؤها بتلك الآيات الثلاث المعلنة حقوق الإنسان وهي -من ذا لا يعرفها؟- حرية ، مساواة ، إخاء .

ولكن لا تنقمن على الألم فهو مغذي الذكاء ومهذب الشعور ومنبّه الإدراك إلى معان جمة وأساليب فكرية كثيرة . إنَّ صاحب العواطف القوية شقي إذا ما ذكرنا أنَّ هذه العواطف تعذبه في كل حين وتظل هامسة بالشكوى حتى في أعذب ما يناله من لحظات السعادة النادرة . لكن هذا العذاب بعينه هو ممزق غشاء الجهل والأنانية عن بصر فريسته وهو مستنزل الوحي على فؤاد نهشته براثنه حتى أدمته . هو مفجر ينابيع النهي . هو يعطي القلم قوة تبدع من الكلام سيوفا وبروقا ويحبو اللسان بلاغة تملك القلب لأنها تخابره مباشرة بلا وسيط . وماذا عسى ينفع الحديث إنْ لم يكن مصدره القلب وما هي قيمة الإصلاح إنْ لم يكن ناشئا عن إدراك تكوَّن ليس في العقل وحده بل في العواطف المسحوقة وما تنبه إليه من احتياج كثير؟ ونظرة الكاتب إنْ لم يطل فيها خيال القلب المتوجع ليست إلاَّ بالنظرة الباردة القاصرة التي لا تنفذ إلى ما وراء قشرة الظواهر ويظل باب النفس باب الحقيقة أمامها مغلقاً مجهولا !

***

لماذا يشفق الرجل على المرأة؟ لأنها تقضي حياتها تائهة في لجج هوة لا يعرف هو منها إلاَّ الشاطىء وهي هوة العواطف . للرجل كبرياء الجولات الفكرية والأطماع المتزايدة والقوة البدنية ، أما المرأة فمهما ارتقت وتناهت نشاطاً ورغبة في تسنم ذرى الفكر ليست بقادرة على أنْ تستخرج من نفسها آثار ذلك الإرث الذي أودعتها إياها يد العصور وهي قوة الشعور قوة الحب التي تخلق من الكائن الترابي العادي إلهة سامية جليلة .

***

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر ! يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتمزق بوطئه جلابيبها وتنثر وريقاتها . كذلك تكفي ملامسة الألم للنفس المنفردة ليثير منها الأشجان ويستقطر من محاجرها العبرات .

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة الزينة والغنى وارتفاع القدر .

أما أنا فلا هذه العطايا تغرني ولا تلك الموهب تستهويني . شيء واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب . شيء واحد ينبه إعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا وهو زهرة نادرة المثال ، شمسُ الذكاء والمعرفة تحييها ومياه العواطف العذبة ترويها ، ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح في ثنياته !

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٥ ، ع١٠ . ١٥ديسمبر١٩٢٤ . ص٥١٧-٥١٩

خطبة الآنسة النابغة ميّ(×)
في مؤتمر العائلة

اعتلت المنبر الكاتبة المشهورة الآنسة «ميّ» المعروفة بتآليفها وأبحاثها . فما بدت للحضور حتى دوى المكان بالتصفيق ، وكانت حضرتها السيدة الثانية التي اشتركت في محاضرات المؤتمر . وبعد هنيهة ساد فيها السكون والهدوء ، بدأت كلمتها بالشكوى من الخطيبين اللذين سبقاها لقصرهما كلامهما مدة ساعة ونصف الساعة على المرأة دون أنْ ترى علامة احتجاج من السيدات عليهما ! وبعد أنْ قالت إنهما اعتديا على محاضرتها بحيث أصبحت لا تعرف ما تقول ، قالت إنها تشرك صوتها مع الأصوات العديدة المتعالية بالثناء على موجدي فكرة مؤتمر العائلة والذين اهتموا به ثم حيت دار المدرسة المارونية التي تهيمن عليها روح لبنان الشماء ، وحيت بعدئذ في شخص الأقباط الكاثوليك الحاضرين جميع المصريين الكرام الذين أكرموا وفادة إخوانهم اللبنانيين والسوريين ، فقوبلت كلماتها هذه بالتصفيق والاستحسان والتأييد . وشكرت بعدئذ لجنة المؤتمر التي جعلت للنساء مكاناً بين الخطباء مقتدية في ذلك بالمسيح الذي كان أول من رفع المرأة وأعلى شأنها : ففي كل البلاد أصوات متعالية ترتفع كل يوم طالبة تعديلاً في نظم الحياة ! وفي قواعد الحروب ، وفي سنن السياسة وبين هذه الأصوات صوت قائل «افسحوا للنساء مكاناً !» وقالت إنَّ مكان النساء منفسح لهن في البيوت ، ودوائر الأعمال ، والجمعيات ، وفي المؤتمرات العلمية والاقتصادية والسياسية . وتكلمت عن العائلة فقالت إنها نواة المجتمع تتماسك حولها دوائر العمران حتى إنه قيل : «كما تكون العائلة يكون المجتمع» والمرأة دعامة العائلة وروحها . ونحن النساء

لا نريد أنْ نهضم الرجل حقه ، فهو جدران البيت وسقفه ولكن كيف تتماسك الجدران والسقوف بلا أساس متين ، أي بلا روح ! وهنا تطرقت إلى الكلام عن فوائد المؤتمر فيما يمس المرأة ، فقالت إنَّ للمرأة تأثيراً كبيراً في المنزل ، والتأثير هو كل شيء : فإن صالحاً فللسعادة ، وذلك هو النعيم ، وإلا فللتعاسة ، وذلك هو السقوط والغم والشقاء .

وقسمت الخطيبة الكريمة تأثير المرأة إلى ثلاثة مظاهر : الأول منها في تدبير المنزل وهو محسوس يبدأ في الأعمال الصغيرة ، الوضيعة ، في النظام والترتيب . وقد أصبح مهماً جداً حتى أفردت له دروس خاصة في مدارس البنات . على أنَّ المدارس الشرقية -ما خلا مدارس الحكومة المصرية- ساهية عن أهمية هذا الفرع عند الفتاة ، فيجب ألاَّ تنتقل الفتاة من حجر والديها إلى منزل زوجها وهي لا تعرف فيه إلا أثاثه وما فيه من متاع ، بل يجب أنْ تعنى بالتدبير المنزلي . وهنا أنحت باللائمة على بعض الشابات الشرقيات اللواتي يجاهرن بأنهن يأنفن دخول المطبخ على ادعاء أنهن لم يخلقن ليكنَّ طاهيات وأتت بأمثلة ذكرت فيها اسماء بعض الملكات والأميرات الغربيات اللواتي يعرفن كل كبيرة وصغيرة في التدبير المنزلي .

أما المظهر الثاني لتأثير المرأة فهو الإدارة البيتية وقوامها الميزانية الداخلية . ولم ترد الخطيبة أنْ تتبسط في هذا الباب مكتفية بالخطيب الكريم الذي سبقها ، على أنها صاحت في المرأة أنْ تتقيد بميزانية بيتها كل التقييد لأن المرأة لا تتقيد بها عادة !

والمظهر الثالث هو التأثير المحسوس فقالت إنَّ اللّه بعد أنْ خلق العالم بجماله رأى أنَّ هذا الجمال لا يكفي وأنّ كل جمال يجب أنْ تقوده الروح ليكون فعالاً ، فنفخ روحه في الأرض ، كذلك البيت فلقد يكون منسقاً مرتباً ولكن أهم شيء فيه هو الروح تنشرها المرأة . والمرأة الصالحة هي الشجرة بل الواحة في الصحراء ، وهي العطر والجمال والحب ، بل هي الحياة ، أما إنْ لم تكن صالحة فهي النار ! وقالت إنَّ تأثير الرجل عظيم ولكن تأثير تلك الروح أعظم ، والمرأة

هي مصدرها ! وهناء البيت في يدها فلقد يكون الرجل ذا أغلاط فإذا كانت المرأة حصيفة رشيدة مخلصة هنأت العائلة أما الشقاء في المنزل فمحتوم إذا كانت غير عاقلة حتى لو كان الرجل وجيهاً عالماً ! وكما أنَّ المرأة كانت توضع قديماً حارسة على النيران المقدسة ، فهي حتى الآن حارسة هذه النار ، أي الحياة تلك النار المحيية المجددة ، المنعشة ، المنيرة . وتأثير المرأة لا يتم بالإرشاد ولا بالإرادة بل هو مجموع أخلاقها ، مجموع علومها وعواطفها ، ومجموع رقتها وقوتها . فهو إذاً لا يتم في لحظة ولا يأتي في عام . بل هو يبتدىء بالأعمال الصغيرة حتى يتسنى للعائلة بعدئذ أنْ تسمو وتعلو وتقوم بكل ما يطلب منها .

وختمت المحاضرة خطبتها بأن قالت إنَّ الوسائل الفعلية التي تخفف ميزانية العائلة هي تنظيم الإنفاق بعد النظر إلى الإيراد ، كما أنَّ وسيلة التغلب على روح البذخ المخلة بانتظام العائلة هي العمل الموزع على أفراد العائلة جميعاً فمن عمل عرف قيمة المال فلا ينفق الدرهم بسهولة ، وكما أنَّ من الواجب انشاء دروس خصوصية للتدبير المنزلي لأنه مطلوب من كل فتاة أنْ تدرسه قبل أنْ تدرس الفنون الجميلة والموسيقى والغناء لأنها مهيأة لأن تصير ربة (المنزل يوماً ما) وأخيراً تكلمت عن الجمعيات وشركات التعاون بكلمة وجيزة .

---

* مجلة المرأة المصرية . س٦ ، ع٩ . ١٥مايو ١٩٢٥ . ص٢٦٩-٢٧٠

× منشورة بشكل أوسع في «المقتطف» .

إلى صديقة بعيدة

تقولين يا صديقتي إنك تألمت لأجلي . وإني ليكربني ويسعدني معاً أنْ يكون لك مني باعث على الألم . لأن النفس لا تسبر قدرتها وتعرف صفوة ما لديها من اللذاذة إلاّ في الألم .

أسلّم بأن ليس لكل أحد من الناس أنْ يدرك هذا الأمر ويهتدي إلى حقيقته . على أنَّ هذا هو الواقع وإن قلّ فاهموه . ثم أليس أنَّ الحب كل الحب في أنْ نتألم في سبيل امرىء أو غاية فنظل على حبنا وتعلقنا رغم المعاكسات والغموم؟

أنت روح جميلة . لذلك أثق بأنك تفهمين ما أقول ويعزيني أنْ لا تكون أفكاري غريبة عنك ، لأن العامة ترى في تقدير الألم محض الجنون . فإن تحتم الجنون بين بني الإنسان فإني أؤثر جنوني الذي يدرك نفسه ويحب ما يفعل على جنون السخفاء المغرورين الذين يدَّعون لأشخاصهم التفرد والعصمة . وما ذلك إلا لأن غشاء ضرب على قلوبهم وعيونهم فهم لا يبصرون ولا يفقهون .

كلا ! لست من تلك النفوس الضئيلة الضعيفة الفزيعة المتطفلة ، التي تلقي بنفسها أبداً على الآخرين وتتلقف الفكر الشائع والرأى السائر دفعاً للتفكر والتبصر والجهاد . ألا إنما قيمة الحياة في السعي لبلوغ غاية سامية والعمل في سبيل مثل أعلى . وقد تصيب المرء طعان وجراح تدمي منه النفس والجسد ، وقد يلاقي حتفه خلال الكفاح والنضال ، ولكنه على الأقل ، يذكر شريفا أنه سعى وناضل وتحرك وحاول ، أنه جدّ في تصريف قواه ومرّن تينك الصفتين اللتين هما من أنبل ما تكن طبيعة الإنسان : الذكاء والإرادة . أما تلك الجماهير التي لا تحصي ولا ترى من الأمور والممكنات سوى الناحية الضئيلة المألوفة ، تلك الجماهير التي تتحايل على الراحة والوجاهة والمال لتنال منها المظهر

المعروف والدعوى والغرور ، تلك الجماهير التي ترضى بكل شيء دون تبصر ولا اختيار وتستكن إلى خمول التنعم دون شرف الجهاد ، تلك الجماهير التي ما الذكاء عندها والإرادة والعاطفة إلاّ عبيداً خانعين للآراء المتناسخة والأفكار المتناقلة منذ سحيق الدهور ، تلك الجماهير التي مثلها الأعلى إنما هو أدنى مثل ناله حتى اليوم بنو آدم -تلك الجماهير لا تستطيع أنْ تفهم النفوس النزاعة إلى ما فوق الأمور العادية والأماني الزقاقية ، لا تستطيع أنْ تفهم النفوس التي تطلب من الحياة مثلاً أمثل وتجاهد لتحقيقه أو الدفاع عنه .

أيقرني ضميري على ما عزمت على إتمامه وأصررت على الفوز به؟

أيدنيني مسعاي هذا من مثلي الأعلى الذي يجعل الحياة ذات قيمة في نظري؟

أتتقوى إرادتي وتصقل مواهبي خلال ما أسعى إليه وأجاهد في سبيله؟

أأنا واثقة من صلاح عملي وشرافة مسعاي؟

إذا كان الجواب على هذه الأسئلة الأربع[1] إيجاباً إذن فسبيلي هو السوي أياً كان رأي الجماهير فيه ، ومهما حاول المشاغبون الطعن فيه وتشويه جماله لعجزهم عن الشعور بما يعوزني والإحساس معي والجمهور الذي لا يقدر إلاّ الراحة الأدبية ، ولا يتوق إلاّ إلى الموافقة والاستسلام ، ولا ينشد في يومه إلاّ اللهو والمرح والتنعم ، فذاك جمهور لا يمضي بإدراكه إلى أبعد من سطحيات الأمور ، ولا يفهم ولا يستطيع أنْ يفهم نشوة الجهد وعزة المجاهد .

وإذ تتألم نفسٌ محبة في سبيل نفس محبوبة ففي ذلك جهاد نبيل مرغوب تتقوى فيه الملَكات ، وتسمو الميول ، وتنتظم النزعات والرغبات ، ويصبح المجاهد عنده بطلاً عبقرياً على نوع ما ، لأنه يرمي إلى ما هو في نظره جميل عظيم ويخلق الوسائل لتحقيقه .

ايزيس كوبيا (ميّ)

---

* مجلة المرأة المصرية . س٧ ع٢ . ١٥فبراير ١٩٢٦ . ص٧١-٧٢

١- المقصود الأربعة .

تأبين المرحوم سليم سركيس

اجتمعت أسرة الصحافة يوم السبت ١٣ مارس ١٩٢٦ الساعة الرابعة بعد الظهر بتياترو حديقة الأزبكية في حفلة لتأبين زميلهم المرحوم سليم أفندي سركيس .
وقد خطب الحضور بعض الأدباء والصحفيين ونحن نسجل هنا خطبة الآنسة ميّ .

خطبة الآنسة مي

أيها السادة والسيدات

يتذكر الأحياء فيضعون على كل ضريح شارة صاحبه وشعاره جهاده ، فالسيف على ضريح الجندي ، والأجنحة على ضريح الشاعر وقسطاس العدل على ضريح رجل القانون ، والصحيفة المنشورة على ضريح الأثرى والباحث والراية على ضريح المجاهد والشمعة المحترقة على ضريح الفادي .

أما سركيس[1] فأخص خصائصه الظرف والفكاهة ، ظرفه الشخصي الخاص ، وفكاهته التي كانت في يده آلة ووسيلة وقانصة وسلاحا ، فيخيل إليَّ أنَّ روحه المطلة علينا الآن من عالم البقاء قد تجدنا أطفالاً أغراراً إنْ نحن لم نستعمل في استحضارها سوى الأفكار الراجحة الباهظة . وقد يخيب ظنها في فطنتنا لو نحن حرمناها شارة موهبتها الكتابية . لذلك أنا التي قُدّر علي أنْ ألقى بطاقتي بين البطاقات الموضوعة الليلة على هذا الضريح المفتوح حديثاً ، أضم إلى أزهار الأسى والذكرى زهرة الابتسام الوردية اللطيفة ليعلم صاحب الضريح أنَّ هذه الأزهار إنما ضفرت له خصيصا ، وأن أصدقاءه يعلمون أنَّ للذكرى مؤاساة كما لها جمرات وأن لها ابتسامات بقدر ما لها من دموع .

***

تسمعون الليلة ممن هم أقدر مني عن فتوة سركيس «الحركة الدائبة» في

همته ، وذكائه ، في احتياجه الشديد إلى الإعجاب والتحمس والطرب ، في مقته للظلم والعبودية وتعشقه صيحة الحرية . تسمعون وصف الأجواء التاريخية الاجتماعية التي انفعل بها من جو سوريا العثمانية الحميدية ، إلى جو مصر في آخر القرن الماضي ، إلى أجواء أوربا وأمريكا ، إلى جو مصر نهائيا في هذا الربع الأول من القرن العشرين -مصر الغضنفرية المستيقظة التي تنيل النفوس أجنحة من النار والنور في هذه الأعوام المتلظية . تسمعون عن مساعيه للربط بين أهل الفكر والقلم وتكوين أسرة أدبية منهم ، عن إشادته بذكر النابهين عند ما يقف على بعض آثارهم ، عن محاولته أنْ يجمع -بواسطة ذوى النفوذ الفكري والسلطان الأدبي- بين مختلف العقائد والطوائف والأحزاب في الأقطار الشرقية دون أنْ ينسى الشرقيين النازحين إلى الأقطار الأوربية والأمريكية . هذه موضوعات نيطت معالجتها بخطبائنا القادرين وشعرائنا النابغين . أما أنا فقد أخطرتُ بالمثول أمامكم دون أنْ يعين لي موضوع القول . وفي هذا الإهمال في الظاهر حكمة بالغة ، لأن مجرد إفساح هذا المكان لفتاة بأمر الأسرة الصحافية النبيلة هو في نفسه أكبر خطاب وأدل موضوع ، وأسنى القصائد وحياً وجمالاً ! ورغم ذلك فأنا قائلة كليمة ألمع بها إلى ما يلتصق في نفسي بذكر سركيس ، وإن ظهر في البدء غريباً عنه .

تتذكرون الأغراس في عالم النبات؟ إنها تُخال راضية قابعة ليس لها من شوق ولا مطلب ، ولكنها رغم الظواهر تتمخض أحشاؤها بثورة عنيفة . إنها أبداً ناقمة على نظام العبودية الذي رسّخ جذوعها في الثرى ، أبداً مهيئة البذور منها للانتقام والبذور النشوي بجدة الحياة وحداثتها لا تلبث أنْ تمزق الأنسجة واللفائف ، وتهجر مرابضها في كؤوس الأزهار لتفر إلى دائرة نمو جديد ، إلى ممكنات عالم جديد تستقر في تربته ، وتتشبث بحيويته وتندمج في فضائله ، وما هي بذلك إلاّ خاضعة لقانون التطور في الكون الذي يحدو أبداً بالكائنات والموجودات والخلائف من مظهر عبودية إلى مظهر حرية تنقلب بدورها عبودية ، إلى مظهر آخر من الحرية ، ذلك القانون الهاتف على الدوام رغم الصعاب والعقبات

والنوائب : إلى الأمام ! إلى الأمام !

وهذا الشوق المكتسح بذور الأزهار إلى هجر أصولها والتفلت من مقدورها لتقيد بمقدور جديد -نجده ولكن بصورة أخرى بين الجيل والجيل من بني الإنسان بل بين أبناء الجيل الواحد عندما تأخذ الجماعة في الخروج من حالة عامة متشابهة إلى حالة تفصلها فتبرز هنا وهناك شخصيات تستنير بأنوار غير معروفة ، وتطلب للأفكار والعواطف والشؤون صوراً غير مألوفة ، وتدرك من حياة الاجتماع وحياة الكون وجوها لا تتراءي لأحد من قومها . تلك الشخصيات هي المنفية في ذويها ، الغريبة بين أحبابها ، وربما المجهولة سهواً أو عمداً حتى ممن أحسنت إليهم ورفعتهم إلى أفق من الحياة جديد . وما تلك الشخصيات إلاّ وسيلة ينفذ عن طريقها قانون الجور والإنصاف العظيم . قانون العراك والتناحر بين ما نسميه في جهالتنا القديم والحديث ، بين التقدم والتقهقر ، بين ما هو كائن وما يجب أنْ يكون .

حالة نبيلة كما ترون ولكنها أليمة . قدرت على بعض النفوس في كل جيل ولكنها كانت أعظم انتشاراً في القرن الماضي بحكم طبيعة الأشياء وأظن أنَّ أول من عرفها بوضوح وأوجد لها شبه قالب معين في عالم الطباعة وفي عالم الأفكار هو الأديب الفرنسي موريس باريس(٢) في كتاب صدر سنة ٩٧ في كتاب وصف فيه حالة بعض أولئك المنفيين من مرتبتهم ومحيطهم وعادات جماعتهم الفكرية والأدبية وصنوف مطالبهم ومطامحهم وهو الذي أطلق عليهم اسما بديعا في بلاغته ، فقد دعاهم «المستأصلين» وهو الاسم المرسوم به كتابه ، ولا شك أنه ألهم ذلك الكتاب لأنه كان «مستأصلا» هو كذلك . هو ابن اللورين المنسلخة عن فرنسا مع الألزاس في الحرب السبعينية مما أرغم بعض المتعصبين لجنسيتهم الفرنسية أنْ يهجروا إقليمهم الأول لإقليم فرنسي آخر ، فحلَّ موريس باريس على الرحب والسعة في باريس مدينة النور . وظل شاعراً رغم ذلك بالغرابة الناتجة عن بتر الوشائج الطبيعية التي يتصل الفرد بجماعته فيتبادل وإياها الحقوق والواجبات التي جرى عليها الآباء والجدود دهراً بعد دهر . وهناك

حكم مؤلف «المستأصلين» بأن الغرسة المستأصلة في عالم النبات . واشتد دور الانتقال ، وغليان الأفكار ، وتباين المشارب والمذاهب بعد الحرب فاهتم حتى العلم بتلك الحالة الخاصة في الأفراد فتناولها كريبلين الألماني ، أعظم علماء النفس الأحياء في أيامنا فزادها إيضاحاً على نحو ما أوضحها علماء الاجتماع من الروس ، وسماها «الاستئصال» هو الآخر ، وعرف ما قد ينجم عنها من غموم ونكبات . ولكنه قرر كذلك أنها من أبدع مظاهر التطور المشجعة للجماعات على التملص من القديم البالي للسير في سبل التجدد والحياة ، وأن هذا الاستئصال لا بد منه لبعض الأفراد ولو نزت القلوب لأجله أزكى الدماء وتفطرت في سبيله المرائر .

أتحسبونني ، أيها السادة والسيدات ، قد شططت عن موضوعي ونسيت سركيساً؟ كلا ! بل قد بلغت الساعة صميم ذكره ، لأن هذه الغربة قد ذاق مرارتها بعض النابهين في أقطارنا رواد الانقلاب العظيم الذي نراه كل يوم في ازدياد ، لقد وجدوا منذ أعوام أولئك الذين لمحوا وجوها جديدة في عالم الإدراك والأدب والسياسة وغايات الأفراد والجماعات ومرامي العمران . أجل وجدوا ، إذ ليس في مقدور هذا الشرق المجيد أنْ يكون متحف موميات وآثار تحدّث عن نور تألق في سالف العصور ثم خبا إلى منتهى الدهور ! كلا ، كلا ! ليس هذا نصيب الشرق من الوجود ! لذلك برزت البذور الجديدة من كؤوس الأزهار هاتفة : «لست للجمود ! إلاّ خروجاً إلى النور والحياة لأني خلقت للحياة في النور المتجدد !» .

وسليم سركيس الذي كان في طليعة أنصار الحرية والتجدد ، كان نسيجا وحده تقريبا في العطف على هؤلاء الغرباء النبلاء والمستأصلين المحسنين ، فكون لهم من جرأته ، ومن صحيفته ومن مساعيه وسطاً حياً معزيا . إنه كان يهتدي إليهم بالبداهة كأن بينه وبينهم علامات سرية وإن لم يكن في وسعه أنْ يكون لهم الأرض المخصبة التي تستقر فيها النبتة المعذبة فتطمئن على مصيرها ، فإنه كان يقول لكل منهم بأسلوبه الخاص : «إني هنا ! إني أعرف من

أنت ! وهاك يدي تصافحك» .

وكأن هذه اليد ، يد سركيس ، قد امتدت إلى أعضاء الأسرة الصحافية بعد وفاته فجمعت بينهم ثم امتدت إليكم ، أيها الحضور الكرام ، فأحكمت الوثاق بينكم وبين الأسرة الصحافية النبيلة فأتم في مماته ما بدأه في حياته لأن روابط الموت أقوى من روابط الحياة ، فاجتمعنا هنا بقوة هذه الرابطة التي ينطق بها اليوم كل شاعر وكل خطيب .

وبين الذين عززهم سركيس وعطف عليهم من الغرباء والمستأصلين تجد المرأة . تلك المنفية عن نفسها التي يحكم عليها المجتمع بقتل فكرها وعواطفها ونزعاتها ولو أخفى الامتثال منها ألف أكذوبة ، وألف دسيسة ، يسمح لها بالثرثرة والنميمة والزور وينكر عليها كلمة الرفعة والنور يسمح لها حتى بالفوضى الأخلاقية باسم ضعف الأنوثة ويأبى عليها أسمى مجالي الأنوثة في مواقف الرفعة والكرامة : يضغط عليها باسم مصلحة الوسط والعائلة والوطن والتاريخ فتتمثل هازئة ولكنها توسع تمزيقا وإفساداً ، وتخون الوطن وتجعل التاريخ مغلوطا .

كان سركيس من أبكر رجال الشرق شذوذا في تأييد المرأة التي تستحق التأييد . وظل على هذا الشذوذ حتى النهاية . هو الذي كتب في العام الماضي إلى أديبة بيروتية مسلمة ، الآنسة عنبرة سلام(٣) ، يستحثها على نشر أفكارها والخروج من تكتمها ، فقال ما معناه : «الجدود والآباء كانوا يركبون الجمل والحمار ، أما أنت فتركبين السيارات . ولا بد أنْ يكون الفرق بين أفكارك وأفكارهم على نسبة الفرق بين السير على جمل والسير في السيارة» .

عزز سركيس المرأة بحثّها على الكتابة ، بتيسير ذلك لها في الصحف التي تولّى تحريرها ، بنقل كتاباتها وامتداح مجالسها ، بانشاء صحيفة لها وانتحال اسم نسوى ليستدرجها إلى الكتابة ويغريها . وإذا جاز لي أنْ أتكلم عن نفسى قلت إني نلت من تشجيعه ما لم تنله أديبة غيري . وإذا وقفت اليوم حرة على هذا المنبر فأصغيتم إليّ بسكوت وتهيب ليس بصفتي الشخصية ، ولكن لأني هنا

أمثل يقظة جنسي وأنطق بكلمة المرأة . إذا وقفت هنا فأفسحتم المكان لصوتي وفكرى كأنهما صوت الرجل الممتاز وفكره سواء بسواء فإن ذلك يدل على الروح الجديدة التي تهتز البلاد من أقصاها ، إلى أقصاها يدل على سامي إدراككم وشريف شعوركم ، يدل على نبل الصحافة المصرية وهمتها في عطفها العظيم على قضية المرأة وعلى الحق والإنصاف : ولكن موقفي هذا يدل أولاً على فضل سركيس الذي دفعني وأنا مبتدئة حديثة السن إلى منبر الخطابة لأول مرة في مصر في حفلة تكريم خليل مطران قبيل الحرب : لذلك قلت في مطلع الكلام إنه حسبي أنْ أقف اليوم على هذا المنبر صامتة ليكون وقوفي خطبة رائعة ناطقة بنبل الصحافة المصرية .

---

* مجلة المرأة المصرية . س٧ ، ع٣٠ . ٢٠مارس ١٩٢٦ . ص١٤٩-١٥٢

١- سليم سركيس (١٨٦٧-١٩٢٦) . صحفي لبناني . ولد وتعلم في بيروت . عمل في الصحافة اللبنانية وخاصة جريدة «لسان الحال» . هاجر إلى مصر فأنشأ جريدة «المشير» ومجلتي «مجلة سركيس» و «الحسناء» التي اصدرها متستراً وراء الاسم المستعار «مريم مزهر» . توفي في القاهرة .

٢- Maurice Barres (١٨٦٢-١٩٢٣) . روائي وسياسي وكاتب مقالة فرنسي . ولد في مقاطعة اللورين . درس القانون إلاّ أنه قدم إلى باريس وانصرف إلى الأدب . دخل معترك السياسة نائبا في البرلمان . ما بين ١٩١٤ و١٩١٨ نشر مقالات سياسية عن الحرب .

٣- عنبرة سلام الخالدي . كاتبة لبنانية . فرض عليها الحجاب عندما بلغت العاشرة . تعلمت فترة في مدرسة مار يوسف ببيروت إلاّ أنها أجبرت على ترك المدرسة والعودة إلى المنزل حيث تابعت دراستها على أيدي مدرسين خصوصيين أمثال عبدالله البستاني وجوليا طعمة . تزوجت من المربي الفلسطيني أحمد سامح الخالدي عام ١٩٢٧ وانتقلت معه إلى موطنه القدس .

رسالة إلى بلسم (عبد الملك)

عزيزتي السيدة بلسم

أشكر لك خطابك اللطيف والعدد الأول من «مجلة المرأة المصرية» لسنتها الجديدة الذي أتحفتني به . وأهنئك على ما وصلت إليه المجلة من مظاهر التقدم والنمو والتحسين ، بفضل ما تبذلين لأجلها من نشاط وذكاء واجتهاد .

وخيراً صنعت إذ ضمنت هذا العدد شيئاً من نفثات خالدة الذكر باحثة البادية . إنها فضلا عن بيانها المؤثر –حقيقة بالذكرى في كل فرصة سانحة . ذلك واجب إنما يؤدي لاسمها كصديقة ، ولآثارها ككاتبة ومصلحة .

ولقد وقفت حيال هذه المراسلة بيني وبينها . وراجعت تلاوة هذه السطور وانقلبت «أحيا» في معانيها وفي الساعات التي حبرتها فيها ، أيام أول عهدي بالكتابة إذ كانت مخاطبتي تفيض صحة وعافية –رغم أنها كانت طريحة الفراش من توعك عارض عندما زففت إليها تحيتي الأولى ثم انتقل بي الفكر (بالسرعة التي هي من خصائصه) إلى حين تعرفي بك بعد وفاة الباحثة بعام واحد ، إذ آنستني بزيارتك الأولى لنتحادث في شأن إقامة حفلة التأبين لذكرى الفقيدة . ثم إلى المساعي التي بذلت ، والاجتماعات مع فضليات السيدات من أعضاء اللجنة للتمهيد لتلك الحفلة . ثم إلى الحفلة نفسها وما كانت عليه من الهيبة والفخامة والتأثير في حضور ذلك العدد العديد من إخواتنا ، ورشاقة اللائي منهن اعتلين المنبر وحسن أدائهن . ثم إلى خطابي والعبرات التي كانت تقطع على مطلعه وأنا أؤبن الباحثة العزيزة . ثم إلى تعبك ومجهودك لنجاح اجتماعنا في النظام الجميل الذي سرنا عليه من البداية إلى النهاية .

وذكرت بعدئذ مجلتك إذ هلت صغيرة لطيفة في أعدادها الأولى ، فإذا بها تتدرج في نمو طبيعي من شهر إلى شهر ، ومن مرحلة إلى مرحلة حتى بلغت هذا

المبلغ من المنظر البهيج والقيمة الصالحة وأتمنى أنْ تظل على نموها هذا في سيرها حتى تستكمل نضجها عاماً بعد عام .ولست أقتصر على التمني فحسب . بل أنا واثقة من ذلك لأني أعرف ما أنت عليه من النشاط وصدق العزيمة . ولا شك أنَّ إخواتنا مقدرات كل ذلك وجاعلات هذه المجلة مجلتهن -كما ينبغي أنْ تكونْ . كذلك المعت إلى سروري بأن أتفقد المجلة بكلمة مني بين حين وحين . وأنا أشكرك لهذه الذكرى . وأود لو مكنني الوقت بأن أجعل أحاديثي في صحيفتك متواترة . على أني سأفعل كلما استطعت سبيلا فوجدت في صفحات «المرأة المصرية» بياضاً يضيفني فتتساجل عنده خواطري . هل لديك شيء من أخبار صديقتنا السيدة نور الهدى؟ إني لم أسمع صوتها منذ شهور لا بسلكي ولا بلا سلكي ، فهل يستولي «التفتيش» على من كنّ مثلها يعرفن أنْ يجدن لكل أمر وقتاً؟ إني شديدة الشوق إليها . فأين هي؟

وأرجوأنْ تبلغي حمدي بك يكن أني في رسالته الأخيرة إلى «المرة المصرية» عثرت على كلمة «أيضاً» كتبها مرتين اثنين بالقلم العريض .

فكيف ساغت له تلك اللفظة بعد ذياك النفور؟ وذلك القلم العريض الذي خطها به -أتراه وجده في سكرتارية مجلس النواب؟

أما الآن وقد أعجب بها إلى هذه الحد فهو لا شك ناظم قصيدة للتغني بمحاسنها . أليس من البداهة أنْ يمتدح المرء ما يعجب به؟ ولعله يستخرج منها طيفاً يجعله عروس شعره ! فقد جاء في الأمثلة العامة التي تلخصت في بعضها حكمة الشعوب وخبرة الأجيال أنَّ «ما هو أحلى من الحلاوة الصلح بعد العداوة» .

هذا ولك في الختام تهانئي على دخول المجلة سنتها الجديدة بهذه الحلة الجميلة ، وشكري على خطابك وعلى زيارة «المرأة المصرية» لي كل شهر ، وخالص التحيات والسلام .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٨، ع٣ . ١٥مارس١٩٢٧ . ص١٢٢-١٢٣

براع الكاتبة النابغة ميّ

تصف ما رسمته ريشة المصور

المعرض المصري لجماعة (الخيال)

أصبحت الحياة الفكرية والفنية في القاهرة من الاتساع والإيناع بحيث يجوز أنْ يسهل وصف كل مظهر جديد منها بعبارة «تابع لما سبق» واختتامه بكلمة «يتلى» .

والفصل الذي نجتازه من أنشط الفصول فقد انعقدت فيه المؤتمرات الدولية وافتتحت المعارض الآلية والزراعية والصناعية والفنية ، ووفود السياح تترى وبينها فضلاً عن رجال السياسة والمكانة والشهرة والثروة نخبة من أقطاب العلم والأدب والفن والمسرح . والمنتظر أنْ لا تنقضي أعوام حتى تضحى القاهرة ملتقى عالمياً عظيماً ليس فقط لسراة المسافرين وناشدي المعلومات الأثرية ومتلمسي غرائب الأخبار في بلد قديم ، وطالبي المنافذ الصالحة لترويج تجارتهم وتصريف مصنوعاتهم ، بل الرواد الأوساط الفكرية الفنية بما يقدم لها العالم .

على شاطىء النيل –لمختار[1]

جمع من وقود كغناها بلهيبها الخاص المتوهج في نور القرن العشرين آتيا من قلب العصور السحيقة ، عاودني هذا الخاطر إذ أممت معرض الخيال فالمكان المفرد لذلك المعرض صغير ، والعارضون فيه ثمانية ليس غير . والمعروضات غير عديدة لا يشتت بينها الفكر ولا تتعذر فيها الإحاطة بل هناك شخصيات إنْ اختلفت كل منها عن الأخرى في ما تميل إليه وتتخيره وتتداوله من الألوان

والخطوط والأوصاف والأغراض فكلٌ منها قيمة في ذاتها خالفة في عزلتها وقفت على خصائصها الطبيعية فتفرغت لأداء بيانها بحرية وتنوع وهي تتعاون جميعاً على تكوين نواة طافحة بغضاضة الحياة بشيرة بالنمو والترعرع في غد قريب . وكل منها تقدم من موهبتها الشخصية وخبراتها ووراثتها العالمية وذكرياتها وقداً وذكوة للهيب الذي أشعلته العبقرية في أرض مصر قبل أنْ صارت الأعوام أحقاباً .

عند كل من هؤلاء العارضين تجد مزيجاً من التأثر بالروح المصري واستخدام العوامل الخارجية بدرجات ومقادير متفاوتة غير أنَّ الروح المصري أظهر ما يكون في تماثيل (مختار) ولوحات (سعيد) .

«مختار» هو مثال الفلاحة المصرية الذي يخلق لها الوقفات الشريفة والأوضاع الأنيقة والملامح المهيبة بكياسة في بساطة الإشارة ورشاقة في بضاضة الأعضاء ثم ينفخها بوديعة من سر الهياكل المكنون فتنم سيماؤها عن تقدير لما أودعته وحرص في صيانته ، وهو بعد لا يفوته شيء من معاني اللطافة النسائية فبعث في تمثال (الفتاة التي تستريح) المصنوع من حجر البركان الأسود آية من الحلاوة والنعومة والدلال البريء . وبين معروضاته الأخرى تمثال لفتاة تهم أنْ تستقي ماء النيل وهذا مع تمثال (حاملة الماء) رمزان حافلان بالمعاني وإن هما لم يقدما إلاَّ ما يقع تحت الحس وحبذا تكبير كل من هذين التمثالين لا سيما «حاملة الماء» التي في روعة إشارتها واستواء قامتها تذكّر بأختها موقظة أبي الهول في (نهضة مصر) غير أنَّ «حاملة الماء» تؤدي معنى أصدق إحكاماً وأشمل خلوداً في مصريتها البسيطة البديعة وفي ما يوحيه وجهها من أنها تحمل في جرتها ليس ماء الجسوم فحسب بل رواء الحياة وكوثر الأسرار وكم هي تبدو جميلة ولو قامت أثراً عظيماً في أحد ميادين العاصمة .

أما شخصية «سعيد» فيما أوتيت من القوة والتضلع والجاذبية تطفو على كل ما تنتج ، ولو أنت درست لوحتين اثنتين من هذا الفن الجدي الرصين لاستطعت أنْ تهتدي إلى سائر معروضاته قبل أنْ تتبين التوقيع . هو فني المواقف العابسة وله

حذق تام في تنظيم مشاهده وكلها مهم خطير الرؤى . وهو كذلك مصري كل المصرية في إدراك عادات قومه وفي الإفصاح عنها ففي لوحتيه «المقابر» «دفن الميت» حديث يروي عن الماضي الغابر دون أنْ ينتحل مجد الفراعنة وعظمة الحضارة بل ليقتصر على عامة الشعب الذي هو مصدر الجمال وينبوع الإلهام وأطياف النساء بديعة الانسجام في وقفتها وانحنائها ووضوح تكوينها تحت الحبرة السوداء . و(نفسية) النواح والفراق شائعة في تلك اللوحات وفي تحليق الأطيار القائمة فوق المقابر حتى أحلام الزنجيات جدية في فن سعيد يصعب تعريفها وعيونهن ملأى بالألغاز التي ليس لك أنْ تحلها .

والتوافق تام بين موضوعات فنه وبين ألوانها فهو شغوف باللون البني ينوعه بحذق فمرة يجلوه حتى لتكاد تتبين فيه سحباً ذهبية وتارة يقتمه حتى الدجنة وهو في كل ذلك لا يكذب الطبيعة والواقع . كل فنه حافل بتدرج الألوان البنية مجملة مصقولة ويحاذيها دائماً زرقة كهربائية غامقة هي مجلى الفرح والرجاء . لا يخلو من الكآبة (ذلك النوع من الكآبة) المستحثة إلى الإقدام لا إلى التراخي كالجو الذي لا بد أنْ تكون الفته لنفس سعيد في الأحلام في نفس الفني . ومما لا يجوز إغفاله أنَّ ريشة سعيد في معروضاته هذه السنة أثبت في يده منها في الأعوام الماضية وفنه يتبع خصائصه وينمو في جلال واستقلال .

وإذا شئت اختلافاً عنه فعليك بلوحات (بريانس) فهي لطيفة رضية بهيجة في غير ضجيج . يسجل في الأطر جدران المنازل ولمعان النوافذ ومشاهد المقطم والمحمودية والقبور والطواحين والأحياء القديمة فيعكس عليها لمحات الجمال الغابر في تتابع الساعات وتقلب الأنوار والألوان ، فهو يحب تلك المناظر البسيطة البليغة بتاريخها الصامت وميزاتها (البلدية) في الهندسة والشكل وكلها سيكتسحها لا محالة تيار التطور يوما بعد يوم . يميل إلى الباهت من الألوان ميل سعيد إلى القاتم وكأنما هو يستخدمها من مادة أرق من المادة المألوفة وأصفي ، فإذا به يباغتك بمس من ريشته وبخط واحد نحيف مستمد من ألوان قاتمة يحدث تغييراً في ألوانه الرائقة الشفافة وانقلاباً في أغراض المشهد .

و(بوجلان) لا يبعد عنه كثيراً ولكنه عاشق الألوان الزاهية المشرقة فأخضره لا يزلج إلى الزرقة ولا أحمره يجيء وردياً ، يأخذك أحياناً ببساطة إذ يعرض أمامك مشهداً تاماً في ما لا يزيد عن خطوط ستة يسبغ على ما يتخلل مقاطعها ثلاثة ألوان أو أربعة تعلن نفسها عن بعد وتناديك إليها . في فن بوجلان بهجة الشباب وهو ألصق العارضين بالطراز الفني الحديث وهو بعد لا يروقه الالتباس بل يمعن في الإيضاح سواء في المشاهد الطبيعية . وفي رأس (التلميذ) الذي أفرغ في حدقتيه شيئاً من الحيرة حيال الحياة رغم أن هندامه ضرب من (البيجاما) على آخر زي ومن أجدّ الأقمشة . وقد يتلاقى مرة (بوجلان) و (بريفال) من حيث التلوين فتكاد تتردد بينهما لا سيما عندما تبدو آثار بوجلان في أدنى حالاتها بياناً وإشراقاً ولكنهما لا يتجاذبان حتى يتباعدا ليجري كل منهما وراء شخصيته الخاصة . وفن (بريفال) غني منوع يمضي من الظرف إلى الحزن ومن مشاهد الطبيعة إلى تناسق الأجساد ومن نسج النقوش الخيالية إلى استيحاء الأسطورة والتاريخ إلى استجواب زوايا المساجد واستطلاع حوادث الحي . في خياله اتساع لشتى المجالي والمدركات المتفاوتة المتباينة يترجمها عنا جميعاً بسهولة وأستاذية .

وهذا أيضاً من عشاق المرأة الخالدة بصرف النظر عن مكانتها وجنسيتها يزاول تكوين أعضاءها[٢] مستلقية على هواها فلا تدري أنائمة هي أم سابحة وتعجب بلون الجسد في شفوفه العنبري وفي سمرته المشوبة على السواء وقد عالج حكاية سالومي في لوحتين اثنتين كل منهما تنافس الأخرى في الجمال .

أما (شاروبيم) فعدد لوحاته قليل ولكنّ كلاً منها تصور جانباً من شخصيته وذوقه وروحه المصري وشعوره الصميم بحياة العامة . من ذا الذي لم يعجب «بدكان الحلواني» «ورأس الشيخ» فكلاهما يفصح عن الواقع الراهن وينبىء بخيال يقظ في الملاحظة والأداء وبقدر ما تبرز شخصيته في هاتين اللوحتين تراها تلطف في لوحته الشائقة «المساء في الروضة» وفي معالجته لجنس الحيوان «أخينا الأصغر» الذي يحبه ويفهم نفسيته المغلقة وخصائصه الحرية

بالاهتمام . وهكذا نصل إلى «بيازي» الذي تعددت معروضاته في غرفة أفردت لها . وهو كذلك منوع الفن غنيه بارع في صناعة التلوين والإنارة ، ذو ولع بحمرة «اللهيب» فيدخله في كثير من لوحاته متأججاً مشتعلاً متخففاً يلوح لوحاً . ومن أجمل معروضاته «رأس الزنجي» ذو القوة والجلاء في البيان وفي التعبير في الشفاه والعينين . «بيازي» فني العيون يحسن تصوير المشاعر والانفعالات في الأحداق . وسواء في صوره الاسبانية أو في المشاهد غير المصرية وفي جماعة الخيل وجمهرة المنازل والكاتب العمومي والمصلوب ومواكب الفرح ، في جميع آثاره تقع منه على شخصية شرقية جزلة وفن كثير الفروع مشبع البيان ، أما الصور الفوتوغرافية فنسخ واهية لآثار «لاشاك» بك . فإذا شئت أنْ تعرف هذا الفن الجميل فعليك ببناية بنك مصر التي انشأت الأفاريز المذهبة الفاخرة تضحك في أعاليها فتنشر من حسنها على تلك النقطة من الشارع وعليك بقصر «عدلي باشا» القائم في فخامته على شاطىء النيل في قصر الدوبارة .

إنما بالفن والثقافة تعرف الأمم نفسها إذ تهتدي إلى مواهبها ونزعاتها وتجرب مقدرتها في استغلال هذه النزعات واستثمار تلك المواهب وتخرج من كل ذلك صورة لا تخجل بها أمام الشعوب وأمام التاريخ فتكون لها حجة عند غيرها ومرآة تنظر فيها إلى نفسها فتتمكن من إصلاح مواقع النقص وتعديل الآراء وصقل الذاتية ، ولا ينجم كل ذلك إلاّ عن الفن المحكم الرزين ذي الخيال العالي والغايات الشريفة وعن الثقافة الفكرية والنفسية العالية .

ويمكن القول بأن الفن المصري الحديث ليوضع الآن حجر الزاوية منه . ومما يحمل على الاغتباط والرجاء أنَّ هذا الفن الفتي لا «يقلد» الفن المصري القديم ولا «ينسخ» الفن العربي الإسلامي إذ أنَّ نسخ الأقدمين ضرب من الجمود وعجز عن الإبداع ولا تثبت الأجيال كفاءتها للحياة إلاّ إذا عرفت أنْ تستأنف الإبداع من حيث وقف سيره برحيل أهله !

نسجل لفنيي اليوم هذا الفضل في نزعة التجديد وفي سيرهم إلى استقلال فني يهتدون إليه بالممارسة والخبرة سيما أنَّ مواد هذا الفن الغض كثيرة بين أيديهم

مفعمة بالحياة التي لم تستغل بعد ، ويزيد في التفاؤل ما نراه من تعاون المصريين والأجانب على تكوين هذا الفن الواحد ، لأن هذا التعاون وجد في مطلع كل ابتكار عند جميع الشعوب وهو دليل على أنْ ليس للفن من وطن وأن خدّامه وكهّانه أبناء جميع البلدان .

وللأرض المصرية فاعلية عجيبة في نعومتها وسهولتها تمر بها الشعوب وتتلاطم العوامل فتنتفع بما يلائم منها ثم تمصرها وتحولها إليها فتصير بعض أجزائها !

ذلك شأنها في الفن وفي غير الفن كذلك كانت في الماضي وكذلك هي اليوم ولن يغير الغد من طبيعتها الأبدية .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٨ ، ع٣ ، ١٥مارس ١٩٢٧ . ص١٣٦-١٤٠ .

١- محمود مختار (١٨٩١-١٩٣٤) . نحات مصري . ولد في قرية «طنبارة» بالمحلة الكبرى بمصر . توفي بالقاهرة . له عدة تماثيل أشهرها «نهضة مصر» و«عدلي باشا» و «عايدة في السلاسل» .

٢- المقصود أعضائها .

ميزانية العائلة وأهميتها[1]

إني على شرقيتي الصميمة وحبي العظيم لهذا الشرق في ماضيه وحاضره ومستقبله جميعا ، لست أجهل ما للغرب وثقافة الغرب ومفكري الغرب من فضل علينا عميم ، فبعلمهم اهتدينا إلى كرامة العلم وأمام مجدهم ذكرنا أننا ذوو مجد قديم ، وعن طريقهم أنشأنا نتبين معالم طريقنا ، ومن نور مدنيتهم أخذنا نشعل مصابيح مدنيتنا الحديثة . وحيال مواكبهم المقتحمة الظافرة تحفزت منا الهمم لتأليف موكب يسير بهذا الشرق إلى الأمام ولا يبقينه جامداً بين المتخلفين . ومنهم تلقينا الشرارة التي لمست منا النار الكامنة تحت رماد القرون ، فإذا بنا ونحن كما يرون ، تعترينا حمى النشاط والعمل ويبرح بنا ظمأ الحياة ، ويستحثنا الشوق اللجوج إلى التقدم والرفعة والفلاح .

وللأمريكيين في هذا الفضل قسط عظيم بما بثوا بين شبابنا وشاباتنا من علم نافع ، وخلق قويم ، وتعشق للحرية والاتكال على النفس . فسواء في مدارسهم المنتشرة في ربوع الشرق وفي معاهدهم التي يقصد إليها طلاب العلم من بلادنا إلى أمريكا ، لقد أفادونا إفادة تبتدىء في الأفراد وستظل فعالة في أجيال المستقبل القريب والبعيدة وسرعان ما نعرف بين رجالنا ونسائنا المطبوعين بطابع الثقافة الأمريكية ، تلك الثقة العملية المباشرة التي كونت نفراً من رجالنا المعدودين من أركان النهضة الحديثة في الشرق .

فليتقبل رئيس هذا المعهد الجليل وعمدته والقائمين بأمره ، كلمة الشكر والثناء التي أوجهها الساعة إليهم ، كلمة صغيرة ضئيلة في ذاتها ولكنها كبيرة باشتراككم فيها جميعاً ، قوية لأنها تتجاوب أصداؤها في كل قلب عرف لأمريكا الحرة المفكرة المثقفة حسن جميلها ونبل صنيعها .

***

وأحدث مآثر هذه الجامعة هو هذا القسم الذي أنشأته للخدمة العامة وشرفتني بأن جعلتني أحد خطبائه على أنْ أحدثكم في هذا المساء عن «ميزانية البيت وأهميتها» . وقد تقدمني في ٣٠ يناير المنصرم الدكتور محمود سكر بمحاضرته الضليعة الجامعة بين العلم المالي والاختبار الشخصي . وإذا سمحتم لي بملاحظة صغيرة في هذا الباب ، قلت إنّ الدكتور كان في هذا النادي رمزاً لذلك المشروع الخطير الذي يحق لمصر الحديثة أنْ تفاخر به . فبنك مصر يقوم الآن بتنظيم الثروة القومية في هذه البلاد مقدما الحجة القاطعة على كفاءة المصري إذا هو وضع يده في أمر ما وصمم على العمل والمثابرة . والدكتور الفاضل الذي هو من رجال بنك مصر جاء يدلنا كيف تتكون الثروة الفردية من غير ما تبذير ولا تقتير ، فتكون شرط الحياة الهنيئة للأفراد كما تكون أساساً للثروات القومية في الشعوب الحية . وبعد أرقام دكتور الأرقام بتنظيم الأرقام وبتبيان ما ينطوي من تحتها من المعاني ، بقي علي أنْ أتناول الموضوع من ناحيته الاجتماعية . ومن قال اجتماعا ذكر شتيت الشؤون المختبئة في هذه الكلمة وذكر خصوصا الفرد الذي هو دعامة المجتمع . ومن قال اجتماعا ذكر المرأة ملك العائلة أو شيطانها ! المرأة التي هي روح العائلة وروح المجتمع وروح الوطن ، وروح الإنسانية !

***

وقبل الاسترسال في الكلام علي أنّ ألمع إلى أمر ربما كان ضروريا للذين منكم قد يرون تناقضا بين ما كنت أكتبه وأقوله بالأمس وبين ما أنا اليوم قائلة وكاتبة .

منذ زمن غير بعيد كنت أتوهم أنّ المال غير ضروري للراحة وأنّ المرء قد يعيش على أهنأ حال وهو فقير معدوم . وهي نظرية ما زلت أراها صالحة للزهّاد في الصوامع –وليسوا بالعديدين في أيامنا !– الذين يستطيعون أنْ يعيشوا كأطيار السماء وأزهار الحقل مكتفين بما تتبرع به الطبيعة من بذور ، وتربة ونور وماء وهواء . وكنت أحتقر المال وأظنه أضأل من أنْ يعني به عقل ، وأذل من أنْ يجري وراءه حُر . كان ذلك بالأمس ، ولكن لا بد هنا من لكن ! ولكني تطورت ، أيها السادة والسيدات تطورت كما نقول بتعبير هذا العصر . تطورت لأن الحياة تأتينا

كل يوم بدرس جديد وتطبع فينا ما لا يفلح في تلقينه أبرع الملقنين ، وكلما زاد في عمرنا شهر أو عام صرنا أوسع إلماماً بالحاجات والمقتضيات ، وأتم معرفة لما يتحكم بنا من الشؤون .

تطورت فأنشأت أدرك حقيقة المال وخطورة شأنه . تطورت فأنشأت أدرك أنَّ المال سبب كل ثورة وكل اضطراب ، وكل حرب ، صغيرة وكبيرة ، وأن جميع المشاكل التي نسميها اليوم سياسية ودولية واجتماعية واقتصادية إنما تتلخص في المال وتحوم حوله . فهو في حياة الأفراد والمجتمع شأنه في حياة الشعوب والدول بمثابة الزيت من المصباح ، بمثابة التيار الكهربائي من النور ، بمثابة الدم من الجسد الإنساني .

ورغم كل ذلك ما زلت أحتقر المال واحتقاري الآن أشد وأحكم لأنه يقوم على العدل والمنطق ، أحتقره -وكلنا مشتركون في هذا الاحتقار- عندما يكون أداة لابتياع الضمائر ، وتزييف العواطف ، وإغراء الفضائل وتشويه الحقائق . عندما يكون وسيلة لاختلاق الأكاذيب والافتراءات ، وسيلة لإنكار الفضل وتفخيم الغباوة ، وسيلة للتهويش والهوان فيزحف حتى الذين نظنهم من الأحرار لأجله في الأوحال منكرين أسمى ما في ذواتهم ، متخلين عما يجب أنْ يعتصموا به ويذيعوه بين الناس من المبادىء والنظريات والعقائد .

كلنا نحتقر المال في مثل هذه الحال وفي هذا الاحتقار ، حتى ولو ظل نظريا ، صيانة للمبادىء الأخلاقية التي فيها وليس المال ، شرف بني الإنسان وعظمتهم الصادقة .أقول «احتقارا نظريا» لأن الذين يتفلتون من سطوة المال والجاه قليلون . ودون أنْ نهبط إلى تلك الدركات الذليلة في سبيل المال ، ترانا في الغالب مستعدين لتكريم الغني السري والازدراء بمن هو أقل ثروة وجاهاً . وقد كان ابن المقفع عليما بقلب الإنسان عندما قال :

«ليس من خلة هي للغني مدح إلاّ هي للفقير عيب . فإن كان شجاعاً ، سمي أهوج . وإن كان جوادا سمي مفسداً . وإن كان حليماً ، سمي ضعيفاً . وإن كان وقوراً ، سمي بليداً ، وإن كان لسناً ، سمي مهذاراً وإن كان صموتا سمي عيياً .»

وقد لخص الشاعر العربي مقدرة المال في بيت خالد قال :

فهو الكلام لمن أراد فصاحة   وهو السلاح لمن أراد قتالا

وندر الجريء الذي يجابه القوي القادر بصراحة وأنفة -ولو في شيء من التهكم الأنيق كما فعل بوالو الناقد الفرنسي مع الملك لويس الرابع عشر . فإن هذا الملك العظيم لم يكتف بمجد الملك والسلطان وكان يطمح إلى مجد أعظم وأبقى هو مجد العبقرية . فوطد نفسه على نظم الشعر واستدعى إليه يوماً الناقد الكبير بوالو وتلى عليه أبياتا كان الملك شديد الإعجاب بها . وكان بوالو جريئاً ، صائب النظر ، أصيل الحكم -لأن الجرأة مع النظر العليل والحكم الضعيف أسخف ما تكون فأنصت بوالو ثم قال :- «إن مولاي صاحب الجلالة قادر على كل شيء ، أراد أنْ ينظم أبياتا سقيمة فنجح كل النجاح» .

***

أما الآن وقد هجونا المال الهجو الذي يستحقه فلننتح إلى الناحية الأخرى لنقدره التقدير الواجب . هذا المال الذي نحتقره مفسداً ونهجوه دعيا ، كم نحن نكبره إذ به تصان الكرامات ، وتسد الحاجات وتحق بواسطته صالح الغايات لإنماء الفرد في شخصيته ، وتوسيع الحياة حوله ، وتوطيد مكانته في قومه . بل نحن نقدس المال عندما يكون ثمرة الجهود ونتيجة العمل المقدس . إنَّ الحياة الاجتماعية قائمة على التعاون . والتعاون في الاجتماع معناه التبادل ، أي أني أعطيك شيئاً فتعطيني غيره مما يقابله . والفرد في عمله ينفق من ذكائه وعمله ووقته وصحته ليفيد الآخرين ، وليس من عمل منظم مهما ضؤل إلا وهو يستغرق شتيت القوى ويكون موفور العائد على فرد أو أفراد . فمن الحق أنْ يكون المال «وهو تلك القوة الكبرى وأداة التعامل بين الناس» بديل العمل . ومن الحق أنْ يكون كل عمل ذا ثمن ، وكل مجهود ذا مقابل مالي . ومن الحق والواجب أنْ كل عمل يأتيه الفرد في مصلحة المجتمع ينال بدله من ثروة المجتمع العامة . ومن يرضى بأن يعمل له بلا ثمن فهو المستغل الذليل في ظلمه . ومن يستسلم للعمل بلا ثمن فهو السخيف الغبي الذي يرضى بأن يستغل بلا ضمير ولا تقدير .

وإذ يثق المرء من العمل الذي يحسن تأديته ومن المال الذي يربحه مقابل أتعابه ، إذن يستطيع أنْ ينظم حياته وحياة ذويه بحكمة وتبصر . إذن يكون مصونا كريما لا هو عالة على هذا المجتمع ومرضٌ فيه مزمن ولا المجتمع يستغله ويرهقه ثم يحرمه الجزاء الوفاق . ومن هذا الإنصاف بين الفرد الواحد والمجتمع الذي يعيش فيه يأتي الوئام والسلام . ويتحقق معنى أصل من معاني الاستقلال ، فيطمئن المرء إلى شؤونه ، ويثقف ملكاته ، وينعم بالفن والجمال والعبقرية وبكل ما وضعه المولى سبحانه تحت تصرفه . ولا يتسنى له ذلك إلاّ إذا نظم ميزانيته فكان من هذا الجانب خالي القلب من الهموم ، وكان راضيا عن يومه ، واثقا من غده وغد ذويه في بحبوحة من الرغد والهناء . إنَّ الفقر مرض وقيْد وخمول وعبودية . والحالة هذه فلا صحة لمجتمع أفراده مرضى ، ولا نهوض لقوم أعضاؤه مقيدون ، ولا استقلال لوطن أبناؤه الأرقّاء والعبدان . وتنظيم الميزانية في العائلة كما في الدولة شرط أساسي للتقدم والمعرفة والنهوض والحرية !

***

نحن الآن مجتمعون هنا . وفي خارج هذا المكان مئات وألوف من الناس تدفقت بهم الشؤون المختلفة إلى الشوارع والمتاجر والمدارس والمكاتب والملاهي والمتنزهات . وكل منا ومن أولئك جميعا آت من منزله ثم عائد إليه . مهما طال غياب المرء ومهما اقتضت الحال أنْ يتغيب ، فهو في ساعة معينة لابد راجع إلى بيته ، هناك يلقى أحماله ، وينزع الوجه العاري الذي يقتضيه في الخارج التربية الصالحة وحسن التصرف الاجتماعي . هناك يغسل الغبار ليس عن وجهه فقط بل عن نفسه أيضاً فيتخلى بذويه ، ويعمد إلى التفكير الهادىء في أموره ، ويستسيغ الموافق له مما تسمع وتعلم ، ويجدد القوة التي ينفقها كل يوم في شتى الأعمال والحركات والمشاغل . فنحن في البيت كما في محراب شفيق يجب أنْ يكون مستودع القوة والراحة والنظام والرجاء ، وإذا تعدد مثل هذا البيت في قوم أو أمة ، فقل هناك المجتمع القوي السليم ، وهناك يبزغ حتماً فجر الحرية

والحب والسعادة !

«-أريد حباً !- يهتف الشاعر الارجنتيني امادو نرفو[٢]- لقد جبت العالم وذقت نشوة العبقرية وضفرت الشعوب لرأسي أكاليل المجد ، لقد رحب بي الغرباء كما يرحبون بالملوك والفاتحين وفتنت بالنساء الجميلات في قصور الأساطير ، فلم تشبع مني نفس ولم تتبدل لي ميول . ما زلت أريد حبّاً في بيت صغير منسق نظيف ليروق فيه معنى الهناء وأجلس فيه إلى أصحابي فيرون في أدواتي البسيطة أنفس الأثاث وأفخم الرياش ، أريد حُبّاً في منزل تديره ، بهدوء وحكمة ، أمٌ بارة أو زوجة صالحة ! أريد بيتاً مملوءاً بالحب والحكمة لأعرف سر السعادة وسر الحياة !»

هذا الهتاف الذي أرسله شاعر غريب في إحدى قصائده الخالدة ، نشعر الآن بأنه هتافنا جميعاً ، مهما كثرت مطامع الواحد منا ، ومهما بعدت مطامحه ومنازعه ، فلا تتغير حاجته الصميمة إلى منزل هادىء منسق تهيمن عليه روح المرأة وتفعمه حباً وهناء . وموضوع المرأة في العائلة موضوع كبير متشعب الأطراف يستغرق وحده محاضرات متعددة أرجوأنْ ألمّ به ولو بعض الإلمام ، في محاضرة مقبلة سألقيها بإذن اللّه في هذه الدار الكريمة ، عن «يقظة المرأة المصرية ماذا فعلت إلى اليوم وماذا بقي عليها أنْ تفعل» .

وحسبي الساعة أنْ أقول إجمالاً إنه في المؤتمر الذي انعقد أخيراً في روما للتدبير المنزلي والذي مثلت فيه مصر آنستان من فضليات أوانسنا المتعلمات -وهما الآنسة فاطمة فهمي والآنسة اميلي عبد المسيح- أثبت الإحصائيون أنَّ خمسين أو ستين بالمائة من الإيراد العام قيد تصرف المرأة . فترون من هذا كم هي عظيمة مقدرة المرأة ، وكم هي فعالة في تنظيم ثروة العائلة بالاتفاق مع زوجها من ناحية ، وبدون معرفته من الناحية الأخرى لأن الزوج والأبناء يجب أنْ تتوفر عليهم معرفة التفاصيل التي لا تعني غير المرأة . ولأن للمرأة الحكيمة أساليب خاصة في قضاء الحاجات ، وتقديم المطلوب إلى ذويها ، وتمكين العائلة من أنْ تحيا حياة الرغد والهناء .

أذكر منذ ثلاثة أعوام تقريباً كان «مؤتمر العائلة» منعقدا في القاهرة فأفردت جلسة للاقتصاد العائلي وتنظيم الميزانية . وتشرفت بأن أكون في تلك الجلسة خطيبة مع كاتبين كبيرين هما داود بك بركات وأنطوان بك الجميل فقام حضرتاهما باتهام المرأة ، وإلقاء التبعة عليها في الإخلال بميزانية المنزل ، وقمت أنا بالدفاع وبإعطاء كل ذي حق حقه . واليوم أكرر ما قلته يومذاك من أنَّ الرجل كالمرأة مسرف كبير وأنهما في الجريمة متساويان فليس منهما في هذا الباب من يفضل الآخر . كذلك أكرر ما قلته يومئذ أنَّ المرأة أقدر من ينظم ميزانية العائلة لأنها في يدها ، هي الملكة داخل المنزل تعرف خفاياه ، وتدير حركته وتوجهها كيفما شاءت وهي ذات أثر مباشر فيه يخفى على أدق الرجال ، إدراكا وإن هم تأثروا به طول الحياة فلا غرو أنْ تدعى المرأة محسنة العائلة ، أو جلادها ، وأن امرأة واحدة صالحة رشيدة توازي في داخل المنزل ألف رجل مدبر حكيم .

إنَّ مالية العائلة وميزانيتها سر لا يعرفه إلاَّ أعضاء العائلة ويجب أنْ يظل مكتوما . غير أنَّ ما تواطأ عليه علماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع هو ما قدمه الدكتور سكر من وجوب تنظيم الميزانية بحيث يربو الإيراد على النفقات وادخار رأس مال ينمو شيئاً فشيئاً ويتزايد عاما فعاما ، ولو بمقادير صغيرة فيضمن لهم الكرامة ولا يحتاجون إلى الغير إذا داهمتهم المصائب ويورثون أبناءهم ما يخفف عنهم مرارة الحياة وغمومها ، ويسهل العيش أمامهم ويمكنهم من تأدية واجبهم نحو نفوسهم ونحو قومهم .

التبذير أمر ممقوت يلاشي ثروة العائلة كما يقضي على راحتها وهنائها ، ولكن التقتير لا يقل عنه مقتاً ، إنَّ بيوت بعض الناس كلباسهم وطريقة معيشتهم ، دون مقدرتهم المالية ومكانتهم الاجتماعية ، فماذا ينتظر هؤلاء ليتمتعوا؟ الحياة قصيرة مهما طالت ، وللمرء مكانة عليه أنْ يحتفظ بها ويعززها وعليه واجبات فردية وعائلية واجتماعية وثقافية وذوقية يتحتم القيام بها ضمن الميزانية المنظمة المتوافقة وثروة العائلة . وأنبل غايات الاقتصاد والادخار لا تنفي وجوب العيشة

برخاء قدر المستطاع لأن الاقتصاد على الضروريات يضيق العيش ، بل يضيق الإدراك ، ويجعل العمر كئيبا ، ويغض من النشاط لاستئناف العمل اليومي ، كما أنَّ فرط التنعم والترهف يشل من أوصال النشاط ، ويرخي من العزائم ، ويحمل على الخمول في دعوى السبق والتفوق . فليس من الحكمة ولا من الإنسانية أنْ نضرب عن كل ما في العالم من لطيفة وظريفة ومتاع . والحرص على المظهر من أقوى العوامل المركزة للمكانة الاجتماعية ، والإنسان اجتماعي بالطبع ليس في مقدوره أنْ يعيش وحده ، فبعد أن يهيىء لنفسه الضروريات المباشرة عليه أنْ يتناول الكماليات فيحسن مظهره ومظهر عائلته ، وينمي مواهبه ومواهب ذويه ، ويجمل منزله ، ويحيط نفسه بآثار الكياسة والذوق والجمال ، كل ذلك يفيد المرء ويفيد المجتمع في آن واحد ، لأنه ينشط حركة الإنتاج في العالم ، وينشر العلاقات الاجتماعية ومصادقة الناس ، وكلها ضرورية لتحسين عمل الفرد ، وإنماء وجاهته ، وزيادة ثروته . ولا يعني هذا منافسة أهل الثروة الكبيرة ومسابقتهم إلى الظهور بمظهرهم . فذلك غيظ قادح وهو من أظهر عيوب الشرق في أيامنا . وإنما السر كل السر في التعقل والتبصر والإحكام ، وتقدير الأمور قدرها ، ووضع الأشياء في مكانها .

والآن أشعر بأن بعض الذين يستمعون إلى هذا الحديث أو بعض الذين سيقرأونه ، سيحزنون ويعاتبونني في سرهم لأني ذكرت السعداء ذوي الإيراد المكفول والميزانية المنظمة ، والثروة التي تمكنهم من العيش الرغيد في حين أني أهمل ذكر الذين لا يملكون لنفوسهم ولذممهم قوت اليوم وهم حيال مشكلة الغد في حيرة وغم وقنوط .

في العالم اليوم مصائب كثيرة . وما انتشر الهناء والطمأنينه من الجانب الواحد إلاّ وكثر الحرمان والاضطراب من الجانب الآخر . ومع علمي بأن المتاجرين باسم الفقر وباسم الألم كثيرون ، فإني أتحول عن أولئك لأنحني احتراما أمام الحاجة الوجيعة والمواهب المجهولة والقوى المنبوذة . وأود لو كان بين يدي ملايين أهل الملايين ، لا لأتبرع التبرع المفسد في غير حينه ، ولكن لأقدم عملا

مناسبا لكل من استطاع العمل . أما وأنا غنية بالكلام والعطف والأمل خصوصا ، فأني أوجه إلى أولئك المتألمين وإلى الناقمين على حظوظهم عموما هذه الأسطورة اليابانية ذات المغزى العظيم ، فتكون هي ختام الكلام .

أعلن يوما في اليابان أنَّ الميكادو ، رغبة في تشجيع الصناعة والتجارة ، أراد اجراء مسابقة بين مختلف النساجين فوضع تحت تصرفهم مقادير كبيرة من خيوط الذهب والفضة والصوف والحرير والقطن ، ودعا الراغبين منهم إلى تناول ما يشاؤون من تلك الخيوط بلا ثمن فهرع الناس من كل صوب وتهافتوا زرافات ووحدانا إلى ساحات القصر الملكي ولم يمض وقت قصير حتى خلت الساحة من تلك الخيوط النفيسة الجميلة وفي النهاية وصلت امرأة مريضة فقيرة منعها القيام بأعمال منزلها الحقير من المجيء باكرا . فاكتأبت وبكت إذ رأت تلك الساحات العظيمة فارغة مما جاءت المرأة تتناوله ، وهمّت بالذهاب وهي تدير الطرف فيما يحيط بها .فأشار إليها أحد الخدم بالتقاط تلك الكومة الصغيرة من بقايا الخيوط المختلفة . فهي على قلة أهميتها خير من فراغ اليد فتناولتها المرأة ومضت .

وعندما جاء وقت المسابقة ، عرض العارضون أنسجتهم وكلٌّ واثق بالتفوق . وعرضت المرأة نسيجها وهي خجلى ، فكان هذا النسيج الصغير فائزاً بالجائزة لأن كلاً من الآخرين اتكل على نفاسة الخيوط بين يديه . أما هي فأجهدت نفسها في الابتكار والإبداع لعلمها بضآلة الخيوط فكان فقرها سبباً في تفوقها وفي إيجاد طراز جديد من النسيج في بلادها .

***

أما الآن وقد قصصت عليكم حكايتي فقد انتهت مهمتي في هذا المساء . وعلى ذلك أستأذنكم في الانصراف شاكرة لكم عطفكم وحسن إصغائكم راجية أنْ تحتفظوا بكلمة واحدة تذكاراً مني ، وهذه الكلمة هي : لا يأس مع الحياة !

إن العالم اليوم في حاجة إلى ذوي الثروات الكبيرة والمتوسطة والصغيرة . ولكنه أحوج ما يكون إلى أولئك العبقريين الأبطال الذين يستخرجون الكثير من

القليل والنفيس من الضئيل !

مِيّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٩ ،ع٢ . فبراير ١٩٢٨ . ص٦٧-٧٢ و ٨١

١- وهي المحاضرة التي القتها النابغة الشرقية الآنسة ميّ في الجامعة الأمريكية في هذا الشهر . (هامش المجلة)

٢- Amado Nervo (١٨٧٠-١٩١٩) . شاعر ودبلوماسي أرجنتيني . درس اللاهوت ليصبح كاهنا إلاّ أنه أخذ يعمل صحفيا بدءا من عام ١٨٨٨ . انتقل إلى مدينة المكسيك حيث نشر روايته الأولى وديوانه البكر . عمل في السلك الدبلوماسي في باريس ما بين ١٩٠٥-١٩١٨ .

عظماء الرجال:
جورج واشنجتون[1]

في أسماء بعض الرجال برنامج وطني خاص ، وعنوان تام لنهضة قومهم ، ورمز للخطوة الجازمة التي خطتها البلاد بفضل مساعيهم وجهودهم .

ومن هذه الاسماء العالمية العظمى اسم جورج واشنجتون ، محرر أمريكا الشمالية ، الذي احتفى الأمريكيون يوم ٢٢ فبراير ، بذكرى مولده .

للأقلام الاختصاصية في شتى فروع البحث والنشاط أنْ تتناول واشنجتون من مختلف نواحي شخصيته فتدرسه قائدا عسكريا ، ومنظما سياسياً ، وشارعاً دستورياً ، ورئيساً للولايات المتحدة مرتين اثنتين إثر تأسيس تلك الجمهورية الحديثة الأولى في العالم الجديد . وحبذا مسايرته في النهاية راكناً إلى العيشة الهادئة في حضن الطبيعة عاكفاً على معالجة الأرض والأعمال الزراعية بعد أنْ عالج قيادة الشعوب وتكوينها وتنظيمها ، وخلق أمة عظيمة كاملة مجددة في أساليبها ونزعاتها ومطالبها واتجاهها التاريخي والعمراني .

ولأقلام المؤرخين والساسة والمفكرين مادة غزيرة في وصف أخلاق واشنجتون الممتازة واجتماع المواهب النظرية والعملية في شخصه ، من شجاعة نادرة وإدارة قوية هادئة إلى بعد النظر والإدراك المباشر لحاجات أمته وموقفها في العالم ، إلى نشاط متتابع وجهاد مستمر في طهارة نية وإخلاص واستقامة ووطنية وإنسانية فإذا ما ذكرت تلك الصفات والمواهب تيسّر تبيّن الخطوط الكبرى من صورة ذلك الذي لم يكن يروقه أنْ تؤخذ صورته الفوتوغرافية وكان يعتذر لكل من طلب التصريح بنشرها . على أنَّ أهم ما يهمنا اليوم من ذكرى واشنجتون هو عنايته الخاصة بالتعليم . ومناداته بوجوب نشر

الثقافة بين جميع ابناء الولايات المتحدة .

ففي جميع رسائله الموجهة إلى مختلف المعاهد العلمية والأدبية . وإلى الأفراد ذوي المكانة العلمية المعروفة ، كان يحض على تثقيف العقول ونشر التعليم وتكوين الشخصيات . وفضلاً عن أنه كان في مقدمة الداعين إلى تأسيس جامعة أهلية فإنه كان يعول من ماله الخاص (وإن لم يكن من ذوي الثروة) جماعة من الطلبة الأيتام والفقراء الذين ليس في مقدور ذويهم أن يقوموا بنفقاتهم المدرسية والتعليمية .

أما تقديره لأهل العلم والسطان الفكري فيتجلى في هذه الفقرة المقتطفة من رسالة بعث بها إلى مدير جامعة بنسلفانيا (أبريل ١٧٨٩) حيث قال :

«إني فخور بأن ينظر إليَّ أقطاب الأدب كواحد من جماعتهم ، ولما كنت على تمام المعرفة باقتدار أهل العلم والثقافة في النفوذ بسلطانهم الأدبي على الأفكار والأخلاق والعادات والحكومة والقوانين والحرية ، فإني أشكو ضآلة محصولي العلمي الذي لا يجعلني في هذا الباب واسع السلطان» . ولم يكن من المقتنعين بمنافع التعليم للفرد فحسب بل كان يرى ببصيرته الجلية أن تنوُّر الشعب ومعرفته بالتبع لواجباته الفردية الاجتماعية والوطنية ، دعامة لا مندوحة عنها لقيام الحكومات الحرة وبقائها ، وأن لا وطنية صحيحة ، ولا ديمقراطية صحيحة ، بدون علم موفور ، وأذهان مثقفة وملكات مصقولة وشخصيات تامة التكوين إذ ما معنى استقلال لأمة تحكم نفسها؟

أليس معناه اختيار أفراد من تلك الأمة لتتقلد وظائف الحكم ، وتعنى بإدارة الشؤون والبيت في مصالح الدولة؟ فلا ريب أن الحكومة ، وهي من الأمة ، تكون حتما على صورة الأمة ومثالها ، وإن لم يكن جميع أبناء الأمة على استعداد للقيام بذلك العبء الخطير الذي قد يلقى يوما على عاتقهم فكيف يستحقون الحرية وهم يفرطون بألزم شروطها الحيوية؟

كان يود «أن تكون أمريكا دواما في طليعة الشعوب بما تقدمه للعالم من مثل العدل والكرم والحرية» . ولتقوم بتقديم ذلك للعالم عليها أولاً أن تقدم تلك

المثل لنفسها وتضمن معالجة مصالحها لتكون واثقة من استقلالها وقومها ، والوسيلة إلى ذلك هي التعليم . لذلك قال في «رسالة الوداع» التي وجهها إلى شعوب الولايات المتحدة (في ٧ سبتمبر سنة ١٧٧٦) :

(. . .إن حاجتنا المباشرة إلى المدارس والمعاهد العلمية لتعميم المعرفة والثقافة وبمقدار ما تستمد الحكومة من قوة وسلطان من الرأي العام وجب تنوير هذا الرأي العام ليحسن الاختيار ويحكم على بصيرة . .)

هذا مجمل رأيه في التعليم من حيث علاقته باستقلال الأمة السياسي . ولكن للتعليم المنوع الموافق لطبيعة كل متعلم ومواهبه واستعداداته ، منافع أخرى لم يهمل واشنجتون ذكرها في رسائله الحكيمة . فتحية ، يا أبا الحرية والنور !

إن في هذه البقعة من الشرق القديم صحيفة جديدة للنور والحرية : لذلك نحيي ذكراك في يوم مولدك السعيد !

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية . س٩ ، ع٢ ، فبراير ١٩٢٨ . ص ٨١-٨٢

١- George Washington (١٧٣٢-١٧٩٩) . قائد وسياسي وأول رئيس أمريكي . بدأ يعمل مساحاً وهو في السادسة عشرة . لم يتلق ثقافة نظامية ، ولكنه اكتسب خبرة عسكرية خلال الحرب الفرنسية الهندية (١٧٥٤-١٧١٦٣) . انتخب رئيساً لأمريكا عام ١٧٨٩ .

حكاية صبى المكوجى المصرى

طالع هذه الحكاية الصغيرة ، يا قارئى ، رفيعاً كنت أو وضيعاً ، ذا أعمال خطيرة وتبعات باهظة أو من ذوى النعمة والأنس والطرب .

لن تقع منها على ذكرى العظماء والنابهين ولن تلقى فيها أحاديث السياسة والحزبية . لكنها تريك كيف أن نواة الاستقامة والصدق والعظمة الأخلاقية قد تكمن في نفوس الصغار المجهولين . وربما شاركتني في تأثري فأوحت إليك هذه الواقعة الضئيلة ما أوحته إلي من جليل العواطف والخواطر .

***

صبي المكوجي هذا عرفته منذ شهور وقد حادثته غير مرة لرغبتي في استطلاع أخبار هؤلاء الصغار والوقوف على كيفية معيشتهم وعلى نظرتهم إلى الأحوال المحيطة بهم والطريقة التي يدركون بها الحياة ، فعلمت أنَّ اسم الصبي «نبيه» وأنه رابع إخوته الستة الذين يشتغل اثنان أو ثلاثة منهم بمثل شغله أو ما نحو ذلك ، في حين أن والده ووالدته لا يعملان . وقد هجروا الصعيد وهبطوا القاهرة منذ عام ونصف عام تقريباً . أما نبيه فيربح عند معلمه ثلاثة قروش كل يوم ، وهو أمي لا يعرف من القراءة والكتابة إلاَّ المجموع في كل «فاتورة» يتسلمها من معلمه ليحصّل النقود من الزبائن . هذه حالة كثيرين من ابناء طبقته المنفذين خاصة هذه الكلمة التي جازت على النوع البشري عامة : «بعرق جبينك تأكل خبزك» . وهم رغم الجهود التي يبذلون كل يوم لا يفقدون شيئاً من حبهم للحياة وحبهم للنكتة ، وحبهم للهو والسرور والجمال .

أما وجه نبيه فقد تكامل في الطراز المصري المشوق من سمرة مشوبة إلى عينين دعجاوين شديدتي التعبير ، إلى روح رشيقة ودم خفيف ، إلى لهجة ظريفة جذابة . وأما أثوابه فكوجهه تنم عن حاجته إلى العناية والترتيب والنظافة .

كم عمره؟ هذا ما لا يدريه أحد حتى ولا هو نفسه . قد يكون دون العاشرة ولكنه لا يزيد عليها ومع ذلك فهو نشيط في عمله ، ماهر في ما يعهد به إليه ، حاضر الخاطر ، حاضر الجواب . وفي عينيه القاتمتين ذكاء متوقد وشعور باكر بقساوة الحياة تجده في عيون جميع أهل الطبقات الدنيا ، وابتسام رجراج يطفو على كل ما في هاتين العينين من المعاني . وإذا ما أوصيته أن يستعجل معلمه في كي الثياب وأن يردها إليك سريعا نظر إليك نبيه نظرته الحلوة القائلة إنَّ الجميع يطلبون طلبك وأجابك بجواب «المحنك» فألقى إليك بكلمة مهذبة رقيقة لا تعدك بشيء ولا تعين لك موعدا ، إنما تطمئنك اطمئنانا مبهما وتروقك بما حوت من ظرف مصري ولباقة من التعبير العامي البسيط .

***

كان لنبيه معي موقف رفعه في عيني وجعلني أنظر إليه نظرة خاصة . وذلك منذ ثلاثة شهور أو يزيد قبيل سفرى إلى الاسكندرية ، وقد جاء الصبي يحمل إليَّ الأثواب المكوية من عند معلمه ومعه قائمة الدراهم التي عليَّ أنْ أورد بها إليه فنقدته المبلغ أنصاف ريالات جمعتها في كفه الصغيرة وأقفلت بابي وراءه . فلم تمر لحظة حتى سمعت على الباب نقرة خفيفة تلتها نقرات . فتحت الباب فإذا بعيني الصغيرة ترتفع إليَّ وفيهما شيء من التهكم المكتوم . وإذا بيده تمتد إليَّ بالدراهم .

قلت -ماذا جرى يا نبيه؟

قال- اتفضلي الفلوس يا مزمزيل .

قلت- هذه فلوس الفاتورة . فاعطها للاوسطى بتاعك ، مفهوم؟

لم يقو نبيه على ضبط ابتسامته التي كادت تحول إلى ضحك . ثم قال -مفهوم . بس اتفضلي شوفي الفلوس أول .

قلت- هل أعطيتك أقل من المطلوب؟

وكانت الفاتورة في يدي . فنقل نبيه نظره منها إليَّ ثم قال- اتفضلي شوفي الفاتورة وبعدين عدي الفلوس يا مزمزيل .

أعدت النظر إلى القائمة فإذا المطلوب -كما علمت من قبل- ستون قرشا

وأحصيت الدراهم فإذا هي ثمانون قرشا ، وبينا الصغير يضحك بعينيه وشفتيه من جهلي وقصوري في ضبط الأرقام نظرت أنا إليه نظرة اخترقت وجهه إلى ذلك الجمال الخلقي الذي أراني مظهرا منه . نظرة التهيب أمام نواة العظمة التي يجهلها صاحبها ولا يحسب لها حسابا . نظرة المحبة والإكبار لملكة النبل والاستقامة في نفس صغيرة لم يعلمها أحد دروس الاستقامة والنبل .

عشرون قرشا تمثل لهذا الصبي عناء سبعة أيام بطولها وعمل ساعات مضنية في قيظ الصيف . عشرون قرشا لو ادخرها نبيه لنفسه لما حاسبه عليها أحد لأنه لا علم لأحد بها . أجهلها حتى أنا التي دفعتها إليه وكان في وسعه أنْ يحللها لنفسه ضاحكاً من الغافلات اللائي يدعن العجلة تشوش عليهن أعمالهن .

بيد أنه آثر أنْ يضحك شريفاً يدافع عن نفسه الصالحة البريئة ، وردّ المبلغ الذي لا حق له فيه وهو يجهل جمال عمله .

مضى نبيه يعدو في الشارع وقدماه العاريتان تطويان الأرض إلى دكان معلمه .

وخرجت أنا إلى الشرفة أرقب سيره وعيناي تشيعانه وتحدثانه حديثا طويلا .

ألم يتفق لك ، يا صديقي القارىء ، أنْ تمر بك ساعة أو ساعات ترى فيها من الجحود والطمع والدمامية الأخلاقية ما يبعث الكزازة في نفسك ويحملك -ولو حيناً ما- على إساءة الظن في بني الإنسان واليأس من الصلاح والعدل والحق؟

لقد كنت يومئذ في مثل هذه الحالة المؤلمة ، فإذا هذا الصبي بنظرة وابتسامة وإشارة يرد إليّ تفاؤلي الجميل بالناس وثقتي المحبوبة بالحياة . وإذ توارى نبيه في طرف الشارع ارتفعت يدي إلى وجهي بمسح دمعتين لم أشعر بانحدارهما وإذا بي أقول :

- لقد أحسنت إليّ يا صغيري؟

***

وانقضت هذه الأسابيع ولم تبرح من خاطري ذكرى نبيه وطالما حدثت الذين لا يعرفونه بما أتاه فرأيت التأثر في ملامحهم وسمعته في كلامهم . غير أن التأثر لا يقيم في المحافل الاجتماعية . وأنا ما زلت أسائل نفسي كيف أحسن إلى نبيه ، ومن ذا أوصي به ، وما هي السبيل التي ينمي فيها ذكاءه ، وشخصيته محتفظا

باستقامته؟

وكنت اليوم أسير في طريقي إذا لمحت نبيهاً في جلبابه الممزق غير النظيف وقدماه على عادته تطويان الأرض عاريتان إلى دكان معلمه يقمز جذلاً وصفاء نفسه وقيامه بواجبه الصغير المحدود لينال في كل مساء ثلاثة قروش !

هذا والصحف تدوي بانتخاب مستر هوفر[1] لرياسة ولايات أمريكا المتحدة ، والشركات البرقية تتسابق في تفاصيل حياته وفي أنه بدأ عمله بائعاً للصحف . فربما كان قد سار يوماً ذياك الظافر في الشوارع حافي القدمين شأن نبيه اليوم ولكنه اهتدى إلى من يأخذ بيده فيمهد له السبيل إلى إنماء ذكائه وتوسيع مداركه وتكوين شخصيته حتى ارتفع من الحضيض إلى القمة الاجتماعية والدولية وقام الآن على رأس الملايين من ابناء الأمة الامريكية ينعم بمقدرة وسلطان لا ينعم بها ملك على وجه الكرة الأرضية .

هي هي ذي الجواهر الفرائد التي يقذف بها اليم السحيق ، يم حيوية الشعب الزاخر . ها هم أفراد يرتفعون ويؤثرون ويسيطرون لأن مواهبهم محكمة لحاجة قومهم ، ملائمة لسير الأحوال . ولئن سعد فرد بالاهتداء إلى من يساعده ويحسن إليه فكم من موهوب مجهول مظلوم !

فمن ذا أوصي نبيه الصبي الذكي النبيل؟ أية جمعية ، أية هيئة ، أي عظيم من عظماء مصر يريد أنْ يسمع صوتي فينتبه لوجوده ويعطف عليه ، ويعني به ، وينشئه التنشئة المتناسبة واستعداده الطبيعي ليخرج منه رجلا قويا يافعا مستكمل الشخصية؟

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س ١٠ ، ع ١ و٢ يناير وفبراير ١٩٢٩ . ص ٣٢ - ٢٤

١- Herbert Hoover (١٨٧٤ - ١٩٦٤) . سياسي أمريكي وزعيم الحزب الجمهوري . الرئيس الحادي والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٢٩ - ١٩٣٣) . ولد في ولاية أيوا . نال شهادة في الهندسة من جامعة ستانفورد في كاليفورنيا . عمل وزيرا للتجارة قبل انتخابه رئيسا . له مذكرات في ثلاثة أجزاء (١٩٥١ - ١٩٥٢)

أين النشيد القومي المصري؟

مجرد إرسال هذا العنوان في صيغة الاستفهام قد ينبه حساسية كل شاعر وضع نشيداً في هذا المعنى فتكون النتيجة سخطاً من جانب هؤلاء السادة على هذه الكلمة وعلى صاحبتها جميعا . ورهيبٌ سخط الناس أو سخط جماعة منهم لو هم تجمعوا كتلة واحدة فانفجر غيظهم كالقنبلة دفعة واحدة ، فما بالك لو كان غيظاً متطايراً من هنا وهناك وهنالك؟ من هذه المدينة وتلك وهاتيك؟ وكان الناقمون هم هم جماعة الشعراء الذين لهم في تقديري مكانة خاصة؟

إني لأتمثل هنا رسماً في كتاب نسيت اسمه صنفه الكاتب الروحاني پول بروتزر (نجل العالم الروحاني الكونت بروتزر الذي كان فيما مضى العضو الروسي في صندوق الدين) ليظهر أن الغضب حالة وضعية محسوسة في الإنسان . فإذا ما ثار ثائره انطلق الغضب من رأسه ومن جوانبه كأسنة حراب بلون اللهيب والدم ، حتى إذا ما اشتد غضبه انقلبت الحراب ضاربة إلى الاسوداد . أتمثل هذه الحراب مصوبة لى من كل ناحية فيأخذني الفزع والوجوم وأعمد إلى الهرب . فأتوجه للشعراء الذين لم يحاولوا كتابة نشيد قومي لأقول لهم إنهم أشرار كسالى . وهكذا على رأي الشاعر ، أكون مستجيرة من الرمضاء بالنار .

لست أبتُّ بأن الذين لم يكتبوا قد كانوا يأتون بخير مما لدينا . إنما أعني أن على كل من هذه[1] الأساتذة أنْ يجرب قريحته في إخراج صيحة هي صيحة كل مصري في هذه الأعوام : الصيحة الوطنية .

ولقد أنتجت قرائح شعرائنا أناشيد جمة منذ اليقظة المصرية الميمونة ، ومن تلك الأناشيد ما هو على جانب يذكر من الجمال غير أنها «صيحات» متعددة لأن كل شاعر جاء بصيحة من عنده صادفت هوى في نفس هذا الفريق أو ذاك

من الناس . ولكن الصيحة «الواحدة» التي ليس هناك سواها ، الصيحة الواحدة التي هي صيحة الجميع لم نوفق إليها بعد .

وهذا النشيد ، النشيد القومي ، هو بطبيعة الحال غير السلام الملكي الجليل . إنَّ السلام الملكي تحيط به عواطف خاصة فيوقظ الحماسة في رزانة ، والجذل في حصافة بل هو فوق الحماسة والجذل لأنه والراية والعرش يتوحدون في معنى واحد خالد تعلو له الجباه وتتهيب عنده النفوس ، أما النشيد القومي فهو كما قلت صيحة القوم بينا السلام الملكي هو هيبة القوم .

ومن أجمل الأناشيد التي أوحتها الأعوام المتأخرة نشيد «أنا انتهيت» وهي إحدى الكلمات الأخيرة التي فاه بها سعد زغلول باشا إلى حرمه المصون قبل وفاته .لم أسمع هذا النشيد إلاَّ مرة واحدة منذ عام ونصف تقريباً في ختام الاحتفال بتوزيع الشهادات على طالبات مدرسة «جامعة المحبة» القبطية . لا أعرف من هو ناظم هذا النشيد ولا من هو ملحنه ، وأعترف بأني لم أفهم جميع الألفاظ التي ضاع كثير منها في اللحن -شأنها في كل أغنية وكل نشيد ، بيد أنَّ الأثر الباقي من ذلك النشيد بعيد المدى في نفسي .

ألأن كلمة «أنا انتهيت» التي تتكرر مؤثرة والصورة التي تستحضرها موفورة الشجن؟

ألأن فتيات المدرسة الصغيرات كن ينشدها بأصواتهن البريئة والظلام مخيم؟

أم هي الحماسة التي كان يقابل بها الجميع كل مقطع من مقاطع النشيد -ذلك الجمع الذي تسري في كيانه ذكرى سعد كالكهرباء في الفرح والترح على السواء؟

لست أدري ، ولكنني أود أن أسمع «أنا انتهيت» مرة أخرى . وحبذا لو اهتديت إلى ألفاظه وموسيقاه .

أما وقد وصلت من كلمتي عند هذا الحد فهذا يدلني ويدل القراء الكرام على أنَّ الشعراء الناقمين لم يجهزوا عليَّ إلى الآن . لعلهم في هذا شأنهم شأن الحاكم حيال المحكوم عليه يدعه يفضي بكل ما عنده قبل مغادرة الحياة؟ فلأقولن إذن كيف أتخيل النشيد المنتظر وكيف أوده أن يكون :

أولاً- أن يكون قصيرا . عشرة أسطر ، عشرة أسطر لا غير . اثنان منها للازمة أو القرار ، ودوران اثنان يتركب كل منهما من أربعة أبيات فقط .
ثانياً- أن يكون خاليا من النواح والعويل والتهديد والوعيد وألا تشق عنده الجيوب ولا تُعصر المناديل عصراً . ألا رفقا بدموعنا وزفراتنا ، أيها الشعراء .
ثالثاً- أن يكون خالياً من «المباهاة» المألوفة .
رابعاً- أن يكون ذا بلاغة قوية مقتضبة تشير إلى الماضي العظيم وإلى عظماء الموتى . وتشير بلا غلو ولا استعارات إلى يقظة الحاضر المبشرة بكل خير . وتشير إلى المستقبل الفسيح المتماوج بالأماني تماوج المروج المصرية بالزرع الخصيب .
خامسا- أن يكون لحنه مطابقاً معناه وأن يكون نغم القرار أو اللازمة غير نغم الدور .
سادساً- (وهذا أهم الشروط) أنْ تتخلله من البداية إلى النهاية رعدة . . . الرعدة الوطنية الشعرية الموسيقية التي تجعل جميع النفوس مهتزة كقيثارة واحدة .

أصارح بأن سَنَّ الشروط سهل في حين تنفيذها على ما يرام أقل سهولة . ولكن أليس الشعراء شعراء لأنهم يأتونا بما لا نحصل عليه لولا مواهبهم؟

ومثل هذا النشيد لا تجلبه جائزة أو مسابقة إنه آية تنزل على صاحبها فتنقلها يده وهو في حالة الإلهام .

كان فرجيليو الشاعر اللاتيني يسير ذات مساء على شط البحر مع جماعة من تلاميذه وأصحابه عند ما سمع . . .

ولكن هذه حكاية أخرى ، كما يقول الايرلندي وسأرويها لمن يصغي يوم نفوز بالنشيد المطلوب .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٠ ، ع١٠ . ١٥ ديسمبر ١٩٢٩ . ص١٢٢-١٢٣

١- المقصود هؤلاء .

زفاف كريمة حفني ناصف بك وشقيقة باحثة البادية

اسمان عزيزان على كل مقدر للجهود الفكرية والأدبية ، اسم حفني ناصف[1] واسم ابنته «باحثة البادية» .

كان عمل الأب منوعاً في شتى ضروب النفع والخير . فمن مهمة التدريس والتهذيب إلى مزاولة القضاء ، إلى رقابة اللغة العربية في وزارة المعارف ، إلى نشر كتب الأدب والتاريخ ، إلى إعداد كتب الدراسة لطلاب معلم ، إلى الوقوف على طبع الكتاب الكريم وضبط حركاته وعلاماته .

وفي كل ما تعذر الإجماع على الاعتراف بفضل شخص كائنة مواهبه ما كانت ، فإنك لا تعثر من ذكر حفني ناصف إلاّ على الأصدقاء بين مختلف المراتب والطوائف والأحزاب ، ومن أجلى مظاهر أثره ونفوذه أنَّ فئة من أعظم رجال مصر في هذا العصر تذكره بالمحبة والإكبار والشكران ، ويحدثك الواحد منهم عنه فسرعان ما يقوله «حفني ناصف؟ رحمة الله كم أنا مدين له ! لقد كان أستاذي وأباهي بأني تتلمذت عليه» .

***

أما «باحثة البادية» فهي ذات الشخصية الجذابة وذات الوجه «النغش» والثغر البسام ، هي أول أمرأة كان هتافها فعالاً حيث قالت : «لقد حان وقت اليقظة النسوية ، أيها الهاجعون !» وهي أول امرأة اشتركت في مؤتمر الرجال (المؤتمر الإسلامي المنعقد بهليوبوليس سنة ١٩١١) وصاحبة أول صوت نسوي أصغى إليه المصريون بتهيب وتقدير ، وهي أول مطالبة بالإصلاحات المعقولة التي تطالب بها اليوم جماعات المصريات . ومن أخص اقتراحاتها ما تحقق في هذه

الأعوام الأخيرة كالدراسة الثانوية للبنات ودراسة الطب لهن وهو ما طالبت به في غير واحدة من مقالاتها وبخاصة في ختام خطبتها الأولى بنادي حزب الأمة وفي الاقتراحات التي قدمتها إلى المؤتمر الإسلامي .

وهي الكاتبة الساكبة على القرطاس عواطفها الفائضة ، المشعلة بين سواد السطور لهيب روحها المتلظي . هي المخطيبة ذات الصوت الشجي التي تشعرك بأنها لم تراجع كتباً لتحدثك وإنما هي تلقي عليك نثرات من الكثرة الذاخرة المتدافعة بين جوانحها . وهي المصرية المتحمسة في رزانتها ، التي تحب وطنها حبها لشخص فرد فيلهمها النقد والتعظيم جميعا ويوحي إليها الإصلاح والنشيد على السواء . وحسب «باحثة البادية» فخرا أنّ كتاب «النسائيات» كان عنوان الأدب النسوي الجديد وأنها بمواهبها واقتدارها وشجاعتها مهدت السبيل للكاتبات من بعدها ، ففي كل ما خطه قلمها تجد «النفس النسوي» الذي كان من قبل «نفساً رجلياً» في مصنفات النساء ، رغم الاسم المؤنث المطبوع عليها .

***

ولقد كان هذا الكتاب ذا أثر بالغ في نفسي وأنا في بداية الطور الكتابي وألهبني ذياك النَفَس النسوي الحار فكتبت إليها في الصحف السيارة خطاباً مفتوحاً أبديت فيه إعجابي ، فإذا بهذا الخطاب أدى إلى معرفة الآنسة حنيفة حفني ناصف التي قامت مقام شقيقتها في الرد على تلك الصفحة نفسها فقالت :

«قرأت تحبيذك لكتاب شقيقتي «باحثة البادية» ودعوتك إياها أنْ تثابر على الكتابة في موضوعها «النسائيات» وإني أنوب عنها في الشكر لك على ما جاء في مقالك من حسن الفكرة وقوة التعبير والخيال وأعتذر لعدم قدرتها على الكتابة الآن ذلك لأنها في فراش المرض منذ ثلاثة أشهر . وإنها لم تنس قط الاهتمام بما يرقي المرأة الشرقية على العموم والمصرية على الخصوص وإن كان ذلك الإصلاح على ما فينا من عيوب داعياً للقنوط أحياناً . ولعل اللّه يشفيها في القريب العاجل لتقوم بما خصصت نفسها له وتفضلي بقبول شكري واحترامي» .

حنيفة حفني ناصف

نعود إلى اليوم هذه الذكريات وأنا أدعو للعروس الصديقة اللطيفة بكل ما هي حقيقة به من السعادة والهناء . إن شخصية شقيقتها الكبيرة لا تضعف من شخصيتها النابهة ولا تغض من فضلها ، فهي من خيرة المصريات المثقفات الناهضات ، ولها على النشء النسوي يد بيضاء في هذه البلاد ولن يحول زفافها دون استئناف مهمتها الخطيرة ونحن نهنيء قرينها الفاضل بإطلاقه الحرية لها من هذه الناحية وبتقديره لما عليها من واجب نحو بلادها .

في ظل الذكريات العزيزة الممتزجة باسمي حفني ناصف وباحثة البادية نغتبط باقتحام السيدة حنيفة جانباً جديداً من ميدان الحياة ، الجانب المفعم بالأسرار والاختبارات والمعرفة ، ويقيننا أن حياتها الجديدة مع زوج مهذب مثقف سيزيد في نشاطها وذكائها ووطنيتها وفي إيفائها عملها النبيل المفيد .

وبينا نحن نرقب عملها هنا ننتظر قدوم شقيقتها الصغرى من انجلترا حيث ستتم هذا العام دراسة الطب ، وهكذا يعيش حفني بك ناصف بعد مماته كريما في بناته الثلاث ، بعد انقضاء عهد طويل لم يكن فيه ليكرم الآباء ويذكرون إلاّ بالابناء وحدهم .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س ١١ ، ع ١ و٢ . ١٥ فبراير ١٩٣٠ . ص ١٦-١٧

١- حفني ناصف (١٨٥٦-١٩١٩) . قانوني وأديب ولغوي مصري . ولد في إحدى قرى القيلوبية بمصر . تعلم بالأزهر . عمل مفتشا للغة العربية بوزارة المعارف المصرية . عين نائبا عموميا في القضاء الأهلي . رأس الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ ودرس فيها . وهو والد ملك حفني ناصف «باحثة البادية» .

حكاية قلب وعرش

ولدت «هي» في ظل «البرثينون»[1] هيكل مينرفا الذي زخرفة المثَّال فيدياس[2] وما زال أعجوبة الفن في العالم. وشبت في ذلك الجو الرائق الذي كان العامل الأول في انسجام الذاتية الاغريقية القديمة وترعرعت في هاتيك الربوع التي خلّد جمال نسائها وفروسية رجالها هوميروس الشاعر الكفيف شيخ المبصرين، وآلهة الميثولوجيا كل ما حوته من جماد وحيوان ونبات ونهر وينبوع وكل ما تعاقب فيها من المظاهر الطبيعية والجوية.

هي في نضارة الحسن وريعان الشباب. وإذا كانت هذه المنح مع الثروة والمجد والعز والرفعة ضمانات للسعادة فشأن السعادة عند هذه الشابة شأن الخاتم المسحور في أصبع علاء الدين. أما «هو» فقد حبته الأحوال بمثل ما حبتها من جاه وفخار وشباب ومتاع. وباح له المجتمع ما حرمه على المرأة مما يسمونه «حرية الرجل». وسلحته الطبيعة بتينك العينين الأخاذتين حيث الحياة تنادي الحياة، وكان مزاجه مزاج الفنان الطروب المتخير المسرات والحسرات تخيراً لا يخضع فيه لقانون.

كل منهما سليل أسرة خطيرة الشأن. كل منهما على ثقافة واسعة، وتربية عالية، وذوق مصفى وعادات وأساليب كيسة أنيقة يكفي في تعريفها أنها ملوكية. ولئن شحذ الشعراء مخيلاتهم ليصنفوا أساطير ألف ليلة وليلة فإن الوسط الذي يعيش فيه هذان الزوجان لخليق بترفه وأبهته وفتنته وخلابته، بأن يكون مثالاً لقصور الأحلام الباذخة. وكل منهما حقيق بأن يكون بطل رواية بهيجة وعروس قصيد سعيد.

ولهذين الأميرين عرش ينتظرهما. وإنما التاج يزداد زهوا وبهاء عندما يزين

رأس الشباب والجمال ، وتمت لهما النعم فإذا بينهما طفل وسيم أرضى مجيئه غريزة الوالدية عند الزوجين ، وأشعرهما بأن زواجهما قد أثمر فهيأ للعرش من بعدهما وريثاً يحييان فيه حتى بعد أن يصبحا هباء منثورا ، فليس لهما بعد إلاّ أنْ يعنيا بتربية الطفل وبتكييفه على صورة مثلى تليق بمن قدر له أن يستوي على ذروة من ذرى بني الإنسان .

***

ولكن . . الزوج لا يحب !

ذلك السلك الأثيري الشفاف الذي يصل بين مستودع الكون الأكبر وبين جزيئات الحياة الخاصة فيجعل العمر حلما لذيذاً ، وتفاصيل العمر متاعا نفسيا ويحول حتى الآلام والحرمانات إلى وسائل عجيبة للسعادة – ذلك السلك القوي ليس موجوداً .

الزوج الذي لا يحب . .

أو هو يحب . ولكن عواطفه تسوقه إلى غير المرأة التي جمعت بينه وبينها المناورات الدبلوماسية . وإعجابه متجه نحو صورة غير التي فرضت عليه التقاليد الوراثية أن يكون بها معجباً .

مأساة ! وحول هذه المأساة الوجدانية المتلاطمة في قلب رجل تمثلت فيه لقومه كفالة المستقبل القريب ، تجري شؤون البلاد مجراها المتعرج المتقطع وتتفاقم الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أنضجتها الحرب وأرهقتها مخلفات الحرب هناك كما في سائر البلدان .

وانتقلت المأساة من حيز الشعور السري إلى حيز العمل العلني فإذا بالأحزاب تضطرب وتتأثر وتتناقش . وإذا للسياسة العليا إجراءات ومراسيم وإذا للدوائر الرسمية قرارت وبيانات حاسمة وتنادى بالطفل الصغير ملكا ، وتحكم بالطلاق بين الزوجين وتقضي بحرمان الزوج من حقوق العرش والملك محظرة عليه الإقامة في بلاده كأحد أفراد الرعية أو اجتياز تخومها كسائح غريب عابر غير أنّ الأحزاب المشايعة تمضي في الائتمار والمناقشة ورسم الخطط متلمسة وسائل

التنفيذ . والزوج المنتفي لم يتنازل عن العرش إلاّ ليكون إلى اعتلائه أقرب . فهو من ناحيته يتبادل الرأي وأصحابه ويعد العدة للرجوع لأنه يريد الجمع بين رغبة الحب ومجد السلطان على طريقة غير التي سنّتها تقاليد الوراثة ومع امرأة غير تلك التي اختارتها له مرامي السياسة . والملك الطفل يشب وينمو وسط الزعازع والمشاكل التي يعجز عن إدراكها وتسليكها السياسي المحنك والحكيم الخبير ، فكيف بعقل غرير !

والزوجة التي ذاقت مرارة الهجران قبل أنْ حكمت الهيئات الرسمية بطلاقها لم يبق لها إلاّ أن تكون الأم كل الأم ، فتعنى بتربية الطفل وتنشئته جسداً ونفساً ، وتهيمن على دروسه وألعابه ، وتشاركه في تقسيم وقته . في حين الزوجة منها ترقب وتفكر وتسمع وتقرأ وتسكت . . . وإذ يرى الملك الصغير أنّ لكل طفل أباً فيسأل عن أبيه ، تجيب الزوجة التي لا زوج لها :- إنه مسافر ، وسيعود إلينا قريباً .

***

لقد ابتكر العلم وسيلة جديدة يعود بها المنفيون لم تكن من قبل معروفة . وفعلاً هبط الأمير بغتة على وطنه في طائرة موالية . صدقت نبوءة الزوجة المهجورة ورجع الوالد الغائب الذي طالما استفسر عن ولده . لم يكن إلاّ أن يرجع ليستولى على جميع حقوقه فيصبح الملك الآمر الناهي صاحب الحول والطول ومصدر « الشرف » في البلاد الذي يمنح الرتب والألقاب ويضع كل امرىء حيث يريد هو أنْ يكون ، وما كان حتى جعل زوجته القديمة ملكة وجعل ملك البارحة الطفل ولي العهد المرتجى . وعرف أن يقول الكلمة المحكمة في سبيل الأمة الوطنية ، وأن يظهر رغبته الصادقة في إصلاح الشؤون والنهوض بها من وهدتها ، ففاز بجمع كلمة الأحزاب كلها على تعضيده في مهمته وكان الفوز الأكبر للأكثرية التي شايعته وانتظرته وأيدته حاضراً وغائباً .

***

وهنا لحقت به إلى عاصمة ملكه المرأة التى كانت إلى جانبه في منفاه المختار

فخلفت له في الغربة وطنا . لحقت به على مشهد من رعيته وأسرته وولده . لحقت به على مشهد من مطلقته النبيلة العذبة التي جعلها ملكة وانشأ يبذل المساعي لمصالحتها واستعادتها إليه . . .

أين تعاليمكم أيها القائلون بأن تضعضع الحياة إنما هو نتيجة الشر وسوء التصرف ، وأن الإحسان جزاء الإحسان ، وأن تهذيب الزوجة وثقافتها وصلاحها وحسن سلوكها تضمن الراحة والهناء لها ولذويها؟

أنتم في نظرياتكم مصيبون . . . عندما تصيبون ليس غير ! وكم يكذب الواقع النظريات ليثبت أن ليس له من قانون غير قانونه السريع المباشر ! ومع ذلك اعترف بوجوب نشر النظريات الأخلاقية وإن كان الواقع يناقضها ، أو بالحري لأن الواقع يناقضها . فقد قال فولتر« لو لم يكن . . . موجوداً لوجب أن نوجده » وهذا الرأي يصح على المبادىء الأخلاقية .

ولرب معترض يقول إنَّ هذه حادثة فردية وإن الفرديات لا يؤخذ بها لإصدار حكم عام . وإننا لو نظرنا إلى الجانب الآخر لوجدنا عديد النساء اللائي لا يحسبن لأزواجهن وابنائهن حساباً في غير استغلالهم لمآربهن . وهذا صحيح لأن الطبيعة البشرية بحسناتها وسيئاتها واحدة عند الجنسين . وكأن هذه المرأة النبيلة التي تهدمت حياتها وهي بريئة تكفر بتفطرها عن آثام عديد النساء الغافلات المستهترات الجانيات .

غير أن مصابها مصاب كثيرات من النسوة البريئات الصالحات اللائي تقسو عليهن الطبيعة والمجتمع معاً ، فيسكتن خشية الفضيحة . إذا نكب الرجل فهو يفرج من كربته بالخروج إلى ميدان العالم ومسرح السعي والعمل وأما المرأة فتلتهم نفسها شأن النار التي لا تجد ما تلتهمه . ولئن شهدنا اليوم في جميع أنحاء المعمور هذه الحركة النسوية الباهرة التي تجرف حواجز الماضي وتكتسح عقبات الحاضر لتهيىء المستقبل العادل فإنما هذه الحركات منبعثة من مثل هذا المصاب الذي ليس إلاَّ بعض الآلام البكماء التي فُرض على المرأة احتمالها والسكوت عليها .

حكاية قلب الزوج بسيطة : الملك حقه الوراثي وقد ناله . والحب وإن كان حقاً طبيعياً أولياً للجميع فقلّ من فاز منه بغير الطيف الخادع . أما هذا الزوج فيحسب أنه عثر على حاجته : فمن ذا الذي يلومه إذا هو وجد سر السعادة ومعنى الحياة؟ من ذا الذي يلوم الظامىء الصادي إذا هو تهافت على الينبوع الصافي؟

أما الزوجة فلا نعرف من أمرها إلاّ ما تنشره الأنباء . فنقرأ السطور ، ونتبين ما بين السطور ، ونحاول إن نذهب إلى ما وراء السطور مما قد لا يعرفه غيرها وإن تناوله المقربون وغير المقربين بالتأويل والتعليل .

إن موقفها ، على حراجته محتمل نسبياً إذا هي كانت لا تبالي بالذي لا يبدي لها إلاّ «الاكتراث السياسي» أنْ هو أحاطها بالرعاية فلأن ملايين القلوب في تلك البلاد تحبها وتكبرها وترعاها . . .

وماذا عسى تنفع الملايين حيث القلب الواحد مفقود .

ولكن ، لو هي كانت تحب؟

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س ١١ ، ع ٨ . ١٥ أكتوبر ١٩٣٠ . ص ٣٠٩-٣١٢

١- Parthenon : هيكل الإلهة أثينا على الأكروبول في مدينة أثينا باليونان . بناه المهندسان كاليكراتيس ويكتينس . نحت تماثيله ونقوشه النحات فيدياس .

٢- Phidias (ت . ٤٣١ ق م؟) . نحات يوناني . ولد ونشأ في أثينا . له تماثيل منها «أثينا الأم» و «جوبيتر الأولمبي» كما أنه نحت تماثيل افريز البارثينون . عهد إليه بيريكليس بتجميل أثينا .

رسالة إلى ماري (برهوم)

القاهرة في ١٢ يناير سنة ١٩٣١

عزيزتي الآنسة ماري[1]

سرتني جداً رسالتك اللطيفة . وكنت تعلمين بلا ريب وأنت تسطرينها أنَّ الرفض أو السكوت لن يكون نصيبها ، وأني لا بد ملبية لأنّ لمجلة «المرأة المصرية» عندي مكانة ولأن هذا الطلب هو الأول الذي توجهينه إليّ . ولئن تعذرت الآن كتابة «مقال» لافتتاح العام الجديد فليكن هذا الافتتاح بكلمة تهنئة لوالدتك الذكية على نشاطها وثباتها طوال هذه الأعوام حتى وصلت بمجلتها إلى حيث هي اليوم من التقدم والإتقان .

وتهنئة أخرى للوالدة أيضاً لأن جهادها أثمر ليس في صفحات مجلة وكفى ، بل هو أثمر الثمر المعزي الموفور الرجاء في ابنتيها النجيبتين حتى تمكنت من تسليمهما أعمال مجلتها في قسمي التحرير والإدارة .

أما أنت أيتها الآنسة العزيزة ، فأهنئك لأنك وجدت منذ نعومة أظفارك أمّاً تقودك في سبيل الحياة ، وعملاً مجدياً تنفقين عليه نشاطك الفتي وتثقفين بمعالجته مزاياك وقواك . فأتمنى لك التوفيق والفلاح في السنة الجديدة وما يليها من السنين ، كما أتمنى لمجلة «المرأة المصرية» استطراد السعي في خدمة بنات جنسها والنجاح في ما ترمي إليه من أغراض الثقافة النسوية والتقدم القومي .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٢ ، ع١ ، ٢ . ١٥ يناير وفبراير ١٩٣١ . ص٦٢

١- هي ماري برهوم ابنة بلسم عبد الملك مؤسسة «مجلة المرأة المصرية» .

مثال من شقاء المرأة الشرقية
في حادث مفجع بالعراق

هذا حادث بعيد عنا بالمكان الذي وقع فيه ، ولكن ما أقربه إلينا معنى وروحاً وتشابه عقلية عند طائفة كبيرة في مختلف الأقطار الشرقية .

إنّ العراق قطر شقيق ، ما تخطينا بعض قرون إلى الوراء إلاّ وتلاقينا وإياه في وحدة لغوية وتاريخية (ودينية للأكثرين) . هو اليوم شقيقنا بجميع هذه الاعتبارات وبجهاده في سبيل الاستقلال القومي . ونراه على بعد الدار ، موفور الحيوية جم الممكنات زاخر الوجود ، حقيقاً بتجديد مجده القديم في مغاني دجلة والفرات . وإننا لنتطلع إلى مظاهر تقدمه بشوق لا يخلو من غرض المصلحة ، ولكنها مصلحة عامة نبيلة ، إذ لكل نهضة في أحد الأقطار الشقيقة صدى وأثر في الأقطار الأخرى .

أما ونحن نعنى بجميع أسباب تقدمه فنحن نتلقى كذلك رجع كل مأساة تروع ربوعه . والمأساة التي تعاقبت فيه فصولها بمناسبة زواج إحدى فتيات أسرة السعدون بالمدير العام بوزارة الداخلية العراقية كان لها عندنا رنة أسى بعيدة .

هذا الحادث ليس قاصراً على الشخصيات التي قامت بأدواره . بل هو مظهر من عقلية اجتماعية ما زالت تغمر بلادنا بالظلمات فتحط فيها من قدر المرأة وتنكر عليها حريتها الشخصية حتى في ألصق الشؤون بحياتها .

سيدة ذات تربية وثقافة وكرامة ترضى بالزواج من رجل عرف في بلده بالخلق الكريمة والعلم والكفاية وحميد المزايا حتى ولته حكومته وعلى رأسها ملك من أرقى ملوك الشرق منصبا من أكبر مناصبها بوزارة الداخلية ، وقد وافق كذلك على هذا الزواج عمها الرجل الحصيف الذي أناله السفر والاختبار إلماما بما

تجري عليه الشؤون في العالم وهو وليّ أمرها بعد وفاة والدها . فتزوجت من الرجل الذي رأت أنه يليق بها بشخصيته وبمواهبه . ولكن أبناء الأعمام ومن يليهم كانوا حانقين . فتقدم أحدهم وقتل الزوج في مكتبه بالوزارة لأن «أسرته منذ عدة أجيال لم تسمح لأحد أفرادها من الرجال والنساء أنْ يتزوج خارج الأسرة وممن هم دونها مقاما ، ولأن هذا الزوج رغم توليه منصبه الرفيع في الحكومة هو في نظر السعدونيين بمكانة العبد» –وهو القول الذي دافع به السيد عبدالله فالح السعدون عن نفسه أمام المحكمة– على ما أنبأتنا به تلغرافات «الأهرام» الخصوصية .

إننا نحترم أسرة السعدون ذات الشرف المنيف ونحترم كل أسرة شرقية ذات تقاليد تقوم على أسس العزة والكرامة والاستقامة . إنّ المعقول من تلك التقاليد عزيز علينا ونباهي به كتراث نفيس ، ولكن عندما تكون تلك التقاليد سببا في قتل رجل بريء هو من أحسن رجال بلاده ، وتكون دافعة إلى تحطيم حياة امرأة والضغط على الحرية الفردية حيث تكون الحرية حقاً –فعدئذ نقف حيال تلك التقاليد موقف السكوت والأسى والأسف .

نسكت في أسى وأسف ذاكرين أنّ الأسر المالكة في العالم ذات التقاليد الصارمة قد اضطرت في الأعوام الأخيرة إلى التخفيف من غلواء كبريائها ، وبصرف النظر عن عديد الفتيات من بنات الكبراء أصحاب الثروة والجاه اللائي تزوجن رجالاً دون ذويهن في هذه الاعتبارات وبصرف النظر عن بنات الوزراء ورؤساء الوزارات في مختلف البلدان اللائي تزوجن من سكرتيري ديوان آبائهم أو من صغار الموظفين ، وبصرف النظر عن فئة من أميرات الأسر المالكة اللائي تزوجن من رجال لا يصلهم بذوي «الدم الأزرق» واصل ، فحسبنا أنْ نذكر كبرى بنات ملك ايطاليا البرنسس يولاندا زفت إلى كونت بسيط ، وأن ابنة ملك انجلترا الوحيدة البرنسس ماري زُفّت إلى «فيكونت» لا غير . فكان زواج هاتين الأميرتين العظيمتين صدعا عنيفاً في جدار التقاليد ولم يقدم أحد أقاربهما على قتل الزوج الذي ليس أميراً ملكياً .

وقد تزوج الديوك اوف يورك ثاني أنجال ملك انجلترا من سيدة كريمة ولكنها ليست من أصل ملكي . مع أنَّ كبرى كريمتي هذه السيدة الرفيعة الشأن البرنسس اليزابيث الصغيرة الجميلة ستكون يوماً ملكة على انجلترا فيما لو بقى ولي العهد -ولي عهد أكبر دولة عرفها التاريخ- البرنس اوف ويلز مصمما على حياة العزوبة .

قد كان أفراد أسرة السعدون الكرام يعتبرون بهذه الحوادث لو هم كانوا قد خرجوا من مقرهم للتجول في أنحاء العالم والوقوف على تطور النظم الاجتماعية وفقاً لتوسع فكرة الحرية الشخصية ، وبخاصة فيما يتعلق بالزواج لكانوا يدركون أنَّ التقاليد حتى في أعظم الأسر المالكة آخذة في التغيير لأن الحياة أقوى من التقاليد ، والحياة تسير إلى الأمام ولا يمكن أنْ ترجع القهقري إلى الوراء .

ولكانوا يعلمون أنَّ القابضين على أعنة الشؤون في يومنا هم في الغالب رجال من أصل وضيع ، إلاَّ أنَّ ضآلة نسبهم لم تحل دون نمو عظمتهم الشخصية ومواهبهم التي أهلتهم للقيام على ذروة بلادهم . ولم تحل دون جعل حظوظ الشعوب معلقة بيدهم . ومن ذا الذي يفهم هذا أكثر من العربي الأريحي الذي قال شاعره قديماً .

إن الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي !

إننا شديدو العطف على السيد عبدالله فالح السعدوني . ونتمنى -وبعد المكان يجيز لنا الإفصاح عن هذا التمني- تخفيف الحكم الصادر عليه واستبدال حكم الإعدام بسواه فهو حقيق بذلك ، لأن الذي كان يتكلم ويتحرك فيه ليس شخصه بالذات ، ولكنه كان واقعا تحت فعل الاستهواء بفكرة التقاليد هي التي شهرت المسدس وأطلقت الرصاص على الزوج الكريم البريء ، والتقاليد هي التي قتلت رجلا كان يحب أنْ يظل عاملاً في خدمة بلاده ، وكان له الحق أنْ يظل عماداً لبيته وسنداً لزوجته .

والزوجة هي المثال الوجيع في هذه الفجيعة هي مثال وجيع في شخصها ،

ومثال وجيع لأنها تلخص موقف طائفة كبيرة من النساء الشرقيات ، نساء شعوب ترسل اليوم من شتى الأنحاء صيحة واحدة للمطالبة بالحرية والاستقلال فهل من حرية لأمة تستعبد المرأة في أقرب الشؤون إلى شخصها الفردي؟ وكيف يتم الاستقلال في جماعات لم تفهم بعد أنّ أول خطوات الاستقلال . يجب أنْ تتحقق في الزواج؟ وكيف يكون الرجال أحراراً وهم ينكرون الحرية على المرأة التي ينشأ على ركبتيها الرجال .

من ذا الذي يصدق أنّ في أيامنا هذه تزف كثير من الفتيات إلى رجال يجهلنهم . من ذا الذي يصدق أنّ الزواج الذي يتناول أولا وخصوصاً شخصين اثنين تحبك سلاسله أو تفكها أيد غريبة هي أيدي الأهل والأقارب والغرباء والأصدقاء وغير الأصدقاء والأعداء مّن ذوي الأغراض ومن محبي الوشاية أو من المغرمين بالثناء ويظل ذانك الشخصان المقبلان على الزواج واقفين في وسط تلك المؤامرات القريبة والبعيدة المتناسخة حولهما كأنما هما في هذا الحادث هما وحدهما الغريبان .

إنّ العائلة هي نواة الحياة الاجتماعية وأساسها المرأة ، فكيف تضربون صفحا عن ميول المرأة وذوقها ونزعاتها المشروعة ورأيها ثم تقولون لها شيدي عائلة ، وكوني لبنة أمة ، وكوني زوجة كريمة وأمّاً صالحة .

كيف تفرضون على المرأة كل ما تتخيلونه من الواجبات والمسؤوليات في حين أنتم لا تقومون بتأدية أول حقوقها وأهمها : حق اختيار الرجل الذي سيقاسمها أفراح الحياة وأتراحها .

ألا فليعلم الأهل أنّ شخصيات ابنائهم وبناتهم هي غير شخصياتهم وأن هذا الاختلاف وحده ضمين بالتقدم للفرد وللجماعة ، وأن واجبهم يتلخص في تدريب ابنائهم على الحرية المشروعة وفي مساعدتهم لهم لتطبيق تلك الحرية الكريمة في حياتهم .

وعبثاً نتغنى بالكلمات الجميلة ، كلمات الحرية والاستقلال ، إذا أنتم احتفظتم ، يا رجال الشرق ، بنوات العبودية في بيوتكم بأشخاص نسائكم

وبناتكم ، أويكون ابناء العبدات أحراراً يا ترى؟

إننا إذاً نطالبكم باحترام الحرية الشخصية للمرأة في الزواج لا نطلب منكم أكثر من أنْ تكونوا في هذا الباب أمثال جورج الخامس وفيتوريو ايمانولي الثالث !

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٣ ، ع٣ ، ٤ . مارس وأبريل ١٩٣٢ . ص١٢٩-١٣١

فقيدان اثنان عدلي يكن باشا وداود بركات

ليس غريباً الكلام في عجالة واحدة عن كبيرين كانا يعملان لغاية واحدة وإن اختلفت عند كل منهما الطرق والوسائل . بل هو أمر بديهي أنْ نجمع في عنوان فرد بين رجلين شاء الموت أن يقرب بينهما فعبر أحدهما تلو الآخر عتبة الحظيرة المجهولة وغابا معا في خفايا السر الأعظم .

إن الذي يقضي في غير وطنه لا يكتب الحرف الأخير من كلمة فقده إلاّ عندما يضمه إليه ثرى بلاده . واليوم يعود جثمان عدلي باشا[1] لتحتضنه الأرض المصرية التي حنت البارحة رؤوما على جثمان الأستاذ بركات . وقلب مصر الكبير الذي خفق البارحة جوى وأسى حول نعش الذي مات قريبا ، تتجدد اليوم تباريحه حيال نعش الذي مات غريبا وتذكو فيه الفجيعة التي أثارها النعى من بعيد واليوم تضطرب أعمدة الصحف بوصف استقبال عدلي باشا وتشييعه ، في حين الأعمدة المحاذية ما زالت تضطرب بذكرى الأستاذ بركات بعد رحيله .

أجل ، هما في الموت وكأنهما على موعد بعد أن يسرت ظروف الحياة المقابلة بينهما ، ولست مشيرة بهذا إلى العلاقة الشخصية بين الرجلين فهذه الناحية من الموضوع سيعالجها بلا ريب الذي سيؤرخ لحياة الأستاذ بركات فيفرد صفحات خاصة لعلاقاته برجال الدولة من رؤساء الوزارت والوزراء وغيرهم من ذوي الحيثيات الكبيرة وذوي المناصب المختلفة ، إنما أشير إلى إمكان المقابلة بينهما من حيث أنَّ أحدهما فعّال بين رجال الدولة والسياسة والآخر فعّال بين رجال القلم والصحافة ووجه المقابلة بين رجال هاتين الطائفتين عموما أدق وأوثق مما يظن لأول وهلة سواء أكانوا على ائتلاف أم على اختلاف . بيد أنَّ هذين الرجلين كانا على ائتلاف في كثير من أحوال حياتهما

العامة متماثلين على ما بينهما من فارق ، ممثلين كل من ناحيته لجانبين متقابلين في الدولة والأمة ، موضحين بشخصيتهما وجهين اثنين من الشخصية العامة والضمير العام .

عدلي باشا غريب الأصل أقبل آباؤه مع مؤسس مصر الحديثة محمد علي باشا ، من على ضفاف البحر اليوبي من هاتيك البلاد التي كانت مهد الفلسفة والحضارة الجديدة . وقد صهرته الشخصية المصرية الكبرى فإذا به في خلاصة النبل صميم الأرستقراطي بمصر ، وطنت الأنوف الجميل ورؤوس جباله الشماء في ظروف سياسية خاصة كانت مسيطرة على هاتيك الربوع . وقد صهرته ، ولو بشكل آخر ، الشخصية المصرية الكبرى فإذا به في خلاصة نبل الشعب بمصر وفي صميم ارستقراطية القلم .

عدلي باشا في ارستقراطيته الاجتماعية والسياسية يسعى لخير البلاد ، ويعمل في مصلحة البلاد ، ويرمي إلى استقلال البلاد وتوطيد كرامتها . والأستاذ بركات في نبله الشعبي يكد قريحته لخير البلاد ويجري قلمه في مصلحة البلاد ويرمي في تفكيره وفي كتابته إلى استقلال البلاد وتوطيد كرامتها .

ذاك يقوم بما يقوم به رجل الدولة والسياسة من على كرسي الوزارة وخارج الحكم جميعاً . وهذا يقوم بما يقوم به شيخ صحافة ورجل قلم من على كرسي التحرير وفي منبر المقالة اليومية .

ذاك يسعى في التوفيق بين المتعارضين ويرضى بالمسؤولية كلها عندما يشير إليه إخلاصه بقبولها ، فإذا نجح فذاك وإن فشل أعرض ريثما يدعوه الواجب . وهذا يقترح وسائل التسوية والتوفيق ويؤيد كل دعوة من هذا القبيل إذا هو رأي فيها خيراً للمصلحة العامة فإذا نجح فذاك وإن فشل تحول إلى موضوعات أخرى في انتظار الفرصة الملائمة .

وعدلي باشا «جنتلمن» كيّس متأنق لا يحب أنْ يجاهد في الظاهر ، ويأنف من الكد والتعب ، ويتجنب علامات التأثر والانفعال فلا يعمل إلاّ بدافع الفكر والعقيدة في هدوء وتبصر ودعة . والأستاذ بركات «بوهيمي» لا يفهم الحياة

بدون كد ونصب ويمقت القيود الاجتماعية ولا يتورع في الثورة عليها وتكسيرها ليفسح المجال لمزاجه العتي وعواطفه الفياضة . ومع ذلك قل جداً ما أطلق العنان لانفعاله في ما كتب . بل هو عند ما يحمل القلم لا يستسلم إلا للفكر والإقناع فيخط مقاله في هدوء وتبصر ودعة رغماً من جلبة أصحابه حواليه ورغماً من رنين جرس التلفون وتلبية مطالب العمل .

ذاك يملك في منصبه إصدار القوانين وتنفيذ القوانين وتعديل القوانين وخارج منصبه يساهم جماعته في تنظيم المواقف السياسية وتهيئة الدعاية لها . وهذا يملك بقلمه انتقاد القوانين واقتراح تعديل ما يحسن تعديله منها ، والدلالة على كيفية تنفيذها وتطبيقها كما يملك انتقاد المواقف السياسية أو تحبيذها ونشر الدعاية لها في الجمهور .

ذاك يقود دفة الدولة ويضع اسمه ونفوذه في كفة جهاد الأحزاب . وهذا يوحي إلى الدولة كيف تقود دفتها وإلى أين توجهها ، وينشط الأحزاب في جهادها حيث يرى الجهاد صالحاً ، ويؤيد الزعماء والعاملين ويذكى فيهم حب السعي والعمل .

عدلي باشا من علياء أرستقراطيته وفي سكوته الأبي كما في كلامه القليل الموزون ، يفكر في الفلاح ولا يرى نهضة الأمة مستكملة إلاّ بتحسين شؤونه . والأستاذ بركات كان الفلاح عروس نثره ومضمون كتاباته فلا يرتئى إصلاحا إلا وللفلاح قسطه الكبير فيه ولا تكلم في شؤون الأمة إلاّ وشأن الفلاح الخاص في مقدمة ما يجب الاعتناء به .

ذاك الوجه الارستقراطي ذو العينين الساهيتين كان يقيس بالبداهة ابتسامته وتبدو هيئته وكأن به إعراضاً عن الأمر الذي يشغله وإن كان شديد العناية به . وهذا الوجه الشعبي ذو العينين المملوءتين بالانفعال لا ترى عليه إلاّ نصف ابتسامة وتبدو هيئته وكأنه شديد الاهتمام بكل أمر يعرض أمامه ولو أنه في الصميم قليل الاعتناء به وفي هذا وذاك شيء غير قليل من عدم الاكتراث بما لا يروقهما وشيء غير قليل من التهكم المختلف نوعاً ومظهراً عند كل منهما .

والخلاصة من هذه المقابلة؟

الخلاصة أن هاتين الشخصيتين اللتين اشتركتا كل في بابها في إرهاف يقظة

الأمة وفي تعجيل خطاها -إنما يحسب أكبر أفضالهما عندي بما عاونا به في تكوين الضمير المصري الحديث . وقيمة الشخصية العامة إنما هي بقيمة الضمير الذي يغذيها ويوحي إليها الرغبة في حب الكرامة وحب العمل .

يقولون إنَّ لا أهمية للفرد والشخص وإنما الأهمية للغاية والمبدأ . وأنا لم أر إلى اليوم مجموعاً يتألف من شيء آخر غير الأفراد ، ولا أبصر أحدٌ أمّة كتلة قائمة من تلقاء نفسها ولا أشخاص فيها . وإنما هي الأفراد التي تستيقظ أولاً في الأمم فتسري منها عدوى الخير إلى المجموع الصغير فالمجموع الكبير فالمجموع الأكبر .

رجلان أقبلا من بلدين كانا يحسبان من قبل ، كمصر ، إقليمين من أقاليم الامبراطورية العثمانية ، فجاءت الحرب الكبرى وغيرت على هواها في أقطار وأتمت التغيير في أقطار غيرها ، ونهضت بلاد وكبت بلاد وتفطرت بلاد . فإذا بمصر وقد تبوأت مكانتها بين أقطار الشرق الأدنى وإذا بهذه الشخصيات التي حملت إليها وراثاتها الخاصة بطبيعتها السحيقة تنمى الشخصية المصرية الكبرى وتتفاعل وإياها في الأخذ والعطاء وتساعد على توسيعها وتعظيمها وأنالتها طابعها الذي تجدّ في استكماله وإظهاره .

تكلمت في المقابلة بينهما حيث مرة تتلاقى بعض وجوه شخصيتيهما ، ومرة تتعارض ، ومرة تكون متممة بعضها لبعض في بعض مظاهر وظيفتهما العامة . ولكني لم أصور شخصية كل منهما ولم أتكلم عنهما راحلين . لا أريد أنْ أستسلم لذكريات يضطرب بها القلم فلا تنطق عندها إلاّ الدموع ولا أريد أن أذكر هول الموت وقسوته ، وخلو المكان وحرقته ، والوحشة الموجعة التي تتركها وراءها الوجوه العزيزة المتحولة إلى عالم آخر .

ألا ما أقوى قلوب الأحياء التي تحتمل كل هذا الاحتمال .

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٤ ، ع٩و١٠ . نوفمبر وديسمبر ١٩٣٣ . ص٢٢٨-٢٣٠ .

١- عدلي يكن (١٨٦٤-١٩٣٣) . سياسي مصري . ولد في القاهرة وتعلم في مدارسها الأجنبية . شغل منصب وزير للخارجية ثم للمعارف . رأس الوزارة ثلاث مرات (١٩٢١ ، ١٩٢٦ ، ١٩٢٩) . كان أحد مؤسسي حزب «الأحرار الدستوريين» . توفي في باريس ونقل جثمانه إلى القاهرة .

عام يطوي وعام ينشر
يوم الاثنين أول يناير سنة ١٩٣٤

هذا اليوم الأول من أسبوع جديد ومن شهر جديد ومن عام جديد جميعاً . على أن ليس ثمة أي فرق خاص بين هذا اليوم وبين سائر الأيام الأخرى ، ما سبق منها وما هو لاحق . ولا هو محتوم أن يتبدل فى حياة الفرد الواحد منا ، أو في حياة هذا الناس ، أو في أي أنحاء الكون شيء معين بمجرد الانتقال من عام إلى عام . كل ما فى الوجود متتابع ، متناسج ، متماسك سواء أأطلقنا عليه اسماً ورقماً أم أهملناه غفلاً من التعريف والتحديد .

فعلام اهتمامنا بهذا اليوم وبالأيام المؤدية إليه؟ علام كل هذه الحفاوة بالموسم السنوى ، وكل هذه التهانىء والتمنيات والزينات والحفلات ، علام نجعل فى هذه الأيام وداعاً ولقاء وانتهاء وابتداء؟ علام نتخيل لها روحاً رضية خاشعة نعكف على تفهمها وتذوقها ، وننسب لها الابتسامة البطيئة الرقيقة المؤثرة كابتسامة كل من وقف على مكنون الأسرار .

علام يخيل إلينا أن هذه المدة من العام تمثل قلباً كبيراً أضناه التكتم والانعكاف على ذاته فانبري يختار بين هذه البرايا الشيء أو الشخص الذي يعرف لغته السرية ليبوح له بخفاياه ويكشف أمامه عن جراحه الدامي منها والملتئم؟

علام ننقلب في هذا الموسم أطفالا في أحزاننا وفي أفراحنا وفي أشوقنا وفي ذكرياتنا؟ حتى أبعدنا عن الاستسلام للتأثر وأجمدنا حيال دبيب العاطفة يشعر برعدة الوداع وبوحشة الفراق ، بنفحة من الحنان ويتوق إلى الصلاح ، ويسمع نغماً يبدأ في أواخر العام نائحاً مستعبراً شجياً يقطعه بين حين وحين شهيق اليأس لينقلب في أول العام الجديد نشيد ابتهاج وأمل وتطريب؟

***

ما السنة الوحيدة إلاّ الوقت الذي تقتضيه الأرض في إتمام دورتها حول الشمس .

نحن نعجب بالآلات التي تحملنا وأمتعتنا متنقلة بنا من مكان إلى مكان ، من إننا في نومنا ويقظتنا ، في علمنا وفي فراغنا ، في حياتنا وفي موتنا نركب أعظم وأفخم طائرة ممكنة وما تلك الطائرة العجيبة إلاّ هذه الأرض التي تجري بقطبيها وبحارها وصحارها ورياضها وجبالها وبشتى شعوبها وأجناسها وحيوانها ونباتها -تجري إلى أين؟

نحن ندري من أين تقوم الطائرة الصغيرة وإلى أين تبغي وندري في أية محطة تتحرك القطارات وإلى أية المحطات تنتهي . وندري من أي المرافيء تقلع السفن وفي أي المرافيء ترسو . أما أرضنا هذه فليس من يدري من أين هي مقبلة وإلى أين تسعى .

نحن نعجب بالكواكب التي توشّي رداء الظلام ، ونشكر للشمس أشعتها التي ندين لها بالحياة ، ونساجل وجه البدر الحلو الكئيب إذ نحسبه رسولاً من الأعالي جاء يشيع الإشراق في ليالينا ويسامر العاشقين والشعراء والمحزونين ويظن عندما نناجي الأجرام السماوية «أننا نرفع نفوسنا إلى ما فوق الأرض» ، ناسين أنّ أرضنا كوكب تلمع في الأفق لمعان المريخ أو الزهرة أو المشتري لكأن ما يقال هنا شعر وخيال وأوهام . ولكنه نثر الواقع المحسوس شأن الكلام عن القطار الذي يقوم من القاهرة مثلا ووجهته الاسكندرية أو القنطرة أو اسوان . ولكن أين سرعة القطار من سرعة سيارة الأرض .

تسير الأرض في الفضاء بسرعة سبعين ألف كيلو متر في الساعة ! الشمس التي نراها مشرقة في أفقنا تستجرنا نحن الأرض وسائر المنظومة الشمسية حثيثاً في مجهول الآفاق طائفة بنا في فلوات اللانهاية . ناموس الحركة الكونية الذي لا يهادن ولا يرحم يسوقنا نحو كوكبة هرقل على مقربة من المجرة التي تبدو منبسطة رحيبة في عقيق السماء ، بسرعة تظهر حيالها كل سرعة حققتها آلات الإنسان كألعاب الأطفال .

نطوي كل دقيقة واحدة ما يزيد على الألف وعشرة كيلو متر وكل ٢٤ ساعة تنقضي تكون قد قذفت بنا مسافة مليون وستمائة وثمانين كيلو متراً إلى الأمام . دائماً إلى الإمام نحو المدى الرهيب في هاوية المجهول الذي لا يعرف الأمام ولا الوراء ، ولا أعالي فيه ولا أداني .

والأرض رغم هذه السرعة ، لا تعلق بشيء ولا تستند إلى شيء . هي البلون السابح في الهواء . لكن البلون يحط ويستريح والأرض لا محطة لها ولا الراحة من ممكناتها ، فهي لم تقف حياتها دقيقة ولا لحظة ولن تعود يوماً إلى نقطة سبق أنْ جازتها قبل مئات أو ألوف أو ملايين الأعوام ، دائماً إلى الأمام دائماً إلى فلوات مجهولة ما إنْ أقبلت عليها مسلّمة حتى ترحل عنها مودعة . كذلك شأنها منذ الأزل . وكذلك شأنها إلى الأبد ولا يعرف الغاية من رحلتها غير ربك ذي الجلال .

وفي هذا الاندفاع الرهيب لا تكتفي الأرض بالسير مع المنظومة الشمسية ومكانها بين المريخ والزهرة (بين الحرب والحب !) ، بل شأنها شأن إخواتها السيارات الأخرى ، هي تدور على نفسها في أربع وعشرين ساعة نسميها يوماً ، تدور حول الشمس في ٣٦٥ يوما نسميها عاما . تدور كل هذه الدورات وهي لا ترتكز على شيء لا يدفعها غير قانون الجاذبية الكونية ولا يحفظ توازنها غير قوة المغناطيس العام . ومن كل جانب حولها تتجدد الخليقة في تنوع وغنى لا حدَّ له ولا حصر ، فنحن في الواقع نعيش في قلب السماء سواء أشئنا أم لا نشأ ونحن دوماً نسير من مجهول إلى مجهول ، كل هذه معلومات مألوفة ، ولكن حسناً نصنع بنسيان هذه الأمور في حياتنا اليومية ، لأن رهبة اللانهاية شيء لا يحتمله عقل الإنسان .

***

ولأجل كل ذلك ، ولأنه ينزع من بعض نواحي نفسه إلى العبودية نزوعه من النواحي الأخرى إلى الحرية – كل ذلك الإنسان المحدود المتناهي شعر باحتياجه إلى الحد والنهاية فنظم لنفسه الدقائق والساعات والأيام والأسابيع

والشهور والأعوام والقرون ، ورتب حياته القصيرة الزائلة بموجبها . . فقام يحتفي باجتياز ما أوجده هو نفسه من الحدود ، ومضى يباهي بأنه يودع عاما ويستقبل عاماً ولئن جاشت نفسه بالذكريات في هذا الموسم الوهمي فلأن حياته بحذافيرها تتلخص في الذكرى . خلال ملايين القرون التي مرت بالأرض . حزن الإنسان كثيراً وبكى كثيراً كما فرح كثيراً وضحك كثيراً . فما يشعر به الآن من الاكتئاب والجذل إنما يأتيه بدىء ذي بدىء من وراثته الطويلة السحيقة والقريبة في السماء وعلى الأرض ، ومن رحلة سيارته في رائع السماوات ومن رحلة بني جنسه أفراداً وجماعات من المهد إلى اللحد .

وهو بعد يصب سيل روحه في القالب الذي ابتكره للزمن وينيل الأيام وجوها وهيئات ومعاني ينسخها عما يموج بين جوانحه من شتيت النزعات والتأملات والاعتبارات . كل ما يحيط به لغز وسر ولا وجود عنده للاشياء إلاّ بمقدار ما يعكس عليها من أشباح نفسه .

***

انتهيت إلى هذا الحد فإذا بالنواقيس تشدو معلنة قدوم العام الجديد . فأهلاً بك ، يا سليل القرون الرهيبة ويا مؤدياً إلى رهيب الدهور !

نرحب بك وإن كنت غير مصغ ، ونستقبلك وأنت غير مدرك ، وتسير بنا وأنت بنا غير شاعر ، ونستسلم لقواتك مرغمين وأنت لا تمنينا بحظوة ولا تعللنا بوعد !

النواقيس تشدو معلنة شيئاً من الجمال المبعثر في العالم ، والنواقيس تشدو باعثة في الجو إشارات الروعة والفخامة ، والنواقيس تشدو داعية إلى الابتهاج والحبور !

فحسبنا منك ، أيها العام ، الدقيقة التي نعيش فيها جامعين عندها مبعثر الجمال ، راسمين فيها إشارة الثناء والجلال ، خالقين من يأسها رجاء ومن حزنها حبوراً .

وبينا أنت تجري بنا في أتاويه المجهول نريد أنْ نلخص المجهول معرفة مقتنصين من الحيرة ثقة ، مستخرجين من الاضطراب عزما وثباتا .

ونبيعك كل ذكريات الأرض بحياة وهم واحد يبعث فينا شرارة الحياة ويرهف عندنا الرغبة في الحياة .

فهل أنت مشترٍ؟

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٥ ، ع١و٢ . يناير وفبراير ١٩٣٤ . ص٤-٦

حاضر المرأة ومستقبلها
فضل المرأة على المدنية الحديثة

ألقت حضرة النابغة الآنسة «مي» محاضرة شائقة مساء يوم الجمعة ٦ ١مارس الماضي في قاعة يورت التذكارية . ويسرنا أنْ نثبتها هنا بنصها لما تضمنته من بحث طريف ودرس مفيد . قالت :

جناب الرئيس المحترم ، أيها السادة والسيدات ، للمرأة سمعة غير حسنة منذ زمن بعيد ، منذ عهد الفردوس الأرضي حيث جرت المفاوضات الشهيرة في شأن التفاحة بين الشيطان المتنكر في زي حية ، وبين حواء الأم الأولى . فإلى تفاحة حواء تعزى جميع الشرور المنتشرة في العالم وبسببها طرد الإنسان الأول من جنة الفردوس فخرج إلى هذه الحياة الراهنة بما فيها من نكد وعناء وبغض وعذاب ومرض وموت وحرمان . فلو لم تكن تفاحة حواء ، أو الثمرة المحرمة ، ما حكم علينا نحن بني آدم ، بكل ما نكابده من ألم وشقاء ، وما كان لنا أنْ نتدرج في مراتب المدنية التي هي جهاد مستمر ضد الهمجية . فقضية مسلّمة إذن أنَّ المدينة كلها نجمت عن تفاحة حواء !

قلتُ المدنية كلها لأنكم تعلمون أننا عندما نتكلم عن مدنية الماضي ومدنية الحاضر ، أو مدنية الشرق ومدنية الغرب ، إنما نفعل بداعي المعاني الموقوتة ولتقسيم الأزمان . أما في الواقع فالمدنية واحدة منذ بدء التاريخ تطورت واتسعت وانتشرت دهراً بعد دهر ، إذ أخذ منها كل شعب ما يتفق وحاجته وطبيعته ، فزاد عليها إبان نهضته وازدهاره بما ابتكرته عبقريته وحققته حاجته ، فاقتبست بعدئذ عنه وعن غيره شعوب أخرى ناسخة ومكتفية بالنسخ ، أو ناسخة فمبدعة في الابتكار ونتاج الجهود . وهكذا يسير موكب المدنية رحيباً مترامياً ،

تشترك فيه جميع الشعوب اشتراكا سلبيا أو إيجابيا ، وفقاً لذكائها واستعدادها ومواهبها قرنا بعد قرن . ليس هنا مجال البحث في هذا الموضوع الشائق الطريف ، ولكن الإلماع السريع إليه كان ضروريا لحديثنا .

يقول السادة الرجال -عفى الله عنهم وعن ذنوبهم العديدة -هذه المدنية إنما هي صروح وأنظمة وتشريع وزراعة وصناعة وادوات وآلات وثقافة وعلوم وفنون وآداب . فأين يد المرأة في كل ذلك؟ الرجل هو الذي ابتكر وأنتج ، وما فتيء يبتكر وينتج . والمرأة تستغل ذلك الإنتاج وتستهلكه ، فأي فضل للمستغل المستهلك؟

فضل المستغل المستهلك أيها السادة والسيدات يقوم في كونه يمكّن العامل المنتج من المضي في العمل والإنتاج ، ويوحي إليه جديد ما يبتكر ، ويغذي حركة الصناعة والتجارة والعمران ، فلو لم يكن للمرأة غير هذا الفضل على المدنية لكفى به فضلا ! ولكنني أظن أنَّ للمرأة بعض الأفضال الأخرى غير الاستهلاك !

ويقول الرجل الراقي حقاً :- المدنية في أسمى معانيها هي شهامة وخلق ودين ، فأين فضل المرأة في عالم الشهامة والخلق والدين؟

مثل واحد لا غير ، في كل من الأديان الثلاثة الكبرى التي خرجت من شرقنا هذا الصغير فأسبغت النور على العالم . وكلٌ من هذه الأمثلة الثلاثة كاف ليشرف اسم المرأة على الدوام . فلولا ابنة فرعون ما خلص موسى من الغرقَ ، ولولا عناية ابنة فرعون ما شب موسى فصار الكليم الذي يبصر وجه اللّه فيعود إلى قومه بلوحي الوصايا . والسيد المسيح في ساعة الإهانة والغم والتفطر ، عندما تواري من حوله الرجال الصناديد تلاميذه وأصدقاؤه - لم ير عند قدميه إلاّ رجلاً واحداً هو تلميذه يوحنا ، وامرأتين اثنتين هما أمه الوجيعة مريم ومريم أخرى هي المجدلية تلميذته . والنبي العربي ، فتى الصحراء الملهم ، أول من آمن برسالته امرأة . وقد كافأ المرأة كريماً يوم قال كلمة تتجاوبها الأجيال : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء .

وهـذا هو الـشرق ، شرق ، المرأة الذي أنال العالم بأسره ديناً وشرفا أخلاقياً وإلهاً .

***

تذكرون ، أيها السادة والسيدات ، أنَّ الكاتبة الفرنسية العظيمة مدام دي ستايل[1] سألت نابليون يوماً أي النساء أحب إليه . فأجاب لفوره : أحبهن إليَّ المرأة التي هي أمّ ابناء عديدين ، المرأة الولود . وتعلمون أنَّ هذه الكلمة لم يقلها من نابليون إلاَّ القائد والامبراطور الذي لم يكن له من وسيلة لتوطيد عرشه إلاَّ التوسع في فتح البلدان وبسط نفوذه عليها . بالحرب اعتلى العرش وبالحرب وطد ذلك العرش . ولتغذية الحرب وضمان النصر لا بد من عديد الجنود . فلا غرو إذا هو كان شديد الحاجة إلى المرأة التي تعطيه رجالا كثيرين يهلك منهم الهالك فريسة للسيف والنار ، ويحتل الباقون البلاد مثبتين فيها نظام الفتح جاعليها رقعة من الدولة النابوليونية . نابليون القائد والامبراطور هو الذي قال هذه الكلمة أما نابليون الرجل فقد نقض هذه الكلمة لأنه طول حياته أحب امرأة واحدة تغلب حبها عنده على كل حب وكان اسمها آخر كلمة تلفظ بها عند موته . وتلك المرأة هي جوزفين[2] التي لم تعطه ولدا !

وهذا القائد والامبراطور العبقري حقا ، الذي يود أنْ يحصر عمل المرأة في إخراج الابناء ، هو الذي كان يحسب للمرأة حسابا في كل شأن فيقول : فتش عن المرأة !

الأمومة هي اسمى قداسة في المرأة . فلولا أمومة الأم ما وجدت في العالم مدنية ولا همجية ، ولا كان للنوع الإنساني أثر . بيد أنَّ فضل المرأة لم يقف عند الحد على جلاله . نحن نلبي دعوة نابليون نبحث عن المرأة في كل عمل وكل مسعى وكل زمن فنجدها ولا نخطئها ، نبحث عنها في حين العالم كان فتياً والنوع البشري كالنوع الحيواني يدب على أربع قوائم ، فنجد ما يجد إليه بحث العلماء ، من أنَّ ضعف المرأة عند الوضع ، وآلامها الجسدية ، والأوضاع التي تفرضها عليها حالتها الخاصة فتعمد إليها - كل ذلك كان الثمن الأليم الذي أدته

المرأة إلى الطبيعة ليتنقل النوع البشري من الدّب على أربع قوائم إلى حالة الانتصاب على قدميه . ذلك الانتصاب النبيل الذي ينيل الحرية لليدين وهو أول ما يميز بين الإنسان والحيوان فيجعل الإنسانية على الحالة التي نود أنْ نراها فيها . وزاد في تركيز الإنسان على قدميه مع إطلاق الحرية ليديه أنَّ المرأة اضطرت إلى حمل طفلها بين يديها لتسير على قدميها تجلب الغذاء له ولها ، كما اضطرت إلى الفرار به من العدو المهاجم أو من الحيوان المفترس أو من أي خطر آخر مداهم . وعندما انبرى الرجل القديم يهاجم وحوش الغاب بغية الصيد والقنص ، ويقتل الأعداء دفاعاً وهجوماً ، كانت المرأة تهيىء له أسباب الراحة والرفاهية الميسورة في ذلك الزمن . فإذا عاد من الصيد بالغنيمة ، يد المرأة هي التي كانت تعد تلك الغنيمة طعاما .

وعندما انقضى طور التشرد في الجبال والغابات واستقر الإنسان في مكان ثابت على الأرض ، فانطلق الرجل أشد شكيمة وأمضى عزيمة في الصيد والحرب . كانت المرأة تفلح الأرض وتزرع الحبوب وتجني الحصاد وتضرب أوتاد الخيمة أو تشيد جدران المسكن ، وتمهد السبل . وتقطع الغصون والأخشاب لتضرم النار ، وتنظم الحجارة موقداً تطهي عليه الطعام ، وتكيف الأدوات المنزلية من الفخار والخزف . أفلا ترون في كل ذلك المحاولات الأولى لوضع مبادىء الزراعة والصناعة والتجارة والبناء وتخطيط المدن وغيرها من الصناعات والعلوم والفنون؟ وعندما بكى الطفل فحاولت المرأة أنْ تنغم نبرات صوتها ملاطفة مواسية ، ألم تكن في ذلك ممهدة للموسيقى والرقص والشعر؟ وعندما رجع البطل المغوار من مغامراته ويداه ملوثتان بدم العدو وبدم الحيوان ، أليست هي التي قالت له «تعال يا أخي ، اغسل يديك !» فكانت ممهدة لقوانين النظافة والصحة؟ وعندما مرض الطفل أو عاد البطل المغوار جريحا ، أليس أنها اضطرت إلى أنْ تدرس ، لا في الكتب ولكن بالتجربة والاختبار مفعول الحشائش والنباتات وطريقة استعمالها فكانت العجائز القهرمانات طليعة الأطباء دون أنْ يحملن لقب الدكتوراه؟ أفلا ترون في كل هذا مبادىء علوم

الكيمياء والطب .

وبعدئذ عندما أصبحت مهمة الصيد أو الحرب لا تتطلب أكثر من واحد في الخمسة أو في العشرين أو في المئة ، فكثرت أوقات الفراغ عند الرجال وتولى بحكم ذلك الفراغ الأعمال التي كانت المرأة تقوم بها من قبل ، ألم يتحول ذكاء المرأة داخل البيت إلى ابتكار صناعات وفنون أخرى كالغزل والحياكة والنسج والتفصيل والخياطة وغيرها من الصناعات الضرورية والفنون الكمالية؟ أفلا ترون في كل هذا خدمة للصناعة والفن وفضلاً بيّنا على تطور الحضارة؟

المرأة التي غذت النوع البشري جنينا قرب قلبها ، وحملت طفلاً على منكبيها ، وأوقفته على قدميه إنساناً ، وقدمت له الطعام يافعاً وكهلاً وشيخاً ، وداوته مريضاً جريحاً ، وواسته حزيناً وزانت بيته بالأدوات والمعدات هي التي وضعت وهي لا تدري ، أسس العلوم والفنون والصنائع . كل خطوة خطاها الرجل في سبيل التقدم والحضارة ، قابلتها المرأة بخطوتين وكان عملها أشق من عمل الرجل وأطول . أفتظنون مع ذلك أنها صاحت أو شكت ، أو تذمرت من فداحة العمل ومن شدة وطأته على ضعفها؟ كلا ! هي تعتقد أنها إذا هي ألقت عنها العبء الذي تحمله كانت جبانة خائنة لنوعها - شأنها شأن الرجل الذي يلقي السلاح من يده وهو في ساحة القتال . إنّ المرأة تحتمل عناءها كما يحتمل الجندي الباسل جراحه -في سكوت وتجلد !

فلا عجب ، والحالة هذه ، أنّ قيصر في غزواته وفتوحاته عندما كان يطلب الرهينة من قبيلة أو قوم ، كان يصر على أنْ تكون الرهينة نساء دون الرجال . لاعتقاده أنّ المرأة أوفر قيمة وأغلى ثمناً . ومجرد وجودها في حدث اجتماعي يرجح الكفة الإيجابية على الكفة السلبية . لقد كانت المرأة وسيلة فعالة في نجاح الفتوحات الإسلامية وتوطيد دعائمها من الناحية الاجتماعية لأن المسلمين زاوجوا الأهلين في كل بلد فتحوه فأصبحوا من ابنائه في أسرع ما يكون . بينما اليونان والرومان الذين كانوا قد سبقوا المسلمين إلى فتح غربي آسيا وشمال أفريقيا ، ظلوا بعد مئات الأعوام «الغاصبين» وظلت أنظمتهم وعاداتهم

بعيدة عن حياة الشعب ، لم يقتبس بعضها إلاّ نفر من سكان المدن الكبرى . كذلك ظفر المسلمون بواسطة المرأة بما لم يظفر ببعضه اليونان والرومان بوسيلة من الوسائل !

أيها السادة والسيدات

عندما يتكلم كاتب أو خطيب عن أثر المرأة في العالم يسارع إلى الكلام عنها أمّاً وزوجة وسيدة بيت ومثقفة وممرضة ومدبرة وناشرة في جو المنزل وفي جو الوطن وسائل السعادة والهناء . وكل ذلك حق ، فإذا تكلم عن ذكائها وحميتها ومواهبها ذكر إيلاء النساء جماعات وأفراداً في ميادين الآداب والفنون والعلوم والتضحية والاستبسال والبطولة . أذكر مثلا جان دارك[٣] في الفروسية الحربية ، وماريا كوالسكي البولونية الحماسة القومية ، واسبازيا[٤] اليونانية في النفوذ الاجتماعي وهيباثيا المصرية في العلوم الرياضية والفلسفية ، وفلورنس نايتنجيل[٥] في بسالة الرحمة ، ومرغريتا كيرش[٦] وكارولنيا هرسل في علم الفلك ، ومدام كوري في تفردها العلمي في عصرنا هذا ، وايمي جونسن[٧] في منافستها الظافرة لأبطال الهواء . وغيرهن ممن لا عداد لهن في مختلف ميادين العلم والبسالة والفن والاجتماع والوطنية ، حتى الأعمال المتواضعة التي تتولاها اليوم المرأة في جميع نواحي الحياة . وهذا حق أيضاً ، ولو كان حديثي قاصرا على قطر واحد لاستطعت أنْ أشيد بذكر المرأة المصرية وببراعتها رغم حداثة عهدها بالحركة الثقافية والاجتماعية والقومية . بيد أنَّ حديث هذا المساء هو عن المرأة عموما ، يشمل الجنس النسائي كله في ملايينه الغفيرة التي تخرج إلى الوجود مجهولة . ولكنها لا تمضي إلا وقد أدت في دائرتها جميع الخدم المنوعة المطلوبة منها ، والتي لا استطراد للمدنية أو لحياة المجتمع بدونها . وهذا التعميم يجعل الموضوع عسيرا ويرغمني على الاختزال مكتفية بذكر تلك الخدم التي قل من يذكرها أو يأبه لها . وإذا ذكرها ذاكر فعل عرضاً وبغير كثير انتباه .

ملايين القرون انقضت والمرأة تكد وتنتج رغم انحطاطها في جهلها

وانخذالها . انقضت القرون وجماهير النساء كرطب الرمال على الشاطىء يسير فوقها الرجل فيطبع فيها أثر قدمه ! والمرأة في خدمتها وفي عملها الشاق وموقفها العسير ، تنسى أهميتها وتجهل نفسها فلا تجد ما تباهي به سوى المكانة الاجتماعية والثروة والجمال ! أما ما يعتز به الفرد الإنساني من الشخصية المستقلة المكونة من الإرادة والضمير والمجهود ، فذلك ما لم تكن تعبأ به المرأة ، ولا هي استطاعت أنْ تتخيل وجوده إلاَّ في حقبات خاصة من التاريخ وفي أحوال معينة .

ورغم الانحطاط والانزواء ، ظلت المرأة مسلحة بسلاح لا يفل ظلت مسلحة بالحب الذي هو حياة الأجيال ومغزى الحياة ! بالحب أخرجت النوع البشري كله ، بالحب أنجبت أشبال الوطنية والعمران ، بالحب غذت الرجل وعطفت عليه ، بالحب عالجته وأوحت إليه ، وبالحب صانته من غوائل الأيام . سواء أكانت المرأة سعيدة في حبها أم شقية ، سواء أنصرها الحب أم خذلها ، هي دائماً دائماً مستودع الحب ، وكاهنة الحب وإلاهة الحب . وإياً كانت آلامها وغمومها في قومها فهي ، بالحب ، تحتمل في إباء وامتثال ما دامت تلك الغموم وتلك الآلام ضرورية لحياة القوم وراحتهم . فإذا ما ثبتت من ناحية المرأة محاولة جادة في تعديل شؤونها فذلك الدليل القاطع على أنَّ شؤون القوم آخذة في التبدل تبدلاً يفرض التغيير والتعديل في شؤون المرأة وأنَّ امتثالها القديم لم يعد ذا نتيجة حسنة في حياة القوم أو الجماعة .

رعدة جديدة سرت في العالم بأسره في هذه الأعوام الأخيرة ، رعدة جديدة تناولت النساء والرجال والشيوخ والشبان كما تناولت عناصر الطبيعة على نوع ما ، وشؤون العمران جميعاً . رعدة جديدة قلبت ظروف المرأة بمقتضيات اقتصادية واجتماعية وروحية لم تعهدها من قبل ولأن المرأة غالية رفيعة الشأن ، ترى الرجل وجلاً خائفاً من النتيجة ينددبشرور المرأة وبما قد ينجم عن تضعضعها من الويلات . ولكن هذا التضعضع هو من مستلزمات الانقلاب العنيف الذي نحن فيه ، وهذا الانقلاب هو الخروج من الجمود . ستنتظم

الشؤون شيئاً فشيئاً لتأخذ مجراها الطبيعي الذي يطمئن له الرجل ، ولكننا لا ندري هل فيه سعادة المرأة وهناؤها . ولكنّ للإنسانية إلهاً يرعاه ، وعندما يشتد الضيق يقرب الفرج . هذا ليس مثلاً سائرا فحسب ، بل هو حقيقة ثبتت دائماً وستظل المرأة دائماً - كما قال اناتول فرانس الذي ينعتونه بالجاف - «مهذبة الرجل» تعلمه الفضائل الجميلة من التأدب ، إلى التحفظ ، إلى الإباء الذي لا يتعرض متطفلاً . تعلم البعض فن الإرضاء وتعلم الجميع فن عدم الاساءة . منها يتعلم الرجل أنَّ المجتمع أدق وأعوص مما يظنه وهو في الحالات السياسية . وأخيراً يقتنع قربها أنَّ اشباح العاطفة ورؤى الإيمان لا تقهر ، وأنَّ المنطق ليس هو الذي يقود العالم . . » .

ستظل المرأة دائماً الوحي الأكبر والمنهل الذي تستقي من مياهه الآداب والفنون ومنه تتغذى . ولسنا هنا في حاجة إلى ذكر تأثير المرأة في حياة عظماء الرجال . كل رجل عظيم في دائرته ، كل عامل في عمله عظيم ، والمرأة تحيط به من كل جانب أمّاً وزوجاً وأختاً وابنة وغريبة . لذلك لو لم يوجد في قوم سوى مدرسة واحدة لارتأيت أنْ تخصص تلك المدرسة للبنات دون الشبان . لأن ما تعرفه المرأة يتعلمه الرجل بطبيعة الحال منذ الصغر . وأهم من كل شيء آخر هي العقلية التي يولد بها الطفل والنفسية التي يشب عليها ، وهي بالطبع عقلية أمّه ونفسية المرأة التي تحيط به . وإنماء عقلية المرأة وتوسيع نفسيتها إنما هو بيد الرجل دون سواه لأن المرأة تهذب الرجل وهي التي تضمن استمرار المدنية ، ونموها وازدهارها بالرجال الذين تنجبهم مهذبين بواسل رشيدين . أما الرجل فهو الذي يخلق المرأة خلقاً .

وفي الختام ، لا يسعني إلاَّ أنْ أذكر أنَّ تلك الأسطورة تجعل مصر تحت حماية المرأة وتحت نفوذ حبها وألمها ، إذ تذكر تلك الأساطير المصرية أنَّ النيل الذي خلق الحضارة القديمة ومكنها من الارتفاع إلى أعلى مراقب التقدم والمجد ، إنما هو بعض نعم المرأة . ضاع الإله اوزيريس يوماً فجلست ايزيس تبكيه ، وتساقطت دموعها على الأرض . فاهتزت أحشاء الأرض وارتعشت لدموع

اللاهة الحزينة ، فتفجرت منابع النهر وجرى النيل المقدس مهرولاً إلى البحر يرضع بمروره فسيح المروج ، ويثير على جانبيه رائع الهياكل والشخوص والآثار!

هذه المدنية التي غذتها دموع الوفاء ، هذه الأرض التي أحياها الحزن الخصيب ، هذا النيل الذي خلقه حب اللاهة المصرية -كل هذا سيكون خالداً في غده خلوده في أمسه ، كل هذا سيعتز أبداً مجيداً بابنائه وبناته جميعاً؟

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٥ ، ع٤ . ١٥أبريل ١٩٣٤ . ص١٤٠-١٤٥

(نشرت هذه المحاضرة أيضاً في «المقتطف» . م٨٤ ، ج٤ . أبريل ١٩٣٤ . ص٤٩٧-٥٠٢)

١- Madame de Stael (١٧٦٦-١٨١٧) . روائية وناقدة وكاتبة سياسية فرنسية . تأثرت بالصالون الأدبي الذي كانت تعقده والدتها في منزلها . تزوجت عام ١٧٨٦ السفير السويدي في باريس وكان زواجاً فاشلاً ، فكثرت الشائعات حول علاقاتها العاطفية خارج نطاق الزوجية . أقامت صالوناً أدبيا في منزلها . تعتبر من رواد الحركة الرومانتيكية الفرنسية .

٢- Josephine de Beauharnais (١٧٦٣-١٨١٤) . زوجة نابليون بونابارت وملكة فرنسا . ابنة أرستقراطي مدقع . تزوجت ضابطاً ثرياً عام ١٧٧٩ . بعد طلاقها تزوجها نابليون عام ١٧٩٦ . ولكن هذا الزواج فشل لأنها لم تنجب أطفالا ، فهجرت باريس إلى إحدى ضواحيها حيث عاشت حياة بذخ حتى توفيت .

٣- Jeanne d'Arc (١٤١٢؟-١٤٣١) . بطلة قومية وقديسة فرنسية . ابنة فلاح . قاتلت الانجليز في المرحلة الثانية من حرب الأعوام المئة . حكم عليها بالإعدام حرقاً ونفذ الحكم في روان . أطلق البابا عليها لقب قديسة عام ١٩٢٠ .

٤- Aspasia (نحو ٤٧٠-٤١٠ ق م) . مومس وخطيبة يونانية من أثينا . عرفت بفصاحتها وحكمتها . خالطت الكثير من الفلاسفة في عصرها إذ كانوا يؤمون صالونها . يقال إنها علمت سقراط علم البيان .

٥- Florence Nightingale (١٨٢٠-١٩١٠) ممرضة انجليزية . ولدت لعائلة غنية وتتلمذت أولاً على أبيها . التحقت عام ١٨٥٠ بمدرسة ألمانية لدراسة التمريض . عملت في المستشفيات العسكرية في تركيا خلال حرب القرم عام ١٨٥٤ . وفي عام ١٨٦٠ أسست في لندن أول مدرسة للتمريض في العالم . كانت أول امرأة تنال وسام الاستحقاق وذلك عام ١٩٠٧ .

٦- Margaretha Kirch (١٦٧٠-١٧٢٠) . عالمة فلك ألمانية . اعتنى والدها بتثقيفها وأثار في نفسها حب علم الفلك . تزوجت بعالم فلكي وعملت إلى جانبه . اكتشفت مذنّباً عام ١٧٠٢ .

٧- Amy Johnson (١٩٠٣-١٩٤١) . طيارة بريطانية رائدة . حصلت على شهادة جامعية في الاقتصاد . تعلمت فن الطيران وصيانة الطائرات ، ثم عملت طيارة تجارية . وفي عام ١٩٣٠ قامت بمفردها برحلة جوية من انكلترا إلى استراليا استغرقت ١٧ يوماً . فقدت فوق البحر في إحدى رحلاتها الجوية .

الذكرى السادسة عشرة لباحثة البادية

أذاعت الآنسة النابغة مي في مساء الخميس ١٨ اكتوبر ١٩٣٤ من محطة الراديو حديثاً شائقاً عن المرحومة ملك حفني ناصف (باحثة البادية) لمناسبة الذكرى السادسة عشرة لوفاتها . ويسرنا أنْ نثبتها هنا بنصها لما تضمنته من درس مفيد وذكرى رائعة قالت :-

أيها السادة والسيدات

يتسرب صوتي اليكم بعد أنغام الموسيقى مباشرة ساعة تأخذون بأحاديث السمر وما إليها من فكاهة وتسلية ، طلباً للراحة من جلبة النهار وعناء الأعمال . ولا أشك مع ذلك في ترحيبكم بهذا الحديث مصغين إليه في اجتماعاتكم وخلواتكم بعطف وقبول ، إذ ليس من ذكرى تتفتح لها النفس أكثر من ذكرى تلك التي خلقت في صحراء الحياة واحة كونتها من وطنيتها وحميتها وحبها لقومها . وليس من اسم يستحق أنْ يتصل طرفاه بشجي الأنغام أكثر من اسم تلك التي جازت أفق العمر نغماً سريعاً شجياً بعيداً لوقع عميق الأثر .

عندما زارتنا للمرة الأخيرة قبيل وفاتها كانت تصحبها صديقة لها ولنا أخذت تعزف على العود فأنشدت الباحثة هذه الأبيات من الموشح الأندلسى المعروف :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس
يا أهيل الحي من وادي الغضا

وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهود قد مضى
تنقذوا عبدكم من كربه
واتقوا الله، وأحيوا مغرما
يتلاشى نفساً في نفس
وقف القلب عليكم كرما
رضون خراب الحبس؟

حسبت عند وفاتها أنها اختارت هذه الأبيات لاستشعارها بدنو الرحيل. أما الآن فأكاد أرى في كل منها حديث عتب وتذكير. لقد احتفى رجالات مصر بتأبين باحثة البادية في اجتماع خاص بهم كان الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديثة. وقامت النساء من ناحيتهن بمثل ذلك في اجتماع كان أيضاً الأول من نوعه أيام الحركة الوطنية. ورئيسة ذلك الاجتماع السيدة هدى شعراوي رأت يومئذ أنْ تهدي صورة الفقيدة إلى الجامعة المصرية مقترحة أنْ تضعها في قاعة تطلق عليها اسم (باحثة البادية) على أنْ تقدم هدى هانم للجامعة مبلغاً من المال كل عام للقيام بنفقات تلك القاعة. ولست أدري ماذا تم في أمر هذا الاقتراح على وجه التحقيق. ولكني أدري أنَّ هذه الأعوام انقضت فلم نحتف بالذكرى إلاَّ هذه المرة ومرة أخرى قبل أعوام في اجتماع أحياه «الاتحاد النسائي». أفلا يحق للباحثة، والحالة هذه، أنْ تهمهم في أرواحنا بتلك الأبيات، معاتبة مذكرة؟

لا يقوم إحياء الذكرى بالحفلات التي ترغي فيها الخطب وتزبد القصائد. والذين يستحقون هذه الحفلات المتكررة من الموتى كثيرون. فلو تفرغنا لمثل تلك الحفلات لقضينا العمر كله في الادكار دون سعي ولا عمل. والحياة ملحة تسوقنا إلى الأمام ولا تسمح بالتفات إلى الوراء لنعيش في الماضي. بل هي

توحي إلينا وجوب استخراج النفيس المفيد من الماضي لنسير به في الحاضر إلى المستقبل وقد زدنا في أهميته ونفاسته . إنما نذكر الراحلين بمراجعة ما تركوه لنا والاستفادة منه ، بالاعتراف بفضلهم حيث غرسوا غرسة أو نثروا بذوراً لنظل على اتصال روحي بهم . ولو محصنا ما يكتب اليوم في موضوع تعليم المرأة وتهذيبها وتنشئتها تنشئة يصلح بها المجتمع لوجدنا أنَّ الباحثة نظرت في تلك الموضوعات وأخرجتها بآراء لا يتهمها أحد فيها بالاندفاع والتهور .

قليلاً ما كتبت إذا اعتبرنا الفصول المعدودة في مجموعة كتابها «النسائيات» ، بيد أنَّ كل ما عالجته جوهري تناول حياة المرأة فتاة وزوجاً وأمّاً وسيدة بيت . وقلّ أنْ وقع نظرنا على مقال يبحث الموضوعات الاجتماعية من الناحية النسائية ، إلاَّ وأنبأتنا مجموعة «النسائيات» بأن الباحثة عالجته قبل ربع قرن . والفتيات اللاتي فتحت لهن أبواب التعليم الثانوي والعالي يعرفن من«النسائيات» أنَّ الباحثة طالبت لهن بذلك منذ ربع قرن . فهي في خطبتها الأولى التي ألقتها على السيدات بنادي الأمة ، وفي الاقتراحات التي قدمتها إلى المؤتمر الإسلامي بهليوبولس ، طلبت فيما طلبت تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي مع جعل التعليم الاولي إجبارياً في جميع الطبقات وإطلاق الحرية في تعليم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد . وتكثير المجانية في مدارس البنات الموجودة أو انشاء غيرها . وتعليم البنات أصول الدين والتدبير المنزلي علماً وعملاً وقوانين الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية في الطب وتوسيع نطاق مدرسة الممرضات أو إيجاد مدرسة للطب خاصة بالنساء . وعلى كل حال ، تخصيص عدد من البنات لتعلم صناعة الطب بأكملها حتى يقمن بكفاية النساء في مصر . ولست منبئة بشيء طريف إنْ أنا قلت إنَّ الكثير من تلك المطالب قد تحقق ، وإنَّ بين الفتيات المتخصصات للطب نجد صغرى شقيقاتها بينا تتفرغ شقيقتها الأخرى للتعليم وتنشئة جيل جديد من البنات المصريات .

وفي «النسائيات» شتى الأبحاث في المشاكل العائلية والاجتماعية في

الحجاب والسفور والخطبة والزواج والمهر والصداق والطلاق والانفصال (بعد الشر عن المستمعين والمستمعات!) وفي داء تعدد الزوجات وما يتبعه من تفكك أواصر الأسرة ونزول الشقاق بين أعضائها. تلك أمور لا يتيسر البت فيها دون الإصغاء إلى صوت المرأة العاقلة. ورأى الباحثة في ذلك رأي معتدل متزن والمصرية الوطنية منها ليست دونها مصلحة اجتماعية. فهي القائلة بتكثير المستشفيات الخيرية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال بحيث يكون واحداً منها على الأقل في كل مركز من مراكز المديريات وفي كل قسم من أقسام المدن. وهي القائلة بتعليم المصرية كل ما يلزم من الصناعات الضرورية لجنسها، كالخدمة والتفصيل والخياطة والتطريز وتربية الأطفال والتعليم حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنبيات. وهي القائلة بإيجاد الصناعات الوطنية وبتحسين الموجود منها وترويجه للمحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الناس والأشياء بقدر الإمكان. وهي المتغنية بالسمرة المصرية وبعذوبة معناها. وهي المستحثة بنات جنسها إلى زيارة الآثار المصرية واستيعاب روحها. كل ذلك مما ذكرت ومما لم أذكر، قالته بنبرات حماسية، ببراعة في اختيار اللفظ وسبك الفكرة، بإيجاز في الجزالة، باختزال في البلاغة، بجمل ناصعة لا تنسى، بانشاء هو صورة صادقة من روحها المتقدة.

وثمة ما هو أهم من هذا في وصف الانشاء، ذلك أنَّ بباحثة البادية كاتبة أخذت تتكون الشخصية الأدبية الجديدة لا للمرأة المصرية فحسب، بل لكل امرأة شرقية تكتب بالعربية، فالشخصية النسائية في آدابنا القديمة محدودة لمست موضوعات معينة في المدح والفخر والحماسة والمعارضة والهجو والرثاء وأحياناً في الغزل والنسيب، مع كلمات في النثر بليغة جميلة ولكنها قليلة لا تصور شخصية مستكملة من شتى النواحي، إذ لم يكن ذلك ما تتطلبه حاجات الزمن. وأين ذلك من مشاكلنا في هذا العصر؟ أين ذلك من قلقنا واضطرابنا بين ما يتنازعنا من تقاليد الماضي وعوامله ومن مؤثرات الحاضر ومقتضياته؟ أين ذلك مما يعصف بنا من المفاجآت في هذه الحياة الجديدة التي لم تتخيلها

أمهاتنا وأمهات أمهاتنا؟

بالأمس القريب والبعيد كانت المرأة تقلد الرجل في ما تنشيء ، ونفسها لا يختلف عن نفسه إلاّ أحيانا في الرثاء وفي بعض المعاني المفروضة عليها باعتبارها امرأة . لذلك لا نجد في الماضي الشخصية النسائية التي نستوحيها ولذلك تحتم خلق المزاج النسوي والبيان النسوي والنفس النسوي في الأدب العربي الجديد . وهو أمر من الصعوبة بحيث لا يتصور الرجل رغم كونه هو أيضاً يخلق أدباً جديداً يضيفه إلى الآداب القديمة ، صعوبة تصدمنا عندما نكتب بلغة أجنبية حيث نجد السبيل عامرة بمن طرقنها ويطرقنها من مئات الأديبات والكاتبات .

والشخصية النسائية الأدبية التي حصحصت في بعض شعر عائشة تيمور ، انجلت طائفة من خطوطها في كتابات باحثة البادية ، فاختلفت عندها اللهجة ، ونزعت شخصية المرأة إلى الاستقلال عن شخصية الرجل أستاذ المرأة في الآداب ، وصرنا نتعرف الصوت النسائي في حرارته وفي كآبته ، في أريحيته وفي عذوبته ، في نقده وتهكمه ، وتوجعه ، في دعوته إلى الإصلاح والتقدم بمزيج مشوق من الانفعال والرزانة . وهذا الحادث الطريف لا يستطيع أنْ يتخطاه مؤرخ محقق لأنه يرسم وجها جديداً ، ويرسل نفثات جديدة ، ويشع إشعاعاً من نفسية نسائية لم تكن قبل موجودة في الحياة العامة .

هذا ما جاءت به الباحثة بفطرتها دون بحث أو تعمد . إنها فتحت سبيلاً ما ولجته بعدها كاتبة بالعربية تبحث عن سبيلها المتفقة وشخصيتها إلاّ وقرأت عنده اسم باحثة البادية بأحرف من نور ، بل بأحرف من نور ولهيب .

أما ثروة الباحثة الأدبية الخاصة وأسرار عواطفها فمما يؤسف له حقا أنْ ليس بين أيدينا جميع آثارها نتلمسها فيها . كثير من نثرها لم ينشر ، وكل شعرها مبعثر ، فما أشبه آثارها بآثار اسماعيل صبري وحافظ ابراهيم ! بل ما أشبهها بآثار والدها حفني بك ناصف الكبير المقام الذي يباهي كثيرون من رجالات مصر بأنهم تلاميذه ، كما يباهي نفر من كبار الشعراء والأدباء بأنهم أصدقاؤه

المعجبون به . ولا أعرف من شعرها إلاّ ردها على قصيدة شوقي لها ، وأبياتا متناثرة لا أتعرف فيها صميم طبيعتها . بيد أني أورد في هذا المعنى فقرة من رسالة ردت بها على رسالتي إليها بعد اطلاعي على مجموعة «النسائيات» وقد نشرت رسالتها يومئذ في جريدة «المحروسة» ومن هذه الفقرة تتبينون جمال انشائها وزفرة من توجعها . قالت تصف الماء وتشبهه بنفسها :

«يصبونه فينصب ويريقونه فيختفي في الأرض . ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان . تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض ، وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً وآونة تحمي عليه براكينها فيخرج ملتهبا . وحينا تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمر؟ وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل . وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها . إنه مثلي ، يا مي ، يذهب ضياعا !» .

كلا ! لم تذهبي ضياعاً ، ياروح العزيزة ، أنت التي رفعت مكانة المرأة موقّعة بسوطها ألحان الشجن ! لم تذهبي ضياعاً أنت التي غرست بيدك غرسة الخير وغذيتها بأزكى دماء قلبك ! حلال للإنسان أنْ يطمع في جني ما زرعت يداه ، ولكننا جميعاً أدوات بيد الحياة والموهوب الموهوب من الناس خلق للتضحية كلها .

شخصيتك التي كانت محصورة فيك اتسعت وتوزعت على آلك وقومك رجالاً ونساء . فهي عند الآباء والأمهات رغبة في تثقيف البنات وجعلهن صالحات لخدمة الأسرة والمجتمع . وهي عند الطالبات اجتهاد وشوق إلى التحصيل والنجاح . وهي عند كل امرأة ذكية يقظة في سعي ودأب وعمل . امتزجت شخصيتك بشخصية مصر الرحيبة مرهفة فيها الشمم وحب النهوض ، وامتزجت شخصيتك بشخصية الشرق الذي يحن إلى ذكراك ، ينافس مصر في

إكبارك والمفاخرة بك ، فأرهفت فيها الشمم وحب النهوض !

سلاماً ، يا من ضمك الثرى في مثل هذا المساء . لقد حملت مشعل النور في حياتك وها هو ذا المشعل بعد مماتك يشع بذكراك أطهر تألقاً وأروع سناء !

ميّ

---

* مجلة المرأة المصرية ، س١٥ ، ع٩و١٠ . نوفمبر وديسمبر ١٩٣٤ . ص٣٩٧-٤٠١

مي في طريقها إلى مصر
وداعها لبنان
في أسلوبها العذب الرشيق

استمعنا إلى النابغة «مي» في محطة راديو الشرق في لبنان وهي تودع لبنان بعد إعزامها الرحيل إلى مصر للإقامة فيها . ولقد رأينا أنْ نسجل هنا خلاصة وافية لما جاء على لسانها لما تضمنته هذه الكلمة الرقيقة من آراء اشتهرت بها وملاحظات انفردت بالدقة في إيرادها .

ونحن إذ ننقل إلى القراء والقارئات خلاصة حديث النابغة «مي» نرحب بمقدمها ونسجل الغبطة بشفائها داعين لها بدوام الصحة .

قالت :

أحييكم ، يا أبناء لبنان وبناته ، تحية القلب الشاعر بشعوركم ، المغتبط لاغتباطكم ، المتألم بآلامكم . أحييكم أيها المهاجرون الأعزاء ! أني وجهنا النظر في لبنان وجدنا اسمكم ماثلاً في المنازل المقرمدة المنثورة على الجبال وروداً حمراء ووجدنا أشخاصكم في العمران الذي شدتموه في لبنان ، أنتم الأوفياء لأرضكم وللغتكم ؛ لقد نزحتم عن الديار ولكن آثار نشاطكم بيننا مقيمة ! وأنتم يا أصدقائي وصديقاتي في بيروت ودمشق في لبنان وسوريا ؛ إنْ أنا تكلمت اليوم فبفضلكم أتكلم وإنْ أنا تحركت اليوم فبفضلكم أتحرك . يا أهل النجدة والكرم والأريحية . لقد أفهمتموني معاني النجدة والكرم والأريحية . لقد غالبتم الكرم العتي فكنتم ظافرين . لقد رددتم إليَّ الحياة بعد أنْ عانيت ما هو أفظع من الموت . كم ذا رأيت في الرجال منكم شهامة الرجل تقترن بحنان المرأة ؛ وكم ذا رأيت في النساء منكم حنان المرأة يقترن ببسالة الرجل ! ولم يكن عملكم في

سبيل فرد واحد ! بل كان عملكم عملاً اجتماعياً وطنيا تاريخياً ، لأن مثل هذه النكبة قد انتابت وقد تنتاب كثيرين ؛ فأنتم أنتم حماة الإنسانية ؛ وقد أثبتم بأعمالكم أنَّ الإنسانية شيء غير وهمي وأنها في الشخصية الآتية هي الحقيقة المحسوسة .

كيف أشكركم يا أصدقائي وصديقاتي ، أنتم الذين كنتم لي أهلاً ووطناً يوم كنت لا أهل لي ولا وطن؟ بأي الألفاظ أعتذر عن قصوري نحوكم عن كل ما آلمكم وأحزنكم مني أو بسببي؟ وجهوا إلى نفوسكم الكلمات التي تعصاني فأنتم في رقتكم وكرمكم تستطيعون أنْ تهتدوا إليها . أما أنا فاقبلوا دموعي لأن : «لسان الدمع أفصح من بياني» .

وأنتم أيها الأصدقاء الذين أيدتموني وشجعتموني عن بعد بالرسائل بالبرقيات ، بمقالات الصحف ، بالدفاع عن حقي وحريتي لقد أنعشت روحي مكارمكم المقبلة من لبنان من طرابلس من حلب من دمشق من فلسطين من شرق الأردن من العراق من مصر من المهاجر الأمريكية . فاقبلوا شكري وتأثري واعذروا قصوري في الجواب على رسائلكم لأن ظروفي الأليمة حالت دون قيامي بالواجب نحوكم وأرجو أنْ تمكنني الأيام من توجيه الشكر إلى كل منكم شخصياً .

أشكر الجمعيات النسائية في دمشق فقد أثبتت أنَّ في دمشق نساء . أشكر فلسطين الدامية التي عرفت في إبائها أنْ تنسى محنتها أحياناً لتتألم لمحنتي . وأشكر إدارة هذه الإذاعة التي شرفتني بالدعوة إلى مخاطبتكم فمكنتني من الإعراب عن شعوري .

وداعاً يا لبنان الناهض ؛ يا حصن الأرز الخالد ، ودار الجمال والصفاء ومسرح الأنس والهناء ! يا جبالي الشماء ، ياجبالي الجرداء ، يا جبالي الشجراء ؛ اذكريني يا جبالي .

وأنت يا مصر التي تحنو تربتها على دفينيَّ الغاليين سلاماً ! إنَّ لي في ربوعك ملكاً مساحته ثلاثة أمتار طولاً في مترين عرضاً ! على تلك البقعة ترفرف أفكاري

وعواطفي تطوف هناك بضريح لم تضع عليه يدٌ زهرةً منذ ثلاثة أعوام ! ياواحة الأغاريد والأزهار أعدي لي طاقة أضعها على ذلك الضريح وكوني لي يا مصر وفية !

مي

---

* مجلة المرأة المصرية ، س٢٠ ، ع٣ . مارس١٩٣٩ . ص١٠٧-١٠٨ .



صحيفة "الأهرام"



اليوم ذكرى استقلال اليونان

عيد يشترك فيه كل شعب يحب الاستقلال وكل فرد يحب الثقافة والحكمة والجمال

علاقات عدة تربطنا نحن شعوب الشرق الأدنى ببلاد اليونان . ومن تلك العلاقات ما هو احتلال سلمي ، ومنها ما هو تعاون تجاري ، ومنها ما هو فائدة علمية وفنية ، ومنها ما هو إغارات حربية كنا فيها مرة غازين ومرة مغزوّين بيد أنّ الفروق تتوالى ، وآثار الانتصار والاندحار تتحول وتتطور ، وتنفذ آثار الحياة وتتجلى أغراضها فإذا بكل هاتيك العوامل وقد أصبحت تاريخاً للفريقين غنياً وأقدم تلك العلاقات جاءت عن طريق الفينيقيين الذين يسمونهم اليوم «انجليز العالم العربي» .

وهم الذين سيروا سفنهم في البحار وشادوا هناك وهنالك المدائن والمستعمرات ، وأشركوا الشعوب القائمة على شواطىء البحر المتوسط في فنون الملاحة والتجارة والصناعة وأذاعوا بينهم الأبجدية القديمة التي تولدت منها أكثر أبجديات ذلك العهد . فكان أثرهم في بلاد اليونان محسوساً وحملت الحضارة الاغريقية الأولى طابعاً فينيقياً جلياً .

والعلاقة الثانية متأتية عن قدوم نفر من كبار علماء اليونان وفلاسفتهم إلى مصر ليتخرجوا من مدارس هليوبوليس وممفيس وطيبة . وأشهرهم فيثاغورس وصولون[1] وهيرودتس[2] وافلاطون الذي لبث في مدرسة هليوبوليس القديمة مع صديقه بودكسس ١٣ عاماً . فلا شك أنْ كان لمصر أثر يذكر في ما أخرجه أولئك الأفذاذ لبلادهم وللعالم من فلسفة وحكمة وعلم وتشريع وآداب .

ثم كانت وثبة الاسكندرية ، فبعد أنْ أخضع جميع بلاد اليونان لشوكة مكدونيا جاز بجيوشه اليلسبون (مضيق الدردنيل) وفتح بلاد عدة منها سوريا ومصر وشاد مدينة الاسكندرية حيث قام عرش البطالسة مدة ثلاثة قرون وظلت الاسكندرية إلى ما بعد القرن الرابع للميلاد وسطاً شرقياً عظيماً تلخصت فيه حضارة اليونان وثقافتهم وازدهرت في ربوعه حكمتهم وفلسفتهم وآدابهم على مرّ العصور ، والشعوب بحار يغور فيها موج ليتعالى موج ، فخضعت بلاد اليونان لمملكة الشرق وتوالت عليها الغارات من أقوام مختلفين حتى استولى عليها الأتراك في القرن الخامس عشر وظلت في قبضتهم شأن غيرها من جاراتها البلقانيات ، إلى أنْ ثارت ثورتها الأولى سنة ١٨٢١ واشتبكت معهم في حروب بقيت أعواماً ولم يعترف باستقلالها إلاّ في مؤتمر لندن سنة ١٨٣٠ .

***

ورغم أنَّ لورد بيرون الشاعر الانجليزي توفي في ميسولونجي سنة ١٨٢٤ ، أي قبل إعلان استقلال اليونان بستة أعوام فإن ذكره يمتزج بهذا التاريخ ويتجلى عليه اسمه بأحرف من اللهيب والنور لم ينتصر لورد بيرون لبلاد اليونان بدافع سياسي فإنه كان على عداء مع قومه وجماعته الارستقراطية وأهله حتى مع زوجته . وقد أعلن عن ذلك التجافي في غير قصيدة من قصائده الثائرة المستعرة العصبية ، فقال فيما قال :

«ما أحببت العالم ولا العالم أحبني - لأني لم أسع إلى تملق مراتبه العالية ولم أطور كتبي أمام عظمائه . . ولا أنا تحركت عضلات وجنتي لابتساماته ولا رفعت صوتي لتمجيد أصنامه المعبودة - إنَّ العالم يستطيع أنْ يحصيني في عداد جماهيره ، ولقد كنت واقفا بينهم ولكنني لم أكن منهم - وكنت ملفعاً بأوشحة من الأفكار ليست هي أفكارهم - فكلانا عن الآخر غريب . .»

ولكن الشاعر العبقري أياً كان سلوكه وأية كانت أغلاطه وآلامه ، وأيًا كان نفوره من الإنسانية كما هي في عيوبها ومطامعها وصغائرها فإنه يحتفظ أبداً في روحه الفيحاء بهيكل يعبد عنده الجمال والحرية والشرف والإنسانية ، كما يود

أنْ تكون . ويلهبه أبداً عطش لا يرتوي إلاّ في المجازفة والتضحية إنْ لم يكن لخدمة قومه ففي سبيل مثل أعلى يؤيد فيه ما يقدسه من شرف وإنسانية وحرية وجمال .

لذلك تطوع لورد بيرون في الحرب اليونانية مختارا ، وشايع الشعب اليوناني إكرامًا لماضيه السحيق واعترافًا بفضل ثقافته على العالم . وكم من هتاف حماسي أرسله في قصائده أزكى حمية الأمّة اليونانية في النهوض ! وهو القائل :

«يا اغريقا الجميلة ! يا بقية حزينة من الفضل العافي؟ -إنك لخالدة وإنْ كنت ذليلة ، عظيمة وإنْ كنت متهدمة- من ذا الذي يلم الآن شعث بنيك المتفرقين؟- ومن ذا الذي يهيب بك فتبعثين من لحدك؟

«أيها الرجال (اليونان) المولودون مقيدين ! -ألا تعلمون أنّ الراغبين في تحرير أنفسهم لا بد فاعلون ما يجب أنْ يفعلوه؟- وأن بسيوفهم يجب أنْ يحرزوا النصر؟- أيستطيع المغولي والمسكوفي أنْ يستخلص حقكم؟- أنهم بلا ريب يستطيعون أنْ يطرحوا غاصبكم المتكبر على الثرى -ولكن لن تشتعل بذلك لهب الحرية على هياكلهم !-» .

ولكن لهب الحرية قد اشتعلت على هياكل اغريقا ونعمت بلاد اليونان الجديدة باستقلالها الذي تحتفي اليوم بمرور مائة عام على اعتراف الدول به في مؤتمر لندن . ولو أنّ حركات الثورة والاضطراب لم تهدأ فيها كل هذه الأعوام وما فتئت مشتبكة بحروب خارجية وداخلية حتى انتهى بها الحال إلى تغيير نظامها السياسي من ملكي إلى جمهوري ، فكانت الجمهورية عندها مرة دكتاتورية ومرة دستورية . وما هي في كل ذلك إلاّ معيدة تاريخها وباحثة عن السبيل الموافق لمزاجها الممهد لراحتها .

***

من هم الذين أهاجوا الشعب اليوناني ليهب من هجعته؟

ليس للاسماء إلاّ أهمية نسبية إذ ليست الأشخاص إلاّ أدوات في يد الحياة . بل ما الشعوب إلاّ تلك الأدوات في سبيل أغراض الحياة التي تعالج الأمم بالإخضاع والاستعباد كما تعالجها بالتحرير والاستقلال لتتثقف على يد غيرها كما تتثقف

على يد نفسها ، وتهتدي في هذه الحالة وتلك إلى كل ما عندها من الملكات والاستعدادا والقدرات . وما الحضارة التي يباهي بها كل شعب بأنها «حضارته» الخاصة التي يجب أنْ يأخذ بها العالم إلاّ وجهاً من وجوه الحضارة الواحدة الشاملة التي ستتناسق وتنتظم بالتوالي حتى تصبح حضارة النوع الإنساني بأسره .

لقد جاءت حضارة اليونان بقسط وافر من حضارة العالم ورفعته . ورغم ما بلغناه في هذا العصر من التقدم في العلم والاختراع والاكتشاف فإن ديْن اغريقا على العالم خالد ، فهي التي أوحت إلى الإنسان الحب الكامن في أعماق نفسه للجمال والحق والحرية ، وهي التي مثلت له ذلك الحب فجعلته محسوسا في فنونها الرائعة وآثارها وحكمتها وشعرها . وهي التي ابتكرت الأنظمة السياسية والمبادىء الأخلاقية والقواعد الفنية التي لم نجد اليوم ما هو خير منها . ومن أنديتها جاءتنا الأصداء الأولى من الفن الخطابي الجليل في تلك اللغة الفخمة الرخيمة يهذبها الذوق المصفّى والقياس الأدبي المحكم والأناقة التي ستظل أبداً فتيّة بينا القرون والأنظمة والأساليب تشيخ وتفنى .

وشجرة الزيتون التي غرستها في بلاد اليونان قديما إلاهة الحكمة «بالاس» -اثينا- ستتفرع غصونها مع الزمن فتخيم على العالم سلاماً يلهج اليوم بذكره رجال السياسة في جميع أنحاء المعمورة -هذا إذا رأت الحياة أنّ السلام من وسائل التقدم لبنى الإنسان !

يبدو لنا أن العالم في تطوره الحاضر سائر حتماً إلى استقلال كل من الشعوب وإحداث ثنوغرافية ضمن حدوها الطبيعية ، متبادلة مع الأمم البعيدة والقريبة صيانة المصالح المشتركة والاعتراف بالحقوق والواجبات دون أنْ يكون هناك سائد أو مسود بالمعنى السياسي . ولا أدل عل هذا الحادث من اشتراك تركيا الجديدة في الاحتفاء بعيد استقلال اليونان هي التي كانت في الأمس القريب عدوة اليونان وسيدتها في الأمس الذي سبق .

إن العالم سيقاسي كثيراً من النكبات والمحن وسيغوص في كثير من الدماء

قبل أنْ يتشبع بهذه الفكرة وقبل أنْ تتوافق عقليته وهذه الحقيقة . ولكن الحياة أقدر منا جميعاً ، وأغراضها هي النافذة فينا حيث نظن أننا لأغراضنا منفذون ، وقد سبق أنّ النكبات والصعاب والحروب هي بعض وسائل الحياة .

وعلى ذلك فإن الشعوب المحبة للاستقلال والشعوب النازعة إليه اليوم في عيد الاستقلال ، وكل فرد يحب الثقافة والحكمة والجمال ويعرف لاغريقا القديمة فضلها في هذه الثروة الإنسانية المجيدة إنما هو يفرح اليوم لفرح الأمة اليونانية ويردد معها أجمل كلمة في نشيدها القومي :

- «ابتهجي ، أيتها الحرية ، ابتهجي !»

ميّ

---

* الاهرام . س ٥٦ ، ع١٣٢٧٢ ، ٢٥ مارس ١٩٣٠ ، ص١

١- Solon (٦٣٠؟-٥٦٠ ق م؟) . مشترع وسياسي أثيني . يعتبر شاعر أثينا الأول ، وهو واحد من حكماء اليونان السبعة . حرر السلطة من قبضة الارستقراطية وحسّن أوضاع عامة الشعب بتخفيفه الضرائب .

٢- Herodotos (٤٨٤؟-٤٢٥؟ ق م) . رحالة ومؤرخ يوناني . أطلق عليه لقب «أبو التاريخ» لخدماته لهذا العلم . ساح في عدة بلاد منها العراق والساحل السوري ومصر .

أين ينصب تمثال سعد باشا؟

ضرورة مراعاة "الارتباط التاريخي"

بيــن التمثــال والمكــان الــذي يقام فيه

أثار كاتب فاضل في الأسبوع الماضي في «الأهرام» من جديد موضوع تمثال سعد باشا وناقش في المكان الذي يصلح له ، فاعترض على «نفي» التمثال إلى خارج القاهرة في الجزيرة ، مدافعا عن ميدان الاسماعيلية ومقررا صلاحيته وأفضليته . واقترح إنْ لم يوافق الفنيون على ميدان الاسماعيلية ، أنْ يعمل على توسيع آخر داخل المدينة كميدان باب الخلق أم ميدان العتبة الخضراء ، وإقامة التمثال فيه ليكون قريبا إلى الجماهير في غداوتها وروحاتها .

وعلقت «الأهرام» على هذا الرأي بأن المكان الذي اختير الآن ، أي ميدان الجزيرة أمام كوبري قصر النيل ، ليس بالمكان البعيد ، لأن القاهرة تمتد بحركة سريعة على الشاطىء الغربي ، فلا يلبث حتى يكون مجرى النيل في وسط المدينة بعد أعوام قلائل وعندئذ يصبح المكان الذي اختير للتمثال في وسط العاصمة وفي أحسن مكان منها .

وقد أصابت «الأهرام» في كلامها عن امتداد العاصمة إلى الشاطىء الغربي في هذه الأعوام ، بيد أنَّ ما يدعو إلى الاستغراب هو أنَّ الامتداد من هذه الناحية لم يجىء إلاّ بعد أنْ ترامت أطراف المدينة من الجهات الشرقية والجنوبية والشمالية وما يتخللها من الجهات المشتركة ، مع أنَّ ناحية الجزيرة أجمل تلك الأنحاء وأقربها وهي أحرى سائر جهات المدينة بالعمران لأسباب متعددة .

***

والإبطاء في تعمير ناحية الجزيرة غير منطقي ، لأن وجود النهر سبب من أقوى الأسباب في إنشاء مدينة كبيرة أو عاصمة في ذلك المكان ، نظراً لما يقدمه مجرى الماء من وسائل النقل والتجارة والاقتصاد فضلاً عن وسائل الجمال والفن والزينة .

والدليل أنَّ أكثر عواصم الدنيا وأهم الحواضر والمدن قائمة على ضفاف نهر كبير أو صغير . فهل نذكر باريس دون نهر السين الذي يشقها ، وروما دون التيبر الذي يجتازها ، ولندن دون التايمز ، وفينا دون الدانوب ، وبرلين دون الشيريه . . . .الخ .

وأوفر هذه العواصم حظا هي مدينة القاهرة القائمة على النيل المقدس أكبر أنهار العالم وأقدمها تاريخاً ، وأوفرها امتزاجا بحياة الأمة المصرية في حضارتها وذكرياتها وديانتها القديمة . ورغم ذلك فقد كان بعد نشأة مصر الحديثة أبعد الأنهار عن العواصم التي يقال إنها مشادة على ضفافها !

وبعد أنْ ظل النهر البديع قصياً في «الضاحية» يقصد إليه للتنزه وتبديل الهواء والترويح عن النفس ولا تقوم على جانبيه إلاَّ منازل قليلة متباعدة ، ها قد جاء دور إنصافه فلا يطول حتى تحتضنه القاهرة احتضانا وتنيله قسطه من حياتها وانفعالها ونشاطها المحسوس ولا يطول حتى نألف هنا الجملة المستعملة في باريس مثلاً فنقول إنَّ ذلك الشارع قائم على الشاطىء الشرقي وإنَّ ذياك المنزل كائن على الشاطىء الغربي . ولا يطول حتى تنبض حياة العاصمة قرب أبي الهول فتعيش القاهرة حقيقة لا مجازا في ظل أهرامها العظيمة .

ولكن أيكفي ذلك؟ أيكفي أن يصبح ميدان الجزيرة في داخل المدينة لينصب فيه التمثال؟ وأن تكون تلك البقعة فسيحة رائعة الجمال تجتمع عندها الطرق ومنها تتفرع لتصلح لآثارة الذكرى الخاصة المرتبطة بالتمثال؟

***

لو كانت المسألة مسألة اتساع وجمال بين الأشجار والحدائق وسيطرة على فروع النيل من الجانبين لكانت هذه أوفى بالغرض من كل بقعة سواها . ولو

كانت مسألة توسط في المدينة وامتزاج بالجمهور لكان أي ميدان في داخل القاهرة لائقاً بالتمثال فيها ، لو تمت له المساحة المطلوبة من الوجهة الفنية . ولكن التوسط والقرب والاتساع والجمال شروط ، على أهميتها ، يسبقها جميعاً شرط جوهري هو «الرابطة التاريخية» .

وقد يرد على هذا بأن «الرابطة التاريخية» متوفرة بين التمثال وبين جهات أخرى من العاصمة ، بل بينه وبين أية ناحية من أنحاء القطر .

وهذا مفهوم وصحيح ، غير أنَّ ميدان الاسماعيلية أحكم تلك النقط ارتباطاً . فهو أقرب مكان إلى بيت سعد ، «بيت الأمة» وهو أقرب ميدان إلى البرلمان . وهو الذي تجلت فيه غيرة مرة وطنية الشعب ودوت جوانبه بهتاف الحماسة في حالات قومية عديدة .

هو بالجملة المكان الذي تكون فيه رابطة التاريخ بالفن ، ورابطة التمثال بالذكرى أحكم ما تكون . وهو بعد مكان تمت له شروط التوسط والقرب والجمال ، وإن كان دون ميدان الجزيرة جمالاً طبيعياً . وإذا احتاج أهل الفن إلى مزيد من المساحة فالتوسع ميسور .

إنما يقام التمثال لتخليد ذكرى خاصة حدثت وقائعها في أمكنة معينة . وستكون الأجيال الآتية بعدنا أشد اهتماماً بالارتباط بين الأشخاص المخلدين والتماثيل الفنية والأمكنة التاريخية . فإذا ما ذكرت تلك الأجيال المواكب التي اجتازت ميدان الاسماعيلية متأثرة بجاذبية سعد زغلول وبنزعته السياسية ، ورأت تمثاله في ميدان الجزيرة ، فإن تلك الأجيال ستتساءل حتماً :

وعلام لم يقيموا التمثال في ميدان الاسماعيلية وهو المكان المعد لذلك بحكم الواقع؟

ميّ

---

* الاهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٣٣٩ ، ٤ يونيو ١٩٣٠ ، ص ١

طاقة لعبد الحرية

حرية. مساواة. إخاء
شرر وحبب

● أليس من الاستهتار بالواقع الأليم أن نتكلم عن الحرية والمساواة والإخاء في حين إلى أي البلدان نظرنا رأينا القلاقل والرزايا ، وسمعنا الأصوات ترتفع بالظلم والشكوى؟

● ولكن ، يا ترى أيطلب المرء الصحة في غير حالة المرض؟ وهل يصبو إلى إحصاء الملايين إلاّ الفقير المعدم وهل يشوق الإنسان إلى الفرح والغبطة والسعادة إلاّ ساعة يكون في الحزن غريقاً؟

● يا فرنسا الجميلة ، يا فرنسا المتحمسة ، يا فرنسا الرشيقة ، لقد ابتكرت أثينا من قبلك مثل الجمال والحكمة والكمال وبثتها في العالم كالشعاع الجوال ، فبات ينشدها ويستشهد بها كل قلب ، كائنة صغارته ونقائصه وزلاته ما كانت . وانبريت أنت تنادين بالحرية والمساواة والإخاء فشاعت كلماتك ممتزجة بالهواء الذي نستنشق ، والماء الذي نشرب ، والحياة التي نحيا .

● أكنت خبيرة ساعة دونت «حقوق الإنسان» وأعلنتها للبرايا؟ أكنت عليمة بالغريزة البشرية ، مكتنهة الممكن عندها والمستحيل؟ أم كنت أعلنت ما أعلنت في يوم حماسة نبيلة وأردت أنْ تؤدي إلى العالم الرسالة المدنية المثلى؟

● ومنذا الذي عنيته يا ترى بشعارك الثلاثي الأبي؟ أعنيت به جميع المراتب ، وجميع الأفراد وجميع الشعوب؟ أم أنت سقته نظرية مغرية لأفرادك ومراتبك

وشعبك متكلة فيما عدا ذلك على القول المأثور في لغتك : ما يكون صواباً في الداخل قد يكون خطأ في الخارج؟

●منذ مئة وأربعين عاما جئت بشعارك الثلاثي الخالد فوجدت له الإنسانية بين جوانحها فراغاً ما كان ليملأه سواه . ولكن ترى متى كان الواقع محققاً لما يملأ الجوانح نارا ونورا؟ ومتى كانت الحياة تفي بالوعود التي يتعلل بها الصبور الجلود؟

●على وفق قصف المدفع ، وهتاف الثوار ، وهدم الحصون ، ولعلعة النيران وتدفق الدماء ، وأنين الصرعى أعلنت ، يا فرنسا ، حقوق الإنسان . وها قد كرت الأعوام والإنسان يجاهد في اقتناص ما هو حقه وما يحسبه حقه على وفق هتاف الثوار ، وهدم الحصون ، ولعلعة النيران وتدفق الدماء ، وأنين الصرعى وقصف المدافع ! وعلى مثال ذلك ستتوالى العصور والإنسان يجاهد في سبيل الحق والحرية جهاده في سبيل الحكمة والجمال !

●منذ أربعة أجيال أو تزيد سجلت شعارك . وها اليوم تنبري أختك اللاتينية فتعارضه بشعار ثلاثي آخر : «السلطة . النظام . العدل» . على أنَّ ما أرادت به إيطاليا معارضة لم يكن لشعارك إلاّ تفسيرا . وهل تتم الحرية إلاّ في دائرة السلطة؟ وهل تنفذ المساواة أمام القانون إلاّ بواسطة النظام؟ أو ليس الإخاء المستطاع في الدنيا أسمى وأحق مطلب العدل؟

●هل التاريخ أبدا في ارتجاج وقلق كالتاريخ الذي نرى؟ أم الاضطراب يأتي عرضا ، الوقت بعد الوقت ، شأن العواصف والزعازع؟ أم تكون حقبات التاريخ كهذه الأمواج التي تعج دواما على صفحة البحر؟ فتأتي مرة هادئة منسجمة ، تلثم الشاطىء في نعومة ورقة ، ومرة أخرى تهجم كالشيطان ذي العضلات العديدة الشفافة ، حاملة نذيرا خطيرا ومهددة بالكراهية الحاسمة والشر المستطير؟

●إن التاريخ اليوم وجع رهيب ، وتزيده ارتباكا هذه المثل العليا التي تغلغلت في

كل قلب وجرت على كل لسان ، فإذا كان النبل والعزة والرقي وسائل لإرهاف الشقاء فعلام وجد الرقي والعزة والنبل؟ أم غاية الحياة أنْ يتغلب المرء على المصاعب بما يخلقه لنفسه من عسير الواجبات؟ وهل قدر له كلما دحر عقبة أنْ تعترضه عقبة أعسر؟ شأن المتسلق الجبل ما إنْ ارتفع فوق القمة خطوة إلاّ وتكشفت له قمم أمنع جبهة وأبعد صعوداً؟

• الليلة تشرق أنوارك ، يا فرنسا ، وتصطفق ألويتك بأجنحة الهواء لتضرب الأنوار والرايات هالة فخمة بهية حول شعارك الفخم البهي . الليلة تعيدين للحرية في حين تتساءل الشعوب «أين الحرية؟» وفي حين تلج الأقوام في طلب الحرية . أفلا تسفر هذه الإلهة المتحجبة في هذا العصر الذي كشفت فيه المحجبات القناع؟

• تحية ، يا فرنسا التي رفعت صوتك في الأمس بهتاف الحرية ! وسلاما يا من تدعين الأمم اليوم إلى التفاهم والسلام والوئام ! ولكن ، هل من حرية وسلام حيث داء العظمة ينخر في عظام الأمم ، وحيث كلٌّ يريد أنْ يتضخم على حساب الآخرين؟

• سلاما ، يا ذات الاسم الجميل ، والشعار الجميل ، والبيان الجميل ! ليس عسيرا علينا أن ننشد نشيدك الحماسي ، نحن الذين تعلمنا الحماسة والحمية في لغتك . ليس عسيرا علينا أنْ نسمو إلى أعلى العواطف والمطالب والأفكار ، نحن الذين تغذينا بما أمدنا به شعراؤك وعلماؤك وخطباؤك وعباقرتك ، غير أن ما تلقته في كتبك الشعوب ، كبيرة كانت أم صغيرة ، تريد أنْ تطبقه على نفسها وذلك باسم حقوق الإنسان !

• تحية ، يا فرنسا ، يا من علمت الإنسان بأنّ له اسماً وأنّ له حقاً ! ولكنك في نفس الوقت أوحيت إليه بأمثولة الألم والجهاد العنيد !

• تحية في عيدك عيد الحرية ! لقد جعلت الحرية حقاً للإنسان وخلقت بها في قلبه نبضة جديدة !

• باسم هذه النبضة أحييك . وأتناسى كل ما في العالم من اضطراب وعذاب لأرى الأقوام الليلة فرحة راقصة منشدة . وهناك ، في أوسع ميادين عاصمتك العظيمة ، حيث تدحرجت رؤوس الكبراء والمنسيين ، هناك ، أرى المسلة المصرية التي أهداكها محمد علي الكبير ، تتعالى الليلة فوق جموعك كإشارة بركة وسلام !

ميّ

---

* الاهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٣٧٩ ، ١٤ يوليو ١٩٣٠ ، ص ١

وداع الربيع

ومنذا الذي يفكر فيك ، أيها الربيع الجميل ، آتيا كنت أم ذاهبا أم مقيما؟ منذا منا يجرد نفسه من نفسه ليتفرغ ولو دقائق كل يوم ، لمراقبة تغير المشاهد وتعاقب الفصول ، وتنوع ما تبديه الطبيعة من أشكال وألوان واكفهرار وبهاء؟

نحن ، مثلك ، بعض أجزاء الحياة وبعض مظاهرها وقد يبلغ من الانفعال والاعتكاف على نفوسنا مبلغاً نسهى معه عن كل ما عدانا .

وهل أنت الذي تقاسمنا نصيبنا من الوجود حتى لتصبح مسرحا لحركاتنا الإنسانية والفردية والقومية ، هل أنت مع ذلك تأبه لوجودنا ، وتشعر بشعورنا ، وتشاركنا في مختلف ما نختبره من اضطراب وحيرة ، ونجاح وفشل؟

أولست مثلنا عاكفاً على ذاتك ، مستغرقاً في حيويتك ، منشغلاً بإنماء بذورك والتفاف نواميك ، ترصد الأهبة لاستكمال سورة النضج في حيويتك وأنبتتك وأزهارك وأثمارك؟ أولست تجعل كل واحد منا -شأننا فيك- مسرحاً لأعمال النمو والنضج والازدهار ، وتجري في عروقنا نفس المائية التي تطلقها في شرايين الأرض وألياف الغصون ونسيج الغراس وكؤوس البراعم؟

بيد أنك منفعل بدورة الفلك وسير الشمس حول الأرض فتبدأ حيث تريد أو لا تريد ، وتنتهي حيث لا نفوذ لك في الاختيار . ونحن مثلك من الناحية الواحدة مسيرون . ولكن ما نحن مخيرون فيه إنْ هو أسعدنا مرة فكم من مرة كنا فيه معذبين ، ،كم من مرة جعلنا التخير أشد شعورا بأن ما نحن فيه مخيرون إنما هو نوع العبودية التي نرضى بها ليس غير !

***

هو ذا الصباح ، آخر صباح من أصباحك . والشمس مازالت محجوبة

بالضباب تجاهد في تعجل الظهور فترسل من لدنها بشيرا . فإذا بخط مديد من النور الحي البهيج يرتسم على طول جبل المقطم متعرجا تعرجه هنا ، متكسرا تكسره هناك ، مستقيما حيث الصخر يستقيم ، منحدرا فصاعدا حيث الهضبة تنحدر ومن بعد تعلو . ومن خلال الضباب المتلبد تستغل الشمس كل فرجة وكل ثلمة وكل شفوف لتبعث برسالتها إلى الجهة المقابلة . فإذا الرسالة نور ينعكس على أرجاء الغروب فيضرم في زجاج النوافذ ما يشبه النار ، ويذهب زوايا المساكن فتسطع سطوعا سحريا رقيقا ، ويلون الحجارة بألوان كأن الظلام يطمس معالمها ، وتصبغ السحب المتناثرة هنا وهنالك بأصباغ قرمزية ووردية وليلكية وفضية أو هي تعمل على جعل بياضها أتم نصوعاً وسط الزرقة السحيقة الفيحاء ، كأنما تلك السحب أجنحة مرئية لطغمة من الملائكة المجنحين .

وهذه الأحياء صامتة هادئة ، لا يقطع سكونها سوى خطوات نفر البوليس المولج بحراستها . وعلى المنازل تخيم سكينة الرقاد كأنما للجماد كذلك هجوع في الليل وفي النهار يقظة . وإني لأستشف من وراء الجدران عديد النائمين الغافلين عما تنشره الطبيعة في الخارج وتطويه ، المستريحين ساعات قلائل من المشاغل والتبعات والمتع والحرمانات . إنهم سيستيقظون عما قليل فتقول القيود للسجين : ها أنا ذي ! وتقول المسؤوليات والواجبات والمسرات والآلام للطليق : ها أنا ذي ! ها أنا ذي !

. . . . وقليلاً قليلاً تتصاعد من أبعاد المدنية أصوات تتجمع في صوت واحد منسجم رغم ما يقطعه من تنافر : من كل ناحية يتعالى تغريد الأطيار ، وهل لتغريد الأطيار كالصباح صفوٌ؟ وهل يتسنى سماعها في جلاء إلاّ عندما تكون حركات المدينة ساكنة ويكون أهل المدينة هاجعين؟ وقليلاً قليلاً تقبل الأصوات من كل صوب ، مقتحمة جميع الشوارع وجميع الأنحاء حتى لينقلب الجو مجلى شدو وترجيع وتطريب . واستيقظت الأطيار المعسكرة على الشجرة المقابلة لشرفتي وعلا تغريدها فتفوق على كل تغريد . هذه شجرة قديمة ، مسنة كبيرة الجذور ، راسخة الأصول ، كثيفة الأوراق متشابكة الأفنان ، وقد تولدت

أكثر الغصون الفتية في أعاليها . هي الشجرة الباذخة في حديقة لم تحفل بغير العشب وأغراس الأزهار ، وسائر أشجار الطريق حيال هذه الشجرة أقزام .

***

ترى ما معنى تغريد جوقة الأطيار على هذه الغصون؟ أتسبيحة اليقظة هو أم ترنيمة الربيع ، أم أهزوجة الحياة؟ أم هو مساجلة ومناقشة تتبادل فيها الأطيار آراءها الصغيرة وأفكارها المجهولة لدينا؟ وإذا كان هذا التغريد ترتيلاً فما هي لغة التخاطب بينها ، وكل ما عندها من وسائل البيان صدح وشدو وإنشاد؟

لتغريدها مجتمعة وقت غير طويل على أنه يرتفع في الساعة نفسها من كل صباح . فما إنْ ينقشع ستار الضباب ويمضي قرص الشمس في تسلق أول أجواز الفضاء حتى تعمد العصافير إلى السكوت . وينفض اجتماعها في نظام هو ألذ من التغريد وأطرب لأنه ينم عن ذكاء ويحدث عن تضامن وتفاهم .

فرداً فرداً تنتقل الأطيار الرشيقة إلى أعالي الشجرة متخيرة لوقوفها الفتي من الغصون حتى يتجمع هناك العدد الوافي ، ومن يدري ما إذا كان أولئك أعضاء فصيلة أو قبيلة أو طائفة أو جماعة؟ وبعد سكون لحظات يخرج عصفور أولاً ، وتخرج بعده عصافير كثيرة تنتظم سرباً يتأثر أثر العصفور السابق ويتجه فتلوح في الأفق تلك الظاهرة الطبيعية البسيطة الفتانة : ظاهرة سرب الأطيار يجتاز السماء !

لا أظن أنَّ هناك مشهداً أقدر من هذا على إثارة الشوق إلى المجهول في الإنسان ، واهتياج حنينه إلى بلاد نائية وأنحاء غير معروفة ، وإذكاء رغبته في مغادرة مكان أقام فيه لينزع إلى المغامرة وركوب الأخطار واقتحام الأهوال وتمزيق الحجاب الذي ضربته أحكام المسافة وأنظمة الطبيعة من دونه .

لا شك أنَّ للاطيار فضلاً كبيراً في إنشاء فن الطيران وترقيته . ليس من الوجهة الميكانيكية فحسب ، ولكن خصوصا من حيث تنبيه حاسة المجهول في الإنسان وشحذ همته في هجرة الديار ، وارتياد شاسع الأمصار ، وتعرف ما لا يعرف من أمور وممكنات وأفكار .

وهكذا ما إنْ تغادر الفرقة الأولى مكانها من الشجرة حتى تحتل ذلك المكان

فرقة أخرى تصعد من الطبقات الدنيا إلى قمة الشجرة ريثما يتكامل عدد الجماعة فتطير بدورها سرباً وتحلق وراء طائر يتقدمها . وهكذا يخرج من بين الغصون سرب تلو سرب يختلف كل منها عدداً واتجاهاً ولكنها في الغالب تولي وجهها شطر الشرق ولا تنقلب أبداً نحو الغرب .

ألأن الشرق أغنى أرضاً وأخصب تربة وأفعم خيراً؟ وهل شعوب الغرب تحذو حذو الأطيار في اتجاهها نحو الشرق بغية الغزو والاستعمار؟

وإلى أين تمضي تلك الأسراب؟ أللبحث عن قوت وذخيرة؟ أتجلب شأن المستعمرين ، للمعامل والمصانع المواد الغفل مؤونة؟ وهل هي تعدو في المساء إلى نفس المكان الذي جمعها في الصباح؟ وما الذي جمعها في الصباح؟ وهل هي نفسها التي تطير من ذلك المكان كل يوم؟ وما الذي يحدو بها إلى اختيار ذلك المكان دون غيره؟ وكيف تنظم الطير جماعاتها وأسرابها وتقيم عليها زعيماً يسير أمامها ساعة تنطلق إلى اجتياز الفضاء؟ وإن تم لها كل أولئك بالسليقة فيا لها من سليقة عجيبة لا ننجح نحن البشر في تنظيم مثل نتائجها إلاّ بكد وعناء ، ولا نفتأ نؤدي ثمن ذلك النظام دفعة بعد دفعة من دماء القلوب .

***

أشرقت الشمس وعلت فوق ذرى الجبل الواحد الذي يخفر عاصمة أبي الهول ومضت الأطيار إلى عمل النهار وليس على الغصون من طير يصدح . واستيقظ أهل المدينة وبدأت حركة الشوارع واستؤنفت جلبة العمران . وفاض النور على جوانب الأفق وساد طليقا في كل مكان . وعما قليل تشتد حرارته فتصلينا بسعير الظهائر والهواجر .

أكذلك وداعك ، أيهذا الربيع ، في آخر صباح من أصباحك؟ وهل أنت تقبل كما يُقبل الواحد منا وتدبر كما يدبر وتسلّم وتودّع مثلنا سواء بسواء؟ أم أنت تتولد من قلب الشتاء كما يتولد الفرح من قلب الترح ، وتذوب عناصرك في مطلع الصيف فتمده بالقوة والحيوية كما يغني الأمل مصادر النضج في الإنسان

ويعلمه كيفية التحقيق؟

ألا إنَّ هذه حياة متحابكة الحلقات ، متسلسلة الوقائع ، متضافرة الفوارق ، متلازمة الأضداد نحسب أننا نحذقها ونفسرها ونتصرف فيها على حين هي تعالجنا وتتصرف فينا من غير ما شرح ولا تفسير !

ميّ

---

* الأهرام . س ٥٦ ، ع١٦٣٥٩ ، ٢٤ يونيو ١٩٣٠ ، ص١
أعيد نشر هذا المقال في المقتطف .
س٧٧ ، ع٢ ، يوليو ١٩٣٠ . ص١٣٣-١٣٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حفلة الآلام في أوبرأمرجاو التي شهدها المستر مكدونلد؟ وماهي؟

«برلين - غادر المستر مكدونلد اوبرا مرجاو مشيعاً بهتاف أهل القرية وزوارها الأجانب بعد ما شهد حفلة تمثيل الآلام يوم الأحد وقد أعرب المستر مكدونلد عن ارتياحه الشديد لاشتراكه رابع مرة في هذه الحفلة البديعة»

من تلغرافات هذا الاسبوع

قرية أوبرأمرجاو Oberammergau ببفاريا العليا لا يزيد عدد سكانها على الألفي نفس ، وهي مع هذا قد نالت شهرة عالية بمسرحها الشعبي الفسيح حيث تمثل كل عشرة أعوام مأساة آلام السيد المسيح كما هي مسطورة في الإنجيل . فيقصد إليها السياح والزوار والمتفرجون من أنحاء العالمين ليمتعوا النظر والفكر والعاطفة الفنية بمشهد فريد خصت به هذه القرية دون غيرها من القرى والبلدان ، بل دون عواصم العمران جميعا .

وقد شيد هذا المسرح وفُكِّر في تمثيل هذه المأساة تذكاراً لوباء الطاعون الذي انتشر ففتك بالسكان فتكاً ذريعاً في منتصف القرن السابع عشر . أما الممثلون فيزيد عددهم على الخمسمائة وكل منهم يراجع دوره الواحد أعواما لا أياماً ، ويجتهدون في إتقان الأدوار وفي تنسيق مشاهد المأساة عقداً بعد عقد حتى ليبلغ التمثيل فيها مرتبة الكمال الميسور .

وأذكر أنَّ الشاب الذي كان يقوم بتمثيل دور السيد المسيح في آخر العقد السابق توفي منذ ثلاثة أعوام . فأطنبت صحف العالم في وصف جماله

الروحاني وبراعة تمثيله ودقة فنه ، مع إنه لم يكن إلا «فتى فلاحا» .

وقد ذاع صيت اويرامرجاو وتكاثرت وفود المتقاطرين إلى حفلاتها كل عشرة أعوام وتوافرت أرباح الأهالي في ذلك الموسم . فأقاموا في آخر القرن الماضي مسرحاً يتسع لألوف المشاهدين وما فتئوا يوسعونه رحباً وإتقانا عقداً بعد عقد .

***

غير أنَّ كلمة مسرح هنا لا يفهم منها ذلك المسرح الخشبي المألوف في التياترات والملاعب حيث يغيرون الزينة (Decor) وينوعونها وفقاً لتغير المشهد وتنوعه ، فتكون المساحة الخشبية الضيقة نفسها مرة قاعة استقبال ، ومرة سجناً ، أو محكمة ، وطوراً حديقة وما إلى ذلك . وإنما مسرح اويرامرجاو أرض فسيحة في الهواء الطلق هيئت في أرجائها الأمكنة التي تحدث فيها حوادث المأساة على ما جاء وصفها في الإنجيل .

تقوم تلك الأمكنة متحاذية متفرقة في ذاك المسرح والأشخاص يتلون أدوارهم في كل منها أمام عيون النظارة في آن واحد ، فهناك بيلاطس البنطى في قصره يصغي إلى زوجته تقص عليه ما رأته في المنام ، وهناك رئيس الكهنة في داره يتشاور والكهنة والشيوخ والكتبة فيما يجب أنْ يأخذوه من التدابير وفي الحكم الذي سيصدرونه عما قليل . وهناك في علية صهيون يتناول السيد المسيح مع تلاميذه «العشاء السري» -العشاء الأخير- فيحزن لأن واحدا من هؤلاء الذين أحبهم وأحسن إليهم سيخونه الليلة ويسلمه بمبلغ زهيد من الفضة . ثم ينفض اجتماعهم ويسير بعضهم مع سيدهم وأستاذهم إلى جبل الزيتون القائم في أطراف المسرح ، وهناك يختلي «ابن الإنسان» الذي لم يجد حياته «مكاناً يسند إليه رأسه» . يختلي بنفسه عالماً أنَّ ساعة الموت قد حانت فتصبب منه العرق دما ويجثو على ركبتيه مصليا ضارعا مستسلما . بينا يهوذا يفاوض المتآمرين في تسليمه مقابل ثلاثين درهما ، ويسير إليه في جمع منهم ويفاجئه بالتحية الثعلبية ويقبله قبلة الغدر ونكران الجميل ! وهناك ، في ناحية من الملعب ، يتعالى جبل الجلجلة حيث يتم المشهد الأخير الرهيب . وفي سبيل المدينة تتلاقى جماعات

المارين فيتبادلون الكلام همساً ، وتقوم الجنود الرومانية ، جنود الاحتلال ، بدورتها في شوارع أورشليم للمحافظة على الأمن وقمع حركات الثورة ، شأن الجنود الآن في جميع الشعوب عندما تكون البلاد مهددة بحادث جلل .

لم أشهد هذه الحفلة في المكان الذي اشتهر بها ولكني شهدتها في روما حيث مثلت في «الاستاديو» الجديد بمناسبة العام المقدس سنة ١٩٢٥ ، وقد حاول القائمون بأمرها أنْ يجعلوها صورة صادقة لحفلات اوبرامرجاو فاتبعوا في تنظيمها تقاليد بافاريا ونصوصها . فكان فيها من الجمال المفجع والروعة الفنية ما فيها . والغريب أنَّ أهل روما الحديثة لم يفقهوا المغزى السياسي المنبثق من تلك الحفلة ، أو أنهم فقهوا فيما رأوا فيها ما يشوه تاريخ الاحتلال الروماني في فلسطين !

***

ويظهر أنَّ هذه الحفلة تقام مرات كل عشر سنوات في أوبرامرجاو ، أو هي يعاد تمثيلها خلال الفصل كله ، لأن القراء لا شك يذكرون أنَّ التلغرافات أنبأتنا منذ أسابيع بأن الملك (البرنس يومئذ) كارول الأول[1] وصل فجأة إلى رومانيا على متن طائرة فرنسية ، في حين كانت والدته الملكة ماري غائبة في أوبرامرجاو حيث ذهبت لتشهد حفلة الآلام .

وإذا جازت الابتسامة هنا ، قلت إنَّ صحيفة من صحفنا الكبيرة قالت في ترجمة تلك البرقية يومئذ أنَّ الملكة ماري كانت متغيبة عن رومانيا لتحضر مأساة «غرامية» في مدن ألمانيا . ومعلوم أنَّ كلمة (Passon) الفرنسية التي تطلق على آلام السيد المسيح قد تعني أحيانا «الغرام» وها المستر مكدونلد يشهد اليوم هذه الحفلة للمرة الرابعة ، على قوله . فهل هو شهدها أول مرة سنة ١٩٠٠ ما دام أنها لا تقام إلاَّ كل عشرة أعوام؟

وإذا كان الأمر كذلك وشاء المستر مكدونلد[2] أنْ يكتب تاريخ حياته في أربعة فصول مبتدئا بسنة التسعمائة حيث شهد هذه الحفلة للمرة الأولى ثم متنقلا إلى ١٩١٠ ، فـ ١٩٢٠ لتصل إلى سنة الثلاثين هذه التي نحن فيها ، وحيث جنابه

يحضر هذه الحفلة وهو رئيس الحكومة في أكبر امبراطورية عرفها التاريخ -لو شاء المستر مكدونلد أنْ يكتب في هذا الموضع بموجب هذا التقسيم إذن لاستطاع أنْ يقول شيئاً كثيراً ليس فقط عن تطور حياته الخاصة في ثلاثين عاماً ، بل عن تطور السياسة الدولية وتطور العقلية العالمية من مكانة المراتب الاجتماعية ويقظة الشعوب وحقوق الأفراد والجماعات . ولاستطاع أنْ يقابل أحسن مقابلة بين الحوادث التاريخية التي يعاد تمثيلها متشابهة متماثلة كل مرة وبين حوادث التاريخ الذي تحياه الإنسانية كل يوم وكل عام وكل عقد من الأعوام ، فتنسجه بآلامها ودمائها وجهادها نسجاً على مسرح العالم الفياح !

أتمنى للمستر مكدونلد أنْ يشهد هذه الحفلة مرات في الأعوام المقبلة . وسيكون المشهد هو نفسه بوقائعه وخصائصه ، على أنَّ تاريخ العالم سيكون قد أمعن في التطور خطوات أخرى وهيأ من التجديدات العمرانية والاجتماعية والسياسية ما سيبديه المستقبل بعد أنْ يكون الزمن قد أنضجها الإنضاج المطلوب .

***

وفي العدد الخاص الممتع الذي صدرته جريدة «بريلتز تاجبلات» الشهيرة للتنويه بالمصايف الألمانية ، يصف الكاتب الألماني «بيتر دورفلر» أوبرامرجاو فيما يقول :

«ليس لدينا في ألمانيا كثير من المدن ذات الصبغة الانترنسيونالية التي تتحاذى فيها جميع الشعوب وتشرئب إليها جميع الطبقات المختلفة من الغرباء . بيد أنَّ اوبرا مرجاو تفردت في ذلك ويقترن اسمها بدعوة قوية تشعر الغرباء بأن لهم فيها شأناً . معلوم أنَّ هذه القرية الجميلة بين قرانا الجميلة اكتسبت شهرتها من مأساة الآلام التي تمثل فيه كل عشرة أعوام . وهي بعد ليست نائية عن السفن الراسية في البحر وقد انتظم فيها سير السيارات التي تقل المسافر فتنقله في وقت قصير إلى أي الجهات شاء . وهي محل إقامة يليق بكل طالب للراحة والهدوء وجمال الطبيعة .

«أما الذي يؤمها للاشتراك في هذه الحفلة العالمية الكبرى فبينما هو يشهد أبرع تمثيل إذا به، فيما لو كان من أهل الذوق والوجدان، يزور الآثار الباقية هناك منذ القرون الوسطى ويتمتع بسحر المناظر الطبيعية من جبال وأودية وغابات وغدران في عزلة بعيدة عن العالم يطلبها الرجل الاجتماعي ورجل العمل كما يطلبها المفكر والكاتب وغاوي الفنون فينال كل من النظر والعاطفة والصحة الجسدية قسطه من المتعة والاستفادة بينا جمال التمثيل وروعة الفن تنقش في الذاكرة أثرا لا يمحي» اهـ

فهل نعيش نحن عشرة أعوام أخرى فتحدو بنا الرغبة وتمكننا الأحوال من أنْ نقصد عام ١٩٤٠ إلى أوبرامرجاو لحضور مأساة الآلام والتملي من هذا الفن وذياك الجمال إذ نزور تلك الأرض الغريبة القديمة وننعم بما فيها من آثار وغدران وأحراج وآكام؟

ميّ

الأهرام. س ٥٦، ع١٦٤٠٥، ٩أغسطس ١٩٣٠، ص١

١- Carol I (١٨٣٩-١٩١٤). أول ملك حكم رومانيا (١٨٨١-١٩١٤). ينتمي إلى عائلة هوهنتزولرن. تعاطف مع بروسيا خلال حربها مع روسيا (١٨٧٠-٨١٧١)، ولكنه شارك روسيا في حربها مع تركيا (١٨٧٧-١٨٧٨) التي انتهت باستقلال رومانيا.

٢- Ramsay MacDonald (١٨٦٦-١٩٣٧). سياسي بريطاني. كان أول رئيس وزارة بريطاني من حزب العلم (١٩٢٤، ١٩٢٩-١٩٣١، ١٩٣١-١٩٣٥). توفي وهو في رحلة بحرية إلى أمريكا الجنوبية.

ذكرى جبار الوادي

هل هو مهمل في أمته لتثار اليوم ذكراه؟ وهل هو منسي لتعيد الألسن أحاديثه ونجواه؟ منذ ثلاثة أعوام قال كلمته الأخيرة «أنا انتهيت !» فكان ختام أجله بدء مرحلة جديدة لقومه . منذ ثلاثة أعوام خرجوا بنعشه فصاحت زوجته : «لفوه بالراية المصرية ولا تزيدوا ! فحسبه من شارات الفخار هذه الشارة الوطنية !» منذ تلك الساعة لا نتخيل الراية إلاّ وفي ثناياها شيء من الروح الراحلة الباقية .

منذ ثلاثة أعوام سار سعد زغلول في موكبه الأخير وتدافعت الجماهير حوله ووراءه شأنها في سائر مواكبه إلاّ أنها هذه المرة كانت في تفجعها كئيبة واجمة . وسالت في هذه الشوارع وتلك الميادين جموع المشيعين . ولو كان قاسم أمين حياً لكان رأي للمرة الثالثة «قلب مصر» خافقاً- وأي خفوق ! وقاسم هو القائل :

« ١١ فبراير ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . وكانت المرة الأولى يوم تنفيذ حكم دنشواي» .

منذ ثلاثة أعوام أودع سعد زغلول الثرى وسجن في بقعة ضيقة من الأرض . ولكنه في نفس الوقت كبر واتسع وارتفع وتعالى ، وشاع وتجمع معاً ، حتى صار «الفكرة» المتحدرة في ألف ألف سبيل خفي إلى الأبناء والأحفاد . وصار «التيار» الذي يجوز المكان والزمان فيتناول القوم ويتغلغل في نفوسهم فينسجون منه أسطورة البطولة ويدونونه فصلاً حاراً في تاريخ الوطنية . وصار اسماً «علماً» قائماً على مفرق الطريق يفصل بين ما كان قومه عليه من قبل وبين ما يريدون أنْ يصلوا إليه من بعد .

قبل ثلاثة أعوام كان سعد زغلول في حياته زعيماً مكرماً محبوناً .

ومنذ ثلاثة أعوام دخل سعد في التاريخ فصار معبوداً وطنياً مقدساً .

***

من ذا الذي يستطيع أنْ يبين لغز الحب : حب الفرد للفرد وحب الجماهير للزعيم؟

من ذا الذي يستطيع أنْ يشرح معنى الجاذبية الشخصية والمغناطيسية والتأثير الشخصي؟

إن المولعين بالتفسير والتعليل ليجدون هنا مجالاً رحيباً ، فيفسرون ويؤولون ، ويقدمون ويؤخرون ، ويسهبون ويوجزون ، بيد أن سر الجاذبية أعلى من أنْ تلقي به الضمائر إلى الألسنة والأقلام .

في التاريخ شخصيات ما فتئت كهرباؤها تسري إلينا نحن أبناء هذا الجيل الذين جئنا بعد كر المئيين والألوف من الأعوام . كهرباؤها تسري إلينا وتستحثنا حتى ولو كنا من بلاد أخرى ، وكانت مصالحنا ترتطم بالمصالح التي دعت تلك الشخصيات إلى تأييدها .

غير أننا نزيف الواقع بقولنا إنَّ سعدا محبوب من الجميع على الإطلاق .لو كان ذلك ما كان سعد زغلول عظيماً . إنَّ نصيب العظيم من البغض نصيبه من الحب والمقت أو يزيد . إنما الشخص العادي المألوف هو الذي لا يستحق أنْ يكون مكروها . والعظيم يفيد بما يوحيه من الحب وبما يثير من البغضاء جميعا ، لأن خصومه ينهضون لمقاومته وقد شحذت مواهبهم وتجلت ممكناتهم في أبرع مظاهرها . وتتم الفائدة على يده في حالي الحب والمقت . ويكمن شأن المحبين والمبغضين شأن الآلات الموسيقية المتنافرة فيما بينها ، غير أنها قد تتعاون على نسج لحن عام بديع .

***

وفي تاريخ مصر الحديثة تكهربنا من شخصيات الموتى ثلاث : جمال الدين الأفغاني[1] ، ومصطفى كامل وسعد زغلول .

أما والموقف موقف ذكرى سعد فإننا نذكر له حسنات ثلاث طبعت بطابعه

ولم تفارق دعايته :

أولاً : تحريك طبقات الأمة : وتلك عملية حيوية لا بد أنْ تتم الوقت بعد الوقت في تربة الأرض وفي طبقات الشعب ليظهرا ما هما عليه من المقدرة وإلا كان الركود المزمن مؤدياً إلى الجمود فالتحجر فالموت . ولقد كان لسعد فضل هذا التحريك والتجديد بقوة شخصيته وبمواتاة الظروف له فخلق بين مريديه شخصيات جديدة ، ويسَّر الظهور لشخصيات كانت مكنونة وفتح السبيل لمن كانت السبيل مسدودة في وجهه ، كما أنه أنال مقاوميه الفرصة لإظهار مقدرتهم فالمقاومة كالاندماج وسيلة لتجلي الشخصيات .

ثانياً : تناسى الفروق المذهبية والطائفية في تكوين الوحدة الوطنية حتى صار لكل واحد مسلماً كان أو قبطياً أنْ يقول «إني مصري» .

ثالثا :- فتح السبيل أمام المرأة والعمل على تحريرها ، فباسم سعد ارتفع صوت المرأة ، وباسم سعد خرجت المرأة عزيزة في الشوارع ، خطيبة على المنابر ، متكلمة في المجتمعات . وباسم سعد كان للصوت النسوي وقع محمود وتقبل الجمهور في رضا وافتخار هذا المظهر الجديد في تطور المرأة ، لأن المرأة تكلمت في بادى الأمر لتؤيد سعداً في القضية الوطنية ولتجدد الثقة به مرة بعد مرة . وبذلك اكتسبت هي ثقة الجمهور وعطفه ، وظل الجمهور بعدئذ يصغي إلى هذا الصوت متكلماً في أي شأن من الشؤون لأنه «اعتاد» الإصغاء في سبيل سعد وفي ظل لوائه .

***

لست أعني أن سعداً «ابتكر» هذه الحسنات وتبرع بها من عندياته ، بل قد مهد لها ودعا إليها وأيده فيها أفذاذ مصريون لا نغمطهم في شيء .

إن أجمل الآثار وأنبل الأعمال وأحكم الإصلاحات في تاريخ العالم لم يأت بها رجل فرد . بل هي أحلام وآمال تجول في مخيلات الأفراد وعقولهم ، وهي حاجات وآلام تمرر حياة الجماعات وتجعلهم يتلهفون على الدواء والتحسين . وما يكون الزعيم زعيماً إلاّ باتصاله الوثيق العميق بالنفسية العامة التي حاول تنفيذ

مطلبها ، وباطلاعه الدقيق على ما يبسط من الآراء ليتخير منها ما يحسن الأخذ به والدعوة عليه ، فينيل هذه وتلك صوتاً ولغة وبياناً هي لغته وصوته وبيانه ويجعل من هذه الأجزاء المبعثرة المتناثرة «كلاً» متألقا متناسجاً متضافراً .

ليس من شعب يقوم كله قومة رجل واحد يطالب بالاستقلال لأن شخصاً أو أشخاصاً أثبتوا له حقه في ذلك الاستقلال . ولو كانت الأمة المصرية هاجعة ما قام فيها من يدعي سعد أو غير سعد . ولكن هو شبل الأسد يتحفز للنهوض عندما يشعر أنَّ في جسده حياة وفي أعضائه قوة ، ويمضي في طلب حقه من الطبيعة دون أنْ يتعهد أحد بإفهامه وتلقينه فإذا وجد من يسير أمامه من جماعته تقوت رغبته وشحذت عزيمته وسار إلى الأمام شوطا بعيداً .

***

وإنما نذكر اليوم لسعد زغلول هذه الحسنات الثلاث لأننا نحن الذين لا شأن لنا في النزعات الحزبية نرى أنَّ الثورة السياسية لا أهمية لها إلاَّ من حيث هي مؤدية إلى الإصلاح الاجتماعي ، ميسرة تغيير الصيغ الاجتماعية التي يقضي الزمن بتغييرها .

ولئن كان من طبيعة الأشياء أنْ تظل الأمم زمناً ما على فكرة مألوفة وصيغة اجتماعية خاصة ، فمن طبيعة الأشياء كذلك ومن نصيب الأمم أنْ يجيء يوم تنبذ فيه تلك الفكرة القديمة وتبدل عنده تلك الصيغة الرثة .

وهل ذلك خير أم شر؟

سرعان ما نسمع على هذا السؤال جواب المتفائلين وجواب المتطيرين . والواقع المحسوس هو أنَّ في ذلك التغيير من الخير والشر بقدر ما يكون منهما في مجاهدة الطائر الصغير لكسر البيضة والخروج من سجنها الضيق إلى مسرح الحياة ونور الشمس .

ربما كان الطائر الصغير أوفر هناء وأنعم بالاً عندما كان قانعاً داخل سجنه ولكن الحياة ليست في الهناء والراحة بل هي في العمل والإجهاد . وليست السعادة غاية الأمم في التطور ، وإنما غايتها أن تتحرر وخصوصا أنْ تتثقف حتى

تصل بمواهبها وملكاتها إلى قسطها من الكمال النسبي . وكل ما يقوم في وجهها من العقبات والآلام إنما هي وسائل للثقافة والكمال .

***

هذه هي بعض الأفكار التي تثيرها ذكرى الجبار الهاجع الخالد ، وهذه هي بعض الحسنات الاجتماعية التي التصق أثرها بدعايته الوطنية .

فلئن هتفنا بحياة ذكرى سعد فإنما نحن نهتف بحياة ما للعواصف من حرارة وما في النفوس من أريحية وما في الآمال من حيوية ، نهتف كذلك للإصلاح الاجتماعي والثقافة الفردية سعياً إلى ما تتوق إليه كل أمة تريد البقاء .

ميّ

---

* الأهرام . س ٥٦ ، ع١٦٤١٩ ، ٢٣ أغسطس ١٩٣٠ ، ص١

١- جمال الدين الأفغاني .(١٨٣٨-١٨٩٧) . مفكر إسلامي ولد في افغانستان . قدم إلى مصر وتتلمذ له محمد عبده وآخرون . نفته الحكومة المصرية . أنشأ في باريس مع محمد عبده جريدة «العروة الوثقى» . توفي في الآستانة .

البوارج المدرسية
وانتشارها بين طلاب العلم في العالم

وصلت صباح الأمس الأول إلى الاسكندرية بارجة مدرسية أرجنتينية وسبقتها قبل أيام بارجة مدرسية حربية أسبانية ، كانت تقدمتها في المجيء والرحيل بوارج مدرسية يونانية وإيطالية وأمريكية . وينتظر أنْ تزور مصر في الشهور المقبلة بوارج مدرسية حربية وغير حربية من مختلف البلدان .

وليس الثغر المصري إلاَّ أحد الثغور التي ترسو فيها هذه المدارس ، ويزورون الأقطار التي لم يكونوا ليقرؤون أسماءها إلاَّ في الكتب . فيتبينون مواقعها الطبيعية ويتصلون بأهليها ولو اتصالاً سريعاً ويقفون على أحوالها وعاداتها وحركاتها المألوفة فيجنون من المعرفة الصحيحة في أيام قليلة ما لم يكن يتوفر لهم في دراسة الكتب طول العمر .

والواقع أنَّ «المدرسة» تتطور بتطور «الدراسة» وتتبدل أساليبها القديمة العقيمة بأساليب جديدة جمة البهجة والحياة والنشاط . وأهم مظاهر التجديد بادية في «الحركة» ، أي في الخروج من بين الجدران إلى الهواء الطلق وفي هجر المقاعد الخشبية التي كان يجمد الطالب عليها كالتمثال إبان التحصيل النظري ، ليعالج اليوم التحصيل عن صفحة الطبيعة نفسها وبطريقة محسوسة ملموسة .

وهو يلمسها ويتبع حركتها بنظره بعد أنْ كان يستظهر شرح كل ذلك في كتاب مسطور ويرقبه في رموز مصورة . وإن هو درس علم النبات والحيوان خرج إلى الحدائق والغابات والعراء . وإنْ هو درس التاريخ ذهب يتبين معالمه في الآثار والصروح . وإنْ درس الجغرافيا فبالرحلات والأسفار بين البر والبحر وليس بتنقل أصبعه ونظره بين الخطوط الملونة على الخارطة الجغرافية . وإنْ هو درس

حالة الشعوب فليس في مصنفات الباحثين وفي سجلات الإحصاء بل هو يتصل بتلك الشعوب في بلادها فيدرس موقعها الطبيعي ويستجلي موقفها في تاريخ العالم وأهميتها في الهيئة الدولية ومعنى حركتها التجارية والاقتصادية والأدبية في حركة العمران .

منذ القرن السادس عشر قال فرنسيس بيكن[1] إنَّ السفر وسيلة تربية وتعليم للشبان ووسيلة معرفة وخبرة للكهول ، أما الآن ، فبعد مضي ثلاثة قرون وبعد كل ما شهدناه من تقدم العلم وسهولة المواصلات والتقريب بين شاسع الأمصار فقد أصبح السفر ضرورة لا غنى عنها في حياة طالب العلم وطالب الراحة ورجل الأعمال جميعا . بل أصبح السفر حاجة لاجة في حياة كل وطني طمع في القيام بقسطه من التبعة في تحويل وطنه من بقعة محاصرة ضيقة (كائناً اتساع مساحتها ما كان) إلى بلد نشيط نابض تربطه بالبلدان الأخرى صلة التبادل وتتناوب الأخذ والعطاء التي هي أساس المعاملات الإنسانية حسية كانت أم أدبية . إنَّ السفر من الأهمية بحيث أنَّ ولي عهد انجلترا في مجمع «الاتحاد الوطني للطلبة البريطانيين» . الذي انعقد أخيراً ، أعرب عن أمنيته في أن يدرج «السفر» في البرامج النظامية ليتسنى للطالب أنْ يتفقد عدة أقطار إبان دراسته فيمر بأهاليها ويقف بنفسه على ما تيسر الوقوف عليه من أحوالها ، مما يجعله أحق باسم «الإنسان» ويجعله أوسع إدراكاً وأجدى عملاً فيما بعد . أما الرحلات «الشهرية» المدرسية التي لا يندر أنْ تستغرق ثلث الشهر أو نصفه أو أكثر فهي أمر نافذ في برامج المدارس الثانوية الجديدة بألمانيا .

ولكن هذه الطريقة الدراسية آخذة في الانتشار عند جميع الأمم سواء أكانت مقررة في البرامج النظامية أم كانت «منحة إضافية» وقد أرسلت فرنسا في الشهر الماضي بعثة بطريق البر تزور أوربا الوسطى والشرق وأفريقيا الشمالية في نفس الأسبوع الذي أبحرت فيه بعثة أخرى ووجهتها الأقطار الأمريكية .

وجمعيات عديدة من الطلبة القدماء الذين أصبحوا اليوم أقطاب الصناعة والتجارة والشؤون المالية والاقتصادية في بلادهم ، يشجعون الأسفار الدراسية ويؤيدون بعثاتها بنفوذهم وبمالهم وينشطونها بكل وسائل التنشيط . أما تبادل

البعثات الدراسية للسياحة والسفر بين البلدان التي كانت بالأمس متعادية متناحرة خلال الحرب ، أي بين فرنسا انجلترا من الناحية الواحدة وألمانيا- النمسا من الناحية الأخرى ، فهو كل يوم في ازدياد . وقد جعل وزير المعارف في انجلترا الأسفار الدراسية برعايته «العلمية» .

كم كانوا قبل اليوم يعيبون خريجي الجامعات والمعاهد العلمية لوفرة محصولهم من الكتب مع جهل مطبق في أحوال العالم ومعاملة الناس وأساليب المعيشة . أما الآن فبفضل هذا التوسع المحسوس في الدراسة العملية ستمحي عيوب التعليم النظري شيئاً فشيئاً ويصبح الطالب أقرب إلى معرفة الحياة وطبائع الناس وأدرى بأساليب المعاملة والعمل . وليس هذا ليفيد الطلبة وحدهم بل هو موفور العائدة على الأساتذة الذين يصحبونهم ويهيمنون عليهم .

ولقد كان المدرس دائماً موضوعاً للسخرية في فرع من فروع الأدب عند كثير من الشعوب ، لأنه أكبر من تلامذته وأوفر علماً ولكنه يظل في مستواهم إدراكاً لأنه يبقى طول حياته على معاشرة طراز معين لا ينمو من المدارك المتعاقبة أمامه على مقاعد الدرس كما يقول أصحاب تلك الأقلام الشريرة .

وقد ألمع أخيراً الكاتب الانجليزي هـ .ج .ولز[٢] إلى هذا الموضوع خلال محاضراته التي ألقاها في السربون بباريس فتهكم كثيراً على الأساتذة الذين يصدرون أفكارهم أوامر ونواهي ويحسبون أنهم يسنون القوانين للعالم من وراء جدرانهم ودون أنْ «يفتحوا نوافذهم لتهوية مخادعهم» .

وأمريكا كانت أسبق البلدان إلى إدراك أهمية السفر وما يترتب عليها من تقدم المدارس وشحذ عزيمته فهي تمنح أساتذتها في أمريكا وفي الخارج كل سبعة أعوام عاماً كاملاً يقضونه في «تبديل الهواء» على حسابها . ومن الأساتذة الأذكياء من ينقلب خلال هذا العام طالبا يستزيد من الفرع العلمي الذي يلقنه لغيره فما تنتهي إجازته إلاّ وهو أحسن صحة وأوفر نشاطا وأوعب معرفة أيضا .

من أجل ذلك نحبذ الرحلات العلمية والدراسية التي رأينا وزارة المعارف المصرية تشجعها وتسهر على تنظيمها بين الطلبة في هذه الأعوام . ونتمنى أن

تندرج الرحلات فيصير بعضها أسفارا إلى بلاد قريبة وبعيدة . فقد كان سرورنا عظيما إذ تبادل الزيارة في الشتاء الماضي طلبة الجامعة المصرية وطلبة جامعة بيروت الأمريكية لإقامة مباريات رياضية حفظ لها أعضاؤها من هؤلاء وأولئك ذكرى طيبة .

نتمنى أنْ تتعدد الرحلات في داخل القطر ليتعرف الشبان والشابات تاريخ بلادهم ومجدها في الأحجار المنقوشة والآثار التي تكافح الزمن والحدثان . ونتمنى أنْ تتدرج بعض هذه الرحلات إلى أسفار ليتسنى للشبيبة أنْ «تفتح نوافذها على العالم» فتعرق مكانة بلادها وتعرف الدور المفروض عليها القيام به في حركة العمران .

من هذا النشء الذي يحصل العلم سيتكون مجتمع الغد ، فلا بد من فتح النوافذ ليس فقط في المخادع ليتجدد الهواء ، بل في النفوس والعقول كذلك لتتجدد المدركات وتتجدد الهمم .

إذا شئت أنْ تجعل الغرفة صالحة فجدد فيها الهواء .

وإذا شئت أنْ تجعل الأرض صالحة فحرك فيها طبقات التراب المتراكم الجامد .

وإذا شئت أنْ تصلح إدراكك فلا تبيت عمرك على طريقة واحدة ووتيرة واحدة ونقطة واحدة .

وإذا شئت أنْ تعرف وطنك وأن تقدره لتغنيه بعملك ومجهودك فتعرّف الأوطان الأخرى وقدّر عندها ما يستحق التقدير واستوح منها الصالح من المذاهب والأساليب .

ميّ

---

* الأهرام ، س٥٦ ، ع١٦٤٤٢ ، ١٥ سبتمبر ١٩٣٠ . ص١

١- Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) . سياسي وفيلسوف وكاتب مقالة انجليزي . ولد في لندن ودرس في جامعة كيمبريدج ثم تابع دراسته . دخل البرلمان عضوا عام ١٥٨٤ . تفرغ في أخريات حياته للكتابة الأدبية .

٢- H.G.Wells (١٨٦٦-١٩٤٦) . روائي انجليزي . عرف بكتابة الرواية العلمية الخيالية . كان صديقاً حميماً للمسرحي الانجليزي جورج برنارد شو إذ انضما إلى الجمعية الفابية عام ١٩٠٣ .

على ذكرى الشيخ سلامة حجازي
بعد مرور ١٣ عاماً على وفاته

في أية حال من حالات العسر أو اليسر ، النقمة أو النعمة ، فإنك ما طرق سمعك الصوت الجميل شادياً إلاّ انقلبت حركة جوارحك إلى تطلع وإصغاء . فيصرفك الصوت عما كنت فيه . أو هو ينتقل بك من إحساسك السطحي إلى هوة من الشعور قد تكون سبرت غورها من قبل ، وقد تكون جاهلاً لما تكنه من الأبعاد الشاسعة والأعماق الرهيبة .

ولئن كان الشيخ سلامة حجازي[1] مثالاً محموداً في الذكاء وصدق العزيمة والنشاط والمثابرة ، رغم نوائب الزمان ، فإنه كان خصوصاً صوتاً جميلاً رائعاً فتاناً .

كان يكفي أن تراه مرة واحدة على المسرح لتعلم أنّ مزاجه مزاج الفنان في جميع خواصه ونزعاته . على أن التمثيل لم يكن عنده إلاّ أداة لإخراج صوته ووسيلة تمكن ذلك الصوت من السيطرة على أفئدة السامعين . وهذا لا يغض من فضله في جهاده لتوطيد أسس التمثيل في مصر والعمل على تحسين هذا الفن وترقيته وترويجه لدى الجمهور .

ولكن القاصدين إلى تياترو الشيخ سلامة كانوا يذهبون ليسمعوا ذلك الصوت . والذاكرون لاسم هذه الرواية أو تلك لم يكن يهمهم منها سوى أنها تحوي هذه القطعة أو ذلك القصيد الذي ينشده الشيخ سلامة خلال تمثيلها . صوته كان الأصل والغاية والمطلب أما الرواية وموضوعها وكيفية تمثيلها فإضافات لا فرق لدى الجمهور أكانت هي بالذات أم استبدلت بسواها ، أم لم يكن منها شيء أصلاً . الصوت هو الغاية . وما دام الصوت موجودا فالغنيمة الفنية مضمونة .

كلمة « الفنية » كتبتها بشيء من التريث . إنَّ « فن » الشيخ سلامة يقع تحت طائلة النقد والتمحيص أما صوته فلا ! ومتى كنت يا ترى تستطيع تحليل تغريد البلبل ونقد تطريبه؟ وإنشاد الشيخ سلامة كان في حكم تغريد البلبل . فسليقته سليقة فنية وأداة صوته الشجي أداة موهوبة وهو يرضيه أن يشدو ويناغي وينوح ويصدح . ومن النشوة التي يستمدها هو من الاستماع إلى صوته يستخرج قواعده الفنيه الخاصة وليس من يلومه على ذلك في حين قواعد الموسيقى العربية مضطربة غير جلية وإنَّ ما يحاولونه اليوم في تقرير تلك القواعد وتعريفها وتجديدها وضبطها لم يخرج بعد إلى حيز الصراحة النهائية والإرضاء الفني .

موهبته موهبة فطرية وإنها لموهبة عجيبة حقا .

عجيب ذلك النغم العميق الناعم الحلو الذي يخرج من حنجرته في هدوء ورفق ليمضي في التوسع والتعمق والعلو واستجماع القوة والاسترسال حتى يصبح لحناً مشبعاً تتماسك شوارده ، ومساجلة فخمة تتساند مقاطعها ، وصعوداً وانحداراً في تضاعف وتكرار وتشعب وتجمع يحملك على الإقرار بأن الصوت الجميل ساحر ماهر وسلطان قاهر .

***

لكل من الأصوات جاذبية خاصة . لكن هل بين أصوات المنشدين الشرقيين صوت أفخم جزالة ، وأروع دلالة ، وأفعم ثروة ، وأعمق عاطفة من صوت الشيخ سلامة؟

هل من صوت أتم حلاوة من ذلك الصوت وأوعب رهبة في آن واحد؟

كم كان فيه من وحي الجمال ! وما الجمال إلاّ روح الكون . وما وظيفة الفنان (وإن هو جهلها) إلاّ الإعراب عن الاتصال بتلك الروح الشاملة في مظهر فرد ووسيلة خاصة . ولذلك كلما اقتربنا من الجمال رأيناه يفر ويختفي فهو أعلى من أن ينزل إلى فرد وأشمل من أن ينحصر في إنسان . وإنما غرضه أن يعلن وجوده فيوسع عندنا معنى الحياة .

وكان يشدو صوت الشيخ سلامة ظفر الحب - ذلك الحب الذي أقوى من الموت وأقدر من القدر ، وأعتد من الزمن العتيد وكانت تصخب فيه كذلك شتى

الانفعالات والعبادات والآمال والأشواق .

أما تلك البحة - فقد كانت عنده طبيعية وكان فيها انفصال أحلى من الاتصال ، واندحار لا يعادله انتصار ، وكانت شهيقاً وزفرة وأنيناً معاً .

إنها كانت أشجى نهفاته وألطف نغماته بما كانت تثير من الكآبة . وأجمل الجمال هو ذاك الذي يثير الحزن ويحرك الكآبة . لأن الكآبة مقيمة في أعماق الحياة كما ترسب الحثالة في أعماق الكأس .

وكانت تلك البحة من الشيخ سلامة أوقع ما تكون لمجيئها خلال فيض غني سني من الألحان المتسابقة . تستجمع النفس على معنى الشجن دون الطرب وتستعيد في لحظة وراثة الإنسانية بأسرها من جهاد وكفاح وخيبة مريرة وشوق يائس وأمل ذاو وانتظار انتهى إلى القنوط أو أفضى إلى ظفر لا بهجة فيه .

ولكن الصوت الذي كان ينهض من تلك « البهجة » ليمضي في الإنشاد ، فساعةً يعاتب القدر على ظلمه ومرة يباهي الزمن بأن هذه الحنجرة الصغيرة الواهية لديها شيئ أفضل وأنفس من قدرة القدر ومواهب الزمن : ألا وهي موهبة الجمال وقوة الاتصال بروح الجمال الكبرى في الوجود لتخرجها إلى الناس صيغة جمال مفردة مطبوعة بطابعها الخاص .

***

أظن أن لو شاء أحد« الاختصاصين » أن يكتب مقالاً بين ما كان عليه التمثيل والغناء قبل ١٣ عاما وبين ما هما عليه اليوم لوجد مجال القول واسعاً . والمرجح أن التمثيل قد خطا في هذه الأعوام خطوة بينة حاسمة . أما الغناء فلا يفصله فاصل صريح بين عهد الشيخ سلامه وعهدنا ، وإن كنا نحمد للمغنيين والملحنين جهودهم في ترقية الفن الغنائي وتجديده ، بيد أن المنتظر منهم كثير في هذا الباب .

ولتثق اللجنة التحضيرية لتلخيد ذكرى الشيخ سلامه حجازي أن بطلها «خالد» بتلك الأنغام التي تسجلها لنا الأسطونات الغنائية ، إذ ليسوا قليلين أولئك الذين يستعيدون من تلك الأسطونات صوت الشيخ سلامة مستمدين منها وحي

الجمال ومعنى الحزن الذي كان في إنشاده مطوياً منشوراً .

أما تخليده التخليد المحسوس على ما ارتأت اللجنه المحترمه ففكرة تنبىء بنشاط موجديها وتحدث عن همتهم وعن حبهم للفن ووفائهم لابن وطنهم .

ولا يحزنهم أن الأصداء التي ترتد إليهم في هذا الموضوع لا تساوي وما في دعايتهم قوة وحرارة . . . فالأمور مرهونة بأوقاتها بعضها يجب أن ينفذ في الحال وغيرها يجب أن يشيع وينضج قبل أن يتحقق .

على أن الفكرة نافذة ما داموا هم الدعاه إليها بهذا النشاط وهذا الثبات الذي رأيناه منهم خلال الشهور الأخيرة .

ميّ

---

* الأهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٤٦٣ - ٦ أكتوبر ١٩٣٠ . ص ١

١- سلامة حجازي (١٨٥٢ - ١٩١٧) . موسيقي ومطرب وممثل مصري . ولد لعائلة رقيقة الحال في الاسكندرية . تلقى علومه الأولية في أحد المكاتب حيث حفظ أكثر القرآن . اتصل في صباه بالمنشدين وحلقات الذكر ورجال الطرق الصوفية فذاع صيته قارئاً للقرآن ومنشداً للتواشيح الصوفية ومؤذناً . عمل مطرباً وممثلاً في بعض الفرق المسرحية الشامية في مصر إلى أن أسس فرقته الخاصة (١٩٠٥ - ١٩١٤) .

حديث عن ربطة العنق

الاقتصاد والربح من ناحية الزخارف

وبعض ما تستطيعه المرأة المصرية في الظروف المعاصرة

يحلو للرجال أن يجعلوا المرأة وعنايتها بالتبرج وشغفها بالأزياء موضوعاً لنقدهم وتهكمهم ، ويعجبهم أنْ يجعلوها مسؤولة عن كل ما يحل بجيب الرجل من فراغ وكل ما يصيب الميزانية البيتية من خلل . ولئن صدق القسم الأخير من هذه الدعوى في طائفة من النساء كما تصدق في طائفة من الرجال سواء بسواء ، فليس هنا مجال الاتهام والتحقيق والحكم . وإنما يصح القول من قبيل إقرار الواقع والعلم بالشيء لا من قبيل الانتقام - إنهم حضراتهم ليسوا دون النساء اهتماماً بزينتهم وهندامهم وأنَّ التربية الاجتماعية وواجبات اللياقة تفرض عليهم ذلك . كما أنَّ المرأة لا يرضيها منهم إلاّ أنْ يكونوا على هندام لائق وكياسة فطنية تبدو في تستر ورزانة . ومن الأدلة على اهتمام الرجال بهندامهم وكياستهم أنهم جميعا شرقيين وغير شرقيين يشكون مر الشكوى من الردنجوت وبذلة السهرة وما إليهما من الكسوات الرسمية وغير الرسمية التي ترهق لابسها ، لا سيما في أيام الصيف وبخاصة في مصر . وهم في ذلك يحرصون على ألا يظهروا في المجتمعات إلاّ بالمطلوب منها كل في حينه مهما كلفهم ذلك من المشقة والعناء . أما القميص المنشَّى الجامد والطوق المكوي الصلب فقد أصبحا لفرط شكوى الرجال منهما في شتى لغات العالم - أصبحا صورة جديدة لطوق الحديد الذي كان من أشنع آلات التعذيب في القرون الخالية .

ولقد تطورت معاملة المجرمين منذ هاتيك الأزمان وبات هذا الطوق الفظيع «اثرا بعد عين » كما يقول محبو الاستعارات . أما طوق السادة الرجال الأبيض

الناصع المتجمد فإنهم هم يضعونه بيدهم في عنقهم متأففين أو غير متأففين ولكنهم يضعونه ويستبقونه على كل حال! وحسنا يفعلون! ولقد اخترعوا تلك القطعة الحريرية الصغيرة الناعمة، المنقوشة المضلعة المشجرة المنقوطة المعربشة الملونة بألوان قوس قزح والتي قد نلمح فيها كذلك ألوان ما وراء الأشعة البنفسجية وسائر الأشعة التي لم تكتشف بعد، فكسوا بها دائرة «الياقة» وجعلوها تتدلى إلى الأمام «على طول الخط» أو هم ربوطوها «فيونكه» فى أعلى الصدر فبهتت أمامها «فراشات» الطبيعة وتضاءل عندها كل ما ابتكرته النساء من « الفيونكات» !

والغاية من ذلك هي التجمل وإخفاء موضع الأزرار والثنية من القميص إذا كانت الربطة الطويلة، والغاية من الطول والقصر فيها جميعا التلطيف من معاني العنت والاستياء والألم المحيقة« بلابسي الياقات المكوية » وفي هذا ذكاء وشجاعة تليق بالسادة الرجال أرباب الذكاء والشجاعة! إذ لا يخفى أنَّ الذكي الشجاع يستر علامات السخط والاستياء بإشارات الارتياح ويتغلب على النكد والألم بابتسامة العذوبة وعدم الاكتراث!

***

أما وجميع المصريين« الافرنكا » يستعملون ربطة العنق أو«البمباغ» فعلام لم تفكر النساء المصريات إلى الآن في استغلال هذه الوسيلة التجارية القريبة المال؟؟ كذلك تستطيع استغلالها شركة مصر للنسيج التابعة لبنك مصر وسائر التجار الوطنيين المتاجرين بالأنسجة المصرية العاملين على ترويجها .

وصناعة البمباغات تعد صناعة لطيفة نظيفة لا يستغني عنها أحد . إذا ما باشرتها فتاة فسرعان ما تمهر فيها، وهي طريقة حسنة لتثقيف الذوق وحسن الاختيار وإحكام الألوان وتناسبها مع بشرة الوجوه وطراز الهيئات . فإن البمباغ الذي يصلح للرجل الأشقر مثلا ذي العينين الزرقاوين ليس هو الذي يصلح للأسمر ذي العينين القاتمتين . والبمباغ الذي يلبسه من كان عاري الرأس في الاجتماعات ليس هو المرغوب فيه للابس الطربوش . وأظن أنه يجمل بلابسي الطربوش أنْ تظهر في ربطة عنقهم خيالات من اللون الأحمر ولو في خطوط

دقيقة ونقط واهية ، ورسوم وأشكال طافية «كتومة» . كل هذا ستسرع إلى الاهتداء إليه عاملات الكرفتات وخبراء الألوان وعمال النسيج لو هم أرادوا الاهتمام بهذه الوسيلة الصناعية الفنية الاقتصادية .

***

كم هو عدد لابسي البمباغات من المصريين؟

أعترف بعجزي عن هذا الإحصاء ولست أدري هل هناك من يستطيع أنْ يأتينا به دقيقاً جلياً؟ ولكن هب أنهم مليون لا غير ! وهب أنَّ كل واحد من المليون يستهلك في العام الواحد أربع ربطات (وهذا تقدير جد ضئيل !) ، وأن الربطة الواحدة ثمنها من الستة غروش إلى العشرين غرشا وفقا لقماشها الحريري أو غير الحريري وما يلي ذلك من الاعتبارات الفنية - أفيتفضل رجال الإحصاء في هذه الحال بإطلاعنا على مبلغ ما تجنيه مصر من الأرباح من صناعة «الكرافتات» وحدها؟ حتى ولو كان القماش المستعمل أجنبياً يكون الربح وفيراً . ولكن يجب أنْ يكون القماش وطنيا ليكون الربح تاماً والصناعة مكتملة .

هذه ناحية ضئيلة إذا ما قيست بغيرها من نواحي التجارة والكسب الزكي المشروع . وهي مع ضآلتها تمكن مئات العمال من العمل في إخراج النسيج ، وتمكن عشرات من الخبراء من وسيلة الابتكار في الألوان والنقوش ، وتمكن ألافاً من الفتيات من العمل في صناعة جميلة نظيفة ، وفيها تنشيط لصناعة مصرية تتعاون على تهيئتها وترويجها الحياكة والصباغة والخياطة والذوق والتجارة ، ويتسنى فيها تصريف كمية من القطن اللامع الناعم الجميل . قد تكون بعضهن معالجات هذه الصناعة ولكنها خفية غير رائجة الرواج الذي يضمن لها الربح المنظم .

***

وليس للفقيرات وحدهن أنْ يعالجنها فقد سمعت من ابنة وزير مصري سابق أنها تقوم بعمل«البمباغات» لرجال أسرتها جميعا ، إلاّ أنها لا تجاهر بهذا العمل لأنها أفضت به مرة إلى بعض صويحباتها فتبادلن فيما بينهن تلك النظرة الفاترة وتلك الابتسامة المشبعة بمعنى السخرية والاستهزاء . وصرن كلما التقين بها

فيما بعد يسألنها عن «فنها» وهل هي تقدمت فيه منذ ذلك الحين . فأجبتها بأنه إنْ كان هناك من يستحق السخرية والاستهزاء في هذا المعنى فهو هؤلاء الضاحكات في غباوة . وإن السخرية الغبية مصدرها معلوم عادة وهو مصدر لا يشرف . وإن أوجب واجبات المرأة تتم ضمن حدود بيتها أولاً وإن استطاعت بعدئذ أنْ تعمل في الخارج ولنفع الآخرين فذاك ، وإلا فلو هي كانت «بطلة» في الخارج وفي سبيل الغير وكانت مهملة جانباً من «مملكتها الصغيرة» فإنَّ حياتها رغم ذلك غير منظمة وغير موطدة ، شأن من يتعلم الفلسفة قبل أنْ يحسن التهجئة والقراءة

وعملها في بيتها ولأسرتها لا يحول دون استكمال دراستها وتهذيبها ورقيها ، بل بالعكس . فليست تخجل الأميرة الايطالية الحسناء التي ستصبح غدا ملكة على بلغاريا ، من أنْ يكون تدبير المنزل فنها الأكبر . وليست هي الفاقة التي ساقت ولية عهد هولندا الأميرة جونيانا إلى أنْ تفوز بشهادة تدبير المنزل كما فازت بالدكتوراة في الحقوق والفلسفة . وإنما الخجل يحق للمرأة والفتاة التي -بصرف النظر عن كل ما لديها من المواهب والامتيازات والثروات- تجهل كيفية تنظيم المنزل والسهر على راحته والتخفيف من نفقاته أنْ لم يكن من باب الحاجة اللاحة والافتقار إلى الخدم فهو من باب اللهو الذكي والتدبير الرشيد . وجماع القول إنَّ صناعة الكرفتات اللطيفة الحريرية الرشيقة الناعمة أليق ما تكون بأيدي النساء غنيات كنَّ أم فقيرات وهي وسيلة للربح المضمون والاقتصاد الحكيم في هذه الأحوال العصيبة .

«مي»

●حاشية:

نشرت مجلة «كل شيء» في عددها الصادر أمس حديثاً أثبتت فيه مرة أخرى أنَّ الصحافيين «خطرون جدا» وأن محرري هذه المجلة على براعة في اقتناص الموضوعات ولو من أحاديث ومساجلات لم يقصد بها النشر .

فقد روى محرر هذه المجلة أني اقترحت تشكيل حكومات من الجنس اللطيف لعلاج الأزمة العالمية لأن حكومات الرجال لم تفلح إلي الآن في نشر السلام والتفاهم بين الشعوب وإلغاء الحرب وأضاف أني أريد من تلك الحكومات النسوية «الجميع الأمم ما عدا مصر وما يدخل في عدادها التي لاتحتاج في حالتها الراهنة إلى مثل هذه الانقلابات»

ونسي الصحفي اللبق أنَّ الحديث كان عن الدول الكبرى التي تشهر الحروب طمعاً في الاستعمار أو طمعاً في التوسع الاستعماري . وأنا اقتراحي لتشكيل حكومات نسوية جاء في قالب فكاهي رغم ما في الموضوع نفسه من الأفكار الجدية العابسة . ولم يجيء ذكر مصر وغيرها من أقطار الشرق الأدنى إلا عرضا لأني لو لم أكن أريد للمرأة سوى «العلوم والصناعات التي تدخل فيها الخياطة والكرفتات والصناعات الزراعية كتجفيف الأثمار وعمل المربات» ، لو لم أكن أريد إلا ذلك دون غيره- وإن لم يدخل فيما أريد لها تشكيل حكومة ، لكان كل ماظهر لي من الكتابات والخطب والمحاضرات في هذه الأعوام ، من صنع غيري ، ولصدق في ما يتهمنا به السادة الرجال ، من أنْ ليس للمرأة في المقال الذي تنشره دون أنْ تفقه معناه أحيانا ، سوى التوقيع !!!

ولكن أليس هذا مظهرا من براعة الصحافي ليستدرجني إلى الرد والايضاح؟

مَيّ

---

* الأهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٤٧٦ ، ١٩ أكتوبر ١٩٣٠ . ص١

أخرجوا الأطفال إلى الهواء الطلق!
ليدرسوا خصائص الخليقة في الطبيعة
وليس في الكتب بين الجدران

أياً كان الاضطراب الذي يلج اليوم في النفوس سواء أفي مصر أم في سائر الأقطار ، فإنه منطقي طبيعي في مرحلة الانتقال المرتبك الحاد التي يجتازها العالم ، وكون هذا الاضطراب قد بلغ الآن شأوه في مصر دليلاً على نشاط الحياة في هذا البلد الذي لم يخلق إلاّ ليعالج الحياة ويستحثها ويحياها . وما أكثر ما نسمع عن مشروعات وأغراض ومقاصد تعد العدد لتأييدها ، وتبث الدعايات لترويجها وينفق في سبيلها المال والجهود فثبت سلفاً أنها فاشلة بعد حين لأن الحاجة اللاحة لا تطلبها أو تتطلب سواها مما قد يكون مناقضا لها .

ولكن أياً كانت نزوات الخطأ في تلمس الصواب فإنها لا شك زائلة . وإذا كان هناك ما يدعو إلى الأسف فهو ما يبذل لأجلها مما قد يمكن بذله فيما هو أجل منها وأبقى . وليس أجل وأنفع وأبقى مما ينفق في سبيل التعليم المتوافق والحاجة الواقعة وفي سبيل المشروعات التي تلقي عن الأجيال الجديدة سلاسل التقاليد القديمة وأغلال الأساليب العافية .

وليس أجل وأنفع وأبقى من «الإفراج» عن الأطفال الذين سجنوا إلى اليوم بين الجدران يتعرفون الحياة في رموز الكتب العبوسة بدلاً من التعرف إليها في حدائقها ورياضها ، وفي مخالطة خصائصها مخالطة الكائن الحي للكائن الحي .

إنّ جميع الأطفال ، حتى المرضى منهم ، يحبون الأزهار والخضرة والفضاء والشمس والطيور والأشجار . الطفل بسليقته لا يحب الأمكنة المقفلة ذات

المساحة الضيقة حيث الجدران الكئيبة تحد الفضاء وتغض من بهجة الحياة الكونية .

والدراسة في الهواء الطلق ذات جاذبية لا تحوي شيئاً منها الدراسة في المدرسة التي هي صورة من السجن . ولئن مضى الطفل في بادىء الأمر يعربد بين الأشجار ويقطف الأزهار فهو لا يلبث تحت رقابة معلمه وبفعل إرشاده ، أنْ ينقلب صديقاً لها ومدافعاً عنها بفضل العطف السري الذي يتوطد مع الوقت بين نفس الطفل وبين كل بقعة من بقاع الكون .

إنَّ فوائد التعليم في الهواء الطلق تتناول الجسد والعقل والأخلاق معا . وأول عاطفة يشعر بها الطفل في الطبيعة هي عاطفة الفرح الغنية الخصبة التي توسع كيانه وتحمله على تنشق الهواء النقي تنشقاً عميقاً . ثم تنبه فيه حاسة الجمال . وكثيراً ما يكون الطفل أشد من الراشد شعورا بهذا الجمال لأنه أقرب إلى الطبيعة ، وترهف فيه حواس النظر والشم والسمع والذوق وقوى الملاحظة والمقابلة والتمييز في صفاء وفطنة مصقولة حقة تنيلها الطبيعة إلى الذين يحبونها ويرغبون في تفهمها والتعاون معها . جميع الأطفال يتأثرون بالألوان كما يتأثرون بالصور والأشكال . أما الذوق والشم فهما دليلان مرشدان إلى عوامل قد تكون في نفس الوقت مغرية وخطرة . وهم كذلك شديدو التأثر بأصوات الطبيعة . يحبون تغريد الأطيار ونشيد الريح بين الغصون وجري الماء على الأعشاب . وقد تصل بهم دقة السمع إلى التمييز بين أنواع الأشجار دون أن يرونها وبمجرد الإصغاء إلى الهواء وهو يلاعب غصونها .

أما من الوجهة الأخلاقية فقد شهد كثير من المدرسين الذين يعتد بأقوالهم أنَّ أخلاق الطفل تتحسن وتطهر في حضن الطبيعة . ومن الأطفال من كانوا يزعجون معلميهم ويشوشون النظام في مدارسهم بطيشهم وصخبهم وحدتهم ، فلم يكن لتلك النفوس الصغيرة الجامحة من دواء أنجح من الدراسة في الهواء الطلق . وانقلب طيشهم وحدّتهم في وقت وجيز إلى هدوء ورشد يتوافق وسنهم ، وانتظم نشاطهم فصاروا أقرب إلى الترتيب والذوق وتوقيت الأمور

وحسن التصرف .

ويضرب المثل عادة بقساوة الطفل الذي يعذب الطير ويؤلم الحيوان ويدوس الأزهار بقدميه . ولكن ظهر أن ذلك ناجم عن التربية في المدارس الضيقة المقفلة . وظهر أن الطفل رؤوف بطبيعته . وسرعان ما تبدو رأفته تنمو وتفصح عن نفسها في الهواء الطلق فيؤاسي الحيوان الجريح ويشفق على الفراشة المائتة ويعطف على الزهرة الذابلة ويجور على الحيوان الظالم المعتدي ليدفع عن الضعيف ويمده بمعونته . فضائل جُلّى مهما قيل في مميزات القوة والقسوة في هذه الأيام العصيبة ، فإنَّ تلك الفضائل هي وحدها التي تليق بأبناء الحضارة الحقة والرقي غير المزيف .

كثيرون من الناس عند سماع اسم «الحياة» يحسبونها «خيالاً» لأنهم يجهلون منها الاندفاع في اتساق ولم يحسوا وجودها حرا في كيانهم . والطفل يبث الحياة في كل شيء حتى ولو كان منفردا حيث أحكمت عليه الأقفال . أما إذا اتصل بالطبيعة فإنَّ كل كائن وكل شكل وكل لون يستثير نشاطه وابتهاجه وحماسته . ويصبح «صالحاً» لأن الأطباء يقولون إنَّ كثيراً ما تنجم الميول «الشريرة» عن سوء التنفس وعن الكمية القليلة من الأوكسجين النافذة إلى الرئتين ، لأن كثيراً من «الصلاح » يبدو في أرجاء الطبيعة . كما أن الطبيعة كذلك مسرح للتنافس على السلطان وتنازع البقاء ، فيلحظ الطفل هذه المظاهر وتلك ويدرك أن الحياة تستلزم النضال وأن هناك تطورا لا يتم إلاّ عن طريق الكفاح والجهاد ، وينتبه إلى واجبه ومكانته ووظيفته في الخليقة ، وإن هو أدرك كل ذلك بشكل مبهم ، غير أنه مع الوقت ينمو إدراكه وينتظم وينجلي فما يشب إلاّ وقد تبين مكانه من الكون والإنسانية يوجه عام ومن وطنه وقومه بوجه خاص فيكون أقرب إلى تعرف الطريق التي له أن يسلكها في الحياة وبراعة التصرف إبان سلوكها .

وإذا كان الطفل ذا مواهب علمية أو أدبية أو فنية أو هندسية فإن التعليم في الهواء الطلق ييسر ظهورها في وقت قريب ، وييسر ذلك الظهور وسط عواطف الابتهاج الذي عرفه اسبيوثا بأنه «واسطة انتقال الإنسان إلى حالة أكمل» .

وإذا كان الابتهاج شديد العدوى ، كما يقال ، فلا يلبث الأطفال أن يبثوا عدوى الابتهاج في نفس معلمهم ومهذبهم فيحسنون إليه بقدر ما يكون إليهم محسنا . والابتهاج المكون من التوازن ومن التفاؤل والثقة هو من أقوى بواعث الإقدام وحب العمل ، كما أنه عديد الوجوه ، شتيت النواحي منوع كالحياة . إنه يتطلب النور حولنا وفينا والمعلم الذي يرغب في الإفادة السريعة عليه أنْ يعطي دروسا ومعلومات مفعمة وضوحاً وجلاء . وخير ميدان ابتهاج للصغار هو حضن الطبيعة الحافل بالأزهار والأطيار وبهجة لحدائق .

والتربية في الهواء الطلق تهيىء أيضاً التهذيب الخلقي والاجتماعي . إنَّ الطفل الذي ألف جمال الرياض والسهول لن يكون مسكنه فيما بعد إلاّ جميلاً صحياً نظيفاً مرتباً ، كائناً ما كان فقره وتواضعه . وأنفاس الهواء المثقل بشذا الأزهار والأنبتة العطرية تثير كراهته لرائحة الخمور التي تهدم الصحة وتفرغ الجيب وتذهب بهيبة الإنسان وكرامته . وجلال مناظر الطبيعة ونبلها تنفره من كل منظر دميم غير نبيل في حياته الخاصة وحياة جماعته . والتربية في حضن الطبيعة هي بعد خير وسيلة لجعل الطفل متعلقا بأرضه ، متعرفا خيراتها وحسناتها ، شغوفا باستغلالها والانتفاع بجودها الذي لا يشح ولا ينضب .

نكتب هذا بمناسبة المشروع الذي تبحثه وزارة المعارف لإدخال نظام التعليم في الهواء الطلق في مصر لصغار الأطفال . وإننا نهنىء الوزارة على مشروعها الذي أذاعته صحف الأمس . ونتمنى أنْ تمضي اللجنة في درس هذا النظام وتنظيمه وإقراره دون أنْ تتبع في عملها العادة المألوفة من دون أنْ تشكل هي لجنة أخرى ، فتشكل هذه غيرها حتى تصبح الحكاية تشكيل لجان في تشكيل لجان وما ينفذ النظام «بعد العمر الطويل» إلاّ وقد صدق فيه هذا المثل العالي الحي : «كثر الطباخون فشاط الطعام !» .

تربية الأطفال في الهواء الطلق ليست مستحسنة وكفى بل هي واجبة .

فإذا شئتم أن يكون الطفل صحيحاً معافى فربّوه في الهواء الطلق !

إذا شئتم أنْ يكون الطفل عملياً في حياته فطناً حسن التصرف فربّوه في الهواء

الطلق !

إذا شئتم أنْ ترهفوا قوى الطفل وتستثيروا نشاطه وتتبينوا ملكاته وتحسنوا أخلاقه وتربّوا فيه ملكة الذوق والجمال والتوازن والحرية المنظمة والشجاعة وإحكام الأنور فعلموه في الهواء الطلق !

وإذا شئتم أنْ يحب الطفل المصري أرضه وأرض آبائه وأجداده فربّوه على صفحة الحقول المصرية !

ميّ

الأهرام . س٥٦ ،ع١٦٥١٠ ، ٢٢نوفمبر ١٩٢٠ . ص١

جائزة نوبل للسلم
تهدى إلى المستر كيلوج

نقلت برقيات الأمس أنَّ جائزة نوبل للسلم عن سنة ١٩٢٩ ، أهديت إلى المستر فونك كيلوج[١] الأمريكي . وأن الجائزة نفسها عن ١٩٣٠ أهديت إلى موسيور ناثان زودربلوم[٢] الأسوجي ، أسقف أوبسالا .

تقضي اللياقات العصرية بمعرفة كل شخصية كبيرة يرد ذكرها في الأنباء . ومن عسف تلك «اللياقات» الإصلاحية أن «يتظاهر» المرء بالمعرفة وإنْ كان غارقاً في الجهل إلى أدق شعرة من شعر رأسه كما هو الواقع لي ولغيري في شأن هذا الحبر الجليل . لأنك مثلي أيها القاريء ، إنْ أنت عرفت عرضا عن طريق كتب الجغرافيا أنَّ اوبسالا مدينة أسوجية كانت في الماضي إحدى عواصم اسكندنافيا القديمة وأنها كرسي الأسقفية العليا في مملكة أسوج ، فأنت مثلي كذلك لا تخجل من جهلك لجهود ذلك الرجل الصالح . في سبيل الإخاء الإنساني تنضم إلي في الشكر للجنة نوبل لأنها كافأت الفضل وعرفته إلينا في آن واحد !

أما المستر فرنك كيلوج وكيل وزارة الخارجية الأمريكية سابقا ، والقاضي في محكمة العدل الدولية العليا بمدينة لاهاي حالاً ، فهو من الأسماء التي ذاع صيتها بواسطة الميثاق المعروف «بميثاق كيلوج» الذي يقضي بأن الدول الموقعة على ذلك الميثاق تستنكف الالتجاء إلى الحرب لحسم ما يعرض فيما بينهما من الخلافات وتتعهد بأن تعمد في فض مشاكلها وخصوماتها ودعاويها

إلى وساطات المفاوضة والتحكيم .

لست أدري هل كان «ميثاق كيلوج» لينفذ فعلاً في الأعوام السالفة لولا أنّ بعض الدول الموقعة عليه لم يكن من مصلحتها أنْ تركن إلى السلم ولو مؤقتا ولولا أنّ بعض الدول الأخرى لم تكن على استعداد تام لخوض المعارك الكبيرة .

بيد أنّ «للمسكنات» فعلها في السياسة الدولية كما في الحياة الفردية ، والناصح بها يستحق فعلا التقدير والتكريم رغم أنّ تلك «المسكنات» توسع في الوقت لاستكمال المعدات وتزيد الدول حذقا في التأهب والاستنباط .

أظن أنّ نابليون الأول هو الذي قال «إن تربية الطفل يجب أنْ تبدأ قبل ولادته بعشرين عاما على الأقل» أي بتربية والدته منذ نعومة أظفارها . وعلى هذا القياس يصح القول إنّ الحروب تبدأ قبل يوم إشهارها بأعوام عديدة .

تبدأ باستياء الغاضبين وبطموح الراضين . تبدأ بامتداد أنظار الدول إلى هذه البقعة أو تلك وبمناورات الدبلوماتيكا والسياسة المتنوعة بغية التسرب والتدخل و «خلق المصلحة» و «وضع القدم» . تبدأ باستعداداتها العلنية والخفية حربية وغير حربية ولا سيما بتغذية الشعوب بروح الغطرسة القومية والمجد العسكري والمطمع في العظمة الواسعة والسلطان المترامي ، وبالكراهية لكل دولة أخرى والحفيظة المتضخمة نحو كل من يقف في طريقها .

وهذه الانفعالات تجد لها الآن في كل من أنحاء العالم ميداناً ، وأصداؤها تعج وتتلاطم في الكتب والمجلات والصحف والبرقيات وفي السينما والراديو أيضاً . ولكل من تلك الانفعالات غرض ولكل من هاتيك الأصداء دعاية . ولئن سمعنا أصواتا عديدة تنكر الحرب وتدعو إلى السلام فالمحرر الذي تدور اليوم الدول حوله هو واحد ، وهو امتشاق الحسام .

امتشاق الحسام !

كم تبدو هذه الكلمة عتيقة رثة واهية إزاء كل ما ابتكر من أدوات الهلاك والقتل والتدمير ! وما السيف إلاّ رمز فقط لفوهات المدافع والقذائف والغازات المهلكة

ولسائر ما تهيئه الكيمياء والكهرباء والميكانيكا والهندسة من أسباب الردى . أما الطيارات والمناطيد ، تلك الأعاجيب الإنسانية الفتانة ، فسيكون من وظائفها مهاجمة الخصوم والأعداء ومن هم في حكم هؤلاء ، ليس فقط في مناطق الحرب والقتال بل في المناطق المدنية البعيدة الهادئة .

الواقع أنَّ بينا السفراء والوفود والممثلين السياسيين ينتقلون من مدينة إلى مدينة لعقد المؤتمرات والمناقشة حول الموائد الخضراء المستديرة والمربعة والمستطيلة- فإن معامل الغرب تظل عاكفة على إخراج معدات الحرب وذخائرها مما هو معلوم ومما قد يكون مجهولا تكتم سره كل دولة من ناحيتها كيلا تمكن منافساتها من اختراع ما يشبهه ويبزّه أو يقاومه .

غير أنَّ الأخبار تتسرب أحيانا فنسمع مرة عن «الشعاع الجهنمي» الذي اخترعته إحدى الدول وهو يفني كل نسمة حية إنسانية أو حيوانية أو نباتية على مدى عدة كليومترات . وتارة عن «الفيض الكهربائي» الذي يقتل على بعد مسافات شاسعة ويشل في الأرض مقدرة النضج والإنتاج . وطورا عن الألغام الكهربائية التي ما يطلق فيها المجرى تحت الأرض حتى تتكهرب فوقها كتائب المحاربين .وحيناً عن صنوف السابحات تحت الماء وفوق الماء مما يمنطق البحار بنطاق من الحديد والنار . ولو كنت شاعرا على الطراز القديم لقلت إنَّ اليم معصم والنار حوله سوار !

وهذه المعدات يتطوع للعمل بها ويسخر في سبيلها العلماء والمهندسون والميكانيكيون والكيمائيون والعمال على السواء . والعلم الذي به نال الإنسان مكانته فوق سائر الخلائق ومكنه من التغلب على طائفة من قوى الطبيعة الجبارة ها هو ذا يصبح في يد الإنسان أداة يسلطها على نفسه !

***

يروى عن امبراطور ألمانيا السابق قوله قبيل الحرب الأخيرة «ويل للمغلوب» ! ولكن الأصح أنْ يقال ويل للمغلوب وللغالب جميعا ، لأن نتائج الحرب ويلة على جميع المتقاتلين وعلى الذين لم يشتركوا في القتال ولم يريدوا أنْ يشتركوا

أيضاً . وليس من أقل تلك النتائج اختلال التوازن السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي نراه الآن مثيرا للزعازع والعواصف في جميع البلدان وهو بلا شك من نتائج الحرب الأخيرة والحروب التي سبقتها . وليس من أقل تلك النتائج الاختلال الأخلاقي بين الأفراد كذلك . فعندما تعتاد الملايين القتل والفتك والتدمير وتأتي بالفظائع شرعاً وقانوناً ويؤيدها في ذلك قومها أجمعون على مدى الأعوام ، فهل من قوة الأرض تقوى بعد على كبح تلك الغرائز القديمة في انطلاقها وجموحها؟ وهل يمكن ألاّ يبتكر بعدئذ كل لنفسه نظاما خاصا تحسب فيه المخاتلة والغدر والوقاحة والاحتيال والمكابرة مظاهر من الحذق والذكاء؟

عبثاً يبرر أنصار الحرب نظرياتهم بدعوى نشر الحضارة والثقافة وتسليك المشاكل الاقتصادية وإيجاد ميدان عمل للعاطلين وبخاصة أنَّ الحرب في طبيعة الإنسان كما هي في طبيعة الخليقة وإنها تشحذ قوى الحذق والاستنباط . إن هذه النظريات لا تقنع اليوم أحداً . فإذا كان النضال في طبيعة الإنسان فإن مظاهره -وأسفاه !- لا تعوزنا في الحياة اليومية العادية دون حرب شعواء . ونشر الثقافة والحضارة متيسر في السلم الدولي وبالاتفاقات السلمية دون أنْ يطمع أحد في متاع جاره . وتسليك المشاكل الاقتصادية أيسر في السلم بالتعاون والطمأنينة والثقة . ولكن للوصول إلى مثل هذه الحالة من التفاهم يجب أنْ تغير كل دولة وكل فرد من كل دولة العقلية التي شبوا عليها منذ مئات الأعوام بل منذ فجر التاريخ . يجب أنْ تتغير معاني البطولة والمجد العسكري والشجاعة والإقدام . يجب أن يفهم كل فرد أنَّ ما كان في الماضي ممكنا أصبح اليوم غير ممكن وأنَّ العاطفة الوطنية التي يستميت القوي في تأييدها ونصرها يستميت في تأييدها ونصرها كل من الشعوب التي يسمونها صغيرة وضعيفة . يجب أن يفهم الجميع أنَّ الشقاء العام ليس ناجماً عن الحروب نفسها ، بل عن الغنائم الحربية التي يفاخر بها الظافرون ويحسبونها ثمن انتصارهم وما هي في الحقيقة إلاّ أداة اضطرابهم وهلاكهم عاجلاً أو آجلاً . تلك هي سنة الحياة .

يجب ، يجب ، يجب ! ما هذا إلاكلام أطفال ! أما كلام الرجال فهو الذي يرسله المستر ويلز الكاتب الانجليزي في خطبة رنانة متنبئا بقرب وقوع الحرب وهو الذي يكتبه الجنرال لودندورف[٣] الألماني متنبئا بأن الحرب العامة ستنشب في شهر مايو سنة ١٩٣٢ . هذا في حين موسيو زودربلم الأسوجي يسر بجائزة نوبل مضاعفا جهوده النبيلة في سبيل الإخاء العام ، في حين المستر كيلوج يتأثر من شرف نيله جائزة السلم ويحاول الاهتداء إلى وسائل أخرى لنشر «ميثاقه» الكريم بين الدول التي لم توافق عليه بعد . يحاول ذلك وهو يصدر الأحكام في محكمة العدل الدولية العليا القائمة في مدينة لاهاي بجوار «قصر السلام» .

ميّ

الأهرام . س٥٦ ، ع١٦٥١٩ ، ١ ديسمبر ١٩٣٠ . ص١

١- Frank Kellogg (١٨٥٦-١٩٣٧) . قانوني وسياسي أمريكي . ولد في ولاية نيويورك . درس التاريخ واللاتينية والألمانية على نفسه . عمل وكيلا لوزارة الخارجية الأمريكية فقاضيا في محكمة العدل الدولية العليا . نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٢٩ .

٢- Nathan Soderblom (١٨٦٦-١٩٣) . أسقف سويدي .
والده كان قسيسا . بدأ بدراسة اللاتينية وهو في الخامسة من عمره . أكمل دراسته الجامعية فدرس العربية والعبرية إلى جانب اللاتينية واليونانية . عمل في سبيل توحيد مختلف الكنائس المسيحية . نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٣٠ .

٣- Erich Ludendroff (١٨٦٥-١٩٣٧) . عسكري ألماني .
كان مسؤولا عن سياسة ألمانيا العسكرية في نهاية الحرب العالمية الأولى . بعد الحرب أصبح زعيما لحركات سياسية ، ثم انضم للحزب النازي .

بعض الاتجاهات في الوقت الحاضر

الوطنيون الاشتراكيون الألمان

يقاطعون رواية اريك ماريا ريمارك

"ليس من جديد في الميدان الغربي"

وهي تعرض في السينما ببرلين

هذا ما حملته إلينا البارحة تلغرافات «الأهرام» الخصوصية . وهو من الدلائل الحاسمة التي تعرف في عنف الاتجاه الذي تقصد إليه طائفة غير يسيرة من الجماعات في أوربا ونشرتها جريدة «المساء» ، على ما أظن ، متتابعة في ذيلها -قد نالت شهرة عالمية في شهور قلائل ورفعت مؤلفها إلى الذروة العليا بعد أنْ كان مجهولاً ، ويقدرون أنَّ عدد قرائها يفوق عدد قراء أي كتاب آخر . هذا دليل حاسم أيضاً على أن فريقاً كبيراً من الغربيين يسير في اضطراد نحو اتجاه آخر .

على أن المؤلف ينكر أنه كتب« كتاباً » أو« رواية » أو أي شيء ذا اسم مألوف في عالم الكتابة . إنه يصفه كما يلي في المحادثة الصحفية الوحيدة التى تبادلها فى هذا الموضوع مع صحافي ليس لأنه صحافي بل لأنه صديقه . وهو الكاتب الفرنسى فريدرك لفيفر رئيس تحرير مجلة« لينوفل ليتيرير » أراد أن يجيب صديقه الذي سأله عن العوامل التى دعته للكتابة ، فقال ريماك[١] :

- « ما أنا إلارجل عادى شأنى شأن ملايين من الرجال المعتدلين المتبصرين ولست أفلح في إقناع نفسي بأن لدى رسالة أدبية ما . فما كتبت إلا لأناقش نفسى في مشكلة إنْ هي خصتني شخصياً فهي من الناحية الأخرى الشغل الشاغل لملايين من الناس . وليس يعنيني أن« ليس جديد في الميدان الغربي » مشوق أو

غير مشوق ولكن يعنيني أنْ يأتيني بحل لهذه المشكلة يرضي ضميري »

-« وما هي المشكلة الأساسية التي يريد هذا الكتاب حلها؟ »

ريمارك - « لم يخطر لي أصلاً أنْ أكتب عن الحرب . ولم يقم في نفسي هذا الخاطر حتى ولا قبل أنْ أباشر الكتابة بيوم واحد . ولكن فى ذات صباح أخذت تهطل الأمطار سيولاً فأرغمت على المكث في غرفتي وأنشأت أفكر كيف يمكن أن أكون على صحة جيدة ، مكفول المعيشة المادية ويتم لي في الظاهر كل شىء على ما أروم فلا أكون مع ذلك سعيدا؟ . . شعرت بأن فيَّ شيئا مبتوراً وأني محروم من شىء لا أدرى ما هو ، وبأني وحيد . . .

وعلام أكون وحيدا؟ وإلى أي زمن يرجع الشعور بهذه الوحدة؟ فعدت بذكرياتى إلى أيام الحرب إذ كان لى رفاق ولم أكن وحيداً لم يكن لواحد من أولئك الذين أحببتهم إبان الحرب مثل عقليتي وثقافتي ، إلاّ أني كنت أحبهم لرابطة وثيقة تربطني بهم رغم كونها غير عقلية أو أدبية أو ثقافية . . فكرت في تلك الرابطة فأدركت أني لو التقيت اليوم بالاثنين أوالثلاثة من رفاقي الذين خرجوا من المعمعة مثلي على قيد الحياة ، لو التقيت بهم الآن لعدت إلى الشعور برابطة الحرب بيني وبينهم في حين ما كان ليجمع بيننا شىء لو نحن التقينا مرة أخرى في كنف الحياة العادية . . . وعلى ذلك باشرت الكتابة . ولئن حملتني موجة من الحنان إلى حياتي الحربية فتفسير ذلك أني جندت ولم أبلغ الثامنة عشرة ، فى ذلك العمر المفعم بالأمانى والأحلام والنزعات الحلوة المبهمة كنت أطمع فى أكون موسيقيا وأن أتقن التلحين وتأليف القطع الغنائية فإذا بي أجدني فى ثكنة عسكرية وبعد أسابيع قذف بى وبغيري إلى خط القتال حيث عويل الصرعى والجرحى وحيث أنين المحتضرين . . .

« كنت يومئذ كسائر فتيان الالمان تهزني الحماسة ويعصف في جوانحي حب الوطن . كنا مقتنعين نحن شبان السبعة العشر[٢] عاما أننا نقاتل لخلاص العالم وفي سبيل الحضارة والثقافة . ولا شك اليوم أن فتيان الفرنسيس والانجليز كانوا يشعرون من ناحية وطنهم شعورنا لوطننا . ولكن بعدئذ ! لقد كانت الحرب

أفجع وأطول من أنْ نجمد عند ذلك الشعور فلا نجوزه إلى ما عداه . أخذت تتكرر وتتضاعف حولنا مظاهر الدمامة فكان من المستطاع أنْ نتغلب على تأثيرها فينا . . ولكن كان هناك شيء لا يحتمل . . . فقد أبصرت أعز أصدقائي إلي ممرغاً في الوحل وفي أحشائه جرح فاغر . . . هذا لم يكن في الوسع احتماله حتى ولا اليوم بعد أنْ فكرت أعواما عديدة بعد الحرب في هول هذه الفظائع .

« يومئذ أخذت تتنازعني فكرتان : إحداهما تظهر لى الحرب كضرورة لا مندوحة عنها لخلاص العالم . والأخرى تهم[3] لى بأن لا شيء في العالم يستحق أنْ يفتدى بهلاك هذا العدد الباهظ من ملايين الرجال . وقد تغلبت هذه وهى فكرتي اليوم . وإذا وجد في ألمانيا من يتهمني « بالخيانة » فذلك صادر عن الرأي الشائع عند الجميع بأن المرء لا يحب وطنه إلاّ إذا سلم بأن الحرب خير وسيلة تضمن تقدم الإنسانية . . . أنت تقاطعني يا صديقي ، وأنا أعلم ماذا تريد . . . أنْ تقول بأني ولدت باوسنا بروك فى ويستفاليا وأن أهل هذه المقاطعة الجرمانية معروفون بالخلق الهادىء المسالم المستبصر القائل بأن للمرء أنْ يحب الإنسانية بأسرها ويعمل فى إخلاص للتفاهم مع جميع الشعوب وأن هذا لا ينفي أنه في نفس الوقت يكون محبا لوطنه فوق كل شيء . .»

وإذ قدم ريمارك لمحادثة سجائر مصرية فقدم له صاحبه سجائر فرنسية تردد ريمارك وقال :

-« ألاّ تظن هذه السجائر أقوى من أنْ يتحملها صدرى؟ إنى لسوء الحظ مرغم على ممارسة الوقاية الصحية ولا أقضي ستة شهور كل عام فى سويسرا إلاّ للاستشفاء من علة رئوية . . . »

وإذ سئل عن هتلر [4] زعيم الفاشستي الالمان أو الاشتراكيين الوطنيين الذين ينمو عددهم ويتسع ميدانهم يوما فيوما ، أجاب ريمارك :

-« لا رأى لي في هتلر ولا أعرف عنه شيئا . ولا أنا أهتم بالسياسة ويقيني أنَّ لميدان السياسة من الاتساع والارتباك والصعوبة ما يقضي على مقتحمه إلاّ أنْ يكون « سياسيا » فقط . وأظن أنَّ الذي يحب العدل فوق كل شيء يتعذر عليه أنْ

يكون سياسيا لأن السياسة إنما تقوم أولاً وآخرا على القوة وعلى توازن القوى . . . والذى يحب العدل مثل حبي له لا ينصرف إلى السياسة لأنه منذ الخطوات الأولى في ميدانها يلقى العسف والجور والطغيان »

فقال محدثه« ولكن ألا ترى الاضطراب الذي ينتاب اروبا في هذه الآونة؟ »

فاستجمع ريمارك أفكاره فى سكون ثم قال بلهجته الصادقة الجادة : « أود أنْ أجيب بكلمة تعبر عن اقتناعي الصميم : إني واثق بأن لا أحد في المانيا يريد الحرب والرغبة في الحرب غير موجودة في قلب الشعب الالماني . . . »

***

هذا ما يقوله ريمارك الذي قوطعت بالأمس روايته في إحدى دور السينما ببرلين لأنها بنشرها فظائع الحرب الحسية والأدبية تنفر منها وتدعو بطريقة غير مباشرة إلى التمسك بالسلم . . . ولكن تذكر أنَّ إحدى روايات المؤلف المسرحي الإيطالي الكبير بيراندلو[٥] ، الداعية إلى عكس ذلك بتمجيدها لفضائل الحرب على الطراز الفاشستي الايطالي الحديث ، قوطعت بمثل هذه الشدة من غير الفاشستي الألماني منذ شهور إبان تمثيلها في مسرح ببرلين فى حضور مؤلف الرواية . . .

إن المانيا بلد زاخر بعديد القوى المنوعة وهي مشهورة بجد أهليها واجتهادهم ومقدرتهم على الكفاح والثبات والاستطراد . فيها العقليات النظرية الكمالية والكفاءات التجريبية العملية . فيها الذكاء الصامت البعيد الغور الذي يأنف التظاهر والفخفخة وذو المبتكرات الرائعة فى العلم والميكانيكا والفن والأدب والتجارة على السواء . فلأي النزعات في المانيا كانت الغلبة في المستقبل القريب كان لها أثر محسوس وصدى فعال إنْ سلبا وإن إيجابا فى جميع الأنحاء؟

هل تنطلق من المانيا شرارة الحرب أم نطفة السلام؟ أيكون التغلب لهتلر الخطيب الملهب المثير الجماهير المستنزل إلى القتال أم لريمارك الذى يخطب الشعوب في حروف كتابه المنمنمة فيصغى إليه أكبر جمهور من القراء يعرف لكتاب غير ديني في أنحا ء العالم – تتقدمه في دعايته السلمية الحكومة الالمانية

القائمة التي تريد أنْ تصلح في هدوء وتعمل في سلام؟

ميّ

---

*الاهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٥٢٦ ، ٨ ديسمبر ١٩٣٠ . ص١

١- Erich Maria R emarque (١٨٩٨- ١٩٧٠) . روائي الماني . ذاع صيته بعد نشر روايته Im Western nichts Neues (كل شيء هادىء في الجبهة الغربية) عام ١٩٢٩ ، وفيها يعالج الحرب العالمية الاولى . بدأ بكتابتها بينما كان يؤدي الخدمة العسكرية خلال الحرب وهو في الثامنة عشرة من العمر . أخرجت الراوية شريطا سينمائيا في أمريكا عام ١٩٣٠ . غادر ريمارك وطنه إلى سويسرا عام ١٩٣٢ ، وفي العام التالي فرض النازيون الحظر على مؤلفاته . توفي في سويسرا .

٢- المقصود السبعة عشر .

٣- كذا في الأصل ولعلها تهمهم .

٤- Adolf Hitler (١٨٨٩- ١٩٤٥) . زعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني وزعيم ألمانيا(١٩٣٣- ١٩٤٥) . قضى المرحلة الأولى من حياته في النمسا . قدم إلى ألمانيا عام ١٩١٣ . اشترك في الحرب العالمية الأولى وجرح فيها . انتخب رئيسا لحزب العمال(النازي) عام ١٩٢١ . أدخل ألمانيا في الحرب العالمية الثانية . انتحر بينما كانت قوات الحلفاء تحاصر برلين .

٥- Luigi Pirandello (١٨٦٧- ١٩٣٦) . مسرحي وروائي ايطالي . ولد في صقلية . تلقى علومه الجامعية في جامعة روما فجامعة بون بألمانيا ومنها حصل على الدكتوراة في الفلسفة . بزغ نجمه في عالم الأدب بعد الحرب العالمية الأولى . عرف بتقنية المسرحية داخل المسرحية .

خطبة السير برسي لورين
في حفلة كلية فيكتوريا الانجليزية

هذه خطبة مشبعة على إيجازها ، دبلوماتيكية بما أفرغت فيه من قالب الإرضاء في تحفظ والصراحة في إبهام . وهي لا تخلو من المغزى ، المقصود أو غير المقصود ، لمن أراد أن يتعمد استخراج المغزى حتى من خطبة حفلة مدرسية .

فقد عرف فخامته أن يتحصن في موقف إسداء النصح وهو الموقف الموفق في مثل هذه الحفلة . وآداب الفن الدبلوماتيكي تقضي دائما بأن يكون الموقف موقفاً منطقياً وبخاصة إذا كان الخطيب هو المندوب السامي البريطاني في مصر .

وهاك ديباجة تلك النصائح :

« بينما آباء كثيرين [1] من الطلبة يهتمون في الخارج بالأمور السياسية يجب على الطلبة هنا(في كلية فكتوريا) أن يهتموا بتثقيف عقولهم وإعداد أنفسهم للمستقبل . ولا شك بأن كثيرين منهم سيكونون في المستقبل ممن يهتمون بالسياسة »

بلا شبه شك وبديهي أن ينصح للطلبة بأن ينصرفوا بكل قواهم إلى الدراسة والتحصيل ليكونوا في المستقبل أوفر استعداداً وأتم كفاية لمعالجة ما يتخيرونه لأنفسهم من المهن والأعمال ، بما فيها الاشتغال بالسياسة . ولكن علام ذكر السر برسي لورين[2] للسياسة دون غيرها؟ صحيح أن في مصر الآن اهتماماً خاصاً بالشؤون السياسية . إذاً . . .

ويستطرد في النصح ببساطة :

« وأهم ما يجب عليهم(أي الطلبة) اقتباسه من الصفات الآن ليتصفوا به متى

صاروا رجالاً في المستقبل هو (اسمعوا !) ضبط النفس »

ضبط النفس هو آية آيات الخلق الانجليزي ومن أحوج ما تحتاج إليه الشعوب جميعا أفراداً وجماعات لا سيما الشعوب الشرقية رغم كون حالتها السياسية تختلف عن حالة انجلترا اختلافا مبيناً . وقد رأيت - أو خيل إلي أني رأيت من ضبط النفس مثالا صغيرا عند سر برسي لورين في العام الماضي .

كان ذلك في حفلة افتتاح البرلمان المصري في يناير ١٩٣٠ وقد تجلت قاعة البرلمان في أفخم مظاهرها وجلس جلالة الملك جلسته البديعة على العرش ، في حين وقف دولة النحاس باشا [٣] يتلو خطاب العرش وعلى وجهه علامات السرور والرضا . والسر برسي لورين في شرفته يصغي بلباقة دبلوماتيكية مناسبة ، حتى وصل النحاس باشا إلى ذكر المعاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى ، فما سمع السر برسي كلمة« بريطانيا العظمى» حتى انحنى إلى الأمام مشرئبا وعلى وجهه إعراب بليغ عن اهتمام شديد ، وكأنه ، وهو لايعرف اللغة العربية ، أراد أن يستوحي من لهجة الكلام وصدى الصوت تأكيداً لأمر لم يكن يجهله من رغبة مصر في الاتفاق على معاهدة شريفة كريمة ، فاذا بالقاعه تدوي بالتصفيق . وسرعان ماخطر لفخامة المندوب السامي« واجب ضبط النفس » ، فعدل جلوسه واسترد هيئته العادية ورجع إلى الإصغاء بلياقة دبلوماتيكية مناسبة . .

***

« . . ضبط النفس والاعتماد عليها واحترام الغير . .»

إن من يستطيع ضبط نفسه يعتمد دائما على نفسه . ومن اعتاد احترام نفسه يحترم غيره أيضا لاعتقاده أن الغير يقدر هذه الفضائل ويمارسها من ناحيته . وهذه روح الحرية والثقافة في أتم معانيها .

« . . . وإنماء روح الزمالة ليظل الطلبة مرتبطين بروابط الإخاء والمحبة في مستقبل حياتهم ويذكروا المعهد الذي اقتبسوا منه صحة المبادىء والأخلاق في عهد التلمذة»

دعاية رشيقة إلى الإعجاب بهذه الفضائل الخلقية الانجليزية عن طريق حفظ الجميل للمعهد الدراسي . وأي معهد أحق بالشكر والتحنان من المدرسه التى فتحت العقول وهذبت النفوس وسلحت المرء بما يهيئه للفوز في معترك الحياة؟

« . . . ففتيان اليوم الذين يتصفون بهذه الأخلاق يكونون رجالاً أقوياء وسياسيين نبهاء في المستقبل» .

كلام جميل رشيد ، وواضح المعنى أيضا ، ولكن ألايخطر لك كذلك أن تتساءل عن معنى «سياسيين نبهاء » بالضبط؟

وحَرِيَّة بالاهتمام الدقيق الفقرةالتالية التى تحوي مثلين اثنين مما يجري في انجلترا من الأمور الدالة على حرية الرأي وفضيلة ضبط النفس وتأثيرهما بين المتنافسين والخصوم السياسيين :

« . . . إن بين المستر مكدونلد رئيس الوزارةالبريطانية والمستر بلدوين (٤) زعيم حزب المحافظين خصاماً سياسياً شديداً ولكن هذا الخصام لم يؤثر في علاقاتها الشخصية مطلقاً حتى أنهما ذهبا مؤخراً إلى ملعب رياضي وجعلا يلعبان الجولف معا . وحدث أثناء إضراب العمال مؤخرا في لندن أن المضربين جعلوا يلعبون كرة القدم مع رجال البوليس المعينين لحفظ النظام بينهم بسبب الإضراب . وأظن الفوز في اللعب كان للمضربين»

هذه الجملة الأخيرة وإن هي رمت إلى تقرير الواقع في لهجة حادة فهي نكتة على الطريقة الانجليزية في التنكيت . ويصح التعليق السريع عليها بأنه طبيعي أن يفوز الذين لاهم لهم غير اللعب . . .

« . . . فعليكم ما دمتم هنا في معهد التعليم أن تتعلموا ضبط النفس وبذلك تصيرون في المستقبل رجالا طيبين تنفعون أنفسكم ووطنكم»

. . . .

«وكونوا أفكاركم لأنفسكم . . .»

أذكر أنَّ خير تعريف قرأته للرجل المثقف والرجل غير المثقف هو أنَّ الأول

يفكر لنفسه قدر المستطاع ، والآخر يتولى التفكير عنه غيره وما يكون هو سوى رجع الصدى .

«ولا تخجلوا إذا رأيتم خطأ فيما تفعلون أنْ تبدلوا الخطأ بالصواب . وإذا لم يرضكم أمر ترونه ناقصا فافعلوا ما ترونه لازما لإزالة نقصه»

أعلن فريدرك الأول [٥] ملك بروسيا لمجلس الشيوخ يوماً بأنه خسر معركة وأن ذلك نجم عن خطأ منه . فذكر جولدسمث هذه الحادثة وعلق عليها بأن فريدريك في هذا الاعتراف أعظم منه في جميع انتصاراته العظيمة لأن أصعب ما يقال هو هذه الكلمات الثلاث «إني قد أخطأت» . ولا يقوى على الإقرار بالخطأ إلاّ العظيم . على أن إصلاح الخطأ بالفعل أعظم وأشرف من الاقتصار على الاعتراف به . ثم السر كل السر في المقدرة على اكتشاف الخطأ واستجلاء مراميه . فكم من «عنيد لا يمضي» في خطاه إلاّ لأنه مقتنع بأنه صواب . وكم من قوي يعلم أنه مخطىء ولكنه مع ذلك يتفنن في تبرير الخطأ وفي إظهاره بمظهر الصواب .

« . . . كونوا شجعانا ولا تكونوا متطرفين »

هذه كلمة أرستطالية . فالشجاعة غير التطرف حتماً والتطرف هو الاندفاع بغير تبصر أو على ضلال . أما الشجاعة فهي السير مرة في اعتدال ومرة في اندفاع ولكنها تتمتع دائماً بالحكم الرشيد والنظر الصائب . وهي أعلى صفات الرجولة .

« . . . ولا تبالوا إذا غلبتم (برفع الميم طبعاً) في الامتحان أو في أي أمر آخر ما دمتم تقومون بالواجب عليكم» .

نصيحة مفيدة للجميع وبخاصة للذين يرشحون نفوسهم للانتحار إذا هم رسبوا في الامتحان .

ويقول مراسل الأهرام الاسكندري الذي وصف الحفلة والذي ننقل عنه هذه الفقرات -إن الحاضرين صفقوا بعد الخطاب تصفيقا طويلا حادا .

أما نحن الذين لا يخيم علينا روح الحفلة لنصفق بل نقرأ الخطبة في جو

هادىء بعيد -يمكننا أن ننعت هذه الخطبة بالأخلاقية ونعطيها من هذا الوجه علامة «جيد جدا» .

فهي مفيدة رغم كونها وجيزة ، دبلوماتيكية رشيقة في الإشارة إلى بعض النقائص بالكلام عما يقابلها من الفضائل ، لبقة بالدعاية إلى الإعجاب بالصفات الانجليزية وهذا يدخل في خصائص وظيفة المندوب السامي . خاصة على الاعتراف بالجميل للمعاهد العلمية وحفظ الولاء للرفاق والزملاء منادية بحرية الرأي حاثة على الاتصاف بالصفات الأدبية التي تتلخص فيها فضائل الثقافة والحرية والشجاعة . وسواء أردات في بعض ألفاظها أنْ تدل على اتجاه معين أم لم ترد ، فإنها مفيدة لطلبة كلية فيكتوريا ولسائر الطلبة . ولئن تعذر تطبيق بعض ما تحويه من التعاليم تطبيقا عمليا في حالة الشرق الراهنة المختلفة عن حالة انجلترا . وفي كل حالة سياسية حادة ، فهي مجموعة نصائح رشيدة ومبادىء أخلاقية نبيلة .

ميّ

---

* الأهرام . س٥٦ ، ع١٦٥٣٣ ، ١٥ ديسمبر ١٩٣٠ ، ص١

١- المقصود كثيرون .

٢- Sir Percy Loraine المندوب السامي البريطاني إلى مصر والسودان عام ١٩٢٩ . ولد عام ١٨٨٠ . درس في جامعة أكسفورد . عمل في السلك الدبلوماسي في الآستانة (١٩٠٤) وطهران (١٩٠٧) وبعض العواصم الأوروبية .

٣- مصطفى النحاس (١٨٧٩-١٩٦٥) . سياسي مصري . ولد في قرية «سمنود» بمصر وبها بدأ علومه ثم تابعها بالقاهرة . تخرج بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٠ فعمل بالمحاماة . شغل منصب أمين سر حزب الوفد عام ١٩١٩ وانتخب رئيسا له بعد وفاة سعد زغلول . ترأس الوزارة عدة مرات بين ١٩٢٦ و١٩٥٠ .

٤- Stanley Baldwin (١٨٦٧-١٩٤٧) . سياسي بريطاني من المحافظين . كان عضوا في البرلمان من ١٩٠٨ حتى ١٩٣٧ . شغل منصب رئاسة الوزارة البريطانية ثلاث مرات ما بين ١٩٢٣ و١٩٣٧ .

٥- Friedrich1 (١٦٨٨-١٧٤٠) . ملك بروسيا . توج على عرش بروسيا عام ١٧١٣ . اهتم بانشاء جيش نظامي قوي ووضع الأسس الادارية للدولة ، وأهمها تعزيز المركزية .

خطاب من سيدة مصرية

تلقيت بالبريد الخطاب التالي :

سيدتي المحترمة

أهنئك بالعام الجديد وأسأل الله أنْ يعيده عليك بالصحة والهناء . وأنتهز هذه الفرصة لأقدّم إليك هدية العيد على أنْ لا تستأثري بها لنفسك بل تعملي على توزيعها تحت إشرافك على بنات جنسنا . ولهذه الهدية قصة ترجع إلى سنة ١٩٢٦ حينما رفعت إحدى السيدات دعوة على مطلقها تطالبه فيها بالتعويض إلاَّ أنَّ محمكة الاستئناف ألغت هذا الحكم . وأرى أنها لم تفعل ذلك إلاّ وهي متأثرة بالرأي العام الذي اعتاد أن يرى الزوج سيد الأسرة وأن يبيح له الزواج والطلاق بمحض رغبته . ولكن الرأي العام يتطور مع الحالة الاجتماعية ، لذا لم يمنع حكم محكمة الاستئناف سيدة أخرى من أنْ ترفع أمرها للقضاء مطالبة مطلقها بالتعويض . وقد أخذت المحكمة بوجهة نظرها في الحكم المرفق وهو موضوع الهدية . وسيطرح هذا النوع على المحكمة الاستئنافية للبت فيه . وسيكون حكمها مقياساً لمبلغ تطور الحالة الاجتماعية من سنة ١٩٢٦ للآن ولاستعداد الرأي العام للاعتراف بحقوق المرأة كما قررتها الشريعة الإسلامية .

وقد رأيت اعترافا بفضلك وتقديرا لمجهودك في تطور الحالة الاجتماعية أنْ أخصك بهذه الهدية راجية منك أنْ تعملي على إذاعتها حتى يقف بنات جنسنا على ما لهن من الحقوق وتفضلي بقبول فائق تحياتي وعظيم احترامي .

***

نشرت الخطاب بنصه ولم أحذف منه إلاّ اسم صاحبته لأن السيدة المحترمة التي أتحفتني «بهدية العام الجديد» لم تفصح عن إرادتها في إعلان اسمها .

ولكن خطابها نفسه وما تضمنه من اليقظة النفسية وحصافة الرأي ينم عن ثقافتها ومكانتها الاجتماعية .

أما «الهدية» التي تلح السيدة في أن «لا أستأثر بها لنفسي بل عليّ أنْ أعمل على توزيعها تحت إشرافي على بنات جنسنا» فهي صورة الحكم على القضية المذكورة في الخطاب . ولتوفر علي حضرتها الجهد والعناء تفضلت فلخصت الحكم بيدها في خمسة بنود هي لباب ما يهمنا في هذا الموضوع . وها هي بالحرف الواحد أيضاً :

المبادىء التي قررها الحكم .

١- ليس الطلاق حقا مطلقا للزوج وإنما هو على الرأي الراجح عند القضاء محظور ليس للزوج أنْ يستعمله إلاّ إذا تحققت الحاجة إليه .

٢- للزوجة أنْ تطالب زوجها بالتعويض إذا أساء استعمال هذه الحق .

٣- لا تعارض بين استحقاق التعويض وبين مؤخر الصداق .

٤- ليس للمحكمة أن تمنع عن التصديق على التعويض المقدر إلاّ إذا تبين لها أنه تهديدي بمعنى أن يكون جائراً وغير معقول وغير متناسب بالمرة مع الضرر الذي حصل فعلاً .

٥- للزوجة طبقاً للشريعة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها وأن يطلق ضرّتها ولها الخيار في فسخ الزواج إذا فات الشرط .

وأظن أنَّ نشر هذا الخطاب والمبادىء التي قررها الحكم يفي بالمرام من تحقيق رغبة السيدة الفاضلة في تمكين كل قارئة تطلع عليها من« الوقوف على ما لها من حقوق» .

كل هذا الحكم حسن ومنصف وحسن وصحيح كذلك ما ترتئيه حضرتها من أن أحكام المحاكم مقياس لتطور الحالة الاجتماعية ، ولكنّ لدي تعليقا إنْ يبد في الظاهر متصلاً بالموضوع مباشرة ، ففيه بلا ريب تتلخص طائفة كبيرة من أسباب هذه الحادثة ونتائجها . بل فيه تتجمع الوسائل المؤدية إلى ما نعنيه «بالتطور الاجتماعي» من تحسين المعيشة ورفع الشقاء عن الأفراد وسعادة

الحياة العائلية وإفهام الجميع كيف ينتفعون بخدمات الآخرين في حين هم يقومون بكل ما عليهم من الخدمة .

أكل ما نراه من سوء تصرف الرجل في استعمال ما يزعم أنه حقه في الطلاق وفي امتهان كرامة العائلة وسحق حياة المرأة تحت قدميه ناجم عن الرجل نفسه؟

إن المرأة هي العامل الأول والأخير في تكوين الرجل وتربيته وتنشئته كذلك هي العامل المطلق السلطان في تكوين الفرد والعائلة والأمة . وكل ما يرضي الآن من الرجل ناجم عن عجز والدته عن إعداده لحياة الزوج والأب وسيد الأسرة الذي يقدر كرامة الأسرة وكرامة المرأة . وكيف يستطيع أن يدرك أهمية هذه الواجبات من لم يتلقنها عن والدته . والرجل سيد الأسرة ولا ريب ، ولا تريد له المرأة في رقيها إلاّ السيادة ، ولكن السيادة لا تعني تمزيق حياة المرأة وتشتيت شمل العائلة بل المفروض عليها هو ما يناقض هذا على الإطلاق .

أهذا الرجل ظالم أهوج متهور؟ أذاك الرجل سيء التربية لا يحترم نفسه ولا يحترم الآخرين؟ أتلك المرأة يدل سلوكها على اختلال في توازن المدارك والأعمال؟ أهاتيك لا تحسب للأمور حساباً ولا تدرك ما يجب أن يقال وما يجب أن يقال وما يجب ألا يقال وبالتبع ما يجب أن يؤخذ به وما يجب أن يهمل؟ المرجع واحد ، لا غير . المرجع هو الأم ، وحكمتها أو هوسها ، تربيتها الصالحة أو السيئة ، سلوكها في بيتها ، تدبيرها ، مثلها ، نطقها ، تربيتها ومجموع تلك الأساليب والأعمال والتصرفات والمعاملات التي يطلق عليها اسم «التهذيب» الواسع الجامع .

حق أن يُنصف المظلوم رجلاً كان أم امرأة ، وحسن أن ينصف القضاء العادل فيصدر الأحكام التي تشرفه بإعطاء كل ذي حق حقه ، وبالعمل على ردع المستهينين بكرامة المرأة عن غيهم ، ولكن ما هذه إلاّ مسكنات فردية وقتية . وإذا أريد الإصلاح العام الفعال الشامل المتتابع فليبدأ بتربية المرأة . أقول«تربيتها» ولا أقول«تثقيفها» لأن التربية أصل والثقافة فرع . وإنما التربية للمرأة التي ستكون في الغد أمّاً بمثابة تربية الرجل الذي سيكون ابنها .

ومصر في حالتها الراهنة تحتاج بلا شك إلى ثقافة المرأة ولكنها تحتاج أولا وتحتاج خصوصا احتياجا وجيعا صميما إلى أمهات يدركن كل ما في الأمومة من كرامة وكل ما عليها من الواجبات . حسن جدا ، يا صاحبة الخطاب الفاضلة ، أن تعرف كل من بنات جنسنا ، ما لها من حقوق . ولكن ما لابد منه هو معرفة الواجب والقيام به على الطريقة المفروضة . والحياة واجب أكثر مما هي حق وكل قيام بالواجب يستتبعه حتما التمتع بالحق إنْ لم يكن للشخص أو الجيل نفسه فلما يليه من من الأفراد والأجيال . ولئن استوجب الحاضر اليأس في كثير من الأحوال فكل الرجاء في المستقبل .

لإصلاح الرجل يجب تربية المرأة ولإصلاح المرأة يجب تربية المرأة . وليس من وسيلة أخرى لإنهاض الأمة بأسرها غير تربية المرأة كما يجب أن تكون في البيت والأسرة والوطن .

ميّ

---

*الأهرام . س ٥٦ ، ع ١٦٥٤٦ ، ٢٩ ديسمبر ١٩٣٠ . ص ١

خواطر متناثرة -١-

● **مأساة الهند ومأساة غاندى**

تتبعنا فى هذا العام تطور مأساة الهند عن بعد ، واليوم نشعر مع غاندى[1] بالمأساة الروحية التى تفطر قلبه رغماً عن حكمته الواسعة وخلقه العالى .

مأساة وأية مأساة فى إهدائه الزهرة السوداء ، وفى محاولة اغتياله ، وفى المعارضة الصاخبة فى وجهه إلى جانب كل ما يلقاه من التأييد ومع كونه سيبقى فى التاريخ زعيم الهند الأكبر الذى أدخل فى تاريخ النضال السياسى العالمى طريقة العصيان المدنى السلمى . ولم يكن العصيان المدنى سليماً إلا فى حيز النظريات أما فى حيز الواقع فهو دموى مفجع . وغاندى رغم وصيته بعدم استعمال الشدة والقتل كان يعلم أنَّ إرشاداته لن تتبع ، بدليل أنه فى الخطاب المؤثر الذى وجهه فى العام الماضى إلى «صديقه العزيز» نائب الملك في الهند ، قال إنه «يجثو على ركبتيه» متوسلا أنْ يعمل نائب الملك كل ما فى وسعه أنْ يعمله لمنع إعلان الدعوة إلى العصيان الرسمى .

قال ذلك لأن غاندى «النبى الوديع» كان يعلم أنَّ عقلية الجماهير العجاجة لا تستطيع أنْ تسبك فى قالب عقليته ، وأن دعوته الوطنية إن هى أخذ بها الجميع - أو الأكثرية - من بعض نواحيها فلا بد أنْ تظهر أفراد وجماعات تنظر إليها نظرة أخرى من سائر النواحى . كان يعلم أنَّ غرائز الشعوب إذا استثيرت وأطلقت فهى أشبه ما تكون بجوامح الطبيعة من زلازل وفيضانات وعواصف وصواعق وأوبئة . وكان يعلم أنَّ الأمم بحذافيرها لا تتجمع فى قبضة واحدة كائنه ما كانت طهارة تلك القبضة ونبلها وإخلاصها . وأن شأن الشعوب منها شأن الماء يتسرب من بين الأصابع فى حين يحسب المرء أنه وديعة فى يده .

كل ذلك كان يعرفه ببصيرته النافذه وبروحه الكبيرة وشخصيته الفريدة وبعلمه الواسع . ويعرفه كذلك بعقيدته الدينية الفلسفية التى اقتبس عنها فكرة «المقاومة العذبة» و«العصيان السلمى» وهى بند أساسي فى بنود الهند الأخلاقية تلك العقيدة المعلنة أنّ «المساواة» مستحيلة بين الناس والعقليات والمدارك لأسباب قائمة فى تسلسل الأعمار والأعمال وتقيد المعلومات بالعلل . ويظهر أنّ الشبيبة الهندية تأبى التسليم بهذه القاعدة العنيدة إذا ما اعتبرنا ببيان زعيم الشباب الهندى الذى صرح بأن العمل لمحو الفروق بين المراتب الاجتماعية هو من أهم بنود برنامجه وبرنامج جماعته .

إن هذا الشاب بكلمة واحدة يهدم الأساس المنيع الذى قامت عليه حكمة الهند منذ آلاف الأعوام ويهزأ فى جد بالعقيدة الهندية التى تنص بأن برهما أخرج من رأسه رجلا يدعى «برهمانا» وسلمه «الفيدا» . كتب الهندية المقدسة مستودع الحقيقة الخالدة التى لا تقبل تعديلاً ولا تحريراً . ومن برهمانا جاء البراهمة ذوو السلطان الروحانى وأمناء السر المكنون . ثم سحب برهما من ذراعه محاربا يدافع عن الكاهن ويؤيد سلطانه ويحمى ذماره واستل برهما من جنبه رجلا هو الفلاح الذى يعد للمحارب والكاهن الغذاء وحاجات المعيشة وهو التاجر الذى يروج تلك الحاجات ويمهد وسائل الحياة . وأخيراً انتزع من قدمه الإلهية رجلاً رابعاً هو أبو الصنائع وزعيم طبقة العاملين لنفوسهم وللمراتب الأخرى . ومن هذه المخلوقات الأربع المخترجة من جسد برهما تولدت شعوب الهند بمراتبها الاجتماعية . تضاف إليها -أو لا تضاف- طبقة الأسافل المتشردين من حثالة الطبقات ورواسب الجماعات المختلفة كل الاختلاف عن أبناء برهما ، المنبوذة بما تثيره من رعب واحتقار وبما يتمثل فيها من خلاصة القبح والتعاسة .

هذه هي القاعدة القاسية التي ينكرها «مهدلي» زعيم الشبيبة الهندية . وعندي أنّ هذا البند من برنامجه أهم وأروع من سائر البنود لأنه يشهر حربا شعواء على الماضي كله وهو الحيز الفارق بين مهدلي وبين غاندي .

ومطلبه هذا منطقي يتناسب وسنه كما أنّ رأي غاندي يتناسب وسنه أيضاً . لقد

قال لامرتين مرة «إن كل شاب في العشرين ثوري حتماً» . لأن الشباب ينزع دائماً إلى الخروج عن دائرته ، أما الكهولة وبخاصة الشيخوخة ، حتى ولو كانت ثوروية من قبل ؛ فترجع شيئاً فشيئاً عن نزوعها ذاك وترغب في التمركز ضمن دائرتها . هذه هي القاعدة ولكن ليس صحيحا القول بأن الشاذ لا يقاس عليه . إن كل شاذ قاعدة في بابه كالمألوف سواء بسواء ، إذ كل شيء من الحياة آت وكل شيء في الحياة باق .

كل هذا كان يعرفه غاندي ذو الروح الحلوة النبيلة إلاّ أنّ تحققه الآن بالفعل يثير بلا ريب في قلبه حزنا شديدا ، بيد أنّ هذا الحزن سيكون عاملا في جعل شخصيته الفذة أبكر وأوسع وأطهر ، ويجعلها أتم أهلية لاستقبال وجه «النيرفانا» والغرق في «الفيض النوراني» الأزلي السرمدي . .

● **نكبة المخدرات في مصر**

جامعة محكمة هي مقالة الدكتور حافظ عفيفي باشا في مجلة «امباريز ريفيو» التي نقلتها البارحة تلغرافات «الأهرام» الخصوصية في موضوع المخدرات في مصر ، وقد علقت عليها المجلة تعليقاً رشيداً حيث هي تقول : ولا ريب أنّ الأعمال التي تقوم بها كل حكومة بمفردها لا تستطيع أنْ تدفع الشر ولا تمحوه . ونحن على استعداد أنْ نضم صوتنا إلى صوت الوزير الجليل ونناشد هذه البلاد أنْ تسير في طليعة الدول الأخرى متى حان الوقت لدرس المسألة في عصبة الأمم في الشهر القادم ووضع حد لتجارة المخدرات التي تمتص النشاط الأدبي والجسماني لكثير من الناس في جميع أنحاء العالم»اهـ .

ولو جاز لقلم نسائي أنْ يقول رأيه المتواضع في هذا الوباء الدولي لقلت إنّ المشكل لا يحل بمكافحة حكومة ولو كان على رأس القائمين بحله رجل حاذق نشيط كرسل باشا . ولا هو يحل بكتابة مقالات ضافية دقيقة ، ولا بتعليق صحيفة تناشد بلادها أنْ تقوم بواجب نبيل . حتى ولا يمكن أنْ يكون ذلك الحل بيد عصبة الأمم المحترمة إذا ما هي عزمت على وضع حد ما لتجارة المخدرات . المشكل وحلّه معاً «غارقان» على ما يلوح لي في البحر الاقتصادي العرمرم الذي

يغوص فيه العالم . كيف يتسنى لعصبة الأمم أنْ تشل ناحية موفورة الربح لكثير من الأمم التي تنتج مختلف المخدرات والمسكرات؟ إن في شلها (لو استطاعت العصبة ذلك) جمودا للنشاط المالي والتجاري وزيادة في جيش العمال العاطلين وعجزاً تحسه ماليات الحكومات فضلاًعن مالية الأفراد العديدين من المتاجرين والمروجين . . . وكيف يتيسر كل ذلك في وقت يئن العالم بأجمعه تحت وطأة الأزمة المالية ويبحث عن وسائل للعمل وموارد الرزق؟

● ... ونكبة العمى

كلمة وجيزة عن الاجتماع الذي عقد يوم الاثنين ٣٠ مارس في قسم الخدمة بالجامعة الأمريكية لتوزيع الجوائز على الفائزين في المسابقة الثانية لعمل «رسوم رمزية عن العناية بالعين» . كلمة واحدة تشير إلى ما قاله الدكتور نجيب براده في خطابه الضليع وهو ما معناه : «أن الاسبقية شيء حسن تتنافس عليه جميع الدول ، ولكن ليس في العمى . ومصر مع الأسف تسبق جميع البلدان في هذا الباب إذ أن الإحصاء يثبت أنَّ سبعة من كل ألف فيها مصابون بالعمى» .

ولقد صفقنا لكم كثيرا ، أيها الشبان الفائزون ، وأعجبنا بدقة رسومكم وحسن صنعها ، بيد أننا شاركناكم في تصفيق أشد للفتيات المصريات اللائي فزن معكم . وكنا نود أن نصافحهن واحدة واحدة ، مهنئين ناظرة المدرسة الثانوية للبنات بشبرا السيدة النابهة إنصاف سري حرم الدكتور منصور فهمي ، ومعلمة الرسم الذكية الآنسة زينب عبده كريمة السيدة لبيبة احمد ، لأن ثلاثاً من أربع أو خمس فائزات هن من تلميذات تلك المدرسة الممتازة .

نكتفي بهذه الكلمة لأن الصحف ستؤدي واجبها بنشر تفصيل ذلك الاجتماع والخطب التي ألقيت فيه مع نشر الرسوم الرمزية خدمة للجمهور وقياماً بإرشاده في هذا الموضوع الخطير . ونحن إنْ أشدنا بفضل الدكتور شاهين باشا الهمام وبفضل معاونيه الأبرار وبفضل سائر الجماعات الغيورة العاملة على مكافحة هذا الوباء الأليم ، فإننا نسجل مرة أخرى للجامعة الامريكية فضلها العميم في إثارة هذه الموضوعات من العناية بالعين ، ونشر الدعوة الصحية في البلاد ، وسائر ما

يقوم به قسم الخدمة العامة من جلائل الخدم النافعة المباشرة المحمودة مع الشكر الحار لرجالها العلماء الأفاضل ، وللمصريين والأمريكيين الذين تبرعوا بالجوائز .

● **النسر المصرى الجديد**

طيري ، يا نسور مصر الحديثة ، طيري معالجة شكيمة الأقدار هازئة بالصعاب والأخطار ! طيري محاذية أطر الأقمار ، سابحة في مغناطيس الشموس ! طيري فوق البحار والصحارى والبراكين وطيري فوق الآلام والكروب والأتراح ! طيري ملوحة بالعلم الأخضر الجميل رمز الجمال والرجاء ! طيري ، طيري ، طيري وحلقي بين نسور الأمم لتلقي الرعشة في قلوب الرجال وتضعي دموع الحنان في عيون النساء !

طيري لترغمينا على التحديق فيك فنرفع أنظارنا عن فواجع الأرض ونسرحها في مجد السماء !

ميّ

الأهرام ، س٥٧ ، ع١٦٦٣٨ ، أبريل ١٩٣١ . ص١

١- موهانداس كَرَمْشَنْد غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨) . سياسي وفيلسوف هندي . ولد في بور بندر . أكمل دراسة الحقوق في لندن عام ١٨٩١ . عمل مستشارا قانونيا في جنوب أفريقيا (١٨٩٣-١٩١٤) . عاد إلى الهند وتزعم حركة الاستقلال عن بريطانيا عن طريق المقاومة السلبية وعدم استعمال وسائل العنف . توج نضاله عندما نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٨ . قتل في نفس العام .

مدرسة الألسن و التفكير
في إعادتها للمرة الثالثة

مدرسة الألسن التي تناقلت الصحف خبر التفكير في إحيائها وذكرت البيانات أنها كانت قائمة في عهد الخديوي اسماعيل[1] كانت قد تأسست لأول مرة في أيام محمد علي باشا[2] ويمتزج ذكرها السحيق باسم المصري الكبير ، رفاعة بك[3] ، الذي كان له الفضل في التفكير بإنشائها .

يقول في هذا الباب عبد الرحمن بك الرافعي[4] في الجزء الثالث من مؤلفه الجليل الشأن «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» في سياق ترجمته لرفاعة بك (صفحة٤٨٦) : «رأى (رفاعة بك) أن البلاد في حاجة إلى طبقة من العلماء الاكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الافرنكية وخاصة الفرنسية وليكونوا صلة الاتصال بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالإدارة الحكومية في المناصب التي تعهد إليهم ، فاقترح على محمد علي باشا بانشاء مدرسة الألسن . وكان من مزايا محمد علي أنه يحسن تقدير الاقتراحات والآراء التي تعود على البلاد بالخير والتقدم فبادر إلى إنفاذ الاقتراح وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٩ ، واختار لها سراي الألفي بالأزبكية بجوار قصر زينب هانم كريمة محمد علي (حيث شبرد الآن) وهذا يدلك على مدى عنايته بشأنها ، فكانت تعرف حين إنشائها بمدرسة الترجمة ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن وعهد بنظارتها في السنة التالية إلى الشيخ رفاعة» .

ويقول في تعريف هذه المدرسة «وكانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ثم

الإيطالية والانجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق . فلا غرو أنْ كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر . . .» .

وفي صفحة ٤٨٨ : «لم يزل رفاعة بك ناظراً لمدرسة الألسن مع نظارة قلم الترجمة إلى أنْ اقفلت المدرسة على عهد عباس باشا الأول(٥) سنة ١٨٥١ ، ولم يكتف عباس بإقفالها بل أمر بارسال رفاعة بك إلى السودان بحجة توليته نظارة مدرسة ابتدائية أمر بإنشائها في الخرطوم . .» .

***

على أنَّ الحاجة إلى الوقوف على مصنفات الغرب ومبتكراته ترهف مع الأعوام والقائمون بنشر الثقافة يدركون بأن لا مندوحة عن مسايرة اتجاه الفكر في أوربا وأن حركة التقدم في مصر منوطة من جوانب عدة بدوام الاتصال الوثيق بحركة التقدم في الغرب ، فيعمدون إلى بعث مدرسة الألسن مع مدرسة الإدارة (الحقوق) سنة ١٨٦٨ ، ثم يفصلونها عنها سنة ١٨٨٢ تنفيذاً لرغبة قومسيون تنظيم المعارف . وينشئون سنة ١٨٨٥ قلم الترجمة فيلغون بإنشائه مدرسة الألسن . فإذا بقلم الترجمة يحول في ١٨٨٩ إلى مدرسة المعلمين فيتغير اسم المدرسة التجهيزية ويطلق عليها اسم «المدرسة الخديوية» وصار هذا الاسم عنوانا للمدرسة وقلم الترجمة الذي ألحق بها لتخريج مدرسين للغة الانجليزية ، كما أنَّ المدرسة التوفيقية أُعدّت لتخريج مدرسين للغة الفرنسية إلى آخر ما ورد من بسط هذا التاريخ في «أهرام» يوم السبت ١٧ يناير الماضي .

والآن وقد مر ما يقرب من نصف القرن على تلك الحقبة ، فتزايد خلاله اشتباك المصالح بين الأمم مع سهولة المواصلات وسرعة الاتصال ، أصبحت الحاجة أشد إلى التضلع من لغات الشعوب الأخرى . ولكن يظهر أنَّ الواقع لا يقوم بالحاجة لأن الوزارة في مذكرتها تشكو من عجز موظفيها في اللغات الأجنبية ومن ضعف المترجمين الذي ظهر بجلاء ، كما تنص المذكرة ، عندما أعلنت وزارة المعارف عن ترجمة بعض الكتب فكانت النتيجة غير مرضية ، فحدا بها

ذلك إلى التفكير في إعادة مدرسة الألسن للتخصص في تدريس اللغات الانجليزية والفرنسوية والألمانية والإيطالية والأسبانية . إننا بعد استثناء طائفة من المصريين ممن يجيدون كل في بابه اللغة الفرنسية أو الانجليزية ، وأحياناً اللغتين معا أو غيرهما ، وبينهم من هو بارع في الكتابة بهذه اللغات فضلا عن النقل عنها والاقتباس منها بأمانة ودقة ، بعد هذا الاستثناء الصادق ، نعتقد أنَّ الوزارة على حق من حيث جمهور المثقفين .

وأظن أنَّ ذلك «العجز» راجع إلى سببين : أحدهما أننا لم نوجد إلى الآن في اللغة العربية الاصطلاحات الفنية والعلمية والميكانيكية وغيرها التي يبتكرها الغرب ليس كل عام بل كل يوم . وهذا النقص أي عدم وجود تعبيرات في اللغة العربية لما يقابلها في اللغات الأفرنجية علاجه بيد الزمن وبانتشار الثقافة ، وللصحافة في إزالته يد غراء ، أما السبب الآخر فهو أنَّ دراسة اللغات الأجنبية في مدارس الحكومة يجب أنْ تكون أكثر نشاطاً وأوفر إتقاناً . وقد سمعنا هذه الملاحظة غير مرة من المدرسين والمدرسات الأجانب فهذا النقص في يد الوزارة يمكنها أنْ تتلافاه خاصة في هذه الأعوام وهي تعيد النظر في البرامج الدراسية فتحذف منها المواد الإضافية التي ترهق فكر الطالب وصحته ولا تفيده في شيء ويمكنها أنْ تتلافاه أيضاً بإفراد أيام من الأسبوع يفرض فيها على التلاميذ الكلام باللغة الأجنبية (هذا ما عدا ساعات الدرس بالعربية طبعا) وأن يكون تنفيذ ذلك الفرض إجبارياً لا اختيارياً فجميع الذين درسوا لغة أجنبية واحدة أو عدة لغات يعلمون أنهم لم يتشربوا روحها ولم يهتدوا إلى التعبير المحكم وسهولة البيان إلاَّ بمزاولتها والتخاطب بها في عدة موضوعات .

***

أما مدرسة الألسن السابقة فلا نرى الآن موجباً لإعادتها مع وجود كليتي الحقوق والآداب بالجامعة المصرية . والأوفق أن ينشأ قسم للغات الحية يلحق بكلية الآداب على أنْ يكون مستقلاً عنها . ليتسنى للوزارة أنْ لا تقيد الطالب بالشروط التي سنتها في مذكرتها والتي قد يحسن الأخذ بها بعد أربعة أو خمسة

أعوام ولكنها الآن تشل نشاط الراغبين في الدراسة . فالمشروع في دوره الأول وهو يقضي بتسهيلات يجوز حذفها في المستقبل .

علام ، مثلاً ، يشترط على الطالب أنْ يكون حاملاً شهادة البكالوريا أو ما فوقها أو ما تحتها؟ إنَّ من غير حاملي الشهادات من هم على كفاية للاستفادة والإفادة نظراً لاستعدادهم ورغبتهم ولماذا لا يسمح للطالب بالتخصص إلاَّ في لغة أجنبية واحدة إلى جانب اللغة العربية؟ إنَّ من كانت عنده سليقة تعلم اللغات والترجمة استطاع أنْ يعالج لغتين أو أكثر في آن واحد . والحكم في ذلك للطالب نفسه وما على الوزارة إلاَّ أنْ تمهد السبيل أمامه وعليها ألاَّ تجعل هذا المشروع قاصراً على الموظفين وحدهم .

نكرر القول إنَّ المشروع في دوره الأول ولتنشيط الرغبة في الدراسة والتضلع من اللغات الأجنبية لا بد في الأعوام الأولى من تقديم كل التسهيلات الممكنة لاستغلال كل استعداد للدراسة وتثقيف كل موهبة في تعلم اللغات .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٥٦٨ ، ٢٠ يناير ١٩٣١ . ص١

١- الخديوي اسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥) . ملك مصر وأول من نال لقب الخديوي من السلطان العثماني عبد العزيز . هو حفيد محمد علي مؤسس العائلة المالكة . تعلم في باريس وتأثر بأسلوب الحياة الفرنسي . استلم زمام الحكم عام ١٨٦٢ . اهتم بانشاء المدارس والقيام بالمشاريع العمرانية وتشجيع الفنون (خاصة المسرح والموسيقى) إلاَّ أنه تورط بالديون الأجنبية الكثيرة . عزل عام ١٨٧٩ وقضى بقية حياته في اوروبا وتركيا . توفي في الآستانة .

٢- محمد علي (١٧٧٠-١٨٤٩) . مؤسس السلالة الخديوية بمصر . ولد في «قوله» باليونان لعائلة ألبانية الأصل . قدم إلى مصر وكيلا لرئيس فرقة متطوعين جاءت إلى مصر لمحاربة الفرنسيين فشهد معركة «أبو قير» . عين والياً على مصر عام ١٨٠٥ .

٣- رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) . عالم وأديب مصري . ولد في «طهطا» . بعد تخرجه في الأزهر أرسل عام ١٨٢٦ إماماً مع بعثة طلاب مصريين إلى باريس ومكث هناك حتى ١٨٣١ . دون انطباعاته عن الحياة في باريس في كتابه «تخليص الابريز إلى تلخيص باريز» . بعد عودته اهتم بالترجمة وشؤون الترجمة .

٤- عبد الرحمن الرافعي (١٨٨٩-١٩٦٦) . مؤرخ ومحام مصري . ولد في القاهرة . درس القانون في مدرسة الحقوق الخديوية وتخرج فيها عام ١٩٠٨ عمل في الصحافة والسياسة ومهنة المحاماة . انتخب عضوا في مجلس الشيوخ عام ١٩٣٩ . كتب كتبا كثيرة في تاريخ مصر المعاصر .

٥- عباس الأول (١٨١٣-١٨٥٤) . ثالث حكام مصر من أسرة محمد علي . ولد بمدينة جدة بالجزيرة العربية ونشأ بمصر . تولى الحكم بعد وفاة عمه ابراهيم عام ١٨٤٨ . اشترك مع الأتراك ضد الروس في حرب القرم . اغتيل في قصره .

أحاديث عنهن

● **مصريتان تتقاضيان وتترافعان**

نتكلم عن اليقظة النسوية في مصر من وجه أو وجهين أو ثلاثة ونجعل لها عنوانا ثابتاً كأنما هو نقش في النحاس فنرى فيها ما نرى من خير وشر . والواقع أنَّ هذه اليقظة تبدو في خير المظاهر وأصدقها بهذه الألوف المؤلفة من تلميذات المدارس . أفواج من الناشئة النسوية تخرج من المعاهد مثقفة متعلمة عاما بعد عام فتنشر في محيطها ما تلقته من المعلومات وتحقق في حياتها وحياة الذين يتصلون بها الفائدة العلمية التي حصلتها من قبل نظرية . فبفضل هذه الأفواج وبفضل تأثيرها ستكون الأجيال التالية أتم استعدادا للعلم والاستفادة ، حتى إذا ما عادت إلى المنازل التي منها خرجت لم تجد في محيطها ما يطفيء نورها ويجعل الثقافة الفردية مهزلة مفجعة .

و«ستتدوزن» الأجيال المتوالية في التوفيق بين معلوماتها وحاجات محيطها ومطالب زمنها ، فلا تنقضي أعوام معدودة إلاَّ وفي مصر حصاد إنساني يملأ البلاد خيراً وجمالاً .

لو قيل لقاسم أمين يوم كانوا يحملون عليه ويكافحون دعايته ويرمونه بالتضليل والباطل -إن بعد ثلاثة عقود من صدور كتابه[1] ستقوم سيدتان مصريتان مسلمتان بالدفاع كل عن قضيتها بنفسها أمام المحاكم الأهلية ، لو قيل له ذلك لما كان أبدي شيئاً من الدهشة والتردد في التصديق إذا كان عليماً -ولقد كان- بسر التطور الاجتماعي الذي عبثا تحاول تقييده . ولكن المؤلم أنْ يكون المرء على حق فيضطهد في سبيل ذلك الحق ولا يقابل من القوم بالتصديق إلاَّ بعد رحيله عن الدنيا بأعوام . . . وليس له من تعزية في حياته سوى التفكير أنَّ الرأي الفردي لا أهمية له إلاَّ من حيث هو حادث متحقق في المجموع فيما

بعد . . حقيقة هذه ولكن كم هي أليمة !

● **وسام للكونتس دي نواي**

تناقلت الصحف هذا الأسبوع صورة الكونتس ماتيو دي نواي[٢] مع الخبر بمنحها وساما فرنسياً رفيعاً . ومع تقديم المفروض من الاحترام لما يراد من معنى الأوسمة والإنعام بها ، لا نتردد في القول إنَّ الوسام لن يرفع من مكانة هذه الشاعرة المبدعة كما أنَّ عطل صدرها من الأوسمة لم يكن ينقص من شأنها .

هل الكونتس دي نواي «كاتبة»؟ هذا ما لا أعرفه إلى الآن رغم ما قرأته عن كتبها الثلاثة أو الأربعة الموصوفة بأنها روايات ، وما كل منها في تقديري سوى قصيدة نثرية تشغل عدد الصفحات المقررة لدى الناشرين لتؤلف رواية . بيد أنها الشاعرة كل الشاعرة . أعني أنها الشاعرة في صيغة الروي والقافية ولو أنها من الشعراء العصريين الذين تملصوا بوجه عام من قوالب النظم القديمة على نحو ما قررها «بوالو»[٣] وسبكها كوناي[٤] وراسين[٥] وموليير وغيرهم ، وإن يكن ذوقها الحسن وطبقتها الفنية قد صاناها من كثير من المجازفات الحديثة التي لا يأنفها اليوم حتى ولا بعض أعضاء الأكاديمية الفرنسية .

ولئن بدا شيء من التعصب الجنسي (الرجالي) في عدم الإقدام على إنالتها في الأكاديمية الكرسي الذي تؤهلها له مواهبها ، فإن أهل الثقافة الفرنسية ينظرون إليها بحق كأعظم شاعر فرنسي في الوقت الحاضر .

قلت أعظم «شاعر» لا أعظم «شاعرة» مع العلم بأن هذه السيدة رومانية الأصل . وفي هذا مقياس وأي مقياس لعلو الثقافة الفرنسية ولنبلها في الإنصاف .

وتنزل بالكونتس المليحة مصائب أدبية عدة بعضها يرجع إليها شخصيا وبعضها يهاجمها به فريق من «المعجبين» الذين يأبون إلاَّ تحليل شخصيتها فتجيء نتيجة التحليل على نقيض الصورة الأصلية . . . وهناك من يطمعون في تقليدها ، وهذا شيء مرير . وأمرّ منه تشبث بعضهن بفتيت من خيالها وانتحال نثرات من شاعريتها ليزعم أصدقاؤهن أنهن نسخ أخرى من مدام دي نواي . وهناك مصائب أخرى !

أما هي فتعرف نفسها بأنها ذات الألف ألف وجه وذات «القلب الذي لا يحصى» . هي روح فيحاء تأخذ بوحدة الوجود (Pantheisme) ليس كنظرية أو يقين ، بل كنتيجة لاختباراتها الشعرية وحياتها الوجدانية المتوزعة على كل ما يرى ، المتغلغلة في كثير مما لا يرى . هي اللغز الإنساني الذي يواجه من الكون العظيم لغزا حافلا بما لا يعد من الألغاز فلا تفتأ تسأل العالم : «ما أنت ، يا هذا العالم ، وماذا تبتغي مني؟» . فيفضي بها الاستفهام والحياة في طلب الجواب إلى حالة زاخرة بالحزن وخيبة الأمل . ولكن التعبير عن هذه الحالة شعر لم يعرف تاريخ الأدب الفرنسي ما هو أحفل منه بالثروة الخيالية الملامسة للواقع ، والبيان المبتكر في تلوين وعزيف وإنشاد ، والعاطفة العميقة الوجيعة المرجعة جميع الأصوات وجميع الأصداء ، والهتاف الغنائي الحماسي المجنح بأجنحة الغيوب الضارب على كل ما عالجته الأجيال من الأوتار .

● هجعت بافلوفا الرشيقة

كآبتها سحرية غنية من ذلك النوع الذي كانت تثيره بافلوفا عندما تمثل في رقصها «موت البجعة» وحبذا لو نفحنا علماء اللغة بكلمة أجمل من هذه نسمي بها (Eygne) . هذه الرقصة ترقصها الآن كثيرات من الراقصات ولكنها كانت آلف ما تكون وسليقة بافلوفا[٦] الفنية . وربما كانت هذه النزعة إلى الكآبة ناجمة عن أصلها السلافي الروسي الذي يقربها من مدام دي نواي والمطلعون على النتاج الروسي سواء في الأدب والشعر والموسيقى خصوصا والتصوير يعرفون أنها جميعا تحمل طابعا مشتركا من بعد الغور والكآبة .

ولقد كانت بافلوفا وجوقتها من أفعل العوامل في ترقي الرقص الأوربي الحديث الذي أصبح فناً رائعاً يتعاون والموسيقى الكلاسيكية على تمثيل الحالات النفسية بل والأحوال الجوية أيضاً ، تمثيلا دونه الفن الكتابي في النظم والنثر . وقد شهدنا في الأعوام السابقة عدة جوقات أوربية على مسرح الكورسال تبدع من هذا النوع من الرقص ، وتأتي فيه بضروب من الجمال المتناهي والروعة الوصفية مما ينسينا رقص الأزواج المتخاصرة في كل سهرة وكل حفلة وكل

استقبال على جلبة الجازباند ذات الدوي والنعيق والصليل والعربدة الشيطانية .

● وفاة نائبة انجليزية

قوة الدكتورة ايثل بنثم(٧) العضو بمجلس العموم البريطاني المتوفية في هذا الأسبوع كانت مستمدة من يقينها أنها كانت تعتقد بافتقار المرأة إلى أنْ تتحرر نظريا وعمليا ، وكان نشاطها في الدوائر الاجتماعية متوافقا ويقينها ذاك . فقامت بالخدم الجُلّى نحو المرأة والطفل والفتاة العاملة في مختلف أدوار حياتها ، يساعدها في ذلك حنانها الطبيعي وثقافتها الواسعة ومهنتها الطبية ومقدرتها الخطابية . ولما كانت تقول بالمساواة السياسية بين الجنسين كان من البديهي أنْ تعتنق أقرب المذاهب السياسية إلى تحقيق رأيها أي مذهب الاشتراكية .

● مدام كولونتاي والسلك الديبلوماتيكي

هل هي سمعت قبل وفاتها شيئا عن مدام كولونتاي السفيرة الروسية لدى إحدى دول الشمال؟ لقد ابتهجت النساء لتعيين امرأة هي أول المبعوثات السياسيات في عصرنا . غير أنه لم يطل أنْ أنقل الفرح إلى شيء من الترح حيث استدعت حكومة السوفيت سفيرتها الجميلة من منصبها . وأخذن يتساءلن عن السبب . والأنباء تقول مرة إنَّ المبعوثة انتقدت بشدة غير دبولماتيكية أحد زعماء السوفيت في حين كان مركزها يقضي عليها بحفظ لسانها وكتمان آرائها الخاصة . ومرة تزعم الأنباء أنَّ السفيرة تعيش في ترف وبذخ لا يتفق ومبادىء الشيوعيين الروس .

نجهل السبب الحقيقي الذي قد يكون أحد هذين وقد يكون غيرهما . أفنصدق إذن رأي الرجال في علاقة النساء بالدبلوماسية؟ وهو الرأي الذي يلخصه لنا الأستاذ محمد وجيه بك في كتابه الممتع عن الدبلوماسية الحديثة المنقول عن الفرنسية ، حيث نقرأ صفحة ٤٧ :

« . . . نعم لا شك في حصول المرأة على بعض الصفات مما ذكرنا فيما تقدم مثل حسن الذوق ودقة الملاحظة لدرجة تفوق فيها الرجل . ولكن الرجل يمتاز عليها من ناحية التروي وضبط النفس ، ولا يمكن أنْ يكون الحال غير ذلك ما دام

للعواطف والميول الشخصية أثر كبير في حياة المرأة . لذلك لا يرضى المبعوث المتزوج بأن تشتغل زوجته بالسياسة إلاّ في الأحوال النادرة جداً ، وهذا لا يمنع من قيامها عند المناسبة بإذاعة أمر عمدا لمعرفة ما يحدثه من الأثر ، أو أنْ تعمل على ترويج فكرة معينة بذاتها . أما المهام الكبيرة المعقدة فمن الخطر أنْ يعهد بمثلها إليها» . .

«من هذا يتبين أننا لا نحبذ تعيين النساء في الوظائف الدبلوماسية أو على الأقل في المراكز الرئيسية ، إذ قد تصلح المرأة إذا اقتضى الحال للقيام بوظيفة سكرتيرة . والتجارب التي عملت إلى اليوم في هذا الشأن لم تصادف نجاحا . بل تبين منها أنَّ ميدان السياسة الداخلية أصلح لمجهودات المرأة من الدبلوماسية . وبالإجمال فإنه لا مصلحة للحكومات في قلب العادات المستقرة منذ قرون وفي التعرض للسخرية مع وضع ممثلها (المرأة) في مركز حرج . .» .

هذا رأي يؤيده فيه رجال كثيرون كما نعلم ، على أننا لا نبغي هنا إثبات صلاحية المرأة للمراكز الدبلوماسية وغيرها أو تقديم الأدلة على مقدرتها في ضبط عواطفها كما شهد بذلك الذين رأوها طبيبة وممرضة وجرّاحة وقاضية وطيّارة وغير ذلك . ولكن نقتصر على إبداء هذه الملاحظة وهو أنه يحدث لكثيرين من الممثلين السياسيين مثل هذا الحادث فينسب ذلك إلى خطأ شخصي صدر عنهم . وأما إذا ارتكبت مدام كولنتاي ذلك الخطأ فالرأي العام لا يرى فيه هفوة شخصية فردية بل يقول عن الجنس النسوي كذا وكذا . .

ولكن هو الرجل الذي يقول . والرجل كما نعلم حكَم عادل . .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٥٧٤ ، ٢٦ يناير ١٩٣١ . ص١

١- المقصود كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» (١٨٩٩) .

٢- Anna de Noailles (١٨٧٦-١٩٣٣) . كاتبة فرنسية . كان والدها من أصل روماني توفي وهي في التاسعة من العمر . أعجبت بألفريد دي موسيه ولكنها اعتبرت فيكتور هيجو أباها الروحي . لم تنشر إنتاجها إلاّ بعد زواجها ،

فنشرت ديوانها الأول عام ١٩٠١ وروايتها البكر عام١٩٠٣ .

٣- Nicolas Boileau (١٦٣٦- ١٧١١) . أديب وناقد فرنسي . ولد في باريس ودرس الحقوق في جامعتها . هجر المحاماة لأجل التفرغ للأدب . اشتهر في أول الأمر بأهاجيه . كانت له علاقات صداقة مع راسين وموليير ولافنتين .

٤- Pierre Corneille (١٦٠٦-١٦٨٤) كاتب مسرحي . ولد في روان وتعلم في المدارس اليسوعية ثم درس الحقوق في جامعة باريس . اشتهر بتراجيدياته التي منها «السيد» و «هوراس» و «سينا» . عربت هذه المسرحيات في بداية المسرح العربي الحديث .

٥- Jean Racine (١٦٣٩-١٦٩٩) . شاعر مسرحي فرنسي . التحق بجامعة باريس وتعمق في دراسة الأدبين اليوناني واللاتيني . له «استير» و «فيدر» و «أندرواك» . عربت هذه المسرحيات في المرحلة المبكرة من تاريخ المسرح العربي الحديث .

٦- Anna Pavlova (١٨٨٢-١٩٣١) . راقصة روسية . ولدت لعائلة فقيرة في بطرسبرج بروسيا . توفي والدها وهي في الثانية من العمر . دخلت مدرسة للرقص رغم اعتلال صحتها . ساحت في الدنيمارك والسويد وألمانيا وبولندا والنمسا . شكلت فرقتها الخاصة للرقص عام ١٩١٣ . توفيت في بريطانيا .

٧- Ethel Pentham طبيبة وعضو مجلس الشيوخ في بريطانيا بدءا من عام ١٩٢٩ . درست الطب في لندن وبروكسل وباريس .

خطابان خطيران

للزعيم التونسي الأستاذ الثعالبي ولمولانا شوكت علي

قرأنا هذين الخطابين بما هما جديران به من الاهتمام والعناية والاحترام ، ومع أنّ خطاب الأستاذ الثعالبي ، كما نشرته الصحف في وصف الاجتماع الذي أقامته جمعية الشبان المسلمين أوفر إسهابا ، فإنه الجوهر وفي طائفة غير يسيرة من التفاصيل ، متوافق وخطاب مولانا شوكت علي . فحمدنا للأستاذ الثعالبي بيانه عن روح السلم والسماحة في الإسلام ، كما حمدنا لكل من الزعيمين الكبيرين محبتهما لهذا الشرق العظيم ورغبتهما في إنهاضه وتحريره وإسعاده باستعادة مجده السالف ليكون مؤثرا في الأمم دون الاقتصاد على تلقي التأثير منها . وبديهي منا الاهتمام والحمد ونحن عناصر من هذا الشعب تنادي اليوم جميعا بالتكاتف والنهوض والسير إلى الأمام ، لأننا أدركنا هذه الحقيقة الحيوية ، حقيقة التفاعل الثقافي والاجتماعي والبيولوجي وغيره بين أبناء البلد .

وقد استوقفنا من خطابي الزعيمين القول الواحد الذي يعني وجوب مقاطعة كل فكرة جديدة وكل أسلوب مستحدث والاكتفاء بما خلفه الماضي من الأفكار والأساليب ووسائل المعيشة .

استوقفنا ذلك القول -نحن الذين درسنا تاريخ الإسلام وأكبرنا الخدم التي قدمها الإسلام للعالم -ذكرنا أنّ الإسلام لم يكن منذ نشأته إلاّ متحركا ، سائرا ، مجددا ، مستفيدا من كل ما تحسن الاستفادة منه . ذكرنا أنّ الإسلام بفضل استيعابه حكمة الإغريق وعلوم اللاتين وتلخيصه آداب الفرس والهنود وغيرهم استطاع أنْ ينمي آدابه وعلومه وحكمته مرتكزا على وحي الكتاب الكريم ،

فأسس الجامعات الأولى التي كان يتعلم فيها المسلمون وغير المسلمين واستطاع أنْ يكون رابطة الثقافة والنور بين حضارات الماضي وحضارة الحاضر .

وها هي ذي الهندسة الإسلامية نراها ماثلة في الجوامع الفخمة الأنيقة تحفة فنية تباهي العصور ، فنعلم أنها مقتبسة من هندسات بنائية شتى عرفت المدينة العربية أنْ تؤلف بينهما بسليقة فنية ناضجة دقيقة وتطبعها بطابعها الخاص فأصبحت طرازا بنائيا خاصا بين مختلف العمارات .

ولنجز في لمحة واحدة جميع العصور السالفة لنصل إلى يومنا هذا ناظرين مثلا إلى بنك مصر الذي نباهي به جميعا ونعتز برجاله البررة الأماجد ونعتقد أنه مع الشركات التابعة له من أهم أسس الاستقلال والنشاط في البلاد . ترى أكان طلعت بك حرب وإخوانه يستطيعون أنْ يفوزوا بالتفاف الشعب حولهم وأن يجابهوا ببنكهم وشركاتهم المعاهد المالية والصناعية الأجنبية لولا أنهم عرفوا أنْ يأخذوا بنفس النظم الجديدة منتفعين بالمستحدثات العصرية من أدوات وأساليب وترتيب؟ وهذا المجلس الصحي الاستشاري الذي قرر سعادة الدكتور شاهين باشا ، طبيب الأسرة المصرية الشاملة وأعوانه في مصلحة الصحة ، دعوته وعقده ليدفعوا عن القطر المصري شر الانفلونزا الفاشية في بعض الأقطار الاوربية -أيكون عمله مستنكرا لو هو استعان بوسائل الوقاية الحديثة واتخذ الإجراءات اللازمة لصيانة البلاد من الوباء الداهم؟

والدكتور علي ابراهيم باشا ،«الجزار الرحيم» الذي هو أحد أعضاء هذا المجلس ، ماذا عساه يصنع إنْ هو لم يأخذ في عملياته وعلاجاته بالطرق المستحدثه كل يوم في تشخيص العلل والجراحة والطب واصطناع كل مستحدث مفيد من الأدوات والأجهزة والالآت والعقاقير الطبية؟ وهل أخذ جميع هؤلاء الأفاضل بهذه الوسائل الحيوية يعد« تقليدا »؟ أم يعد علما وخيرا وبركة؟ أم هو بالحري واجب لازب لتأدية العمل على وجه الكمال الميسور وإتقانه الإتقان المطلوب؟ إننا مع محبتنا للزي الشرقي الجميل ومع استحسانه لطائفة من رجال الدين والعلماء ، نتساءل هل هو يستحسن لباسا للمجموع؟

وإذا وجب على المجموع مقاطعة الزي الذي نسميه أوروبيا أفلا يجب كذلك مقاطعة سائر مرافق المعيشة؟ تجب مقاطعة السيارة والقطار والباخرة ، ومقاطعة النور الكهربائي للاستضاءة بنور الشمعة أو السراج القديم ومقاطعة التلغراف اللاسلكي وربما السلكي أيضا والتليفون والمطبعة . . . إلى ما لا نهاية له من وسائل المعيشة الراحة والوقاية والتعليم والثقافة في صيغها الجديدة .

إنَّ الأقدمين من الاغريق والرومان كان لباسهم أقرب إلى الزي أو الأزياء الشرقية الحديثة . حتى الانجليز والفرنسيس والألمان وغيرهم من الشعوب التي جاءت بعد عصور اليونان والرومان ، كانوا جميعا يصطنعون أزياء هي غير الزي الذي شاع اليوم بينهم كما شاع بين خلفاء اغريقا وروما من اليونان والطليان وما ذلك إلاّ لأن هذا الزي أنسب لمقتضيات العصر وأوفق لما تتطلبه الحياة الراهنة من سرعة الحركة والانتقال والاقتصاد في نفقات الملابس أيضا .

وها هي اليابان التي ليست بالدولة الإسلامية ولا بالمسيحية ؛ ومع أنها لا تزيد على الخمسين مليونا إلاّ قليلا ، فهي الدولة الشرقية التي تحسبها دول أوربا من مرتبتها في الحرية والاستقلال والجانب المرهوب والكلمة العالية والصوت المسموع فما الذي وصل بها إلى هذه المكانة التي تحسد عليها؟ إنها اقتبست كل ما يحسن اقتباسه من العوامل الجديدة وتلقفت بذكاء وسرعة مستحدثات الغرب وأخذت تنشيء في هاتيك المناهج وتبتكر حتى تمكنت من الوقوف أمام الدول القوية علما بعلم ، وأسطولا بأسطول وتجديدا بتجديد ، وهي مع ذلك لم تنبذ دينها القديم حتى ولا أقلعت عن طائفة من تقاليدها السحيقة ، على نحو ما جاء في محاضرة قنصل اليابان بالاسكندرية منذ أسابيع قليلة . فهل يحسب هذا فناء لليابان أم هو انتعاش وبعث تتمنى مثله الشعوب الإسلامية وكل شعب مغلوب على أمره؟

أقول« كل شعب مغلوب على أمره » لأنه جاء في خطاب الزعيمين الجليلين أنَّ دول الغرب تتقصد الشعوب الإسلامية بوجه خاص . والواقع أنَّ الدول القوية ترمي إلى السيطرة على كل شعب ضعيف مسلما كان أم مسيحيا أو غير ذلك .

ودليلنا الحاسم هو الهند والمسلمون فيها أقلية والهندوس أكثرية وأية أكثرية . هل هي الآن على حالها إلاّ لأن انجلترا يوم أن وضعت يدها عليها لم يكن للهند من الحول العلمي والطول الميكانيكي والصناعي ما يرد عنها هجمات الهاجمين؟

وبين دول الغرب اليوم من التناشز والتنافر والطمع ما بينها مع أنها جميعا مسيحية وقد اشتبكت فيما بينها بالحروب الدموية مرات عديدة في أدوار التاريخ والسبب مرة التنافس على المستعمرات ومرة اقتحام إحداها أو بعضها أرض جاراتها الأوربيات والرغبة في ضمها إلى أملاكها . وحسبنا أن نذكر منها هنا الألزاس واللورين التي ما زالت سببا للخلاف ، وبلجيكا وهولندا اللتين لم تتمتع كل منهما باستقلالها إلاّ منذ قرن وبعض قرن فقط . وبولندا التي يتوقعون منها كل يوم تطاير الشرارة التي تلهب القارة الأوروبية بأسرها . وهناك مشاكل ايطاليا وفرنسا التي ليست قاصرة على الممتلكات الآسيوية والأفريقية بل أهمها بينهما في قلب القارة الاوربية . وأما مشاكل بلقانيا فهي عديدة ولا نرى للأديان فيها يدا ، بل هي اقتصادية أو هي توسعية طلبا للموارد الاقتصادية في صميمها . وللوقوف في وجه القوي المقتحم من أي النواحي أقبل ، وسيلة واحدة : هي اصطناع وسائل العلم والميكانيكا والكيمياء والصناعة وغيرهما على النحو الذي تفوقت فيه أوربا وهي منه كل يوم في تجديد وابتكار . بل إنَّ الدول الاوربية لا تتنافس فيما بينها وتبغي التغلب وبسط السلطان إلاّ بواسطة هذه الوسيلة المتعددة الوجوه والفروع . أما «التقليد» فلا يترددون في اقتباسه إذا كان مفيدا ومثال صغير لذلك ، أنَّ خلال الحرب أدركت بعض الدول أنَّ أزياء جنودها ذات الألوان الزاهية أو البارزة كانت تجعلهم أكثر تعرضا لنار الأعداء فسارعت إلى استبدالها بلون «الكاكي» دون أنْ تبحث أي الدول كانت أسبق إلى استعماله ودون أنْ تخشى الاتهام بالتقليد .

هذه هي ملاحظاتي وإن أنا أقدمت على بسطها فلأني لا أرى في الزعيمين الكبيرين إلاّ ما عهدناه في كبار علماء الإسلام من رحابة الصدر وسعة المدارك

ودقة الملاحظة والنظرة الشاملة إلى حالة العالم والدوافع الجوهرية التي تسوق الشعوب . ولأني أعتقد أنه مع وجوب المحافظة على الصميم القديم من المبادىء والأفكار والتقاليد لا نهضة حقة للشرق إلاّ باقتباس المفيد الحيوي من الوسائل الحديثة التي يخلقها العلم والاختراع والابتكار والاكتشاف في اطراد عاماً بعد عام وفي متعدد الفروع والأبواب .وهي بعد ملاحظاتي منذ درست تاريخ الحضارة فأكبرت ما حواه الإسلام من المبادىء الشريفة والعواطف الإنسانية السامية وقدرت فضله في خدمه الجلّى لترقية العالم كما أنها تعجب بنهضة أبنائه اليوم للدفاع عن كيانه .

. . . وملاحظات مَنْ تشعر هي كذلك بالحاجة الوجيعة إلى أنْ يكون لها وطن . .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٥٨١ ، ٢ فبراير ١٩٣١ . ص١

١- محمد طلعت حرب (١٨٧٦-١٩٤١) . اقتصادي ومفكر مصري . ولد في القاهرة . بعد تخرجه بمدرسة الحقوق عمل مترجما فمديرا لبعض الشركات التجارية . أنشأ «شركة التعاون المالي» عام ١٩٠٨ التي شجعت الصناعات الوطنية ودعمت الفرق المسرحية وخاصة فرقة الإخوان عكاشة . أنشأ «بنك مصر» عام ١٩٢٠ . هاجم أفكار قاسم أمين فيما يتعلق بمكانة المرأة في المجتمع كما يتضح في كتابه «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» و «تربية المرأة والحجاب» .

كلمة الآنسة مي
في تاريخ الحركة القومية

أرسلت الآنسة النابغة (مي) الكتاب الآتي إلى الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي جواباً على هديته لها الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد علي) .

«وأية هدية هي يا أستاذ !

«إنها الهدية الخطيرة الشأن حقاً . بالعقل الشامل الذي استطاع أنْ يلم شمل هذا التاريخ ويجمع شتاته . بالنظر الثاقب الذي فاز بإرسال أشعته إلى كل منقول في هذا الموضوع وكل مجهول . بالقلم الرصين الذي اهتدى إلى الانشاء الناصع البسيط المجرد من المجازات والاستعارات وعمد إلى اللهجة التقريرية التي يجب أنْ يكتب فيها التاريخ . وبالروح الوطنية التي لا تعني بوقائع الماضي إلاّ لتتطرق بها إلى ما ينبغي أنْ يرمي إليه الحاضر . وبالمجهود العلمي ، بالأمانة التاريخية ، بالدقة ، بالإحكام . بكل ما في السفر من علم وعناء وصبر وثبات وإحاطة .

«أشعر وأنا أتصفح هذا الجزء بأنه وما سبقه ليس إلاّ التمهيد الحصيف للجزء الرابع الذي سيتوج الأجزاء جميعا .

«ولئن أنا قدرت كل ما في هذا الجزء قدره فكم هي مؤثرة تلك السطور الوجيزة التي يسوقهاالأخ النبيل البار إلى الأخ النبيل البار في يوم ذكراه .

«أرجو قبول شكري الحار لتفضلك بإتحاف مكتبتي بهذه الثروة النفيسة -مشفوعا بشديد الإعجاب وعواطف الإكرام .»

ميّ

الأهرام .س٥٧ ،ع١٦٥٨٣ ، ٤فبراير ١٩٣١ .ص١

ثلاث ذكريات في ذكرى

جيوزني فردي ورواية "عائدة"

ودار الأوبرا الملكية بالقاهرة

مثلت البارحة الفرقة الإيطالية رواية «عائدة» في دار الأوبرا للمرة الأولى في هذا الفصل . وبينما عالم الموسيقى يذكر أنه قد مر ثلاثون عاما على وفاة «فردي»[1] نذكر نحن هنا أنْ قد مر كذلك ستون عاما على تمثيل رواية «عائدة» التي أنشئت خصيصا لمصر . وفردي هو أحق الملحنين الافرنج بأن يتداول اسمه المصريون لأن ذكره يمتزج بتاريخ تشييد دار الأوبرا التي وإن كانت أحيانا سببا للشكوى من جانب ممثلينا ، فهي على كل حال مؤسسة ثابتة لا بد أنْ ينال منها يوماً المسرح المصري كل بغيته وكل حقه .

ولا بأس من الإلماع إلى المقابلة التي يعمدإليها المؤرخون بين القاهرة «وبايروت» (Bayreuth) البافارية رغم الفوارق التي تعترض السبيل . فدار الاوبرا في تلك المدينة بالمانيا شادها لويس الثاني[2] ملك بافاريا خصيصا لروايات «فاجنر» الغنائية . ودار الأوبرا بالقاهرة شادها الخديوي اسماعيل خصيصا لتمثيل رواية «عائدة» ، أو أنَّ سموه كلف «فردي» بتأليف «عائدة» لتكون أول ما يمثل على مسرح الاوبرا الجديدة من الروايات الغنائية .

وكان المنتظر أنْ تمثل «عائدة» هنا سنة ١٨٦٩ إلاّ أنَّ ماريت باشا (ماريت بك يومئذ) الرجل العظيم صاحب الأيادي البيضاء في عالم الآثار المصرية وصاحب «السيناريو» في رواية «عائدة» كان قد شخص إلى باريس لإحضار معدات الرواية وكل ما يقتضيه تمثيلها من ملابس وحلي وأدوات مسرحية وغيرها فنشبت الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا إبان وجوده في عاصمة بلاده فحال ذلك

دون رجوعه . فمثلت روايات أخرى في أوبرا القاهرة ولم تمثل «عائدة» إلاّ بعد عامين اثنين ، أي في ٢٤ سبتمبر ١٨٧١ .

معلوم أنّ حوادث هذه الرواية تقع في مدينتي منفيس وطيبة في عهد الفراعنة الأقدمين فتخرج خلالها مصر ظافرة من حربها مع الحبشة . بيد أنّ البطل رداميس قائد الجيوش المصرية لم «يخرج» في نهاية الرواية وحبيبته عائدة ، ابنة ملك الحبشة الأسيرة إلاّ إلى الموت . وإننا لنذكر عدة مواقف من هذه الرواية هي غاية في الفتنة والروعة ، لا سيما موكب الجيوش المصرية و«المارش» التي كثيرا ما تعزفها الاركسترات المصرية فضلا عن الأجنبية وحبذا لو كان النشيد إلى الاله «فتاح» أقدم آلهة مصر أكثر شيوعاً بيننا . وكذلك النشيد الفخم لمصر :

«المجد لمصر ! ولايزيس –التي تخفر الأرض المقدسة– وللملك الذي يحكم الدلتا– فلنرفع أناشيد الابتهاج»(٣)

الحرب والحب ، الغيرة بين امرأتين تحبان رجلا واحداً ، تفطر الرجل الباسل بين حبه لوطنه وافتتانه بخطيبته ، حكم الظواهر بدسيسة من المرأة المهجورة على البطل بالخيانة وهو المخلص الأمين ، عظمة مصر ، جلال هياكلها ، وصف ديانتها وتقاليدها والهتها وكهانها وطقوسها ، فوز الحب في النهاية رغما عن الشقاء والظلم ورغما عن الموت القاهر : في كل فصل من فصول «عائدة» وفي تفاصيل الرواية ومجموعها بيان شائق جليل لكل أولئك . وفيها تتجلى مقدرة فردي وإبداعه الفني في أروع المظاهر .

كان فردي قد أنشأ عدة أوبرات من قبل ثم لزم الصمت أربعة أو خمسة أعوام ليفاجيء عالم الموسيقى برواية «عائدة» حيث بدل كثيرا من طرق تلحينه السالفة . فظهر ملما بجميع أسرار الفن مالكاً لأزمّة التصرف الغنائي في تنويع أساليب الإنشاد وتقدير المواقف وبراعة التعبير عن كل منها في توسع وتدقيق جميعا ، وفي استكمال أقسام الأوبرا عموماً وإتقان تلاؤمها فضلا عن قوة الفكرة الموسيقية وجلائها ونبلها الفني ومبلغ تأثيرها العميق .

ذلك أنّ فردي ، إلى جانب عبقريته ، قد امتاز بما ندر في خلق الملحنين عموما من حيث مقدرته على نقد نفسه وتهذيب فنه ، دون الاهتمام بإرضاء

الجمهور . إنه كان شغوفا بمثله الأعلى على الفن وشغوفا بأن يخرج من نتاجه الموسيقي ما يتطابق وذلك المثل الباذخ . ولم يغتر بما صادفه من النجاح العظيم بل ظل مجاهدا في تسلق مراتب الإتقان والإبداع وجاءت كل من أوبراته مرحلة نحو الغاية السعيدة التي يلج في طلبها ويجاهد للوصول إليها . إلا أنَّ مبدأه الفني لم يتغير . فكان دائما يرمي إلى اكتناه الحياة واستيعاب حلاوتها ورهبتها وأن يترجم بقوة ودقة عن العواطف الأساسية غير المركبة وغير المبهمة . ومن البداية إلى النهاية ظل ملاحقا ذاتيته يستمد من قرارة نفسه ومن إحساسه الفياض الطروب مثله الفني ووسائل الإفصاح عنه . وتبدو موهبته الكبرى في بحثه عن المعنى المفجع وفي بلاغته في وصف الروعة الحسية والعاطفية الجريحة الدامية . أما الموسيقى العقلية التي أبدع فيها بين الألمان فاجنر فهو لا يزاولها وكأنه يحب أنْ يتجاهلها . ولذلك نرى الطبيعة الشرقية حتى التي لم تتلق ثقافة موسيقية تذكر ، قريبة إلى التأثر بفن فردي في حين هي لا تفهم شيئا من فن فاجنر . وقد نجح في «عائدة» نجاحا باهرا في لمس مواقع التأثير الغرامي والوطني والحماسي من النفوس فعالجها وروضها وأخضعها لسيطرته الشجية القاهرة . وعلى ذكر فردي نذكر للذين يهمهم الأمر من الموسيقين والأدباء الملمين باللغة الألمانية أنَّ بين الكتب الأدبية الالمانية التي صادفت رواجا في العام الماضي رواية عن فردي بقلم الكاتب الالماني فرنتز فرف[٤] حيث جعل المؤلف العبقريين العظيمين يتلاقيان وكأنما هو أراد أنْ يقول في كتابه أنَّ فن فردي كان خاتمة لحقبة موسيقية مدبرة بينا فن فاجنر كان فاتحة لحقبة موسيقية مقبلة .

ما هو وجه الصواب من هذا الرأي؟ كثيرون لا يترددون في البت فيه ولكن الإحجام خير . وعلى كل فإن فردي هو آخر عظماء موسيقي ايطاليا في القرن الماضي الذين لم يتغذوا إلاَّ من موسيقاهم القومية دون تلقي الوحي من موسيقي غريبة . وهو مع زميله ومعاصره «روسيني»[٥] قد أثبت مرة أخرى أنه ابن بلاد تعرفت من الموسيقى جميع معجزاتها وآياتها في ترانيمها وأغانيها الوجدانية

وأناشيدها الحماسية في الثورة والحرب والاستبسال والمفاداة . تلك البلاد التي في أدوار اليقظة والجهود جميعا ما فتئت تفاجىء العالم بالطرائف والنفائس من عبقريتها الفاتنة .

والكلام عن كل ذلك يحملنا على التمني . نتمى أنْ نرى في عهد قريب نابغة مصريا يتحفنا بأوبرا تامة خليقة بمجد وطنه وبنهضة أمته . أوبرا لا نستمع إليها ونثني عليها بعاطفة التسامح والتحزب بل نقدرها بروح الصد والإنصاف ونعجب بها مرغمين لأنها تستطيع أنْ تجابه موسيقى الشعوب الأخرى دون خجل ودون تلمس الأعذار ، إذ لا بد أن ينمي كل شعب موسيقاه الخاصة وينضج فنه ويستغل كل شخصيته الفردية والقومية قبل أن تتحق له هذه الكلمة المأثورة عن فردي :

«قد يجيء يوم فيه لا نتكلم عن التنغيم والتلحين في المدارس الموسيقية الألمانية أو الإيطالية أو غيرها ، ولا نفرق بين مدارس المستقبل والماضي وما بينهما ، وعندئذ يتيسر لدولة الموسيقى العامة الشاملة أنْ تسوس بسلطانها جميع الشعوب على السواء . »

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ١٦٥٩٥ ، ١٦ فبراير ١٩٣ . ص١

١- Giuseppe Verdi (١٨١٣-١٩٠١) . مؤلف موسيقي ايطالي . ولد في إحدى قرى مقاطعة بارما بإيطاليا ، وفيها تلقى مبادىء العلوم على يد كاهن القرية . انتقل إلى مدينة ميلان متابعا دراسة الموسيقى . قضى الفترة ما بين ١٨٤٧ و١٨٤٩ في باريس . قام بتلحين الاوبرا «عايدة» التي ألفها أنطونيو جزلانزوني عام ١٨٧١ بناء على طلب الحكومة المصرية لتقدمها بمناسبة افتتاح قناة السويس .

٢- Henry II (١٨٤٥ - ١٨٨٦) . ملك بافاريا . ولد في ميونيخ واعتلى العرش عام ١٨٦٤ وهو في الثامنة عشرة من العمر . وفي عام ١٨٦٦ اشتبك في حرب بروسيا خرج منها مهزوما .قرّب إليه الموسيقى فاجنر وأسبغ عليه العطايا والتشجيع .

٣-هامش الكاتبة - Gloria all'Egitto; d iside-Che il Sacro Suol Protegge

Al Re che il Delta regge-Inni festosi alziam

٤- (هامش الكاتبة) Verdi Roman der Oper von Franz Werfel

٥- Gioacchno Rossini (١٧٩٢-١٨٦٨) . موسيقي ايطالي . بدأ حياته الفنية مؤلفاً لأوبرات هزلية . أشهر مسرحياته «حلاق اشبيلية» .

«اسبانيا اليوم»

كما يصفها الصحفي الاسباني

دون خايمي دي ارخيلا

في محاضرته مساء السبت بدار المدرسة الإسبانية

يظهر أنّ هذه المدرسة الجديدة عولت على نشر دعايتها بتعليم اللغة الاسبانية الجميلة التي هي الآن مع الإنجليزية أوسع اللغات الأوربية انتشاراً في العالم ، وبتنظيم سلسلة محاضرات بهذه اللغة افتتحها مساء السبت دون خايمي دي ارخيلا بحضور سفير دولة اسبانيا وقنصلها بمصر ، كما حضرها سفير ألمانيا الذي سمعته يتكلم الإسبانية ، وجمهور كبير من الجالية الاسبانية وبعض الغرباء .

وقد اختار المحاضر موضوعاً لا نغالي بوصفه بالحرج الملتهب نظرا لما تحمله إلينا الأنباء عن الحالة في اسبانيا وعواملها الخطرة وكل ما يكنه معنى الثورة السياسية من قلق واضطراب وتهديد وجموح واسترسال . وحراجة الموضوع والتهابه أرهفا فيَّ الرغبة في الحضور لأعلم من أحد الاسبان الآتين من اسبانيا شيئا عن حالة «اسبانيا اليوم» .

أدركنا في الحال أنَّ المحاضر لا يخلو من اللباقة إذ هو يتبسط في الكلام عن اسبانيا الأمس ويتحصن في موقف الدفاع ضد الكتّاب المختلفي الجنسية الذين لم يروا فيها إلاَّ البلد الهازج الساهي المتحذلق الغافل عن حقائق الحياة والأمي الجاهل غير المثقف ، وإلا فهي في نظرهم «اسبانيا السوداء» المسيطرة عليها أحكام السحر الأسود ذات التعصب الديني والغطرسة الاجتماعية التي تعمل فيها

الدسائس وشفار الخناجر والأساطير المفجعة ومحاكم التفتيش ، فقال المحاضر إنّ اسبانيا تلك لا وجود لها في غير مخيلات المتحاملين المفترين من الكتّاب الذين يتصدرون لوصفها عن جهل أو عن سوء نية .

المحاضر يتكلم . «وأنا يخيل لي أني أصغي إلى خطيب شرقي غضب لكرامة قومه فقام يدافع عنهم حماسة ونخوة . ها ! إذن ليست هي مصر وحدها ولا هي الأقطار الشرقية الأخرى التي يروق لبعض كتّاب الفرنجة أنْ يصفوها من أحد وجوهها أو مما يظنون انه أحد وجوهها مقسمين أنه هو كل ما فيها . فهذا زجل إسباني يترافع عن بلده المحاذي لفرنسا والبورتغال ، المحسوب (بحق وحقيق) بلداً أوربياً وجلالة الجالس على عرشه من سلالة البوربون الأوربية .

قال المحاضر :

«احتملنا تلك الافتراءات في بادىء الأمر بكثير من قلة الاكتراث وعدم المبالاة ثم أخذنا نتساءل هل تلك حالنا حقا؟ ثم ضحكنا من تلك التهم ثم حصل عندنا رد فعل السخط محل الصبر وقمنا ندحض تلك الافتراءات مثبتين أنّ اسبانيا أعظم وأنبل وأوفر كرامة مما زعموا ، وأنها اليوم مستأنفة عمل اسبانيا بالأمس التي دونت الصفحات البديعة في تاريخ الحضارة ولم تكن يوماً عبئاً على كاهل الدول المتمدينة . أثبتنا أنّ محاكم التفتيش عندنا كان عدد ضحاياها دونه في محاكم التفتيش ببلاد أخرى سبقت محكماتنا . وأثبتنا أنّ بلادنا ليست خاضعة للرقاة والعرافين وممارسي السحر الأسود وأنْ لا خناجر فيها أو سيوف ولا لصوص ولا عجرفة ممقوتة أو تعصب ذميم . بل هي تقف في مصاف أعلى الأمم رقياً وثقافة وقفة المثيل بجوار المثيل .

«وإن لم تخل بلادنا من النقائص بل ومن الرذائل فهذه وردت إلينا مع الصادرات الباريسية والقطن الأمريكي والويسكي الانجليزي والكوكايين الألماني . نقائص ورذائل هاجمت تخومنا فتلقاها الجمهور بحب الاستقصاء والرغبة في الاختبار وباعتبار أنها تحمل طابع الرقي العصري .

«لكن فضائل الشعب الاسباني وحيويته وشجاعته وفروسيته وقوة إرادته التي

خطت به الخطوات الخالدة في سير الحضارة العالمية ، كل أولئك ليست من واردات الخارج ، بل هي فضائل ومزايا خاصة بنا وإرث أدبي وخلقي نباهي به بحق . وصوت اسبانيا يرتفع اليوم مجاهرا بأنه يحمل التبعة التاريخية من ماضيها العظيم بينا هي تسير بثبات وجلال نحو المستقبل .

«ولما أثبتنا ذلك صدقونا وأخذوا ينظرون إلينا نظرة الاحترام رغم كونهم رمونا بالكبرياء . وما كادت تتضاءل أصداء تلك الافتراءات القديمة حتى قاموا يشيعون أننا الشعب المضطرب المعربد الثائر ولكن هذه كما يقول كبلنج ، حكاية أخرى وسأحدثكم عنها بإيجاز . . .» .

تململ الحضور لتوقعهم الوصول إلى لباب الموضوع ، ولكن المحاضر لم يتخل عن لباقته السالفة فدار دورة شعرية وقال :

«تعالوا وشاهدوا اسبانيا اليوم فبعضكم يعرفها وقد أعجب بها . وأني لواثق من أنّ الذين يشاهدونها سيعودون إليها لأنها تترك في الذهن وفي النظر وفي القلب أثراً لا يمحى ورؤى كالأعاجيب جمالا ووجها لا تذبل نضرته .

«فهناك اسبانيا الأثرية المحتفظة ضمن حدودها ببقايا قرطاجنة وروما وهناك المسارح اللاتينية والقصور الويزيقوطية والكنائس القومية والجوامع الإسلامية وقرى القرون الوسطى حتى حصون عهد استرداد الحرية وآثار عهد التجديد ، تلك الحقبات التاريخية التي سارت اسبانيا خلالها جميعا تنشد استقلالها وتسعى لتكوين وحدتها القومية ، وكل تلك البقايا والمخلفات محاطة بهالة من سيطرة العظمة في موقع طبيعي فريد في العالم .

«وهناك اسبانيا الفنية ذات دور الآثار والمعاهد الملأى بالصور والرسوم واللوحات من نتاج عبقرية المصورين والفنانين . واسبانيا الأدبية التي مدت آداب جميع البلاد الحديثة بشعرها ونثرها وإبداعها وتاريخها وأريحيتها وغذت الفن المسرحي في العالم من أسطورة الرومانيرو (Rpmancero) القديمة وغيرها . واسبانيا الموسيقية ذات المكانة المعدودة في مملكة الألحان .

«واسبانيا التاريخية ذات الأسطول العظيم في الماضي التي حققت اكتشاف

العالم الجديد حيث استعمرت المسافات الشاسعة في أمريكا الجنوبية وخلقت الشعوب الجديدة النشيطة وهي شعوب رغم تبدل العلاقات السياسية ما فتئت تتكلم لغة اسبانيا وتذكر ثقافتها وفضلها وما فتئت تتصل بها اتصال الابناء بالأم الجامعة الكبرى .

«وفي اسبانيا اليوم تتحاذى وتتآلف بقايا الجمال القديم وآثار الفنون السابقة والحاضرة كما تتحاذى وتتآلف التناقضات الشائقة بين ثبات التقاليد السالفة ومستحدثات المدنية العصرية ، تهيمن عليهن جميعا فضائل الجنس الاسباني» .

نصغي بكل اهتمام إلى هذا الوصف الوثاب ، ولكننا لا نفتأ نتساءل في سرنا : ولكن اسبانيا اليوم يا سيدي؟

«اسبانيا اليوم؟ تعداد النفوس تناقص ولكن المساحات في اسبانيا مترامية الأطراف وفيها المواد الأولية واسبانيا مرهفة النشاط في العمل والتجارة والزراعة» .

. . . وغير ذلك يا سيدي؟

«يقولون إنَّ في اسبانيا ثورة ولكن لا ثوار عندنا سوى ما يسميه الفرنسيون ، فنحن شديدو التعلق بالنظام الملكي مسوقون إلى ذلك بطبيعتنا وبتقاليدنا وما نحن إلاّ أنصار حزب خالد : الحزب المعارض لكل اضطراب وكل تشويش . ورسالة اسبانيا السياسية والدولية تتلخص في طلبها السلم والسعي إلى الإخاء وحسن التفاهم بين الشعوب ليصل الجميع في انتظام إلى الرقي . . .» .

أجل إنَّ موقف المحاضر كان حقا حرجا نظرا لما تذيعه أنباء الشركات التلغرافية التي يظهر أنَّ روح الشر والظلام واللهيب قد تقمصت في أقلام محرريها وفي مدادهم . وربما كان في وسع المحاضر الفاضل أنْ يتلافى توجيه أنظار سامعيه إلى نقطة خاصة لو هو حذف الكلمة الثانية من عنوان محاضرته الحماسية فجعل العنوان قاصرا على كلمة «اسبانيا» فيحدث عنها ما شاء الحديث وما شاءت الذكريات .

إذ أنَّ كل اسباني بالطبع وكل غريب مثقف ألم باللغة الاسبانية يروق له أنْ يستمع محاضرة بهذه اللغة الرخيمة عن تلك البلاد الخلابة التي أجزلت لها الطبيعة العطاء فكانت ككل موهوب فردا كان أو امة أو بقعة من بقاع الأرض . .* يد الأقدار . .

ميّ

الأهرام . ص٥٧ ، ع١٦٥٩٦ ، ١٧ فبراير ١٩٣١ . ص١

* الأصل غير واضح .

خواطر متناثرة -٢-

● **الصغار في العيد**

العيد للجميع ، غير أنَّ أوفر الناس حظا فيه هم الصغار . ولهم كانت تدين القاهرة خلال الأيام السابقة بذلك الجو المفعم بأناشيد الغبطة والحبور .في طول المدينة وعرضها ، في الأحياء الوطنية وفي الشوارع الأوربية كانت أصواتهم تشدو وتهزج وترن إبان مرورهم جماعات جماعات ، صبيانا وصبيات ، محتشدين فوق «عربية كارو» لا يضيرهم ضيق المساحة ولا يأنف الجالسون منهم في الأطراف من إرسال السيقان خارج «العربة» ليفسحوا مكانا للراقص في وسطهم .

أي الأماكن هم ينشدون؟

هذا ما لا أعرفه . ولكن حسبنا الإبهام من هذه الألفاظ التي ينغمونها على وقع تصفيق الأكف المنتظم المتابع . حسبنا منهم هذه الألحان الساذجة القديمة ، وهذه الملابس الزاهية النظيفة التي يرتدون ، وهذه الأوضاع الدالة على المرح والنشوة البريئة في الرقص والوقوف والجلوس . حسنا هذه الأصوات الجذلى المحدثة عن قلوب صافية ، وهذه الأناشيد الموجدة جوا من الطرب اللذيذ والانتصار الذي لا يظلم مخلوقا ولا يؤذي أحداً بل يبعث في الصدور معاني الرضى والسرور ويثير في الجنان عواطف التأثر والحنان .

حسبنا منهم الوصول في سذاجتهم إلى أرقى ما ينادي به علماء الإنسانية من الرفق بالحيوان فإن بعضهم لا يخشى تشويه جلبابه النظيف أو ثوبه البهيج إذ يحمل على ركبتيه البرسيم المدخر لطعام الحمار ، وكأن الحمار نفسه يحس هذا السرور ويقدر من الصغار هذه العناية ويشعر بطاقات الأزهار المزينة أذنيه

فيجرى «بالكارو» وما تحمل في رشاقة وهوادة وكأنما هو يفاخر بأن يكون وسيلة من وسائل الجذل .

وبينما الجماعات تمر منشدة هازجة إذا بسرب من الطيارات يحلق في الفضاء ويملأ السماوات أزيزا وهديرا وعزيفا ، فكأنما هو يذكر هذه الناشئة الراغدة اليوم بما يتهيأ لها من الواجبات في الغد القريب .

الغد ! المستقبل ! ترى كيف تكون حال مصر بعد قرن في عيد الفطر سنة ٢٠٣١؟ هذا ما لا يستطيع البت فيه أحد وهذا ما لن يراه جيلنا ولا جيل هؤلاء المنشدين ، ولكن المحقق أنْ سيكون في هذه الشوارع أو التي ستحل محلها أطفال مصريون ينشدون في ملابس العيد ، وفوق رؤوسهم هذه المنائر الباذخة يدور فيها مؤذن الإسلام داعياً إلى الصلاة ومكرراً الله أكبر .

أجل ، بعد كر القرون وتطور العلم وتكيف الحياة سيقى أمران لا شك فيهما : مرح الصغار الموطد الرجاء في حيوية مصر ، ونشيد المؤذن الذي هو شعار الإيمان والعبادة !

● محاضرة السنيور بيكولي في الكورسال

آداب الشعوب جميعا تحاول الآن أنْ تصطبغ من الناحية الواحدة بالصبغة الجنسية ومن الناحية الأخرى بالصبغة العالمية التي تنطوي تحتها الإنسانية بأسرها ، إلاّ الروسيا وايطاليا اللتان تحاولان طبع آدابهما بطابع النظام السياسي المسيطر عليهما ، رغم اختلاف النظامين فيما بينهما ومقارنتهما الواحد للآخر .

روسيا السوفيتية تريد إيجاد آداب «بولشفية» لا نعرف منها نحن شيئا بحكم جهلنا اللغة الروسية وبخاصة بحكم الواقع ، إلاّ أننا لحسن الحظ نستطيع الإلمام بآداب ايطاليا ومسايرة حركتها الفكرية الجديدة والوقوف على آراء الكتّاب فيها والمفكرين ، فضلاً عن رجال السياسة ، الذين يريدون إلباس آدابهم قميصاً أسود دون أنْ يسلحوها بشعار «الليتوريو» وأن يجعلوا لها يداً ترتفع للتحية على الطريقة الرومانية الفخمة . فقد دعا موسوليني[1] قومه إلى أنْ لا يسموا حكومته بالقومية أو الوطنية بل «بالفاشستية» . والنظام القائم الآن هو «الفاشيستي» والنزعة الجديدة في التفكير والكتابة عند طائفة كبيرة هي «النزعة الفاشستية» .

وتقول الكاتبة الايطالية مرغريتا سارفاتي في كتابها عن موسوليني Dux أي الزعيم ، إنَّ هناك طرازاً «فاشستيا» للنظر في الأشخاص والأشياء وفي تسريح الشعر والمشي والوقوف والكلام والهتاف ، عدا «الطقوس الفاشستية» المستعملة في احتفالات الفرح والحماسة والحزن والموت ، فمفهوم أنْ يكون الطابع الخطابي الجديد طابعا فاشستيا .

وكذلك كانت محاضرة الكاتب الايطالي الشهير السنيور فالنتينو بيكولي عن «إيطاليا الجديدة» في مسرح الكورسال يوم الأحد الماضي . كانت تلك المحاضرة «فاشستية» في روحها وفي مرماها وفي أسلوب تفنيد التاريخ وتأويله كأنما كل ذلك تاريخ كان تسلسلاً منطقياً يستمد من الروح القديمة غذاءه الفكري والاجتماعي والفني في انتظار العهد الفاشستي .

«عندما أذكر روما- يقول المحاضر- لست أعني حضارة أو مذهباً سياسيا ولكني أعني قوة روحية وفيضاً نورانياً لم ينقطع من تقاليدنا في حقبة من الحقب بل كان يلوح ويضيء الوقت بعد الوقت في عوالم السياسة والأدب والفن والبطولة . فكان اسمه مرة دانتي ومرة مكيافيلي[٢] أو كافور[٣] أو فوسكولو وباريني وليوباردي وكردوتشي واورياني وكريسبي وغيرهم . عبقريات منفردة تجاهد في سبل مختلفة ولكنها جميعا متوحدة الرغبة في مكافحة الواقع الأيس وإيقاظ الهاجعين وبث الرجاء في نفوس المستائين الساخطين وفي تجديد نضرة إيطاليا الغبراء ايطاليا عصرهم ذات الارتباك والقحط والعوز وذات السياسة الضئيلة والدسائس العديدة والتسامح الأثيم في التفريط والكرامة .

«وما لاح فجر القرن العشرين إلاّ وشاعت في أرجائها حرارة روحية عظيمة : فشعر أهل الإنتاج والإبداع بأن الأدب والفن لا يستطيعان الانقطاع عن العالم في ملكوت خيالي بل عليهما أنْ يتمركزا بالاشتراك في الجهاد اليومي وأن يسيرا في معمعة الحياة المحسوسة في ميادين الاجتماع والسياسة والعلم والاقتصاد . وظل «الضمير الوطني» يبعث وينمو ويتطور قبل الحرب العظمى وخلالها في أحوال عسيرة مفطرة حتى ردت الحرب ، إلى ايطاليا حدودها الطبيعية دون أن تنيلها جميع مطالبها ، على أنها خرجت منها في تجدد روحي وحمية بالغة .

وقد خيل حيناً أنَّ الموجة الطاغية قد فازت باكتساح كل شيء وتدمير كل شيء لولا ظهور الرجل (يعني موسوليني) الذي عرف أنَّ «يريد» وأن يركز إرادته بعزم وصلابة ، فالتفّت حوله القوي الجديدة الجادة وسار تحت لوائه الشبان والأمهات وجميع الذين يمقتون التردد والدمار ، فخلق نورا جديدا ونظم الفاشستية تلك الحركة العظيمة التي بلغت حد الكمال في إيطاليا الدائمة الشباب الآخذة اليوم بكل مجد روما القديمة لتضيف إليه ما يعظمه من مجد طارف» .

وقد أبان المحاضر خصائص النظام الفاشستي وعناصره وأعماله البادية في المدن والقرى والمزارع والسبل حيث الحياة تجرب على اتساق جديد في نشاط وذكاء ودقة وإيمان زاخر . وذكر حل الإشكال بين رأس المال والعمال . ونوه بما يتربى عليه النشء من عواطف الاحترام للعائلة والحب والوطن والاستعداد للتضحية والموت دون طلب المكافأة ودون بحث عن الشهرة . وقال إنَّ هذا البعث العظيم الذي من بعض عناوينه عبقرية مركوني وبسالة بالبو (وزير الطيران الذي قاد أخيرا الأسطول الهوائي الإيطالي في رحلته إلى البرازيل) يتجلى كذلك في نشاط كل من عمال القلم وعمال اليد المتواضعين مما يجعل هذا العهد زاخراً بالآمال والوعود ويحمل الإيطاليين على المفاخرة بوطنهم النبيل وعلى العمل ليجعلوا نور روما متألقا في بهاء لم يسبق له مثيل .

والدكتور بيكولي الذي حضر إلى الاسكندرية بدعوة من الليسه الفرنسية ليلقي فيها محاضرتين بهذه اللغة هو حفيد المتشرع الايطالي مانتشيني الذي كان وزير الخارجية الايطالية إبان ثورة عرابي باشا في مصر ، لا «يتحمس» في خطابته ربما لأن شخصيته أدبية فلسفية في آن واحد كما تظهر في كتبه القيمة وربما لأن عليه تبعة الكاتب السياسي أيضاً . إن صوته لا ينطلق في نبرة رنانة ولا يخرج عن قراره الوادع الهادىء ، ويكتفي من حجج الإقناع بربط التسلسل التاريخي في مناعة وأن يحكم حلقات التأويل بجمل بسيطة قوية المبنى يسردها في جلاء فلا يفوتك من الألفاظ لفظة ولا يلتبس عليك معنى . ويشير الوقت بعد الوقت الإشارة المتوازنة النبيلة التي تفيض على المعنى قوة وبلاغة . ولرسم خط واضح من شخصيته أنقل هنا جوابه إلى إحدى الجماعات الأدبية التي استفتته وغيره من

الكتَّاب في شأن تنظيم الحركة الأدبية الجديدة وإصلاحها وبأي الوسائل يتم ذلك الإصلاح فأجاب : «الوسيلة واحدة : وهي تتلخص في إيقاظ الشعور بدرجات الذكاء ومراقب العبقرية في ضمير الكتّاب» .

● **مؤتمر النحل ونتائجه المنتظرة**

تحية إلى الدكتور أبي شادي[٤] الذي مع القيام بمهام وظيفته الرسمية يعرف أنْ يجد متسعا من الوقت لتأليف الكتب العلمية الموفورة الجدوى والأبحاث الطبية والفصول الأدبية وترجمة روايات شكسبير ونظم القصائد وتنسيق دواوين الأشعار ، وتحرير مجلة مملكة النحل والقيام بأعمال سكرتارية رابطة النحل بمصر ، والتراسل مع جماعات النحالة وأقطابها في الخارج وتأسيس أندية النحل وتربية النحل ودراسة طبائعه وعاداته ونشر الدعاية لترويج هذه الصناعة الزراعية النافعة في مصر ، وإفهام الذين يفهمون أنَّ النحل ليس «شريرا» بطبيعته بل هو وادع مسالم شأن كل مستغرق في العمل ، فلا يلسع إلاّ مضطرا للدفاع عن نفسه ، وأن مصر من أصلح الأقطار لتربية النحل نظرا لجوها وطبيعة أرضها ونباتها وأزهارها . أي شيء (يهمله)[٥] الدكتور زكي أبو شادي !

لقد أفلح في عقد مؤتمر للنحالة في مصر فكان هذا المؤتمر فوزا له ولإخوانه الذين يعنوان بتربية النحل منذ أعوام ، والجمهور ساه عن هذا المورد الذي يدر عسلا هو كل العسل بلا تورية ! وللدكتور دين على النساء لأنه خصهن بجلسة من جلسات المؤتمر ألقى فيها اختصاصي فاضل بحثاً عن النحالة والسيدات نرجو أنْ تذيعه لجنة المؤتمر على الجمهور مع كل ما ألقي من المباحث الأخرى في هذا الموضوع الشتيت . وقد جدد الدكتور بعنايته تلك فضل الرجل في إيقاظ المرأة في مصر ، ذلك الفضل العميم الذي غمرنا في الماضي وهو يغمرنا في الحاضر وسيظل حتما يغمرنا في المستقبل ، نسبح فيه مرة كالأسماك في البحر ، ونحلق فيه مرة كالأطيار في الجو ، ومرة أخرى ينقلب كؤوس أزهار فننقلب نحن نحلاً يجني منه عناصر الشهد . إنَّ شاء الله آمين !

نعلم علم اليقين أنَّ بعض السيدات المصريات في الأرياف يرغبن في تربية

النحل إلاّ أنهن يفتقرن إلى الإرشاد فليتوجهن إلى الدكتور أبي شادي بأسئلتهن .

فعنده ، لا عند جهينة (وإن غضب عليّ علماء اللغة جميعا) الخبر اليقين !

والنحلة بعد مخلوقة بغريزتها «فمينست» (ما ترجمة هذه الكلمة بالعربية يا أستاذ فكري أباظة؟) . فالجالس على العرش في كل فصيلة ملكة لا ملك (نقدم إلى السادة الرجال شيئا يشبه الاعتذار في هذا الباب !) . فالنحلة مثال للنظام الاجتماعي وتقسيم العمل والنشاط وتبادل الاستفادة أو الإفادة في كل ما تصنع . وهي تثبت في نشاطها تلك القاعدة الحيوية الجميلة أنّ المرء يعطي كما يأخذ وأنه يجب أنْ ينفع لينتفع . فما امتصت شيئا من زهرة إلاّ وأمدتها بقوة ونضرة جديدتين ولا أخذت عنصرا من عناصر حياتها . وهي تتناول من العسل كفايتها دون طمع وتترك الباقي للذين يعرفون كيفية استخراجه واستعماله في شتى المنافع والخدم والوسائل .

وفي الختام كما في الاستهلال ، تحية للدكتور أبي شادي . ولتحي النحلة المثل النسوي الجميل في كل حياة جميلة !

ميّ

الأهرام س٥٧ ، ع١٦٦٠١ ، ٢٤فبراير ١٩٣١ . ص١

١- Benito Mussolini (١٨٨٣-١٩٤٥) . سياسي ايطالي . شكّل الحزب الفاشيستي عام ١٩١٩ . تسلم زمام السلطة عام ١٩٢٢ . تحالف مع الزعيم الألماني هتلر فزجا بلديهما بالحرب العالمية الثانية . بعد هزيمته في الحرب أعدمه نفر من مواطنيه رميا بالرصاص .

٢- Niccolo Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧) . سياسي وفيلسوف ايطالي . ولد في فلورنسة بايطاليا . قال بأن الغاية تبرر الواسطة في سبيل تحقيق السلطان السياسي . له كتاب «الأمير» .

٣- Camillo Benso di Cavour (١٨١٠-١٨٦١) زعيم ايطالي . ولد في تورينو بايطاليا . ترأس الوزارة في سردينيا (١٨٥٢-١٨٥٩ و ١٨٦٠-١٨٦١) . عمل على توحيد ايطاليا .

٤- أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢-١٩٥٥) . طبيب وشاعر ونحال مصري . ولد بالقاهرة وتعلم في مدارسها . درس الطب في لندن . بعد عودته إلى الوطن عمل في وزارة الصحة ثم وكيلا لكلية الطب بجامعة القاهرة . نشر مجموعات شعرية عديدة .

٥- غير واضحة في الأصل .

شرف الاسم عند الروس
كما يروي حديثه كتاب قديم

مضى أكثر من ثلاثين سنة على الوقت الذي دونت فيه هذه الحادثة المفجعة وعج العالم خلال هذه السنين بالانقلابات السياسية والمستحدثات العلمية والتطورات الاجتماعية ، وتبدلت العقليات حتى لقد أصبحت الشقة بعيدة جدا بين جيل وجيل في كثير من المدركات . غير أنَّ فكرة المحافظة على شرف الاسم لم تتغير . فهل يا ترى يحذو جيل اليوم حذو أحد بطلي هذه الواقعة . ولشدة وقعها في نفسي ولأنها تترك عند كل مفكر ميلاً إلى الاستفهام . . . الذي يتعذر الجواب عنه . الجنرال جريموف المسكوفي قائد عظيم في الجيش القيصري الروسي وله ولدان : أحدهما القبطان نيقولا ، والآخر اسكندر الطالب بالمدرسة الحربية . وكان هذا يعيش عيشة الجرى والزهور والاستهتار بقدر ما كان أخوه البكر حازما رصينا جادا . وحصل جريموف الصغير على إجازة ثلاثة شهور مضى يقضيها بعيدا عن وطنه فما لبثت الألسن أنْ أخذت تتناقل أخباره وصارت سيرته السيئة حديث المجتمعات وتعددت الشكاوي إلى البوليس في شأنه ، إلى أنْ خسر في ذات ليلة المبالغ الطائلة على مائدة الميسر .

وكان أحد أصدقائه واسع الثروة فترقب خروجه يوما وسطا على منزله في رابعة النهار فكسر الخزانة الحديدية واستولى على كل ما وجده فيها من النقود والأوراق المالية . واتفق أنْ عاد صاحب المنزل في تلك اللحظة فضبط الفتى متلبسا بجريمته . واغتاظ هذا من انكشاف أمره وحرج موقفه فهجم على الذي كان صديقه بالأمس محاولا القضاء عليه ، إلاّ أنَّ الرجل كان قوي العضلات

فاحتدمت المعركة بينهما هجوما ودفاعاً وشعر الجيران والسابلة بحركة غير عادية في ذلك المنزل فهرعوا إليه يستكشفون الخبر فجاز الروسي بينهم في وسطهم وولي هاربا . بيد أنَّ البوليس استطاع أنْ يلقي القبض عليه في محطة السكة الحديد وهو يتأهب للرحيل . واستتبع ذلك ما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال من سوْق المتهم إلى المخفر فالحبس الاحتياطي فتقديمه لقاضي التحقيق في انتظار إحالته إلى محكمة الجنايات .

وقد أمضه كل ذلك وذكر شرفه وعلو نسبه فأخذ يبكي وهو يعاتب القدر الذي يعاتبه الجميع على السواء . حتى ذكر أخيراً أنه ما زال في الثانية والعشرين من عمره والحياة أمامه فسيحة الرحاب موفورة الممكنات . أجل ، إنه سيحكم عليه مع الأسف ولكنه سيخرج بعدئذ من السجن إلى الحياة الواسعة فيغير سلوكه دون أنْ يحرم مباهج العالم وملذات العمر . .

وبينا هو ينظر إلى هذا المستقبل البعيد دخل عليه السجان ينبئه بزيارة أخيه القبطان نيقولا . هذا ما لم يكن في الحسبان ! أوصلت صحف المدينة التي هو فيها إلى روسيا ووقعت تحت نظر أسرته؟ إنه هو الذي لم يكن يكترث لشيء أولأحد كان يحترم أخاه ويعجب بما هو عليه من استقامة في صلابة ونقاء سيرة وتقيد بالواجب ونخوة في مجابهة الصعاب . فبأي عين ينظر إليه وكيف يستقبله في هذه الغرفة ذات الجدران العارية والجو المملوء بذكريات الإثم وتقطّر اليأس ، فعاوده البكاء .

ودخل الضابط فتقابل الأخوان في سكوت مزعج قطعه الصوت المتهدج غضباً :

- لقد علمت بكل شي . علمت أنك سارق ومغتصب ومغتال . أكان من الضروري أنْ تولد أنت لتلوث اسماً ناصعاً كان دائماً مثال الآباء والأنفة؟ من حسن حظ والدتنا أنها توفيت قبل عشرة أعوام ولكن والدنا ما زال على قيد الحياة . هو الرجل المستقيم الشريف كيف يقابل هذه الصدمة .رفع المتهم نظره للمرة الأولى قائلا بصوت أجش :

ألم يصل إلى علم والدي أن . . .

– كلا ، إنه لا يعلم . لقد انتهت إليَّ أخبارك بطريقة خاصة فأقمت مساعدي نائباً عني في قيادة فرقتي وجئت لأراك .

صمت الضابط كمن ينتظر سؤالاً ولما ظل الآخر على سكوته ، استتلى قائلا :

– لم يذع إلى الآن خبر القبض عليك في وطننا نظراً لبعد المسافة . أصدقاؤنا يعرفونك في الإجازة ولن يرتابوا في أمرك إلاّ إذا انقضت الثلاثة الشهور دون أنْ تعود إلى المدرسة الحربية وكيف تعود وأنت ستمثل عما قريب أمام محكمة الجنايات التي ستحكم عليك بما أنت أهل له .

« . . . وهكذا سيرى الناس سليل آل جريموف ابن الجنرال جريموف الأشهر أحد أبطال روسيا ورجل الشرف الناصع والاستقامة الخالصة– سيرى الناس ابن ذلك الرجل في موقف المجرمين بين جنديين يحرسانه أمام محكمة الجنايات وهو يفضي إلى القضاة باعترافاته الفاضحة مسجلاً على نفسه بلسانه سرقة المنازل واغتيال الرجل الذي خالصه الود في بلد أكرمت وفادته واحتفت به كسليل أسرة شريفة . . . وسيرى الناس أخيراً هذا المتهم سائرا إلى الليمان حليق شعر الرأس عاري القدمين يزاول الأشغال الشاقة في ثوب المجرمين وهو نمرة بين نمرهم . . .

أتستطيع أنْ تقول لي ماذا عسي تكون النتيجة فيما يتعلق بأعضاء الأسرة الباقين؟» .

استحوذ على الفتى رعب شديد من جراء هذا الحديث وحدق في أخيه منتظرا إلى أين هو يريد أنْ ينتهي . فاستأنف الضابط :

– «سيرتد ذلك العار كله على حياة الباقين الأبرياء . سيرتد العار على والدنا الذي سيقتله الحزن والهوان . سيرتد العار عليَّ فلا أجرأ على مخاطبة أحد جنودي الذي سيقول لي ولو في نفسه :

اسكت يا أخا السارق والمغتصب والقاتل؟ بيد أنَّ الأمور لن تصل إلى ذاك الحد ولذلك حضرت . .»

نهض الفتى على قدميه والعرق البارد يتصبب منه وقد وسع الرعب حدقتيه فقال :

- ماذا تعني؟ ماذا تريد أنْ تعني؟

فكان الجواب أنْ أخرج الضابط من جيبه زجاجة صغيرة قدمها إليه بتحفظ كثير وهو يهمس :

-تجرع هذه فيصفح عنك أخوك . هذا سم الاستركين ينيلك الموت العاجل فيعلم الناس أنك انتحرت ويتيسر لأسرتك بعدئذ أنْ تعلل سبب انتحارك على ما تريد . . . بلدنا بعيد وسأرجو السلطات هنا بعد لف أوراق القضية أنْ تكتم الأمر ولن تقول الصحف شيئا . . . فالمهم أنْ تتوارى أنت قبل ذيوع الفضيحة . كن على الأقل الآن سليل أسرتك واعرف أنْ تفكر عن آثامك ! خذ ! اشرب !» .

جعل الفتى ينظر إلى أخيه بعينين وجيعتين جالت فيهما أمارات الرعب والخجل وتغلب عليهما شيء من الرجاء ثم شبك يديه في إشارة توسل واستعطاف إذ هو يسأل :

- «أتريد إذن أنْ أموت يا أخي؟»

- «هذا ما يفرضه شرف (الاسم) » .

- «ولكنني شاب وليس لي من العمر سوى ٢٢ سنة . أجل ، إني أعترف بفداحة جريمتي ولكن ألا يشفع فيّ نزق الشباب؟ أليست تغتفر جرائم من هذا النوع في العالم؟» .

- «يجب أنْ تموت ! لا مفر من هذا الواجب !» .

فاستشاط الشاب غضباً وقال بشدة .

- يجب ! لا مناص ! ما أسهل هذه الكلمات منك وما أسرع صدورها عنك ! كانما أنا سلمتك قيادي ووليتك تنظيم شؤوني على ما تروم في الحياة وفي الممات ! ولكن يخيل إلى أنَّ لي في هذا الشأن صوتاً يسمع ولا يكفي أنْ تأمر أنت لأمتثل أنا ! ألا فاعلم أني أريد أنْ أعرب لك عن حريتي الشخصية وعن أني راغب في التمتع بها لأني لست بعض عبيدك ، يا أخي ، وإن كنت قد عودتني

مثل هذه المعاملة . استبق السم عندك إذن ؛ أما أنا فارفض !»

أعاد الضابط الزجاجة إلى جيبه في هدوء وأخرج من الجيب الآخر مسدساً صوبه إلى أخيه قائلا في جلاء رهيب :

- إن أنت أصررت على الرفض هشمت رأسك برصاصة وهشمت رأسي بأخرى ، فتكون الفضيحة مزدوجة أما العار فلا يحتمل المزيد . . وسيعرف والدك المسكين حكايتك بتفاصيلها المخزية وحكايتي معك . . ولن يبقى لديه في شيخوخته ولد يعزيه ويخفف من كربته وعلام العزاء؟ إنه سيعمد إلى الانتحار تخلصاً من العار . .

وصمت قليلا ثم قال في لهجة المتوسل :

- اسكندر ، يا أخي ، اذكر أن شرف الاسم يتكلم بلساني فلو أنا كنت مكانك لكان عليك أنْ تقف موقفي هذا الحاسم . اذكر أنَّ والدتنا ذات الشرف الأثيل كانت تقول لنا دائما أنْ لا شيء في العالم يضاهي شرف الاسم ! اذكر والدنا الذي كان يطرفنا بنوادر الحرب والبسالة مرددا على مسامعنا معنى كرامة الاسم وشرف الجندي !

وكان الفتى غائبا عن الصواب كمن يحيا في حلم مزعج أليم . واستولى الارتعاش على يديه في مصارعته العنيفة مع نفسه فقال :

- «حسنا ! إنْ أنا وعدتك بالانتحار فكم يوما تسمح لي أنْ اعيش؟»

- «كم يوما؟ أجاب الضابط بقسوة -ربما تعني كم دقيقة ! ها هي ذي الساعة تدق النصف بعد الثالثة ، وبعد نصف ساعة يحضر السجان ليخرجني من هنا . ففي الساعة الرابعة يجب أنْ تكون قد أسلمت الروح !» .

شل اليأس أوصال الفتى لتيقنه من أنه مائت في الحال بهذه الواسطة أو تلك ، ثم عقب الخمودَ تقزز واهتياج فمد يده قائلا : -«هات السم !»

وتناول الزجاجة وتجرع ما فيها حتى القطرة الأخيرة وهو يتلفظ بهذه الكلمة : «لأجلك يا أبي !» وكان في تلك الغرفة رجل يقطع الشهيق صدره إلاَّ أنه لم يكن الفتى المحتضر ، بل كان هو الضابط الصارم الذي أخذت تهطل الدموع من

عينيه بغزارة . فاستوى على السرير وجذب أخاه إليه كطفل صغير وأجلسه على ركبتيه بإشارة التدليل والتحبب ومضى يهمهم في أذنه :

- «إني أكبرك بثمانية أعوام يا صغيري . أتذكر أني كنت أجلسك على ركبتي في حداثتك لأسرد لك الحكايات القيمة اللذيذة . كنت بادى ذي بدء تصغي إليها في فرح واهتمام ثم يأخذك النعاس فتنام ، فنم اليوم كذلك النومة الأخيرة وأنت تكفر عن آثامك . نم يا صغيري في حضن أخيك الكبير . أنت تموت لتفتدي اسما شريفاً . فقد أحسنت صنعاً وأريتني في شجاعتك الأخيرة شجاعة الآباء والجدود : وأنا صفحت عنك . فنم في سلام !»

أخذت أعراض السم تظهر شيئاً فشيئاً فوضع الضابط أخاه على السرير وأخذ يرقب تلك الأعراض المتوالية من ارتعاش وتقبض وتشنج وتهيج يتحول أحيانا إلى وثبات خطرة فكان الضابط يمكن يده من المحتضر ويرده إلى الاستلقاء . والفتى إبان النزع محتفظ بقواه العقلية يردد من حين إلى حين كلمات الأسف على الحياة والشباب والمسرات ثم يذكر أباه مستغفرا ، إلاّ أنّ نوبة جنونية اعترته فهجم على أخيه وهو يصيح :

- «أنت قتلتني يا فايين !»

ولكن ما وقع نظره على وجهه الحزين المبلل بالدموع حتى عاد إلى صوابه وقال يستصفح :

- «لا ، لا ! لقد أحسنت فسامحني أنت أيضاً . وداعا !»

كان الضابط يعلم أنّ الوفاة ستسبقها صيحات حادة . لذلك تناول منديله ودسه على عجل في فم أخيه فانقلب الصياح إلى حشرجة واختناق . . . وأسلم الفتى الروح .

وكان الظلام قد هاجم تلك الغرفة المتوارية تحت الأرض فأحكم الضابط تمديد يد أخيه على السرير بحنان كحنان النساء وأغمض عينيه وقبّله وجثا على ركبتيه يصلي . .

. . . ودقت الساعة الرابعة فنهض لفوره ونشر على أخيه الغطاء[1] خوذته

وسار إلى الباب في انتظار السجان الذي كان يسمع وقع قدميه في الخارج .
فتح الباب وظهر السجان يحمل بيده مصباحا واعتذر قائلا :- «كان على أنَّ أحضر هذا المصباح من قبل فاغتفر لي تهاوني يا سيدي القبطان !»
أجاب الضابط وهو يلقي في يده بقطعة من النقود :
- «أشكرك ، لا حاجة بي إلى ذلك ولا حاجة له (مشيرا بأصبعه إلى أخيه) به لقد استغرق في النوم»
- « وهذا خير ما يستطيع أن يفعل ، يا سيدي القبطان» .

***

وبعد أيام أذاعت الصحف نبأ انتحار سليل آل جريموف في السجن لأنه لم يحتمل ما يلصقه به أعداؤه من التهم الكاذبة . وفي ذلك دليل على براءته وعلى قوة حاسة الشرف فيه . ولم يدر الجنرال جريموف بالسبب المخجل الذي حمل أصغر ولديه على الانتحار . ولكن فكرة العار لم تشوه حزنه البالغ في شدته .
أما القبطان نيقولا فقد رقي إلى رتبة كولونيل وظل يقود جيوش القوازق في الأورال بما عهد فيه من الشهامة والبسالة وعلو الهمة .
ويقول الكاتب الذي ننقل عنه هذه الحادثة أنَّ كل ما فيها مطابق للحقيقة دون زيادة ولا نقصان ، وأنها وقعت فعلاً بجميع تفاصيلها ، وأنه لم يغير منها سوى اسم العائلة واسماء الأشخاص ليقوم هو كذلك بواجبه في المحافظة على شرف ذلك الاسم الباذخ .

ميّ

الأهرام .ص٥٧ ،ع١٦٦١٤ ، ٩مارس ١٩٣١ ص١
١- كلمة ساقطة ربما كانت (ولبس)

حول خطبة المستر بولدوين
وتعليق المستر سبندر عليها

الخطبة التي ألقاها المستر بولدوين في مجلس العموم في أثناء المناقشة في المسألة الهندية من أحسن الخطب في بابها التي قرأناها لرجال السياسة خلال هذه الأعوام ومن أكثرها اتزاناً وبعد نظر ورجاحة عقل في إخلاص بين المرء وبين نفسه . ولما كان المستر بولدوين رجلا ذا صبغة رسمية كان لنا أن نذكر أنَّ أمثاله رجال السياسة وبخاصة من الانجليز كثيرو التحفظ في بياناتهم حتى ولو هم ألقوها بلهجة «صريحة» في الجلسات البرلمانية . وكان لنا أنْ نقدر كذلك أنَّ فكره أوعب من بيانه .

وتعليق المستر سبندر[1] على تلك الخطبة ، الذي لخصته البارحة تلغرافات «الأهرام» الخصوصية من مقاله في جريدة «الديلي نيوز كرونيكل» يضاهي من الوجهة الصحافية والأدبية خطبة المستر بولدوين من الوجهة النيابية والسياسية . وكلاهما يقدم صورة جميلة من سعة المدارك الانجليزية ، واستعدادها للتطور ؛ ومقدرتها على النظر إلى الأمور كما هي مظهرها الحقيقي دون التعلق بالأوهام العتيقة والاستسلام للغطرسة الوطنية .

ليست مشكلة الهند بالمشكلة المحلية المحددة بل هي نفس المشكلة الضاربة الآن في سائر الأقطار الشرقية . غيِّر من اسماء البلدان وبدّل فيها كيفما شئت تظل المشكلة واحدة في كل مكان لذلك كان دواؤها واحدا ، يجب أنْ تعمد إليه ليس انجلترا وحدها ، بل كل دولة استعمارية أخرى قبل فوات الأوان . وإلا كان شأن ذلك الدواء ، الذي لا بد من استعماله يوما ، شأن كل علاج يجيء بعد وقته .

وقد وضعت «الأهرام» لفقرة من مقالة المستر سبندر هذا العنوان «سلام الشرق يتوقف على سياسة انجلترا» . ويمكن تحوير هذا العنوان في شكل آخر لم يشر المستر سبندر إلى معناه مع أنه ربما كان يفكر فيه وهو : «سلام اوربا يتوقف على سياسة الشرق» .

لأنه رغماً عن مشاكل اوربا العديدة القائمة في داخل قارتها وفيما بين أقوامها ، فالجميع يعلمون أنَّ من أعظم تلك المشاكل التنافس على الاستعمار والطمع في السيطرة على البقاع السحيقة وراء البحار . في سبيل ذلك تتفق الدول فيما بينها مرة على اقتسام الغنيمة ، وفي الاختلاف على ذلك مرات منشأ للتحاسد والضغينة المؤدية إلى فواجع الحرب . ومهما موه رجال السياسة على نفوسهم وحاولوا التمويه على الآخرين فليس في وسعهم تغيير الواقع وإن هم تفننوا في تعليله على ما يشتهون . ولا في وسعهم أنْ ينزعوا من العقول الاقتناع بأن الحرب الأخيرة لم تكن إلاّ مجزرة شنيعة رُمي في صميمها إلى التوسع الاستعماري .

والغريب أنَّ الدول القوية ، في حملتها الاستعمارية لا تحسب حسابا للشعوب التي ترغب في السيطرة عليها والتصرف في شؤونها . إنَّ شعار كل أمة مستعمرة كشعار الأطفال تتلخص في كلمة «نحن وكفى !» وأوربا العالمة المثقفة البصيرة التي كان علم السيكولوجيا من أعظم علومها لا تعرف غالبا من نفسية الشعوب التي تحكمها إلاّ ناحية الرضوخ للأمر الواقع وهي تنسى ، أو يروقها أنْ تتناسى الناحية الأخرى الموفورة الأهمية أعنى ناحية المناعة التي يخلقها الذل والضغط والإجحاف في حيوية الشعوب المستعمرة (بفتح الميم الثانية) .

كثيرا ما نرى كتّاب الغرب يعجبون لاستحكام بعض العادات والتقاليد والمزاعم الباطلة بين بعض الأقوام والجامعات في الشرق ، ويرون فيها علة التأخر والجمود ، أفلا نعجب نحن من ناحيتنا كيف أنَّ العقلية الاستعمارية لم تتغير أصلاً؟

وإذا كان الجمود في بعض مناحي الحياة الشرقية يعزى إلى الجهل والافتقار إلى توسيع المدارك فإلى أي شيء نستطيع نحن أنْ ننسب جمود العقلية

الاستعمارية عند اوربا المبتكرة العجائب؟ أليس مدهشا أنَّ الغرب الذي غير بحذقه وجه العالم لم يلحظ بعد أنَّ الشرق قد تغير؟ أليس مدهشا أنَّ الغرب الذي يجرى في تيار التطور بهمة وثبات لم يفقه حتى الآن أنَّ التطور يجرى في الشرق مجراه؟ أليس مدهشا أنَّ الغرب الذي روج عندنا أدواته وصناعاته وعلومه وآراءه وأساليبه لم ينتبه إلى اليوم أننا نستفيد نحن من هذه الأساليب والآراء والعلوم والصناعات والأدوات مثل استفادته؟ وأن الغرب الذي يحلل مشاكل التاريخ ويعرف اتجاهاته يتجاهل الاتجاه التاريخي الذي تخلقه خلقاً علاقة الأمم الاستعمارية بالشعوب المحكومة كما كانت بالأمس وكما هي اليوم؟ ولا يغرنّ أحد النقص الكبير في ثقافة العامة في الشرق ، لأن الشرق قد تعلم من نفسه ومن الغرب فعلم أنَّ الأفراد توحي إلى الجماهير وتستدرجها وتقودها .

فلذلك عندما نقرأ قول المستر سبندر : «ففي كل هذه المناطق (الشرقية) يتوقف السلام والرخاء والتجارة على السياسة البريطانية بحالة غريبة لا مثيل لها . ومن الجهل المطبق أنْ يظن أنَّ هذه المشاكل يمكن حلها عنوة واقتدارا . فليس يسع رجلا مثلى جاب تلك الأقطار وتنقل من بلد إلى آخر في السنوات الخمس الماضية وشاهد ما فيها من المشاكل الغريبة الواحدة تلو الأخرى -أقول لا يسع رجلا مثلي أنْ يتصور لحظة واحدة أنَّ يد البطش كفيلة بتوطيد دعائم النفوذ البريطاني أو استقراره ، أو أنها تستطيع أنْ تعمل شيئا أكثر من قمع الإضرابات المحلية المؤقتة» . . . وقوله :

« . . . فمهما أمعنّا في الإرهاب لا نستطيع لحظة الحصول على هذا التعاون الجوهري ما لم تقبل تلك الشعوب زعامتنا وهذه الزعامة تفتقر إلى أدمغة وتصورات وأفكار أعلى من فكرة التسلط والسيادة ومن العبث أنْ نستمر في القول إنَّ الشرق عاجز عن حكم نفسه بنفسه وإن الله وكل إلينا حكمه وتصريف شؤونه ، فقد حكم الشرق نفسه زمنا أطول كثيرا من حكم الغرب نفسه بنفسه ، وهو قادر على أنْ يحكم نفسه طبقا لأساليبه الخاصة لو ترك وشأنه . . . وليس في مقدورنا أنْ نطفيء جذوة الحركة الوطنية . .» .

عندما نطلع على هذه الآراء لا يسعنا إلاّ التقدير أنّ المستر سبندر «ولد شاطر» وأنه يستحق حقا علامة «جيدا جداً» .

ونزيد أنّ عاطفة الوطنية العتيقة يجب أنْ تخضع اليوم كغيرها لحكم التطور فلا يظل معنى المجد الوطني والعظمة القومية قائما في خنق القوميات الأخرى واغتصاب أوطانها ؛ بل لا بد أنْ تتحول إلى الإدراك بأن شعور كل امرىء من أي شعب كان بإزاء وطنه هو بالضبط كشعور الانجليزي بازاء انجلترا ، والفرنسي بإزاء فرنسا وقس على ذلك .

وإن لم ينتبه الغرب إلى هذا الأمر وظل ماضيا في عقليته القديمة في الاستعمار وجد نفسه يوما أمام تحول تاريخي مفاجيء لن يفلح في تكييفه في ذلك الحين .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٦٢١ ، ١٦مارس ١٩٣١ ص١

١ - Stephen Spender : شاعر وناقد بريطاني . ولد في لندن عام ١٩٠٩ . اشتهر في الثلاثينات بسبب شعره السياسي ذي النزعة اليسارية .

خطاب الوداع
إلى كبري قصر النيل

أيها الكبري العزيز ،

هذا هو اليوم الأخير من عمرك الذي عرفنا واستغللنا . ولقد جهد الكثيرون في الإبقاء عليك ، غير أنَّ للدوائر العليا من بعيد المرمى مما يظهر أنْ لا قبل لنا به نحن صغار الخلائق . فحمَّ القضاء واقتربت الساعة ، وليس هو القمر الذي سينشق بل هي القاهرة التي ستنشطر إلى شطرين لا يصل بينهما في القلب واصل . فإنا لله وإنا إليه راجعون !

وهكذا نحرم منك في مطلع الربيع يوم تخرج الأرض العروس زينتها وتعرض مباهجها فيتجلى على صفحة الرياض الفن الأسنى في التنميق والترقيش والتلوين ، وتسري نشوة الحياة في الجذوع وفي الأوراق وفي الغصون ، وتنفتح الأزهار على الأفنان تفتح الابتسامات على الثغور ! نحرم منك يوم تجري الدماء في الأجساد بسورة الحميا فيحتاج البشر المساكين إلى الدنو من الطبيعة والاستسلام إلى روحها ، طلبا للمؤاساة والعطف والابتهاج البريء الذي لا يمنحه سواها ! نحرم منك في أول ابريل ، في موسم تداول السمكة التاريخية وتبادل الأكذوبة المليحة بين الأصدقاء . ولكنك أنت لم تكن قط في حياتك الطويلة أسطورة وأكذوبة . بل كنت أبدا حقيقة محسوسة ملموسة في إحسانها إلى القريب والغريب والعظيم والحقير ، وفي عدلها المسوي بين الراجل والراكب والمشمخر والوادع ، وفي حضورها المستديم لجميع القاصدين !

يا لحسنك في الصباح إذ يترنح علي جانبيك النيل الهني البسام ينحدر من منابعه فى البحيرات النائية حاملاً فى موجه الأريحى حديث الصعيد معقل الخفايا والكتمان ، فيتهادي فى سيره ليروى المروج والسهول ويرطب صدر

الأرض الملتهب ، قبل أنْ يصب في البحر الفياح جامع شمل الجداول والسيول والأنهار !

يا لحسنك في الظهيرة إذ تتجمهر في حومتك المراكب والزوارق والقوارب مثقلة بخيرات البلاد ، ناطقة بجهود العباد ! فما إنْ تفسح لها ممرا حتى تمخر العباب ناشرة أجنحة شراعها البيضاء كرايات للنشاط والعمل والرخاء ، مكونة في تلاصقها وانتظامها أسطولاً جميلاً للجد والظفر والصفاء !

يا لحسنك في المساء إذ تنبثق فوقك وحواليك في القرب وفي البعد أضواء الأرض وأضواء السماء ، فتتوحد العصور على جانبيك وتحتشد الأجيال ويقف الزمان خاشعا في محراب الليل ! ساعة تتجشم في الظلام المنار روعة الهياكل التي لا ترى ، وتتعالى في فخامة هاتيك الجدران الرهيبة ، وتنطق شفتا أبي الهول بكلمات غير مسموعة ، وتتحرك أيدي الآلهة والملوك والكهان بإشارات نافذة التعبير سحرية البيان ! ساعة تروى الحجارة المتهدمة والأخربة المتراكمة حديث التاريخ وعبر الأيام ويتضخم معنى الأهرام التي عرفت يد الأقدمين أنْ تودعها السر الذي لا يدركه حي ! ساعة يتضح ولو في إبهام العلاقة بين مصر السحيقة وبين مغزى الحياة في حركة الشموس ودوران الأفلاك وانبساط المجرة في عقيق الفضاء !

يا لحسنك ساعة تسير فوقك مواكب الجمال والحمير حاملة نتاج الوادي الكريم وثمرة الجهود من الفقراء والفلاحين حراس كنوز المروج وأمناء الخصب المقيم ! فيجتازك هؤلاء ذهابا يحدو بهم الأمل في الربح المنتظر ، ثم يجتازونك إيابا وقد تحول الأمل إلى ما يملأ أيديهم من الثمن الوفاق ! يا لحسنك ساعة يسير فوقك ذوو النفوس المترضرضة من جراء محاذاة النفاق والحقارة والغباوة والجحود ! فيعودون وقد حفل كيانهم بخضرة الأشجار واتسع اتساع الآفاق فرجعوا إلى الحقيقة الإنسانية الشاملة وامتلأت أرواحهم بعواطف الجود والرحمة والسلام .

ويا لحسنك الشفيق ، يا لحسنك وإحسانك ، ساعة يفكر فيك البائس الآيس الذي لا يجد له بين الناس صديقا ولا يرى له في أرض الناس مكانا ، فيقصد إليك ليلقى من النيل صدرا يأوى إليه وقلبا يعطف عليه !

أنت من حجر وحديد ، أيها الكبري العزيز ، ولكنك كنت من العوامل المولدة الرقة والحذق والإدراك ونبل التعامي عن الصغائر لغير واحد من عابريك . ولك ندين بشيء كثير من عذوبة الاتصال بسر الطبيعة وبروح الحياة . ولك ندين بشيء كثير من الشعور المتواتر بأن مصر اليوم ليست دونها بالأمس رغم التغيرات الطارئة ، بل هي في صميمها واحدة متماسكة متماثلة في كل عصر وفي كل أوان !

وها أنت مقبل على الرحيل ، لا ندري أيكون نصيبك الهدم أم الإغلاق أم التبديل إلاّ أنك على كل حال غير موجود بالنسبة لنا . وسنشعر بابتعادك شعورا شديدا بيد أننا مع الوقت ننسى لأننا نحن بني الإنسان جاحدون .

فلا أقل من أنْ نوجه إليك آي الحمد ساعة الشعور بالحمد ، يا مربض الأسود المشرئبة وصلة العمران الناشطة ! ولا أقل من أنْ نعرب عن عاطفة الصلاح والإخلاص ساعة هي تختلج في الجوانح . سوف تعود إلى مكانك وواجبك وإحسانك بعد حين . ولكننا لا ندري أنكون يومئذ في الوجود فنحييك ونقصد إلى ناديك؟ إن عمر الحجر والحديد أطول من عمر اللحم والدم ، أيها الكبرى الحجرى ! وهذا الإنسان الذي يتكبر ويتجبر ويتأله يعلم في نفس الوقت أنه لا يستطيع أنْ يضمن لنفسه البقاء ولو ساعة واحدة .

ولكن أما رأيت كل ما تأتيه قدرته وذكاؤه في تلك الساعة السريعة من عمره الذاهب؟ إنه يعمل ويعمل ثم يمضي مرغما وهو يعلل النفس بالبقاء في الذراري وفي الأعقاب . . . كأنما الأعقاب والذراري تتخلى عن حياتها الخاصة في سبيل من سبقها ، وكأنما ليس لها هي أيضاً رسالتها في العالم كما كانت لذاك رسالته !

وداعاً ، أيها الكبري الوسيم !

إنك يوم تعود لن تنفعنا بذكرى منك حاضرين كنا أو غائبين ! على أننا غداة رحيلك يروقنا أنْ نشيعك بكلمات الثناء والامتنان .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٦٣٥ ، ٣٠ مارس ١٩٣١ ص١

خواطر متناثرة -٣-

● «الأهرام» في عامها الجديد

لقد كان الفرق محسوما بين الصحافة والأدب وسواه من الفروع الثقافية . فكانت وظيفة الصحافة قائمة على نقل الأخبار المحلية والحوادث العالمية . أما الموضوعات الأدبية والاجتماعية والعلمية وغيرها فغايتها إفادة القارىء وتوسيع معلوماته وطبع فكره على غرار فكر الكاتب . لذلك تفرد لها الكتب وما إليها فيعكف عليها القارىء المتفرغ أو القارىء الآخر في ساعات فراغه .

أما اليوم فقد أصبحت الصحافة كتابا يوميا يحمل على صفحاته الأخبار والحوادث وشتى المعلومات والدعايات في عديد الموضوعات . وأمام الصحافة تطور خطير لا يستطيع أنْ يتكهن به أحد غير أنَّ الجميع يشعرون بأنه واقع لا محالة ربما في القريب العاجل بفعل تقدم العلم وستتأثر به الصحافة في جميع الأقطار .

ولئن اقتضى الأمر أنْ يكون في كل بلد صحافة حزبية تنطق بلسان جماعة وتنشر دعايتهم بخطبهم وبيانهم فلا بد أنْ توجد كذلك صحافة غير حزبية وغير مقيدة تفتح أعمدتها لمختلف النزعات والآراء وتترك لكل كاتب أنْ يعرب فيها عن وجهة نظره كما تترك لكل قارىء أنْ يتخير من الأقوال والآراء ما يتوافق واستعداده .

نقول هذا بمناسبة الخطوة الجديدة التي تخطوها اليوم «الأهرام» في ثوبها الجديد . ولئن كانت خطوتها هذه معلنة فضل القائمين بأمرها في جهادهم وذكائهم وثباتهم ، فهي تعلن أيضاً فضل المجتمع المصري وذكاءه وتشوقه إلى الاستنارة والتقدم . وليس ابتكارا القول بأن الفضل مشترك بين الحبة الصالحة

والأرض الصالحة التي تتعهدها بالتغذية والنمو . لا سبيل إلى الابتكار والتنميق في بعض الحقائق الأولية التي يجب تقريرها كل مرة بالألفاظ نفسها دون زيادة ولا نقصان .

وبتحية «الأهرام» وتهنئتها والثناء عليها إنما نحيي الصحافة المصرية بأسرها لأنها كلها بيان جميل في مظهرها وفي مضمونها لما وصلت إليه مصر من التقدم «والحياة الحية» . وكلها ماضية في القيام بمهمتها النبيلة في شحذ الأفكار وإثارة الجمهور وإحكام الاتصال بين القارىء وبين الحركات العالمية وإيقاظه بما ينبهه من هجوعه الدهري لينهض مطالبا بنصيبه من الإرث الإنساني الكبير .

لقد نمت الحبة الصغيرة في التربة التاريخية العظيمة فإذا «بالأهرام» شجرة راسخة الأصول ، متفرعة الأفنان ، وارفة الظلال تسري في شرايينها تيارات الحياة كما تنبعث منها التيارات الحيوية مرة في تعجل ومرة في تريث . وإنها لعامل قدير في تطور الحياة المصرية ومن استطاع أنْ يكتب بحثا منصفا خالصا في تاريخ «الأهرام» استطاع أنْ يؤلف تاريخا للتطور المصري من بعض نواحيه .

● **العمال العاطلون في خطاب موسوليني**

خاطب السنيور موسوليني في مطلع العام الشعب الأمريكاني بواسطة الراديوفون باللغة الانجليزية وقد أخذت هذه الخطبة تثير أصداء متنافرة من الموافقة والاعتراض والتعليق . ولكنها تلفتنا إلى أمرين : أحدهما أنَّ معرفة عدة لغات أصبحت ضرورية لرؤساء الحكومات الذين يقومون لبلادهم بدعاية خاصة . فذلك يمكّنهم من الاطلاع بنفسهم على أفكار الشعوب الأخرى كما تنشر في لغاتهم دون ترجمة «والمترجم خائن» عندما لا يحسن الترجمة كما يقول المثل الايطالي (Traduttore fraditore) كما أنه يتسنى لهم مخاطبة الآخرين مباشرة بلا وسيط .

معلوم أنَّ الزعيم الفاشيستي الكبير يجيد الفرنسية . وبالأمس عندما زارته في روما جماعة «الخوذة الفولاذية» الألمانية استطاع أنْ يخاطبهم بلغتهم . وها هو اليوم يخاطب أمريكا ومن يريد أنْ يصغي معها ، باللغة الانجليزية . لقد فات

الوقت الذي كان فيه يتحصن المرء في لغة واحدة ويرى فيها الكفاية .

أما الأمر الآخر فهو إلماع السنيور موسوليني إلى أنَّ بلاده لم تنج من الداء الضارب في سائر بلدان الغرب ، إذ أنَّ في ايطاليا نصف مليون من العمال العاطلين . ويعلن بهذه المناسبة أنه يعارض لتعهد الحكومة بالإنفاق على العمال العاطلين مجانا لأن هذه الطريقة تجعل العامل يألف حالة البطالة . وخير منها إيجاد الأعمال العامة التي تفيد العامل وتعود على البلاد بنتيجة محسوسة نافعة . لهذا الرأي شأن عند الذين يعجبون كيف أنَّ بلاد الغرب الموفورة الذكاء السحرية الإبداع لم تتفوق إلى حل مشكلة البطالة بغير نقد العامل أجره وهو لا يؤدي عملاً . إنَّ هذا الواجب نحو الطفل والشيخ والعاجز والمريض ، ولكنه الظلم كل الظلم نحو السليم القوي الجسد الذي يتمتع بجهود غيره وهو لا يقوم بمجهود ، ويستهلك دون أنْ ينتج ويستغل دون أنْ يخدم . ولقد هاج دائما نفوري الشديد وشعوري العنيف بالجور مرأى رجل واحد يمرر حياته العمل المتواصل والعناء دون مهادنة ليقوم بنفقات نساء لا هم لهن غير الثرثرة الفارغة وخلق المشاكل السخيفة والمشاغبات . إذ أنَّ الحياة لا تحتمل الفراغ . فإن لم تشغلها فكرة جادة ومسؤولية كريمة عمدت إلى سفاسف الأمور لتتلهى . ولو لم يكن لعمل المرأة غير هذا الأثر الفعال في تكوين شخصيتها وتنظيم عقليتها لكفى به حافزا يحمل القائمين بأمرها على تربيتها التربية التي تحبب إليها العمل وتدلها على وسائله . والبطالة بعد مفسدة للقوى الحيوي ، مفسدة للكرامة ، مفسدة للعقل ، مفسدة للخلق ، مفسدة النظرة إلى الحياة ، مشوهة موقف الفرد من المجموع . والمنطق يقضي بأن تعمل دول الغرب في ايجاد مشروعات وأعمال عمومية تنفق عليها تلك المبالغ أو مبالغ أضخم ينال منها العامل قسطه من المال والعمل معا وتكون نافعة في خدمة البلاد . ولكن يظهر أنَّ هذا بعيد المنال إذ أنَّ كل فروع العمل والاستنباط قد عولجت بمهارة ودقة حتى تعذر خلق الأعمال الجديدة . وبخاصة لأن الآلات الميكانيكية في تقدم سريع ، وكلما تقدمت الوسائل العلمية والميكانيكية تناقصت الحاجة إلى اليد العاملة وزادت

كمية الإنتاج على كمية الاستهلاك . وهذه المشكلة في مقدمة ما يثير الأزمات الحادة في كل بلد من البلدان .

فهل يهتدون يوما إلى حل ما؟ إنَّ شأن الحضارة اليوم شأن ذلك الجبار الميثولوجي الذي كان يصيغ سبائك الذهب فيتكون منها طبقة فوق طبقة حتى يدفن هو تحتها وتزهق فيما بينها روحه .

● **العلم قوة، يقول الشيخ المحترم**

لست أدري ما الذي حدا بالشيخ المحترم الذي تفضل فخاطبني بالأمس في «الأهرام» على الضن بكل توقيعه؟

في المقال الذي رد فضيلته عليه[1] أمنت على خطاب السيدة المصرية وشاركتها في حكمها على حكم القضاء . غير أني أردت أنْ أنصف الواقع فقلت -وأكرر- أنَّ الأم هي التي تربي الأمة وأنَّ ما لا يرضي مما نراه راجع إلى نقص في تربية الأم . وأنه إذا أريد التغيير بمعنى الإصلاح في الخلق العام والسلوك العام فخير وسيلة لذلك هي تربية المرأة التي ستصير في الغد أمّاً لأن ابن العبدة عبد بطبيعته وابن الحرة حر . هذا إلاّ الشواذ الذي لا يقاس عليه .

والعبودية والحرية في نظري شعور أدبي أكثر منه معدات حسية . فالحرُّ حرٌّ ولو قيدته السلاسل وأرهقته الأغلال ، والعبد عبد ولو أحاطت به مظاهر الحرية والاستقلال . ألم يكن أفلاطون عظيما في عبوديته عظمته بعد أنْ افتداه من الأسر أحد أصدقائه فأصبح حرا طليقا .

أجل ، القوة سيدة العالم ولكن القوة الحقة ليست هذه المعروضات من القوى الحربية والعسكرية وغيرها ، بل هي الفكرة الأدبية القائمة وراءها ، الفكرة التي تتعرف الحق وتخلقه في النفوس وتغذي به الأمة وتنميه جيلا حتى ننتهي إلى إيجاد القوى الحسية الموازية له .

وفكرة هذه «القوة الأدبية» من أي نوع كانت لا بد أن تكون وديعة في نفس الأم وفي خلقها وفي مثلها وفي لبسها . فإذا كان «العلم» الذي يذكر الأستاذ المحترم أنه «قوة» وأن المرأة يجب أنْ تأخذ به -إذا كان هذا «العلم» ما أعنيه أنا «بالتربية»

فنحن إذن على وفاق . وليثق فضيلته أنَّ المرأة لا تشكو قوة الرجل بل سوء تفسيره للقوة ، فإن القوة الرصينة المنصفة لمن أحب ما تحبه المرأة وتعجب به : أما مسألة الزينة والتبرج التي يلومنا الأستاذ عليها فأقول بضرورتها للمرأة من حيث هي تلمس للجمال وتلمس الجمال لا يقف عند زركشة القوى وكحل العيون ولا هو معناه الاستهتار في التجمل والفوضى في السلوك . والثقافة والتربية لا تتعارضان وفكرة الجمال بل على النقيض تقربان منها وتتواحدان وإياها . والبيت الذي لم تتثقف في سيدته حاسة الجمال حري بأن يرثي له لأنه لا يعرف السرور والابتهاج ولكن هذا موضوع من الأهمية والاتساع بحيث يتطلب سلسلة مقالات .

● **مات العام، فليحيا العام!**

أجل . لقد قامت صحافة العالم بشبه تصفية عامة للمشاكل الكبرى والصغرى بمناسبة العام الجديد ، وتكلم على مقربة من أعضاء «صاحبة الجلالة» أولئك الذين يحلو لهم أنْ يروا قلوب الخلق منخلعة عاماً بعد عام ، أولئك الذين لا بد أن ينذرونا بأن العالم على وشك الانقضاء متسلحين بتفسير كلمات مما ورد في بعض الكتب الدينية ليثبتوا صحة نظريتهم الغير سارة .

أرجو ألاّ يتأثر بهذه النذر رجال البورصة الحساسون جدا لئلا نرى هبوطا آخر في الأسواق لم يشهده أحد من قبل . وإذا كان الموت مفروضا على رقاب العباد فلنمت في وسط الجمال ، كما يقولون ولنتعبر بإرشاد الحكيم من وجوب الاعتصام بالصبر ومواجهة الصعاب بجنان ثابت وثغر باسم إذا أمكن ، لا سيما وأن هذه النذر فشلت عدة مرات وكلما حانت الساعة (المعينة من المتكهنين) لسماع أبواق الأبدية رأينا شيئا من إعادة النظر في «نظام الحفلة» وتعديلا في برنامج الخراب المزعوم . فإذا بالفزع منهزم وإذا بالرجاء ينمو ويزدهر ، وإذا بالإنسان يمضي في استئناف خلق مشاكله الهائلة ليتلذذ بتسليكها قليلا وبتعقيدها كثيرا .

ولكن لو فرضنا أنْ سيتم هذه المرة ما لم يتم في المرات السابقة فهل من غضاضة في الطمع في ولوج فلك نوح الجديد؟

أود أن يكون لي في الفلك مكان ليس بصفتي البشرية بل بصورة نباتية مثلا لأبعث بعدئذ وقد احتفظت بعقليتي الحاضرة فأرى إذا كان ما نسميه الآن ارتباكا واضطرابا هو حالة ملازمة للحياة أم يتيسر إيجاد طراز آخر من هذا العالم الذي قال فيه مرة فولتر الساخر «إن الباري جل وعلا قد يؤثر بعث عالم جديد من العدم على ترقيع هذا العالم العتيق في عديد ثلماته» .

مي

---

* الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٥٥٣ ، ٥يناير ١٩٣١ ص٤

(١) الإشارة إلى مقال ميّ : خطاب من سيدة مصرية .الأهرام ، س٥٦ ، ع ١٦٥٤٦ ، ٢٩نوفمبر ١٩٣٠ . ص

ألمانيا في السماء

المنطاد "جراف تسبلن"

تحية الرهبة والإعجاب

الى الدكتور هوجواكنر[1]

روعت القلوب ، أنت الذى لا تأخذك روعة ولكنها روعة العجب ؛ وضعضعت الأفكار ، أنت الذى لا ينتابك تضعضع ، ولكنه تضعضع الطرب ! تجمع الأفق خاشعا عند مرورك فكأنه قد انقلب ميدانا أعد لبديع إبلائك ؛ واشرأبت السحب ، وشحب قرص الشمس ، وبهت لمعان الأشعة لأنها جميعا لمحت فيك دليلا على قدرة الله فى الإنسان ! يا مهاجم العواصف والأخطار ، ومنازل الزعازع والأقدار ، وقاهر العناصر والطبيعة الجبار ! الكثر ما أنشد مواطنوك «المانيا فوق الجميع» ، وها أنت اليوم تجوب السماوات العلى باحثا عن مقر لمطلبك ، فارضا على النجوم إفساح المكان لرايتك ، مرغما حتى مجاهل الخليقة على الاعتراف بعبقريتك وشكيمتك ! قوة فى رشاقة ، ورهبة فى أنس ، وهول فى جمال ، وتهديد فى مصافاة ، وإقدام فى حبور ، واقتحام فى رزانة ، وتعاظم فى أناقة ، واقتراب فى تباعد ، وإسراع فى هوادة ، وسيطرة فى وداعة ، ذاك هو مظهرك المتعدد عندما انقلب الفضاء لأجلك بحرا تسبح فيه أنت كأفخم السابحات ! حلقت فوق القاهرة الخالدة فأشرت إليها بأن للخلود استكمالا تبدّى شىء كثير منه فيك ، وحمت فوق مرابض الروحانية والأسرار فأومأت بأن للروحانية والأسرار امتدادا فوق الأرض ؛ وناجيت بعبورك الجدران العظيمة ، والهياكل الرائعة والتماثيل الصامدة ، لتقول إنَّ الإنسان المقدام لا

يكتفي بكوكب ولا يستقر في مكان وإنه مضى يستطلع فيافي الأفلاك ليضرب فيها خيامه !

منذ عديد من القرون وأبو الهول رابض فى إيوانه السني يترقب صامتا بادرة مجهولة لا بد أنْ تقْبل عليه . أفانت تلك البادرة؟ أم أنت رائدها الأول؟ ومثلثات الأهرام قائمة عند مدخل الصحراء تنطق بحديث لا يفهمه أحد منذ ابتداء الدهور . أأنت استطعت أنْ تلم بالمعنى القديم من حديثها الصامت وكما غلبت العناصر تغلبت كذلك على ذكاء العصور؟

تحليقك أمثولة للثبات ، ومشهدك أمثولة للثبات ، وفوزك أمثولة للثبات ؛ وتحيتك إلينا حث على الثبات . فكل من شهدك وراقبك وسمعك استفاد ، وتلك أمثولة رسبت فينا !

ما أثقل الأخشاب والمعادن وزناً وما أجمدها حركة وأفرغها روحاً فى مكانها وما أخفها فيك وزناً ، وألطفها حركة ، وأوعبها حساً !

طر وحلق ، واسبح وحم ، وتجول وطف ، أيها المعجزة المتحركة على الدوام ! بك أدركنا أنَّ للميكانيكا نبضاً كنبض الحياة ، بك أدركنا أنَّ أحلام الشعراء وخيالات المتخيلين هي الحقائق الراهنة عند العلماء وعند الأريحيين !

طر وحلق ؛ واسبح وحم ، وطف وتجول ، لتحمل بنى الإنسان على خلق كلمات جديدة فى لغاتهم يصفونك بها ويمجدون !

طر وحلق ؛ واسبح وحم ، وتجول وطف ، واخلق فينا رعشات جديدة ، وإعجابا جديدا ، وعزما جديدا ، وإدراكا جديدا للإقدام والنشاط ! فما استطاع امرؤ أن يرتفع ويحلق دون أن يرتفع ويحلق مثله النابهون من معاصريه .

طر وحلق ، واسبح وحم ، وتجول ، وطف فى القريب والسحيق من الأجواء ! فأنت فى كل مكان الأعجوبة الجبارة التى تلقي الروعة فى النفوس ، وتعلو بالعقول إلى ما فوق محيطها المألوف ، وتهتف بكل من يرى ويسمع ويعي : الثبات الثبات !

اذهب بعيدا فى تجوالك فأنت ما زلت عند أول غزواتك الفلكية . وللعبقرية

والبطولة حق أن تطوى شاسعات الأبعاد وليس عزيزا عليها حتى الوصول إلى عتبات الغيوب !

اذهب بعيدا ، وتجول كثيرا ، وكن فى كل جولة وكل تطواف رسولا بين المعلوم والمجهول ! اذهب وطر وترنم وانشد ناشرا رسالة الأرض فى متراميات المدى ، ولا تكن أبدا حربا ونقمة ، بل كن دائما سلما ونعمة على العالمين !

ميّ

---

* الأهرام . س ٥٧ ، ع ١٦٦٤٧ ، ١٣ أبريل ١٩٣١ . ص ١

١- Hugo Eckener (١٨٦٨ - ١٩٥٤) . مهندس طيران وطيار ألماني رائد . عمل في شركة Ferdinand Graf von Zeppelin لصناعة الطائرات التي نشطت أثناء الحرب العالمية الأولى . ساهم في العشرينات في تشجيع الملاحة الجوية المدنية . عارض سياسة هتلر النازية .

جبران خليل جبران

يصف نفسه بيده في رسائله

من الناس من يعيش للمال ، ومنهم من يعيش للمجد ، أو لخدمة الوطن أو العلم ، ولخدمة نفسه والسعى وراء مسرته . ومنهم من يعيش لقلبه نائحاً على حب مضى منتظراً حباً مقبلاً . ومنهم من يعيش يومه ليومه وساعته لساعته ومنهم من يعيش لأسرته أو لبعض أفرادها ولو على حساب الأفراد الآخرين . غايات لا عداد لها تتنوع باختلاف الناس وباختلاف استعداداتهم ومداركهم . فلأى شىء كان يعيش جبران خليل جبران؟[١]

إن الذين تتبعوا كتاباته قد كانوا يظنون أنه يعيش لفنه الثلاثى : من أدب باللغة العربية ، وأدب باللغة الانجليزية وتصوير يدوى ورسم . ولكنه فى الواقع لم يكن يعيش لشىء من هذا . ها هو ذا يصف نفسه - وبأية بلاغة نادرة فريدة ! - فى رسائل لم يفكر يوما فى أنها ستنشر عند وفاته ولا أنا تخيلت مرة أنى سأنشر شيئا منها وبخاصة فى مثل هذا الظرف :

« . . . صحتى اليوم أردأ نوعا مما كانت عليه فى بدء الصيف . فالشهور الطويلة التى صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحى وجسدى . أما هذا الطائر الغريب(يعنى قلبه وقد كان مصابا فيه) الذى كان يختلج أكثر من مئة مرة فى الدقيقة فقد أبطأ قليلا بل كاد يعود إلى نظامه الاعتيادى . غير أنه لم يتماهل إلاّ بعد أنْ هد أركاني وقطع أوصالي . إنَّ الراحة تنفعنى من جهة وتضر بى من جهة أخرى . أما الأطباء والأدوية فمن علتى بمقام الزيت من السراج . لا ، لست بحاجة إلى الأطباء والأدوية ، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون . أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ منى ويخفف عنى ، أنا بحاجة إلى فصادة معنوية ، إلى يد تتناول مما ازدحم فى نفسى ، إلى ريح شديدة تسقط أثماري وأوراقي .

أنا ، يا مي ، بركان صغير سدت فوهته فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير وجميل لشفيت تماما . لو كان بإمكاني أنْ أصرخ صوتا عاليا لعادت إليَّ عافيتي ، وقد تقولين« لماذا لا تكتب فتشفى لماذا لا تصرخ فتتعافى؟ »

وأنا أجيبك« لا أدري . لا أدري . لا أستطيع الصراخ وهذه هي علتي . هي علة فى النفس ظهرت أعراضها فى الجسد .

« وتسالين الآن« إذن ما أنت فاعل؟ وماذا عسى تكون النتيجة؟ وإلى متى تبقى هذه الحالة؟ »

« أقول إننى سأشفى . أقول إنى سأنشد أغنيتى فأستريح . أقول إننى سأصرخ من أعماق سكينتى صوتا عاليا . بالله عليك لا تقولى لى« لقد أنشدت كثيرا وما أنشدته كان حسنا » لا تذكرى أعمالى ومآثرى الماضية لأن ذكرها يؤلمنى ، لأن تفاهتها تحول دمى إلى نار محرقة ، لأن نشوفتها تولد عطشى ، لأن سخافتها تقيمنى وتقعدنى ألف مرة ومرة فى كل يوم وفى كل ليلة . لماذا ، لماذا كتبت تلك المقالات وتلك الحكايات؟ لماذا لم أصبر؟ لماذا لم أضن بالقطرات فادخرها وأجمعها ساقية؟ قد ولدت وعشت لأضع كتابا - كتابا واحدا صغيرا - لا أكثر ولا أقل . قد ولدت وعشت وتألمت وأحببت لأقول كلمة واحدة حية مجنحة ، لكنى لم أصبر ، لم أبق صامتا حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتى . لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارا فياللأسف ويا للخجل ! وبقيت ثرثارا حتى أنهكت الثرثرة قواى . وعندما صرت قادرا على لفظ أول حرف من كلمتى وجدتنى ملقى على ظهرى وفى فمى حجر صلد .

« لا بأس . . إن كلمتى لم تزل فى قلبى وهي كلمة حية مجنحة ولا بد من قولها . لا بد من قولها لتزيل بوقعها كل ما أوجدته ثرثرتى من الذنوب . لا بد من إخراج الشعلة . . . »

هذا ما يقوله ذاك الذى لم يكتب يوماً إلا الكلمة المجنحة الحية المحيية . هذا ما يقوله ذاك الذى لم تكن كل كلمة كتبها إلاّ شعلة منفصلة عن شعلة روحه أي عبقرى لا يخجل بكتاباته السالفة ، نظرا لسرعة التطور المكتسح كيانه؟ إنَّ

العبقرية الحقة كثيرا ما تقاس بهذا الخجل الذى ينتاب صاحبها ، ولو هو حاز بكتاباته إعجاب العالم .

كتب رسالته تلك بعد إصدار كتابه« النبي» الذى تناولته بالترجمة إلى لغاتها عشرة شعوب مختلفة وكانت مجلات العالم وصحفه تتناقل كلمات جبران ، ابن الشرق ورسومه التى لا تضاهى . رسوم وكلمات لا يأتى بها إلاّ ذو المواهب الفذة ، الذى جرده تهذيبه لفنه من كل زهو وكل دعوى ، فسار شوطا بعيدا فى جادة الوحدة الرهيبة التى لا يقوى على سلكها إلا الخلاق المبدع من بنى الإنسان .

إن جبرانا لم يكن ليسير وحده ، بل كان شبح الموت يماشيه أنى ذهب . كان يعرف نفسه مقبلا على الرحيل بينما هو يصدر كتبه بالانجليزية «المجنون» و«السابق» و«النبى» و«رمل وزبد» و«يسوع بن الإنسان» تحفة تلو الأخرى ، فضلاً عن كتبه العربية التى نعرفها جميعا وفضلا عن مجموعات رسومه التى كانت مفخرة العبقرية الشرقية بين أقوام تعرف معنى العبقرية ولا يفوتها من خصائصها شيء . وكان آخر كتبه الانجليزية كتاب «آلهة الارض» الذى نعكف اليوم على مطالعته – وبأى حزن ! – وقد تلقيناه يوم إذاعة نعيه فى مصر ، وفيه اثنتا عشرة صورة من رسم يده . تلك كانت شيمة جبران فى مؤلفاته الانجليزية وفى بعض رسائله الخاصة أيضا إذ كان يلخص الجملة والمعنى رسما على هامش القرطاس فى الغالب ، أو هو يشرحه فى صورة عجيبة تشغل الصفحة بحذافيرها . ليعود مرة بعد مرة إلى رسم شعاره التصويرى الذى يمثل يدا تقدم كل حياتها وقوداً ، وتظل اللهب خارجة من تلك اليد الكريمة وصاحبها يفكر فى الحياة كما يفكر فى الموت . فيقول فى خطاب آخر كتبه بعد شهور طويلة .

«أتعلمين ، ، يا مي ، أنى ما فكرت فى الانصراف (الذى يسميه الناس موتاً) إلاّ وجدت فى التفكير لذة غريبة وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل . ولكننى أعود فأذكر أنّ فى قلبى كلمة لا بد من قولها فأحار بين عجزي واضطرارى وتغلق أمامى الأبواب .

« لا ، لم أقل كلمتى بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان ، وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مرا كالعلقم . أقول لك ، يا ميّ ، ولا أقول لسواك إنى إذا انصرفت قبل تهجئة كلمتى ولفظها فإنى سأعود ثانية لتحقيق أمنيتى . سأعود لأقول الكلمة التى تتمايل الآن كالضباب فى سكينة روحى .

« أتستغربين هذا الكلام؟ إنَّ أغرب الأشياء أقربها إلى الحقائق الثابته . وفى الإرادة البشرية قوة واشتياق يحولان السديم فينا إلى شموس . . . »

إننا ننحنى أمام ضريح جديد بعيد نام فيه ذاك القائل « إنَّ حنينى إلى الشرق يكاد يذيبنى . فمتى ، متى أعود إلى بلادى؟ » . ننحنى أمام القبر الذى ينام فيه رجل هو بروحه للإنسانية كلها ولكنه بجسده غريب بين الغرباء . أننحنى لنقول كلمة الوداع؟ لقد جزنا هذا الطور من الغفلة فصرنا نعلم أنَّ الناس إلى الدار الأخرى متتابعون . . .

فهنيئا لك برحيلك ، يا أخى ، لقد أعطيت كثيرا ، وإن أغاظتك هذه الكلمة . لقدا أعطيت كثيرا وقال فيك الشرق للغرب «ها أنا ذا !» كما قال فيك الشرق الناهض لنفسه «ها أنا ذا ! ها أنا ذا !» حسناً فعلت بأن رحلت ! فإذا كان لديك كلمة أخرى فخير لك أنْ تصهرها وتثقفها وتطهرها وتستوفيها فى عالم ربما كان يفضل عالمنا هذا فى أمور شتى . . .

حسنا فعلت بأن رحلت ، يا أخى ! ففى ذمة الله وفى رحمته التى تسمعنا جميعا أحياء كنا أو أمواتا !

ميّ

× الأهرام . س ٥٧ ، ع ١٦٦٥٤ ، ٢١ ابريل ١٩٣١ . ص١

١- جبران خليل جبران(١٨٨٣ - ١٩٣١) . أديب ورسام لبناني . ولد في« بشري » بلبنان . هاجر مع أسرته(فيما عدا والده) إلى أمريكا عام ١٨٩٥ . استقر في الحي الصيني ببوسطن . عاد إلى وطنه عام ١٨٩٨ وتابع دراسته في مدرسة الحكمة ببيروت . درس فن الرسم في باريس . انتخب رئيسا للرابطة القلمية عام ١٩٢٠ . كتب بالعربية ثم بالانجليزية . تبادلت مي الرسائل معه بدءا من عام ١٩١٢ وحتى مدة قصيرة قبل وفاته .

« ممنون، يا طلعت باشا! »

- فؤاد الاول

حاولت اربع أو خمس مرات خلال الثلاثة أيام الماضية ، أنْ أخط كغيرى كلمة أزفها فى برقية أو خطاب تحية إلى الرجل الصامت العبوس بمناسبة الإنعام عليه بالباشوية . فكانت الكلمة التى خططتها كل مرة هى هذه «ممنون يا طلعت باشا !» . أهو جفاف في القريحة؟ وعهدى بها لا تجف إلا عندما أجدنى أمام عاملين اثنين :عامل الرغبة الشديدة فى المجاملة ، وعامل الإخلاص لما هو راسخ فى ذهنى . فتكون النتيجة دائما «جفافاً» إنْ صح الوصف . أو هو إحجام كما تريد الحقيقة .

غير أنْ الحقيقة هنا واضحة فى فكرى وضوحها لدى جميع الذين يقدرون أعمال طلعت حرب وأعوانه الأبرار . ذلك التقدير العميق الذى هو فى النفوس أعظم من أنّ تضن به الأقلام . والواقع أنّ تحية طلعت باشا لهى تحية لأعماله وتحية لمصر التى قدرت مآثره وكان لها الشرف فى أنْ تؤيده . علام الإحجام إذن والحالة هذه؟ علام هذه الجملة التى تكررت كتابتها مرات متعددة ولم أجد غيرها عنوانا حتى لكلمة اليوم؟ قد يكون السبب فى أنّ الإنعام بالباشوية لم يكن شيئا غير منتظر . فهو لذلك لم يدهشنى كثيرا ولا قليلا . وإنما ما أعجبنى كثيراً وسرني كثيرا هو الكلمة التى روتها الصحف عن جلالة الملك عند زيارته لمعامل شركة مصر للغزل والنسيج : «ممنون ، ياطلعت باشا» .

يقول الفرنسيون فى مثلهم المأثور «إن طريقة الإهداء خير من الهدية نفسها» . والحق أنّ فؤاد الأول[1] عرف «كيف» يهدي زهرة لها قيمتها العظيمة بقيمة اليد

الرفيعة التى أهدتها ، ولها قيمتها العظمى بالإشارة الكيِّسة التى عمدت إليها تلك اليد الكريمة ساعة الإهداء .

إن الملك هو صاحب الحق المطلق فى الإنعام بالرتبة واللقب . بيد أنَّ خير الملوك هم الذين فيهم شيء أعظم وأسمى فى الميزة الملوكية . . .

ها قد سقطت السيجارة من يد اسماعيل بك شرين عند قراءة هذه الجملة وحملق رجال قلم المطبوعات على أروع ما يحملقون وقد وضع كل منهم يده على رأسه مستجمعا قوي انتباهه . . .شدوا حيلكم ، أيها السادة ، فأنا اعرف أنَّ هذا هو القول الصواب . وطمئنوا بالكم ، يا رجال النيابة ، فلا منى إليكم ولا منكم إليَّ . إنَّ قولى الذى يثير الآن اهتمامكم هو القول الذى توافقون عليه الموافقة القانونية والمنطقية عندما أكتبه أنا ويكتبه غيرى ومن دون أنْ يكتبه أحد .

إن ما هو أعلى وأسمى من صفة الملوكية فى الملك هو وطنيته وهو إنسانيته . فإذا كان الملك ينعطف فيتصرف فى حقه وامتيازاته ، فالإنسان منه يقدر بثقافته وعواطفه العمل الصالح المجدى ، والمصرى يدرك أهمية ذلك العمل وشأنه فى مصلحة وطنه . ويظهر أنَّ جلالة الملك فى موقفه ذاك قد مزج بين شخصياته الثلاث مزجا أنيقا كانت فيه للمصرى الصبغة المتغلبة ؛ فقال فى صدق «ممنون ، يا طلعت باشا !»

ما أجمل كلمتك هذه ، يا صاحب الجلالة فى الإنعام بلقب على طلعت حرب ! ما أجملها وما أحكمها ، وما أدلها على أنَّ الملك الذى ينعم لا ينسى أنه إنسان يقدر ومصرى يشكر ! لكل شعب كلمات موجزة تحيا متألقة فى تاريخه . وكلمتك هذه ستعيش خالدة بين كلمات التاريخ كما سيعيش مؤسس بنك مصر فى التاريخ باسمه المجرد« طلعت حرب » !

والآن كلمة أخرى إلى حضرة صاحبة النوم والراحة والغفلة اللذيذة ، مصلحة التنظيم كلمة لا نفوه بها إلاّ همسا خوفا من أنْ تجفل مصلحتنا العزيزة الغالية من سباتها العميق إجفالا . كلمة هفافة كأنها النسيم يمر مداعبا وجهها المصرى الأسمر !

صحيح أنها أثبتت لنا قبل اليوم أنَّ الصوت الواضح لا يكفى لإيقاظها ! فقد كان لنا القسوة منذ عامين بأن ناديناها بياء المنادى لنسألها من هو «عماد الدين» الذى يدعى باسمه شارع يتوسط العاصمة وهو من أجمل شوارعها ومن أوفرها حركة . ولنقول لها إنَّ هذا الشارع الذى يقوم فيه أول بنك مصري أحق بأن يطلق عليه اسم «بنك مصر» أو اسم الرجل الذى دعا إلى تأسيس بنك مصر . هذا مع الاحترام المبهم الذى علينا أنْ نؤديه إلى صاحبنا عماد الدين المجهول من الناس أجمعين .

أسمعت مصلحة التنظيم هذا النداء؟ إنَّ سكوتها البليغ أنبأنا بأنها مستغرقة فى سبات عميق هنيء . فهل تراها استوفت حاجتها من النوم خلال عامين اثنين؟ وهلا أعارتنا سمعها اليوم؟ وهلا استيقظت لحظة لتنظر إلى ما يجرى فى محيطها ولتتلقى أمثولة من كلمة الملك فؤاد؟

إذا كانت مصلحة التنظيم راقدة عن بكرة أبيها - كما يقول أهل البلاغة - كان ذلك دليلا على أنَّ نومها غير طبيعى وغير صحى فتحتم علينا تنبيه مصلحة الصحة لمعالجتها . أما إذا كان بعض رجالها مستيقظين فقد يسخطون من هذا النداء المتكرر فيقرؤون ووجوههم كأنها وجه طلعت حرب باشا عندما يكون عابسا . . . يا حفيظ !

اعبسوا ، أيها السادة ، واغضبوا كما تشتهون ! ولكن أفيقوا ولو فى دلال كدلال النساء ، ولكن أفيقوا على كل حال وقوموا من هذه الناحية بواجبكم فقد طال الانتظار !

ميّ

---

* الأهرام . س ٥٧ ، ع ١٦٦٦٠ ، ٢٧ إبريل ١٩٢١ . ص ١

١- فؤاد الأول(١٨٦٨ - ١٩٣٦) . هو ابن الخديوي اسماعيل . اعتلى عرش مصر عام ١٩١٧ عقب وفاة أخيه السلطان حسين كامل . كان أول من اتخذ لقب ملك من سلالة محمد علي .

بين تعديل القانونين
موضوع جوهري يتحتم الانتباه إليه
السجن السياسي

نشرت« أهرام » الأمس صورة المذكرة الإيضاحية التي أعدتها وزارة الحقانية بشأن تعديل قانون العقوبات الأهلي فيما يختص بالمطبوعات والصحف .

ولا شك أن الصحافيين الضليعين ورجال القانون سيتناولون هذا التعديل بالبحث والتحميص وإبداء الرأي مما يستنير به أولو الشأن ، الأمر الذي لا بد منه في سن القوانين . إنَّ العصمة لا تكون لإنسان أو لطائفة من الناس ، كائنه مقدرتهم ما كانت . وفي سَنّ قانون يسري على الجميع يستحسن أن يشترك في البحث والإدلاء بالرأي أكبر عدد ممكن من المهتمين بالموضوع ليتسنى سبكه في خير الصيغ الممكنة .

أما الذي يروقه الإيجاز فيستطيع أن يلخص هذا القانون في كلمة واحدة مكررة : «تشديد . تشديد . تشديد» يا لهؤلاء الصحافيين المساكين يخيل لهم حتما فئة «العيال الشقاوة» في البلد !

ولقد نشرت صورة هذا القانون قبل أن نعلم بالضبط ما هي التعديلات التي أدخلت على قانون الصحافة . أجل ، إنَّ الصحف ذكرت بعض التعديلات القاصرة على فريق من الموضوعات التي عولجت ، إلاّ أنَّ هناك فريقا آخر لا بد أنْ ينظر فيه النظرة التي تصون من الناحية الواحدة حقوق الناس عند الناس وتصون حقوق الصحافيين من الناحية الأخرى . وبالجملة لا يمكن الكلام في قانون ما زال قيد معالجة اللجنة المختصة ببحثه وتعديله .

غير أنَّ هذا القانون وذاك يرتكزان على عقوبة ذات نوعين : السجن والغرامة

المالية . فهل تقبل الحكومة من المحكوم عليه مالاً مزيفا؟ لو هو نقدها مثل هذا المال لعرض نفسه لعقوبة جديدة . أما الحكومة فتهيىء للصحفى سجنا مزيفا ليس هو سجنه ولا هو السجن الذى تعده حكومة محترمة للجرائم السياسية والقلمية فى بلادها . وهل الحكومة تعرض نفسها لعقوبة ما بهذا التزييف؟ أجل إنها تغض هي نفسها من كرامتها وكرامة قومها ، وفي ذلك أشد العقاب !

ليس المراد هنا أنَّ الحكومة التى تسن قانونا تسنه للآخرين لأن لا شىء فى الحياة يدوم . فهذه ، على صحتها ، نظرة محدودة ، والتحديد شىء حسن وضروري على شريطة أنْ لا يزعم أنه الكل فى الكل . إن الروح التي تملى على القوانين روح أرحب نظرة ، وأشمل إنسانية ، وأوفر نبلاً ، وعلى كل دولة تحترم نفسها ، وعلى كل صحافة تعرف واجبها ، وعلى كل فرد ذي أثر فعال في الحياة العامة - أنْ يعتنق تلك الروح ويعمل على تحقيقها وإيجادها شيئا فشيئا ويوما بعد يوم في حياة الجمهور .

الواقع أنَّ السجن الصحفي الحاضر لا يليق بالصحافة المصرية ولا ببلاد متيقظة كالبلاد المصرية ، والإسهاب في شرح هذا شيء غير ضروري لأنه معروف لدى الجميع . وقد سمعت من عدة صحافيين أنهم كثيراً ما طالبوا بسجن خاص لهم في أحوال مختلفة في هذه الأعوام الأخيرة ، ففازوا بالوعود دون التحقيق بالفعل .

أما اليوم ونحن في طور تعديل قانون الصحافة وتعديل العقوبات الخاصة بها ، فالسجن السياسي أو الصحفي أصبح جزءاً من هذين القانونين لا يمكن إغفال أمره بوجه من الوجوه . لا يمكن فرض السجن العادي على الصحافيين لأن جريمة القلم -إلا إذا كانت ترمي إلى الحط من الكرامات الشخصية التي لا علاقة لها بالشؤون العامة -لهى جريمة شريفة في حين التزوير والنصب والسرقة وما إليها من الجرائم الأخرى هي على غير ذلك .

وقد يعرض هنا لمن يشاء ، موضوع حالة السجون المصرية ووجوب إصلاحها ونقد الفكرة السائدة فيها التي هي فكرة «التعذيب» ، مع أنَّ هذه الفكرة

قد قضى عليها في البلدان الأخرى في السجون وفي المدارس جميعا ، لأنها لا تتفق مع الطبيعة البشرية ، ولا مع المراد من معنى العقوبة ، ولا مع الغاية من القوانين ، وكثيراً ما تكون «العدالة» في السجون المصرية هي الظلم بعينه للصحفي والمجرم السياسي ، إذ كيف تسوي بين رجل أمي اقتصرت «عقليته» على ثلاثة أو اربعة أفكار لا يتجاوزها طول العمر ، وبين رجل مثقف يعوزه الغذاء الفكري الذي ألفه ، والترهف النسبي الذي لا يأبه له رجل الشارع ، ويتألم من معاملة السجانين أنفسهم وهو الذي اعتاد بين الناس معاملة غير تلك؟ إذا نحن أضفنا كل هذا وما يتفرع عنه إلى معيشة السجن الخاصة ، وجدنا سجن الصحفي مكررا مترادفا وعقوبته متعددة النواحي . أو ليس عجبا أنَّ القانون الذي لا يتكلم إلاّ باسم العدل ولا غاية له إلاّ العدل- يكون هو أداة الجور والظلم؟

***

وبعد ، فإن مصر تعرب في كل فرصة عن رغبتها في رفع وطأة الامتيازات الأجنبية عن كاهلها ، وتفصح عن مضضها من الحيف النازل بها أدبيا واجتماعيا وقوميا من جراء تلك الامتيازات . فكيف ، وقد وصلت إلى هذه المرتبة من الإدراك والإحساس ، تسجل هي بقانونها على نفسها أنَّ النصَّاب واللص وغيرهما من المجرمين الأجانب الذين يبرأ منهم قومهم ، لهم أفضل حتى من أكبر قادة الفكر فيها؟ أو ليست المطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية في مثل هذه الحال وكأنها مناورات أطفال؟

في هذه العجالة موضوعات شتى يستحق كل منها بحثا مشبعا أو سلسلة أبحاث ، غير أنَّ الإشارة إليها تكفي . وكما كنت منذ البدء واثقة من أنَّ قانون الصحافة سيتعدل تعديلا عظيما ، فأنا كذلك اليوم واثقة من أنَّ هذا القانون سيفرد للصحافيين سجنا لائقا بهيئة محترمة في بلاد محترمة- تلك الهيئة التي على رغم زلاتها ، قد خدمت البلاد كثيرا وستخدمها في الغد كثيراً .

***

من الكلمات التاريخية ذات الطنين والدوي ولكنها فارغة جوفاء ، كلمة قالها

الشاه عباس الكبير[1] الذي أتى بكثير من الإصلاحات والنظم ، دون أنْ يقوم بتأسيس مستشفى واحد وعندما سئل في ذلك أجاب :

لا أريد مستشفى في بلاد فارس لأني لا أريد أنْ يمرض الفرس !

وفي ذلك نقول مهما أدخل من التعديل المنتظر على قانون الصحافة ، فذلك التعديل يظل من بعض جهاته فارغا طنانا –ومؤذيا !– ككلمة عباس الكبير شاه الفرس ، إنْ لم يفرد هذا القانون للصحافيين والمجرمين السياسيين سجنا خاصا .

فليعتبر أولو الشأن بذلك وليستخرجوا من هذه الكلمة المغزى المتطابق وهذا الجانب من القانون الذي يعالجون . ولا شك عندئذ في أنهم سيعملون .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٧٢٩ ، ٦ يوليو ١٩٣١ . ص١

١- الشاه عباس الكبير (١٥٧١-١٦٢٩) . شاه ايران (١٥٨٧) . قام بتوسيع رقعة امبراطورية لتشمل أجزاء من العراق . عقد اتفاقية صلح مع الدولة العثمانية وتفرغ لشؤون البناء . نقل عاصمته من قزوين إلى أصفهان عام ١٥٩٣ .

جائزة أتبرع بها

لمجلة "ساترداي ريفيو" الانجليزية

على كلامها عن قانون الصحافة وعن الديمقراطية

افترس جوبتر كبير الآلهة زوجته الأولى (مينيس) أو الفكرة ، فأصيب بصداع شديد واستدعى ولده فولكان إله الحديد والنار ، ليضربه بفأسه على قمة رأسه التماسا للشفاء . فانفلقت الجمجمة الربانية وانبرت منها فتاة جميلة مدججة في السلاح . وكانت تلك «مينرفا» إلاهة الحكمة ورمز التفكير .

أما وزير الداخلية المصري قد ألقى علينا درسا في الانشاء الرمزي برده عن تعديل قانون الصحافة ، فلا حرج علينا في التتلمذ لدولته مرة لتطبيق هذا الرمز الميثولوجي على طائفة من كتابات كتّاب الغرب . معاذ الله أنْ أتهم أحدهم بالتهام زوجته ! إذ المعلوم أنَّ أصدقاءنا أولئك ليسوا من أكلة لحوم البشر بالتقسيط ، وأن شهيتهم للطعام عندما تتنبه لا ترضى بغير البقاع الفسيحة بجبالها ووهادها وسهولها وصحاريها وبحارها وأنهارها وحيوانها ونباتها وطيرها وهوامها .

وعلى إثر ذلك يصابون بصداع جوبتري . . ومعذرة عن ذكر الفأس التي تفلق تلك الأدمغة العظيمة : فأنا حديثة العهد في التتلمذ لهذا النوع من الانشاء الرمزي ولا بد أنْ تكون أغلاطي فيه عديدة وأن تفوتني بطبيعة الحال أشياء منه جوهرية ،على أنَّ ما ينبري من تلك الأدمغة الخلاقة هو مقالات في الشؤون الشرقية ، كل منها مينرفا صغيرة في بابها وخريدة فريدة في نوعها . وكل من هاتيك العرائس والمينرفات مدججة بسلاح ولكن مفلول ورمز لحكمة غير حكيمة .

***

كل يوم نرى في الكتب والصحف من مختلف اللغات كلاما عن شؤون شرقية وأشخاص شرقيين فنعجب من أين جاء أولئك الكتاب بكلامهم البلهواني وتنقلب لهجتهم الجادة إلى أفكه ما تتفكه به ، ويبحثون في السياسة والتاريخ مستخلصين النتائج من مقدماتهم الموافقة لها مرة ، المناقضة لها ألف مرة ، فيضعون في آخر فصولهم نقطة تدل على أنَّ الإشكال قد فض وأن الأمر قد فرغ من بحثه إلى يوم البعث والنشور . وقولي هذا لا ينفي تقديري لذوي الضمائر والبصائر من الكتاب الذين يعرفون ما يقولون وما لا يقولون . ولا يغض من اعترافي بفضل الذين يقدمون للبلاد الشرقية وللغة العربية خدما حسبنا في تعريفها أنَّ نصفها بالخدم العلمية والحيوية .

. . وهكذا أنباتنا تلغرفات «الأهرام» الخصوصية بالأمس أنَّ مجلة «الساترداي ريفيو» الانجليزية شاءت أنْ تبدي رأيها في قانون الصحافة وأن تعرب عن اقتناعها بوجوب «كم الصحافة» . أألنجليز حقا أولئك الذين يكتبون هذه الكلمات في صحفهم؟ أألنجليز هم ومن ابناء أول شعب عرف النظم الدستورية في الغرب وما زال في طليعة الأمم التي تقدر الثقافة وتحث عليها وتكبر معنى الحرية الفكرية؟

لم تكتف المجلة المحترمة بالإعراب عن رأيها وشرح اقتناعها . بل (وهي مجلة غير هزلية) شاءت أنْ ترجع شروحها إلى أصول تاريخية وأن تعززها بفذلكة عن نفسية الشعوب الشرقية لتظهر أنَّ الديمقراطية لهي «من الواردات الغربية الدخلية على الشرق التي كان نصيبها حتى الآن الفشل في أي مكان جربت فيه» .

ولما كنا انحب الإنصاف ونرغب فيه فنعترف بأن المجلة المذكورة لم تأت بذلك من عندياتها ، فطالما وقفنا على مثل هذه الأغلاط عند نفر من كبار الكتاب الغربيين وفي أكبر الصحف الغربية . ولقد أصابت «الساترداي ريفيو» في قولها : «لم يعد هناك أي باعث للدهشة من خلطنا في الشؤون الشرقية» . فهذه الجملة هي الشيء المنطقي الوحيد في مقالها .

خلط في الشؤون الشرقية يقينا - كما يقول الدكتور محجوب ثابت . لأنه إذا كان في تاريخ الشرق شيء دخيل من الواردات الأجنبية فذاك هو النظام الارستقراطي . أما الديمقراطية بالفعل لا بالاسم ، فقد كانت دائما هي الروح السارية في الشرق الأدنى وقد كان دائما تحقيقها محسوسا بمقدار ما يتيسر التحقيق في مثل هذه الأمور .

الديمقراطية كما نفهمها نحن صغار الخلائق ، ترتكز من الوجهة السياسية على الإنابة والتمثيل ، ولقد كان الشرق الإسلامي (نذكر الإسلام لأنه الأكثرية والديمقراطية تركز على الأكثرية) دائما آخذا بالشورى . أما الديمقراطية من الوجهة الاجتماعية فهي فتح السبيل للجميع على السواء ليتمكن كل منهم من إظهار مواهبه واستغلال مميزاته ، وهذه الناحية من الديمقراطية كانت دائما بادية في تاريخ الخلفاء والملوك والعظماء الذين كانوا يفسحون المجال للموهوبين من أي الأديان والعقائد والطوائف كانوا . فيجزلون لهم العطاء ويرفعونهم إلى أعلى المراتب ويهيئون لهم مكانا إلى جانبهم في صدر المجالس . ومن وقائع الديمقراطية التي لا مثيل لها في الغرب المتغني بذكر ديمقراطيته ، أنَّ الملوك كانوا يتزوجون من بنات الشعب الوضيعات والجواري الممتازات بجمالهن أو بمواهب عقلية ونفسية وفنية فيجعلون منهن الملكات السائدات والآمرات الناهيات . فإن لم تكن هذه هي الديمقراطية في صميمها فنود أنْ نعلم أين وكيف الديمقراطية تكون؟

وبالطبع كان هذا النظام مشوبا بكثير من العيوب شأنه في الغرب وفي كل مكان ، لأن الكمال لا يطلب من نظام إنساني أياً كان .

هذه الديمقراطية لم توجد «في شؤون محلية طفيفة على نظام القرية الهندية» . إنَّ تشبيه القرية المصرية أو ما يوازيها بالقرية الهندية ذو مغزى مفكك العرى ولكن النظام الديمقراطي الذي هو «أكثر تعقيداً للديمقراطية المركزية والذي هو في نظر المجلة ، من الواردات الداخلية الغريبة على الشرق» هو هو الذي كان متخللا كل تاريخ الشرق في كيفية شرقية . كما أنَّ كل بلد غربي يكيف

ديمقراطيته على طريقته الخاصة .

لست أقصد أنْ أحبذ هنا النظام الديمقراطي أو أي نظام غيره . كل هذه الاسماء في نظري مرتبكة المعاني ، مشوشة المدلولات ، وقد أصبح معجم الإصطلاحات السياسية رثاً لا تنطبق اسماؤه القديمة على مسمياته في تطورها المرهف ، فضلا عن مرونة هذه الاسماء والمصطلحات التي تعني الشيء وتعني نقيضه وتعني سائر ما بينهما من المتنافرات في آن واحد .

ولتحديد هذه الحقيقة حبذا لو تفضلت «الساترداي ريفيو» فحدثتنا عن الفوارق الديمقراطية الشتيتة في بلد ديمقراطي صميم كانجلترا . إن لوردات انجلترا ذوي الشرف الارستقراطي العريق ديمقراطيون ، وديمقراطيتهم هي أضمن وسيلة للاحتفاظ بارستقراطيتهم في حين تنهار حولهم الارستقراطيات في مختلف الأمم ، الواحد تلو الأخرى . أفليس من فارق بين ديمقراطية اللوردات وديمقراطية المحافظين والأحرار والعمال ومن هم بين بين خلال هؤلاء وأولئك؟ وريثما تتفضل المجلة بالنظر إلى تلك الفوارق -إذا هي تفضلت- نحن نقول لها إنَّ الميزة التي ترتبط بها جميع النزعات الانجليزية فيما بينها هي ميزة حب الثقافة وتقدير المواهب والإعجاب بالرغبة في التحرير الفكري والتوق إلى النور ومحاولة الوصول إليه ، والعمل لتهذيب النفس والاتكال على الذات ، وهل يتأتي شيء من ذلك عن طريق «كم الصحافة»؟

ولو نحن شئنا أنْ نرضي المجلة المحترمة إلى النهاية فسلمنا بأن مصر بلد لا يعرف ما هي الحرية فهل السبيل إلى إيجاد روح الحرية والاهتداء إلى قيود الحرية وإلى نشر الثقافة والعمل على إرهاف المواهب والملكات الصالحة ، والتمهيد للتكوين العقلي والاجتماعي والسياسي -هل السبيل هو «كم الصحافة» . أتشدّ أقمطة الطفل فتحظر عليه محاولة النهوض على قدميه لأنه لا يحسن الاحتفاظ بالتوازن في أعضائه ولا يستطيع المشي المنتظم شأن اليافع؟ أ هو بالعكس يؤخذ باليد ليخطو الخطوة بعد الأخرى لينال قسطه من الاستقلال في الحركة المشروعة؟ ولو شدت أربطة الطفل فحيل دون وقوفه وسيره أفيكون اسم ذلك

حكمة أم يكون اسمه جريمة؟

مقال هذه المجلة متفكك ذائب كذلك النوع من الصوان عندما تصب عليه بعض السوائل الكيميائية . إنها تستحق جائزة على ذلك المقال . وعندي لعب كنت ألهو بها قبل أعوام وما زلت أعود إلى اللهو بها كلما رأيت في الحياة حولي الغباوة حيث لا تجوز الغباوة ، والحذلقة حيث الحذلقة لا تجوز ، فأنا أتبرع لمجلة «الساترداي ريفيو» بأجمل تلك اللعب لتتلهى بها عندما تحفزها الحوافز إلى الكتابة في الشؤون الشرقية .

إننا ننتظر من ذوي الشأن إشارة واحدة حازمة خليقة بالرجال ، فيما يتعلق بتعديل قانون الصحافة . ومقال المجلة الذي يريد أنْ يكون في الظاهر تحبيذا وثناء وهو في الصميم معرفة مجهولة وطعن جارح -لقمين بأن يكون من أقوى البواعث على تعجيل ذلك التعديل في حركة واحدة سريعة حازمة تليق برجال ليسوا عبيدا .

ميّ

الأهرام . ص٥٧ ، ع١٦٧٤٢ ، ١٩يوليو ١٩٤١ . ص١

ولم لا؟؟

المستر هنت أيضاً ينقلب شاعرا

ليصدح بنشيد "تكميم الصحافة" المصرية

في "مجلة ساترداي ريفيو"

يظهر أنَّ مجلة «ساترداي ريفيو» قيثارة مضياف لكل قلم شغوف بالقيود ولقد كنا في حاجة إلى متسع من الوقت لندرك هذا الأمر . وربما كان هذا البطء في الإدراك من ناحيتنا في جملة الأسباب التي تحسبها تلك المجلة وبعض مراسليها موجبة «لتكميم الصحافة في مصر» . على أنَّ هذا البطء في الواقع صادر عن حسن ظننا بحرية الفكر وبمبلغ تقديرها عند كتّاب الانجليز . ونعترف بأن هذا الظن الحسن لم يغض منه ما أسمعتنا إياه تلك المجلة الانجليزية من التغني السقيم بكتم الأنفاس .

عندما يصدر مثل هذا الكلام عن رجال مفروض أنهم مثقفون ومفروض أنهم يفهمون معنى الحرية الفكرية بخاصة لأنهم انجليز - لا يسعنا إلاّ أنْ نذكر حكاية جحا الذي اضطر إلى التخلي عن منزل كان قيماً عليه فترك فيه مسماراً وأخذ يستبيح لنفسه إزعاج الساكنين في أية ساعات النهار والليل بحجة تفقد مسماره العزيز .

والظاهر أنَّ مسمار «الساترداي ريفيو» ومسمار المستر هنت في هذه الأيام هو الفلاح المصري . لقد عشق أولئك الكتّاب جماعة الفلاحين ، وتعهدوا أمام ضميرهم وأمام الله أنْ يأخذوا بناصر الفلاحين ، ونسوا أعمالهم الخصوصية في سبيل العناية بشؤون الفلاحين . ماذا يأكل الفلاحون في مصر ، وماذا يشربون ، وأي الاقمشة يلبسون ، وعلى أية طريقة هم يفكرون ، وفي أية ساعة يستيقظون من نومهم؟ أيقرأ الفلاحون حقيقة؟ إذن فليقدم المستر ريد الدليل على أنَّ الفلاح العادي

يستطيع القراءة ! ولو استطاع الفلاح القراءة فمنذا الذي يثبت أنه أمين على قواعد اللغة؟ أيقرأ الفلاحون فلا يلحنون؟ ألا يتفق لأحدهم أنْ ينصب فاعلا ويرفع مفعولا به؟ إذن لا بد من «تكميم الصحافة» حرصا على قواعد اللغة العربية .

أجل ، لو هم نادوا «بتكتيم الصحافة» لأن الفلاح يلحن لما كانت حجتهم أوهى من حجة وجوب التكميم لأن الفلاح لا يقرأ .

. . . كأنما إحدى طوائف الشعب إن هي لم تقرأ إلا على طريقتها كان ذلك موجبا لحرمان سائر الطوائف الأخرى من التحبير والتعبير والاطلاع ! وكأنما أقدر وسيلة في نشر المعرفة ليست هي حرية الصحافة !

كنا نود أنْ نسأل المستر هنت علام جنابه لا يطالب بكم الصحافة الانجليزية ولو قليلا ما دام إلى اليوم عدد من ابناء وطنه لا يحسنون القراءة والكتابة؟ وخلال الأعوام الطويلة السالفة يوم كان التعليم في انجلترا أقل انتشاراً وكان عدد الأميين أكبر ، أكانت الصحافة الانجليزية أسيرة «التكميم» بمقدار يتوافق وعدد الأميين في بلادها؟

وكنا نود أنْ نسأله ما إذا كانت انجلترا التي تفاخر بحق شاعرها العظيم «ملتين» ، مثلاً ، تفاخر كذلك لأن ذلك الشاعر باع «فردوسه المفقود» بخمسة جنيهات للناشر؟ أم هي تأسف لذلك الحادث وترى فيه دليلاً على الافتقار إلى تقدير الشيء الجميل النفيس؟ وإن فاخرت اليوم أفلا تفاخر بالصحافة التي بلغت من الكفاية والمقدرة ما جعلها إدارة لإذاعة فضل ذلك الأثر البديع في الجمهور وحمله على العناية به وقدره والاستفادة منه في حيز المستطاع؟

أليست الشعوب بادىء ذي بدء تحسب بأقليتها حتى وبأفرادها؟ أوليس الفرد الواحد هو الذي يرسل الصوت شائعا بين الأقلية المستعدة لتفهمه وقبوله وتأييده فيتم بذلك تمهيد السبيل للجماهير؟ وهل «تكميم الصحافة» إلا إيقاف للجماهير حيث هي ، وخنف للأقليات وشل لصوت الفرد؟

فأي ذنب رهيب جنينا ، يا إله الانجليز وغير الانجليز على السواء ، ليرغب المستر هنت وقيثارته الموقوته في القضاء على كل صوت في مصر وعلى كل ركز؟

قلت إنَّ المستر هنت انقلب شاعرا وأزيد أنَّ في نشيده الغنائي عن «تكميم الصحافة» تمر شتى المعاني من «أداة الغيرة» ، إلى «طلب الوظائف» ، إلى «هدم

الحكومات السابقة» ، إلى «إغتيال السر لي ستاك باشا» (هنا أصبح النشيد الغنائي مفجعا) إلى «إثارة المشاغبات العديدة وإضراب الطلبة» .

فما هذه السفسطة !

لقد مر على انجلترا وقت كانت فيه جماعة النساء المجاهدات (Militant Feminists) تقذف القنابل على الرجال الرسميين وعلى الأبنية الأثرية ، وتحاول إضرام النار وتدمير الصروح ، وتثير المشاغبات في الأندية العامة وتضرب عن تناول الطعام في السجون . أفقامت حكومة انجلترا -وكانت وقتئذ من غير حزب العمال- تنسب تلك الفظائع إلى الصحافة؟

هل سنت حكومة انجلترا يومئذ قانونا لتكميم الصحافة» عموما ، أو على الأقل الصحافة المؤيدة لأولئك النسوة والصحافة النسوية الناطقة بلسان أولئك «المجاهدات»؟

للمجرم بقلمه أو بعلمه دوائر بوليسية وقضائية تعنى به . أفلا يرضى المستر هنت بكل ما في قانون العقوبات بمصر من التوسع والإحاطة والشدة؟

وإذا أبى المستر هنت إلاّ أنْ تكون المعرفة مقياسا للتكميم تحتّم إيراد هذه الملاحظة :

لو أراد جنابه أنْ يطلع على ما تعلق به الصحافة المصرية المصرية على مقاله لاحتاج إلى مترجم . ونضرب هنا صفحا عن البحث في مقدرة المترجمين وهل هم متساوون في أمانة التعبير ، أما هؤلاء الكتّاب في مصر ، الذي جاز عليهم التكميم في نظره ، فإن طائفة منهم تقرؤ[1] كتاباته وكتابات غيره من قومه مباشرة دون مترجم ؛ ولو هم شاءوا أنْ يردوا على تلك الكتابات باللغة الانجليزية لاستطاعوا . .

فأي الصحافتين إذن تكون خليقة بالتكميم الذي يطلبه مستر هنت للذين لا يعرفون؟ . . .

ميّ

الأهرام . س٥٧ ، ع١٦٧٥٧ ، ٣ أغسطس ١٩٣١ . ص١

١- المقصود تقرأ .

ملاحق مؤلفات ميّ

١- ابتسامات ودموع Deutsche Liebeتأليف مكس مولر F.Max Muller القاهرة، ١٩١٣ . ط٣، القاهرة : مطبعة المقتطف، ١٩٢٠ . القاهرة : دار الهلال، ١٩٦٤ (سوية مع كتاب ظلمات وأشعة) . بيروت : مؤسسة نوف، ١٩٧٥ .

٢- أزاهير حلم Fleurs de Reve، ترجمة» جميل جبر . بيروت : دار بيروت، ١٩٥٢ (شعرا)

٣- الأعمال الكاملة، ميّ زيادة، تقديم سلمى الحفار الكزبري . مجلدان . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٨٢ . المجلد الأول : باحثة البادية، وردة اليازجي، عائشة تيمور، بين الجزر والمد، المساواة، غاية الحياة، الحب في العذاب . المجلد الثاني : كلمات وإشارات(١)، كلمات وإشارات(٢)، ظلمات وأشعة، سوانح فتاة، ابتسامات ودموع، رجوع الموجة .

٤- باحثة البادية : بحث انتقادي . القاهرة : مطبعة المقتطف، ١٩٢٠ . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (دراسة)

٥- بين الجزر والمد : صفحات في اللغة والأدب والحضارة، (تقديم) سلامة موسى . القاهرة : مطبعة الهلال، ١٩٢٥ . بيروت : دار الأندلس، ١٩٦٣ . (مقالات)

٦- الحب في العذاب، The Refugees، تأليف آرثر كونن دويل Arthur Conan Doyle بيروت، ١٩٢١

٧- رجوع الموجة، Le retour du flot، تأليف برادا Brada . القاهرة، ١٩٢٠ . بيروت مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ .

٨- سوانح فتاة . القاهرة : مطبعة الهلال، ١٩٢٢ . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (مقالات)

٩- الصحائف . القاهرة : المطبعة السلفية، ١٩٢٤ . مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (مقالات)

١٠- ظلمات وأشعة . القاهرة : مطبعة الهلال، ١٩٢٣ . بيروت : دار بيروت، ١٩٥٢ . بيروت : دار الأندلس، ١٩٦٣ (مقالات)

١١- عائشة تيمور : شاعرة الطليعة . القاهرة : دار الهلال، ١٩٥٦ . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (دراسة)

١٢- غاية الحياة . القاهرة : مطبعة المقتطف والمقطم . ١٩٢١ . بيروت مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (محاضرة ألقتها في الجامعة المصرية بطلب من جمعية فتاة مصر، ١٩٢١ .

١٣- كلمات وإشارات . القاهرة : مطبعة الهلال، ١٩٢٢ . بيروت : دار الاندلس، ١٩٦٣ . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (مقالات)

١٤- المساواة . القاهرة : مكتبة الهلال، ١٩٢٢ . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ . (دراسة)

١٥- وردة اليازجي . القاهرة : مطبعة البلاغ، ١٩٦٢ . (محاضرة ألقيت في جمعية الشابات المسيحية في منتصف شهر مايو سنة ١٩٢٤ ونشرت تباعا في مجلة «المقتطف») . بيروت : مؤسسة نوفل، ١٩٧٥ .

ببليوغرافية ميّ

١- «ابتسامات ودموع أو الحب الألماني» . المشرق، س ١٩، ع ١١، ١، تشرين الثاني ١٩٢١ . ص٨٧٢-٨٧٣ .

٢- ابراهيم، إملي : أدبيات لبنانيات . بيروت : دار الريحاني للطباعة والنشر، د . ت . ص ١٣١-١٤٧ .

٣- ابراهيم، إملي فارس : الحركة النسائية اللبنانية . بيروت : دار الثقافة، (١٩٦٦) . ص ١١

٤- أبي فاضل، ربيعة : أنطوان سعادة : الناقد والأديب المهجري . بيروت : مكتب الدراسات العلمية، ١٩٩٢ص ٨٥-٨٦ .

٥- أحمد، مصطفى كمال : «إعادة فتح «ملف مي زيادة» . الثقافة، س ٨، ع ٩٣ . يونيو ١٩٨١ . ص١٠٧-١٠٩ .

٦- «أهم حادث أثر في مجرى حياتي» . الهلال، س ٣٨، ع ٤، فبراير ١٩٣٠ . ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

٧- البقري ، أحمد ماهر محمود : العقاد : الرجل والقلم . الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٧٢ . ص ٢١٥ - ٢٢٥ .

٨- بولص ، متري : «ميّ زيادة : الغربة والاحباط وجبران» . آفاق عربية ، س ١١ ، ع ٢ ، شباط ١٩٨٦ . ص ٨٥ - ٩١ .

٩- «بين الجزر والمد» . المشرق ، س ٢٢ ، ع ٧ . تموز ١٩٢٤ . ص ٥٥٦ .

١٠- البيومي ، محمد رجب : «مراسلات أدبية بين باحثة البادية وميّ» . الهلال ، س ٩٣ . يوليو ١٩٨٥ . ص ٢٤ - ٣١ .

١١- البيومي ، محمد رجب : «ميّ زيادة الخطيبة الأولى في العالم العربي» . الهلال ، س ٩٣ . فبراير ١٩٨٦ . ص ٧٠ - ٧٦ .

١٢- جميل ، جبر : رسائل ميّ ، صفحات وعبرات من أدب ميّ الخالد . بيروت : دار بيروت ، ١٩٥٤ .

١٣- جميل ، جبر : مذكرات مي زيادة . بيروت : دار الريحاني للطباعة والنشر ، د . ت .

١٤- جميل ، جبر : ميّ زيادة . بيروت دار الجمال ، ١٩٥٠ .

١٥- جميل ، جبر : ميّ زيادة في حياتها وأدبها . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٠ .

جميل ، جبر : «حول ما كتبه اللبنانيون في ديار الاغتراب» . المشرق ، س ٦٤ ، ع ٦ . نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٠ . ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

١٧- جميل ، جبر : «ميّ زيادة بعد ربع قرن» . الأديب ، س ٢٦ ، ع ١ ، يناير ١٩٦٧ . ص ٣-٥ .

١٨- جميل ، جبر : «ميّ زيادة في العصفورية» . الحسناء ، ع ٦٧٠ . ٥ يوليو ١٩٧٤ . ص ٦١ - ١٧ .

١٩- جميل ، جبر : «آمي خير تروي حكاية صالون ميّ زيادة» . الحسناء ، ع ١٨١ ، ٢٠ أيلول ١٩٧٤ ص ٦٢ - ٦٣ .

٢٠- جمعة ، محمد لطفي : باحثة البادية والآنسة ميّ . مجلة النهضة النسائية . س ٢ ، ع ٦ . يناير ١٩٢٣ . ص ١٤٥ - ١٤٦ . ع ٧ . فبراير ١٩٢٣ . ص ١٧٣ - ١٨٠ . ع ٨ . مارس ١٩٢٣ . ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٢١- الجندي ، أنور : أدب المرأة العربية ، القصة العربية المعاصرة ، تطور الترجمة . بيروت : مكتبة المعارف . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية (و) دار المعرفة ، د . ت . ص ٨٣ - ٨٤ .

٢٢- الجندي ، أنور : تراجم الاعلام ، أضواء على حياة الأدباء المعاصرين القاهرة ، ١٩٥٥ . ص ٤٠ - ٥٤ .

٢٣- الجندي ، أنور : المحافظة والتجديد في النثر العربي في مائة عام . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٦١ . ص ٤٢٥ - ٤٢٨ .

٢٤- الجندي ، أنور : «أزمة ميّ زيادة» . الآداب ، س ١١ ، ع ١٠ . أكتوبر ١٩٦٣ . ص ١٨ - ٢٠ .

٢٥- حافظ ، عبد السلام هاشم : الرافعي وميّ . القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٤ .

٢٦- حسن ، محمد عبد الغني : حياة مي . القاهرة ، ١٩٤٢ .

٢٧- حسن ، محمد عبد الغني : ميّ أديبة الشرق والعروبة . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٦٤ .

٢٨- حسن ، محمد كامل (المحامي) : سطور مع العظيمات . بيروت : دار البحوث العلمية ، ١٩٦٩ .

٢٩- حسين ، طه : المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، م١ ، ط٢ : الايام ج ٣ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٤ . ص ٤٣٠ - ٤٣٥ .

٣٠- حسيني ، أسعد : «الآنسة ميّ زيادة وأثرها في النهضة الفكرية الحديثة» . الثقافة ، س١ ، ع٢٦ . ٢٧ يونيو ١٩٣٩ . ص ١٨ - ٢٢ .

٣١- حكيم ، راضي : «أطياف من حياة ميّ : طاهرة الطناحي» . الاديب ، س ٣٣ ، ع١٢ ، ديسمبر ١٩٧٤ . ص

٤١ - ٤٤ .
٣٢- حمادة ، حسين عمر : أحاديث عن ميّ زيادة وأسرار غير متداولة من حياتها . دمشق : دار قتيبة ، ١٩٨٢ .
٣٣- خزافة ، ايلين ديب : «رسائل الحب الضائع بين ميّ وجبران» . الأنوار ، س ٣٦ ع ١٢١٤٣ ، ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٥ . ص ٢٢ .
٣٤- الخطيب ، حنيفة : تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان وارتباطها بالعالم العربي ١٨٠٠- ١٩٧٥ . بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٤ . ص ٧٤ - ٨٥ .
٣٥- خفاجي ، محمد عبد المنعم : قصة الأدب المعاصر في مصر الحديثة . القاهرة : المطبعة المنيرية بالأزهر ، ١٩٥٦ .
٣٦ - خفاجي ، محمد عبدالمنعم : «ميّ أديبة العصر» . الهلال ، س٩٣ . فبراير ١٩٨٦ . ص ٧٨ - ٨١ .
٣٧- داغر ، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه ج٣ ، الراحلون (١٨٠٠ - ١٩٧٢) . بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢ ص ٤٣٥ - ٤٤١ .
٣٨- داية ، جان : «مؤامرة عائلية استغلت احزانها للاستيلاء على ثروتها : ميّ زيادة حرفة الأدب وتهمة الجنون» . الشرق الأوسط ، س ١٧ ، ع ٥٩٥٠ ، ١٤ مارس ١٩٩٥ . ص ١٥ .
٣٩- «ذكرى ميّ» (مقتطفات من كلمات هدى هانم شعراوي ، حسين هيكل ، مصطفى عبدالرازق ، منصور فهمي ، طه حسين ، عزيزة عباس عصفور ، خليل مطران ، شبلي شميل ، بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة ميّ) . الأديب ، س١ ، ع١ كانون الثاني ١٩٤٢ . ص ٣٣ - ٤٠ .
٤٠- رضوان ، فتحي : عصر ورجال . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧ . ص ٣٢٩ - ٣٦٨ .
٤١- ريّان ، أمين : «ميّ : حياتها وصالونها وأدبها ، تأليف وديع فلسطين» . الثقافة ، س١ ، ع ١١٠ . نوفمبر ١٩٨٢ . ص ١٣٥ - ١٣٦ .
٤٢- الريحاني ، أمين : قصتي مع ميّ . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ .
٤٣- الريحاني ، أمين : «قصة ميّ ، اعتراف واستغفار» . الحسناء ، ع ٥٦١ . ٢٦ أيار ، ١٩٧٢ . ص ٢٦ - ٢٨ .
٤٤- الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين .
٤٥- «زعيمات في ميادين الفكر والاجتماع» . الهلال ، س ٦٣ ، ع١ . يناير ١٩٥٥ . ص ٧٩ .
٤٦- الزيات ، أحمد حسن : وحي الرسالة . م٢ . القاهرة : مطبعة الرسالة ، ١٩٤٤ . ص ٣٠٨ - ٣١١ .
٤٧ - الزيّات ، أحمد حسن : «بعض الكلام في «ميّ» بمناسبة الأربعين» .
الرسالة ، س ٩ ، ع ٤٤٠ ، ٨ ديسمبر ١٩٤١ . ص ١٤٧٣ ـ ١٤٨٤ .
٤٨- الزيات ، أحمدحسن : «محنة الآنسة ميّ» . الرسالة ، س ٦ ، ع ٢٤٣ . ٢٨ فبراير ١٩٣٨ . ص ٣٢١ - ٣٢٢ .
٤٩- زيدان ، جوزيف : مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث . جدة : النادي الادبي الثقافي ، ١٩٨٦ . ص ١٢٠ - ١٢٦ .
٥٠- س . (سلامة موسى؟) : «حديث مع الآنسة ميّ» . الهلال ، س ٣٦ ، ع ٦ . إبريل ١٩٢٨ . ص ٦٥٨ - ٦٦٦ .
٥١- السبكي ، آمال كامل السبكي : الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ . ١٩٠ - ١٩٣ .
٥٢- سعادة ، أنطون : الآثار الكاملة ، م١ . أدب . بيروت ، ١٩٦٠ . ص ١٨١ - ١٩٦ .
٥٣- سعد ، أمل داعوق : فن المراسلة عند ميّ زيادة . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٢ .
٥٤- سعد ، فاروق : باقات من حدائق مي ، ط١ ، بيروت : منشورات زهير بعلبكي ، ١٩٧٣ . ط٣ ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٣ .

٥٥- سعد ، فاروق : «ميّ عاشقة ومعشوقة» . الهلال ، س ٨١ ، ع ٦ ، يونية ١٩٧٣ . ص ٥٠- ٥٩ .

٥٦- سكاكيني ، وداد : ميّ زيادة في حياتها وآثارها . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ .

٥٧- سكاكيني ، وداد(و) توفيق ، تماضر : نساء شهيرات من الشرق والغرب . القاهرة : داراحياءالكتب العربية ، ١٩٥٩ . ص ١١- ٢٣ .

٥٨- سكاكيني ، وداد : «الانسانية في أدب ميّ» . الأديب ، س ٢٦ ، ع٢ . فبراير ١٩٦٧ . ص١٢- ١٣ .

٥٩- سكاكيني ، وداد : «ظلمات ميّ وأشعتها» . المعرفة ، س٢٩ ، ع٣٢٢- ٣٢٣ . يوليو[و] أغسطس ١٩٩٠ . ٢١٣-٢١٧ .

٦٠- السمان ، غادة : «من قتل مي؟» . الحوادث ، ٧نوفمبر ١٩٨٦ . ص٨٦ .

٦١-السمان ، غادة : «أبحث عن فارس أحلام أدبي» . الحوادث ، ٢٤فبراير ١٩٩٥ . ص٧٨ .

٦٢- ش ، ل .(لويس شيخو) : «باحثة البادية» . المشرق . س ١٨ ، ع ٩ . أيلول ١٩٢٠ . ص ٧١٦- ٧١٧ .

٦٣-الشاروني ، يوسف (اعداد وتقديم) :الليلة الثانية بعد الألف ، مختارات من القصة النسائية في مصر . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ . ص ٢٤٥- ٢٤٧ .

٦٤- شراره ، عبد اللطيف : مي زيادة . بيروت : دار صادر للطباعة والنشر (و) دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ (أدباؤنا ، ١) .

٦٥- شرف الدين ، صدر الدين : «في مشكلة مي» . الآداب ، س ١ ، ع ٥ . مايو ١٩٥٣ . ص ٧٧- ٧٨ .

٦٦- الشرقاوي ، محمود : إبراهيم ناجي الشاعر والانسان . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ت . ص ١٩٠ - ٢٤١ .

٦٧- الشناوي ، كامل : الذين أحبوا ميّ وأبريت جميلة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٢ .

٦٨- صايغ ، سلمى : النسمات ، جمع جرجي نقولا باز . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، د . ت ص ١١٨ - ١٢٢ ، ١٦٥ - ١٧٢ .

٦٩- «الصحائف» بقلم ميّ . المقتطف ، م ٦٤ ، ٤ ، ابريل ١٩٢٤ . ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

٧٠- ضومط . جبر : «كتاب باحثة البادية» . المقتطف ، م ٥٧ ، ج ٦ ، ديسمبر ١٩٢٠ . ٥٠٠ - ٥٠٢ .

٧١- الطماوي ، أحمد حسين : «غرام مي وجبران بين الحقيقة والخيال» . الهلال ، س ٩٣ . فبراير . ص ٨٤ - ٩٠ .

٧٢- الطناحي ، طاهر : أطياف من حياة ميّ . القاهرة : دار الهلال ، ١٩٧٤ .

٧٣- الطناحي ، طاهر : «أديبان في غرام ميّ» . الهلال ، س ٧٠ ، ع ٤ . إبريل ١٩٦٢ . ص ١٢٠ - ١٢٥ .

٧٤- الطناحي ، طاهر : «أطياف من حياة ميّ» . الهلال ، س ٦٧ ، ع ٣ . مارس ١٩٥٩ . ص ٩٦ - ١٠٣ .

٧٥- الطناحي ، طاهر : «غرام ميّ وجبران» . الهلال ، س ٧٠ ، ع ٩ . سبتمبر ١٩٦٢ ص ١٥٤ - ١٦٠ .

٧٦- الطناحي ، طاهر : «غرام لطفي السيد» . الهلال ، س ٧٠ ، ع ٧ . يناير ١٩٦٢ . ص ١٥ - ٢٢ .

٧٧- الطناحي ، طاهر : «قصة غرام مي وجبران» . الهلال ، س ٧٠ ، ع ٥ مايو ١٩٦٢ . ١١٤ - ١١٧ .

٧٨- الطناحي ، طاهر : «قصة غرام مي وجبران خليل جبران» . الهلال ، س ٧٠ ، ع ٨ . أغسطس ١٩٦٢ . ص ٢٩ - ٣٣ .

٧٩- طوبي ، أسمى : عبير ومجد . بيروت : مطبعة قلفاط ، ١٩٦٦ . ص٢١٨- ٢١٩ .

٨٠- عبد الرحمن ، محمد صادق : «أبلتي ميّ» . مجلة النهضة النسائية . س٣ ، ع٢ . سبتمبر ١٩٢٣ . ص٥٤ .

٨١- عبود ، مارون : جدد وقدماء ، دراسات ونقد ومناقشات ، ط٢ . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٣ . ١٤٣- ١٦٠ .

٨٢- العقّاد ، عامر : لمحات من حياة العقاد المجهولة . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٨ . ١٨٥- ٢٣٠ .

٨٣- العقّاد ، عباس محمود : رجال عرفتهم القاهرة : دار الهلال ١٩٦٣ . ص ٢٠٧- ٢٢٢ .

٨٤- العقّاد ، عباس محمود : مطالعات في الكتب والحياة ، ط٢ . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٦ . ص ٣١١-٣٢٣ .

٨٥- العقيقي ، نجيب : من الأدب المقارن ،ج٢ ، ط٣ . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ . ٢٦٣-٢٦٥ .

٨٦- عواد ، سيمون : من أدب مي زيادة . دار عواد للطباعة والنشر ، ١٩٨١ .

٨٧- عوني ، جهان غزاوي : «ميّ المتهمة ، حول كتاب «ميّ زيادة في حياتها المضطربة» . بقلم جميل ،جبر . الآداب ، س٣ ، ع٦ . يونيو ١٩٥٥ . ص٣٢-٣٥ .

٨٨- غريب ،جورج : دراسات أدبية . بيروت : دار الثقافة ، د . ت . ص ١١٩- ١٢٢ .

٨٩- غريب ، روز : ميّ زيادة ، التوهج والأفول . حياتها ، شخصيتها ، أدبها ، فنها . بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٧٨ .

٩٠- غريب ، روز : نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر . بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ . ص٣٩- ٤٨ .

٩١- الفاخوري ، عيسى :تاريخ الأدب العربي ، ط٦ . بيروت : المكتبة البوليسية ، د .ت . ص ١١٠٩- ١١١٠ .

٩٢- فتوح ، عيسى : «ميّ زيادة التوهج والأفول» . المعرفة ، س٣١ ، ع ٣٤٥ ، يونيو ١٩٩٢ . ص ١٤١-١٥٧ .

٩٣- فتوح ، عيسى : أديبات عربيات : سير ودراسات . دمشق : جمعية الندوة الثقافية النسائية ، ١٩٩٤ . ص١٦٩- ١٨٤ .

٩٤- فريد ، أماني : «الصالونات الأدبية النسائية في مصر» . الهلال ، س ٨٧ . مايو ١٩٧٩ . ص١١٦- ١١٩ .

٩٥- فلسطين ، وديع : «حديث مستطرد عن ميّ وعطرها» . الأديب ، س٣٣ ،ع ٩ . سبتمبر ١٩٧٤ . ص١٢- ١٥ .

٩٦- فهمي ، منصور : محاضرات عن ميّ زيادة مع رائدات النهضة النسائية الحديثة . القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٥ .

٩٧- فوزي ، محمود : أدب الأظافر الطويلة . القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٨٧ . ص٤١- ٤٥ .

٩٨- القوال ، أنطوان(إعداد) : ميّ زيادة : نصوص خارج المجموعة . بيروت : دار أمواج للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ .

٩٩- كحالة ، عمر كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام» ج ٥ ، ط ٣ . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٧ . ٥- ٨ ، ص ٣٣٠- ٣٣٣ .

١٠٠- كرم ، عفيفة : «أثر المرأة فوق ضريح المرأة» . المقتطف ، م٥٨ ، ج ٣ ، مارس ١٩٢١ . ص ٢٦٥- ٢٦٩ .

١٠١- كرم ، فؤاد : «حول«ميّ المتهمة»» . الآداب ، س٣ ، ع٧ . يوليو ١٩٥٥ . ص٧٦- ٧٧ .

١٠٢- الكزبري ، سلمى الحفار(و) بشروئي ، سهيل(جمع) : الشعلة الزرقاء . دمشق : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٩ . ط ٢ ، بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٨٤ .

١٠٣- الكزبري ، سلمى الحفار (جمع ، تقديم ، تحقيق) : ميّ زيادة وأعلام عصرها ، رسائل مخطوطة لم تنشر (١٩١٢-١٩٤٠) . بيروت مؤسسة نوفل ، ١٩٨٢ .

١٠٤- الكزبري ، سلمى الحفار : ميّ زيادة أو مأساة النبوغ . جزآن . بيروت مؤسسة نوفل ، ١٩٨٧ .

١٠٥- الكزبري ، سلمى الحفار : «أثر ميّ زيادة الثائرة في النهضة العربية» . الفكر العربي ، س ٢ ، ع ١٧- ١٨ . أيلول[و] كانون الثاني ١٩٨٠ . ص ٢٠٤- ٢١٢ .

١٠٦- «كلمات وإشارات» . المشرق ، س ٢٠ ، ع ٢ . شباط ١٩٢٢ . ١٥٣- ١٥٤ .

١٠٧- محمد ، فتحية : بلاغة النساء في القرن العشرين ، ق ٢ . القاهرة : حسين حسنين ، د . ت . ص ١١٣- ١٣٠ .

١٠٨- محمود ، حافظ : عمالقة الصحافة . القاهرة : دار الهلال ، ١٩٧٤ . ص ١١٢- ١٢٢ .

١٠٩- مخلوف ، حسنين حسن : «هذه هي ميّ الأديبة التي شغلت الفلاسفة والأدباء والشعراء العرب» . العربي ،

ع۲۲۷ .أكتوبر ۱۹۷۷ .ص٤٨ -٥٠ .

١١٠- مردم ، خليل : «ميّ» . مجلة المجمع العلمي ، س٣٥ ، ع١ . كانون الثاني ١٩٦٠ . ص١٥٠-١٥٣ .

١١١- المسيري ، عبد المعطي : من معالم الطريق في الأدب العربي الحديث . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٧٢ . ١٣٥-١٤٧ .

١١٢- المشيني ، سليمان : «ميّ أديبة العروبة» . الكاتب الأردني ، ع٨ ، كانون الثاني ١٩٩٣ . ٣١-٣٢

١١٣- مطران ، خليل : «كتاب «كلمات وإشارات»» ، الهلال ، ص٣٠ ، ع٥ . فبراير ١٩٢٢ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

١١٤- المعداوي ، أنور «مشكلة العلاقة بين جبران وميّ» . الآداب ، س١ ، ع٤ . إبريل ١٩٥٣ ، ص٣-٨ .

١١٥- المقدسي ، انيس الخوري : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة . بيروت (١٩٦٣) . ص٤٦٨-٤٨٤

١٦- مكي ، الطاهر أحمد : «المصادر الأجنبية لأدب ميّ» . الهلال ، س٩٣ . فبراير ١٩٨٦ . ص٩١-٩٩

١١٧- موسى ، رؤوف سلامة (إشراف) : ميّ ، حياتها وصالونها وأدبها ، مراجعة وديع فلسطين . القاهرة (و) الاسكندرية : دار ومطابع المستقبل ، د .ت .

١١٨- نجم ، خريستو : المرأة في حياة جبران» . الحازمية (لبنان) : دار الرائد اللبناني ، ١٩٨٥ . ص١٤٥-١٧٧

١١٩- نشأت ، كمال : مصطفى صادق الرافعي ، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص٣٩-٤٤

١٢٠- نصر الله ، أملي : نساء رائدات من الشرق والغرب ،» ١ . بيروت : مؤسسة نوفل ١٩٨٦ ، ص١٩٥-٢٠٢

١٢١- نويهض ، ناديا الجردي : نساء من بلادي . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦ . ص١٣١-١٣٧ .

١٢٢- «الهلال وميّ» : عطاء متبادل» . الهلال ، ص٩٣ . فبراير ١٩٨٦ . ص١٠٠-١٠١

١٢٣- الوكيل ، العوضي : مطالعات وذكريات ، أدب وتاريخ . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ . ٥-١٢

١٢٤- يزبك ، رشيد : «أنوثة ميّ» ، الآداب ، ص١ ، ع٥ ، مايو١٩٥٤ ، ص٧٩

١٣٥- يوسف ، نقولا : «أديبات عربيات كتبن بالفرنسية» الأديب ، س٢١ ، ع١ ، يناير١٩٦٣ . ص٥-٦

126 - Arnett, M.F., "Marie Ziyada" MEA 8 (1957), pp. 288-294.
127- Bushrui, Suheil Budi, "The Writing of Marie Ziyada, "Azure 3 (1979),pp.29-31.
128- Bushrui, Suheil B. and al-Kuzbari, Salma H. (eds and trans.), Blue Flame: The Love Letters of Kahlil Gibran to May Ziyada. London: Longman House, 1983.
129- Hadad, Haroun, "Les amours de Marie Ziyada: Edute suivie d'un Guide bibliographique Succint etabli selon les subjects, "Atti 3. Cong. studi arabi eislamici, Ravello 1966 (publ. 1967), pp. 373-384.
130- Khemiri, Taher and Kampffmeyer, George, Leaders in Contemporary Arabic Literature. Leipzig, 1930, pp. 24-27
131- Al-Kuzbari, Salma H.Y Bushrui, Suheil, (edd.), Llama Azul: Cartas in Editas a Mayy Ziyada (por) Yubran Jalil Yubran, traduccion de C.Ruis Bravo, Madrid: Instituto Hispano - Arabe de Cultura, 1978.
132- Moreh, S. "Mayy Ziada," in The Encyclopaedia of Islam. New Edition. Leiden: E.J. Brill, 1991. pp. 927-28
133- Zeidan, Joseph T.Arab Women Novelists: The Formative Years and Beyond. Albany: State University of New York Press, 1995. pp. 53-55. 74-77.

الفهرس





هذا الكتاب

أكثر من مائة عمل بين مقال ومحاضرة وخاطرة وقصيدة للأديبة الراحلة مي زيادة قام الباحث الدكتور جوزيف زيدان بجمعها وتحقيقها من سبع دوريات عربية ، ولم يتم نشرها من قبل في كتاب ، بالإضافة إلى مقدمة تدرس حياة مي وسيرتها وأعمالها الأدبية .

تقول الأديبة غادة السمان في تقديمها للكتاب :

«جميل أن تجد الشامية المصرية مي زيادة الملاذ في حمى الإمارات ، وأن ينشر المجمع الثقافي بالذات أعمالها المجهولة التي جمعها الأستاذ الجامعي الدكتور جوزيف زيدان من أرشيفات صحف العشرينات والثلاثينات ، فإلى جانب القيمة الأدبية لهذا الكشف وأهميته يبقى لهذا النشر مدلوله القومي الجميل» .



المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ص . ب . ٢٣٨٠ - ابوظبي - الامارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION